دائرة الخوف

العلويون السوريون في الحرب والسلم

CYCLE OF FEAR

SYRIA'S ALAWITES IN WAR AND PEACE



ليون ت. غولدسميث

LEON T. GOLDSMITH

ليون ت. غولدسميث

دائرة الخوف

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

دائرة الخوف

العلَويون السوريون في الحرب والسلم

ليون ت. غولدسميث

ظلّ العَلَويون مِنْ أكثر الأقليات الدينية تعرضاً للاضطهاد في الشرق الأوسط لمئات السنين، ولذلك شكّل صعود رجل عَلَوي اسمه حافظ الأسد، واستلامه منصب رئيس الجمهورية العربية السورية سنة 1971 إنجازاً هاماً. شكّلت الطائفة العلوية السورية قاعدةً شعبية أساسية اعتمد عليها حافظ الأسد في دعم الحكم الذي وَرِثه ابنه بشار مِنْ بعده سنة 2000. وبسبب هذا الدعم أُطلِقَتْ على العَلَويين صفة الطائفة «المُستبدة» أو «الحاكمة» في سورية. رغم أنّ هذه الصفات لا تنطبق على ظروف حياة كثير مِنَ العَلَويين السوريين، التي ظلّت متخلفة اجتماعياً واقتصادياً، بل وخضعوا لكثير مِنَ الضغط لكبْت معتقداتهم الدينية خلال حكْم الأسد. فلماذا استمر العَلَويون في دعم حكم عائلة الأسد؟

باستخدام منهج الاستقراء المنطقي النوعي الذي استند إلى العمل الواقعي في الميدان، وإلى المقابلات، وتحليل المصادر المباشرة وغير المباشرة، دَرَسَ هذا البحث تطور وطبيعة السياسة العَلَوية. كما استُخدم مبدأ ابن خلدون في «العصبية» (شعور الجماعة) كإطارٍ عام في دراسة العوامل الأساسية التي يمكن أنْ تُفسِّر دعم العَلَويِّين لحكْم عائلة الأسد. تَستنتج هذه الدراسة أنّ خوف الطائفة هو العامل الأساسي في السياسة التي اتبعها العلويون في استمرار دعمهم لحكم عائلة الأسد. لمْ يَذكر ابن خلدون هذا العامل في نظريته عن صعود وانهيار الأسر الحاكمة. وفي النهاية تُبيّن حالة العَلَويين السوريين آثار سياسة «الخوف الطائفي وعدم الاطمئنان» التي قد تتبعها الأقليات، والتي يمكن أنْ تُعيق ظهور التعددية السياسية الحقيقية في الشرق الأوسط.







الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN 978-614-01-1797-6
9 786140 117976

facebook.com/ASPArabic | twitter.com/ASPArabic |  www.aspbooks.com | asparabic

دائرة الخوف

العَلَويون السوريون في الحرب والسلم

CYCLE OF FEAR

SYRIA'S ALAWITES IN WAR AND PEACE

ليون ت. غولدسميث

LEON T. GOLDSMITH

ترجمة

د. عامر شيخوني

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

كان هذا الكتاب في الأصل رسالة دكتوراه تقدّم بها

ليون ت. غولدسميث Leon T. Goldsmith

إلى جامعة أوتاغو University of Otago

خلال العام 2015



الطبعة الأولى: 1437 هـ - 2016 م

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

CYCLE OF FEAR

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلف

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

ردمك 978-614-01-1797-6



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

"هناك مشاكل في سورية هذه الأيام لأنّ الشعب يريد الحياة"

نحن كلنا سوريون

إلى أصدقائي الأعزاء في سورية

وإلى **S.K.G.**

المحتويات

لائحة الجداول

لائحة الأشكال التوضيحية

مقدمة المترجم

لماذا قمتُ بترجمة هذا البحث؟

كتب **برتراند رسل**: *"في غمار فوضى العصبيات المتصارعة، يظل الالتزام بالحقيقة العلمية أحد قوى التوحيد والتآلف القليلة، وأقصد بذلك أنْ نعتاد على ترسيخ آرائنا ومعتقداتنا بالاستناد إلى الملاحظات والاستنتاجات الحايدة والمجردة عن التحيز للأمور المحلية والمزاجية بقدر ما هو ممكن للبشر... ولكي نتوصل إلى تقليل التعصب وزيادة القدرة على التعاطف والتفاهم المتبادل، يجب أنْ تمتد هذه العادة في تحري الحقيقة والصواب مِنْ ممارستها في منهج الفلسفة إلى كافة جوانب النشاط البشري"*.

في غمار كل الفوضى والدمار الذي يَشمل سورية الغالية هذه الأيام، نحتاج إلى مثل هذه الكلمات الحكيمة. نحتاج إليها لتساعدنا على الرؤية الواضحة رغم الظلام الذي ينشره غبار الحرب، وسنحتاج إليها أكثر بعد أنْ تضع الحرب أوزارها، لتساعدنا على التئام الجراح، وعلى تجاوز الرغبة في الانتقام التي يمكن أنْ تزيد الحرق والقتل والدمار. سألتُ نفسي عن الأسباب التي أودتْ بوطننا العزيز في دوامة العنف والقتل والانفعال، وهل سنستطيع تجاوز النعرات الطائفية وشحنات الغضب والانتقام التي تعصف ببلادنا؟ فما أنْ نتخلص مِنْ نير الاستبداد، حتى نسقط في هوة الاقتتال الطائفي والحرب الأهلية؟ وكيف يمكن أنْ نتجاوز ذلك بنجاح؟

جاءني الجواب في كلمات فيلسوف السلام **برتراند رسل**: الالتزام بالحقيقة الموضوعية، وتحري الحقيقة في محاولة فهم الآخرين، كل الآخرين، بمحبةٍ وتعاطفٍ وتفاهم.

أرسَلَ لي صديقي الدكتور **نبيل عسه** أطروحةَ دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة أوتاغو في نيوزيلندا، كَتَبَها الباحث **ليون ت. غولدسميث** Leon T. Goldsmith عن العلويين في سورية! أُعجبتُ كثيراً بأسلوبه العلمي الموضوعي، والرؤية المحايدة التي قدَّمَها في دراسته. بَحَثَ في الأطروحة عن تاريخ العَلَويين مِنْ وجهة نظرٍ سياسية وفق نظريات **ابن خلدون** في عِلم الاجتماع، وتابَعَ تطور العصبية لديهم. مِنْ خلال تاريخهم، حاولَ فهم وتفسير علاقتهم بحُكم عائلة **الأسد** في سورية. واعتقَدَ أنّ عصبية العَلَويين سَمَحَتْ بتأسيس وترسيخ واستمرار حكْم عائلة الأسد. ولاحَظَ المؤلفُ أنّ أغلبَ العوامل التي وَصَفَها **ابن خلدون** في مرحلة ضعف العصبية كانت موجودة في العقد الأول مِنْ حكم **بشار الأسد، وأنّ** عصبية العَلَويين يجب أنْ تبدأ بالضعف، إلا أنّ ذلك لَمْ يحدث! يعتقِدُ المؤلفُ أنّ الخوف الطائفي (خوف الأقليات) قد مَنَعَ حدوث أي ضعف حقيقي في دعم وتأييد العَلَويين للنظام. ولذلك طَرَحَ في بحثه تعديلاً لنظرية **ابن خلدون**، وأضاف إليها فكرة "الخوف الطائفي" كعاملٍ هام في المحافظة على عصبية الجماعة. ويبدو أنّ النظام قد نجح في اقناع العَلَويين وفي توكيد مخاوفهم مِنْ انتقام الأكثرية السنّيّة، مما دفعهم إلى التماسك في دعم حُكم **الأسد** وكأنهم في معركة حياة أو موت.

ربما يعتقد بعضنا أنّ هذه فكرة تبسيطية تَختزل وضعاً معقداً ومركباً في سورية. فقد اختلطت الصراعات الداخلية الطائفية والعرقية والسياسية، بعوامل إقليمية مؤثرة، مثل الصراع الإيراني-الخليجي، والصراع الإيراني-التركي، والصراع العربي-الإسرائيلي... وزادت الصراعات الدولية في تعقيد الموقف السوري وصعوبة دراسته وتفهمه. إلا أنني رأيتُ في هذا البحث ما يمكن أنْ يفيدنا نحن السوريين في هذه المرحلة الحرجة مِنْ تاريخنا، عسى أنْ يساعدنا في التوصل إلى مزيد مِنَ التفاهم مع بعضنا بعضاً، وأنْ نتجاوز بهذا الفهم بعض آثار المأساة التي يمر بها أهلنا في الوطن بكافة فئاتهم وطوائفهم وأقلياتهم وأكثريتهم. وقد شجَّعَني على ذلك ما وَرَدَ فيها على لسان الشيخ العَلَوي **علي بيرال** في أنطاكية حيث قال:

"الصراع في سورية ليس بين الطوائف، ولكنّ الشعب يريد الحرية والعيش الأفضل. ونحن العَلَويون نتضرع إلى الرحمن الرحيم ألّا يكون هناك خطر لا على العَلَويين ولا على السنّة... وندعو الله أنْ يتجه الشعب العربي نحو الحرية والديموقراطية، دون أنْ يقتل بعضهم بعضاً، ودون اللجوء إلى سفك الدماء. هناك حاجة إلى التقارب والحوار والتفاهم والمناقشة، وليس الاقتتال وسوء الفهم".

وقال أيضاً:

"تفيد الديموقراطية كل الناس، وهذا يعني أنها تفيد العَلَويين والسنّيّين والمسيحيين واليهود... إذ يستطيعون التعبير عن أنفسهم، فيقولون مثلاً: أنا لا أؤيد سياسة بشار الأسد، إلا أنني لن أخون أمتي، ولن أهاجم، ولن أقتل. قد تكون لديّ وجهة نظر مختلفة، وتستطيع أنتَ أيضاً أنْ تحمل وجهة نظر أخرى".

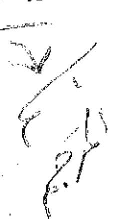
حافظتُ على دقة الترجمة للنص الأصلي رغم اختلاف وجهة نظري مع بعض ما ورد فيه، خاصة فيما يتعلق باحتمال وجود بعض التحيز والنظرة الاستشراقية في المصادر التي استنَد إليها الكاتب، واكتفيتُ بوضع بعض التوضيحات البسيطة والنصوص الأصلية بين قوسين مستقيمين [ ]. تأخَّر طبع النسخة الإنكليزية من الكتاب فأضاف الكاتب بعض الملاحظات لكي يتماشى النص مع بعض تطورات ونتائج المأساة في سورية، وقد قمتُ بترجمة هذه الإضافات وضمِّها إلى النسخة العربية كما وَرَدَتْ. كما أضاف المؤلفُ ملحقاً وبعض التصليحات التاريخية التي اقترحها بعض أصدقائه من العَلَويين السوريين، وأُضيف هذا الملحق إلى نهاية الكتاب.

تمّت الترجمة أساساً عن النص الأصلي لأطروحة الدكتوراة، وقد تمّ تغيير النص الإنكليزي حسب نصيحة الناشر وموافقة المؤلف بحيث نُشِر الكتاب للقارئ العام. فبالإضافة إلى تغيير العنوان، تمّ تغيير مقدمة الباحث، وحذف الفصل الأول الذي يشرح منهج الدراسة، كما حذف الفصل الثاني الذي يناقش نظرية **ابن خلدون** وتطبيقها على السياسات التي اتبعها العلويون في سورية. ولكنْ في النسخة العربية فضَّل المؤلف المحافظةَ على النص العلمي الأكاديمي كما ورد في أطروحته الأصلية لكي يُصبح الكتابُ مرجعاً علمياً لمن يريد البحث في هذا الموضوع باللغة العربية.

أتقدَّم بالشكر الجزيل للباحث **محمد جمال باروت** على مراجعته الدقيقة للنص، وعلى ملاحظاته اللغوية والتاريخية القيّمة.

قمتُ بهذه الترجمة آملاً في تأكيد رسالة المحبة والتعاطف والسلام التي أعتقد أننا جميعاً في أَمَسِّ الحاجة إليها هذه الأيام. يجب أنْ تزول المخاوف والأوهام والرغبة في الانتقام، وأنْ ندعو الله تعالى معاً كي يمدَّنا بالقدرة على الغفران، وأنْ نَسير معاً لصنع مستقبل أفضل، تسود فيه روح التعاون والتآلف والمحبة والفهم والاحترام المتبادل.

د. عامر شيخوني



كلمة شكر

بدأتُ هذه الدراسة في سنة 2007 حينما كنت طالباً يتخصص في قسم الدراسات السياسية في **جامعة أوغاتو** في نيوزيلندا. حاولتُ على مدى أربع سنوات دراسة وفهمَ جماعةٍ مِنْ أقلّ الطوائف وضوحاً في العالَم، ونظامٍ لا يقل عنها غموضاً، وكانت نتيجة ذلك البحث هي تأليف هذا الكتاب الذي آملُ أنْ يضفي قليلاً مِنَ الضوء والوضوح الذي نحتاج إليه في فهم هذا الموضوع. وكان مِنْ دواعي سروري أنْ أتعرَّف أكثر على الشعب السوري الذي أُحبه وأقدره، فالسوريون بشكل عام كرماء ويحسنون الضيافة ويعملون بجد ونشاط، ولكنّ إمكانياتهم العظيمة ظلّتْ حبيسة الخوف وعدم الاطمئنان لفترة طويلة مِنَ الزمن. ويسرني أنْ أتقدَّم بالشكر العميق لكل السوريين الذين ساعدوني في بحثي بطرق عديدة، والذين يُفَضِّلون في هذه الأوقات العصيبة أنْ تظل أسماؤهم مجهولة. كما أدين بالفضل الكبير إلى البروفسور **ويليام هاريس** William Harris الذي أشرف على رسالتي، وأشكر له توجيهاته الحكيمة وجهده المستمر للحصول على التمويل اللازم، وتقديمه الاتصالات اللازمة هنا وفي الخارج، وحماسته لدراسات الشرق الأوسط. كما يجب أنْ يمتد الشكر إلى **جان-لوك بايان** Jean-Luc Payan على ما منحني مِنْ وقته الثمين لمساعدتي في دراسة اللغة العربية.

تلقيتُ مساعدةَ كثيرٍ مِنَ الزملاء، ولكنّ الشكر الخاص يجب أنْ يُرفع إلى الأصدقاء الذين لمْ يكن إتمام هذا العمل ممكناً لولا مساعدتهم، وهم: **فرديناند بايان** Ferdinand Payan لمساعدته العظيمة في اللغة العربية، و**أندرو لوني** Andrew Lonie للخرائط الرائعة التي رسَمها، و**كريس رود** Chris Rudd، و**نايجل بارسونز** Nigel Parsons، و**جيمس هيدلي** James Headley، و**برنارد رايش** Bernard

Reich على مساعدتهم الهامة في تطوير نظرية ومنهج البحث وبُنْيته، و**مارغريت غولدسميث** Margaret Goldsmith لمراجعة المسودات الأولية للنص، و**كارولين وديرموت بايرن** Caroline and Dermot Byrne لمساعدتهما اللطيفة. ويمتد الشكر أيضاً إلى **عيسى إبراهيم وحيدر الحسن** على معلوماتهما المهمة وتعليقاتهما على محتوى المسودة النهائية. وإلى **مراد ومحمد** اللذان قدّما لي مساعدات جليلة أثناء بحثي في مدينة أنطاكيا التركية. كما يمتد شكري إلى **عبد الحليم خدّام، وديتليف ميليس** Detlev Mehlis، **وإيلي سالم، ونصير إيزكيوكاك** Nasir Eskiocak، **وعلي ييرال** Ali Yeral، **ومحمد بوز** Muhammad Boz للوقت الذي منحوه لي في لقاءاتهم. كما أشكر **مايكل دوير** Michael Dwyer في مؤسسة **هيرست** Husrt أثناء مرحلة تحرير وطباعة الكتاب، **وتيم بايج** Tim Page لملاحظاته الدقيقة ومتابعاته. كذلك يمتد شكري إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة السلطان **قابوس** في عمان لدعمهم وتأييدهم في ظروف عمل إيجابية ساعدتْ على استكمال الكتاب. ومِنَ الناحية المالية أمكن إجراء هذا البحث بفضل منحةٍ مِنْ جامعة أوتاغو للدراسات التخصصية، ومِنَحٍ إضافية من المؤسسات النيوزيلاندية NZVCC وZPSAAوقسم الدراسات الإنسانية والسياسية في جامعة أوتاغو. وأخيراً يجب أنْ أتقدم بالشكر الخاص **لسارة بايرن** Sarah Byrne وابني **كيان** Cian على الصبر والدعم والإلهام الذي غَمَراني به كل يوم.

ليون غولدسميث

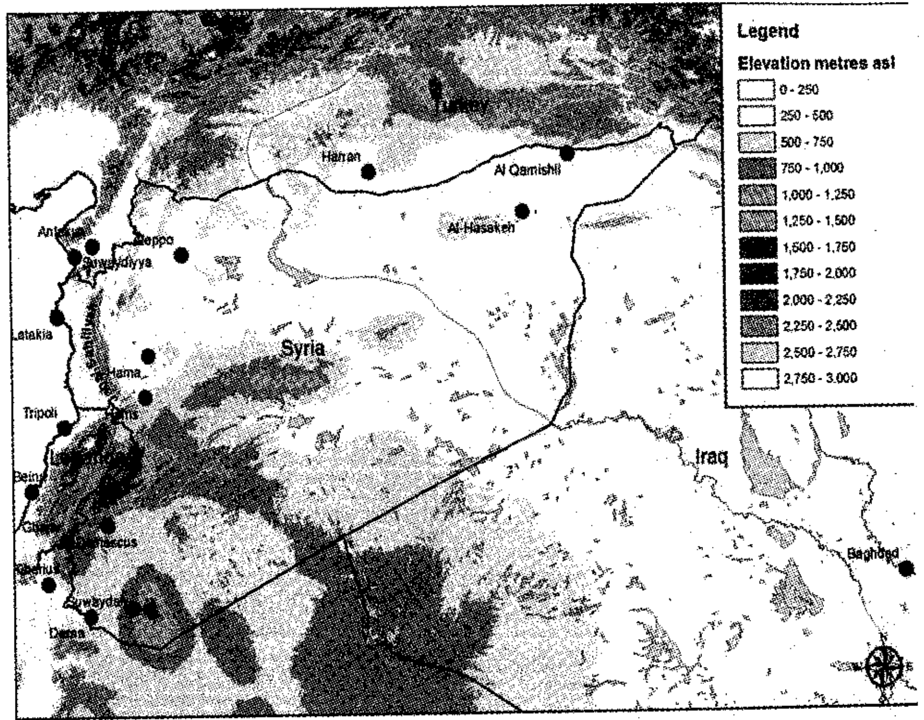
مسقط – 2014

الملخّص

ظلّ العَلَويون مِنْ أكثر الأقليات الدينية تعرضاً للاضطهاد في الشرق الأوسط لمئات السنين، ولذلك كان صعود رجل عَلَوي اسمه **حافظ الأسد**، واستلامه منصب رئيس الجمهورية العربية السورية سنة 1971 إنجازاً هاماً. شكّلتْ الطائفة العَلَوية السورية قاعدةً شعبية أساسية اعتمد عليها **حافظ الأسد** في دعم الحكم الذي وَرِثَه ابنه **بشار** مِنْ بعده سنة 2000. وبسبب هذا الدعم أُطلِقَتْ على العَلَويين صفة الطائفة "المُسَيطِرة" أو "الحاكِمة" في سورية. رغم أنّ هذه الصفات لا تنطبق على ظروف حياة كثيرٍ مِنَ العَلَويين السوريين، التي ظلّت متخلفةً اجتماعياً واقتصادياً، بل وخضعوا لكثير مِنَ الضغط لكبْتِ معتقداتهم الدينية خلال حكْم **الأسد**. فلماذا استمر العَلَويون في دعم حكْم عائلة **الأسد**؟

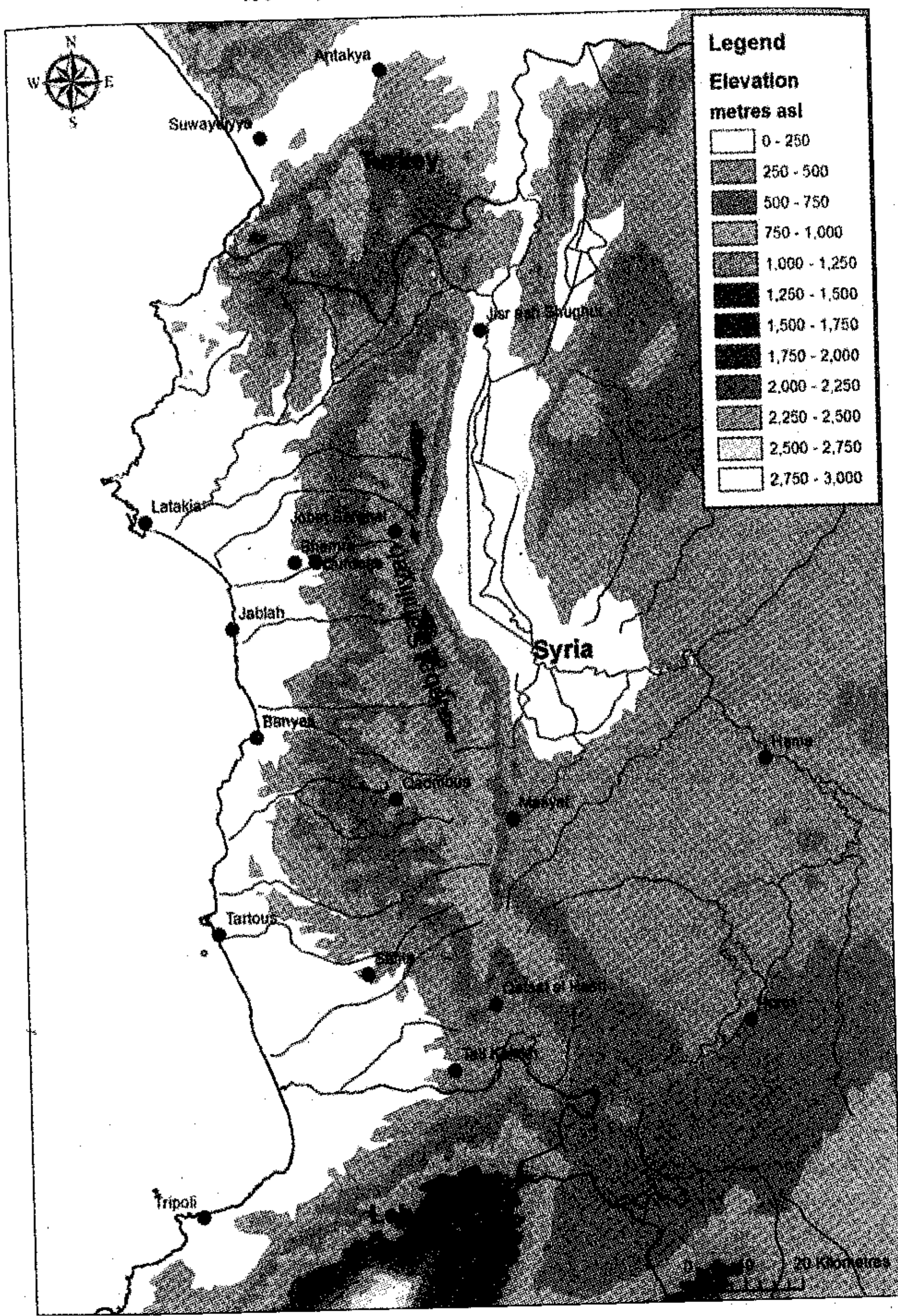
باستخدام منهج الاستقراء المنطقي النوعي الذي استَنَد إلى العمل الواقعي في الميدان، وإلى المقابلات، وتحليل المصادر المباشرة وغير المباشرة، دَرَسَ هذا البحث تطور وطبيعة السياسة العَلَوية. كما استُخدم مبدأ **ابن خلدون** في "العصبية" (شعور الجماعة) كإطارٍ عامٍ في دراسة العوامل الأساسية التي يمكن أنْ تُفسِّر دعم العَلَويين لحكْم عائلة **الأسد**. تَستنتج هذه الدراسة أنّ خوف الطائفة هو العامل الأساسي في السياسة التي اتبعها العَلَويون في استمرار دعمهم لحكم عائلة **الأسد**. لَمْ يَذكر **ابن خلدون** هذا العامل في نظريته عن صعود وانهيار الأسر الحاكمة. وفي النهاية تُبيّن حالة العَلَويين السوريين آثار سياسة "الخوف الطائفي وعدم الاطمئنان" التي قد تتبعها الأقليات، والتي يمكن أنْ تُعيق ظهور التعددية السياسية الحقيقية في الشرق الأوسط.

الشكل 1: سورية، المنطقة الشمالية مِنْ بلاد الشام



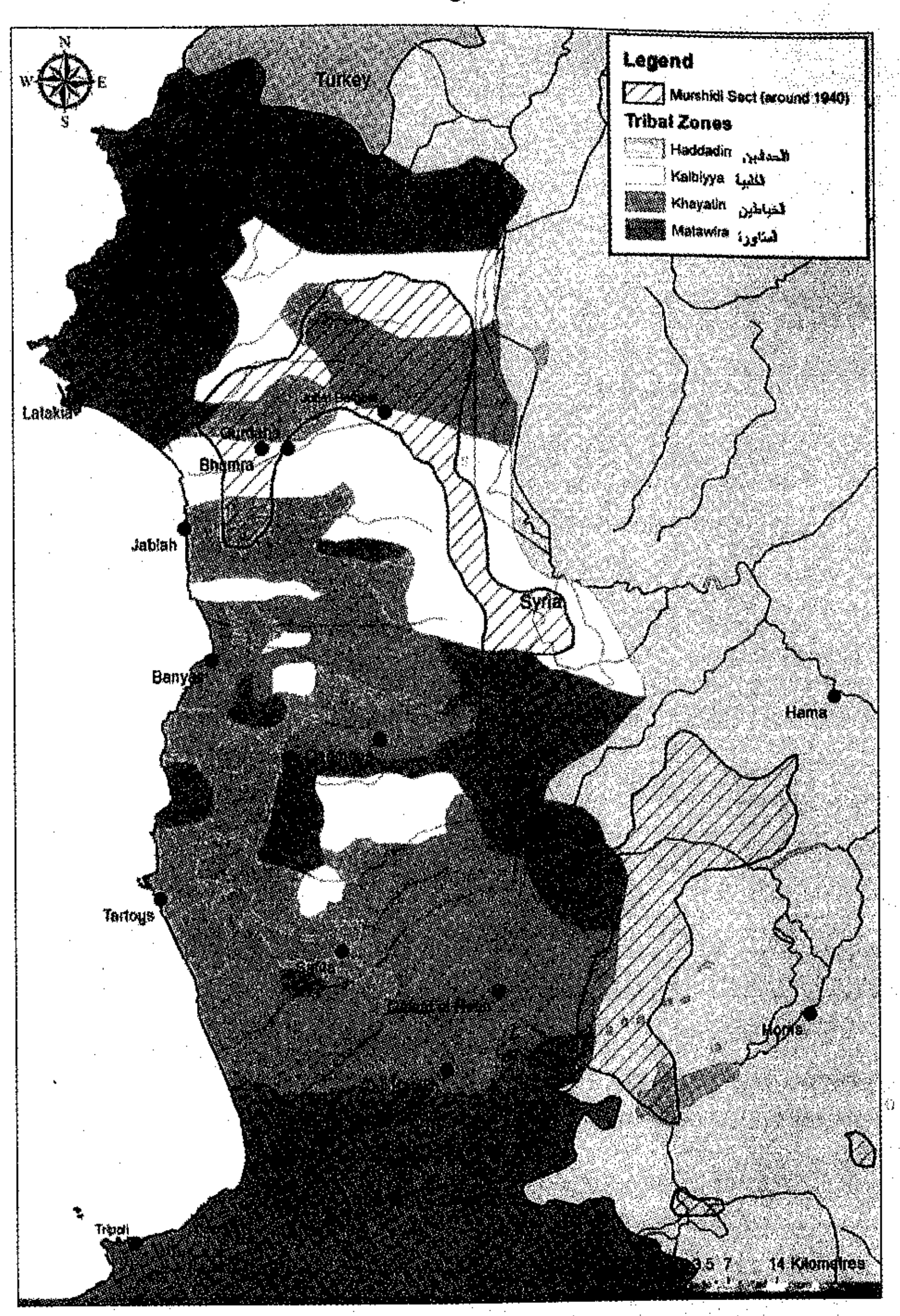
المصدر: أندرو لوني 2011 Andrew Lonie

الشكل 2: المنطقة الشمالية الغربية مِنْ سورية



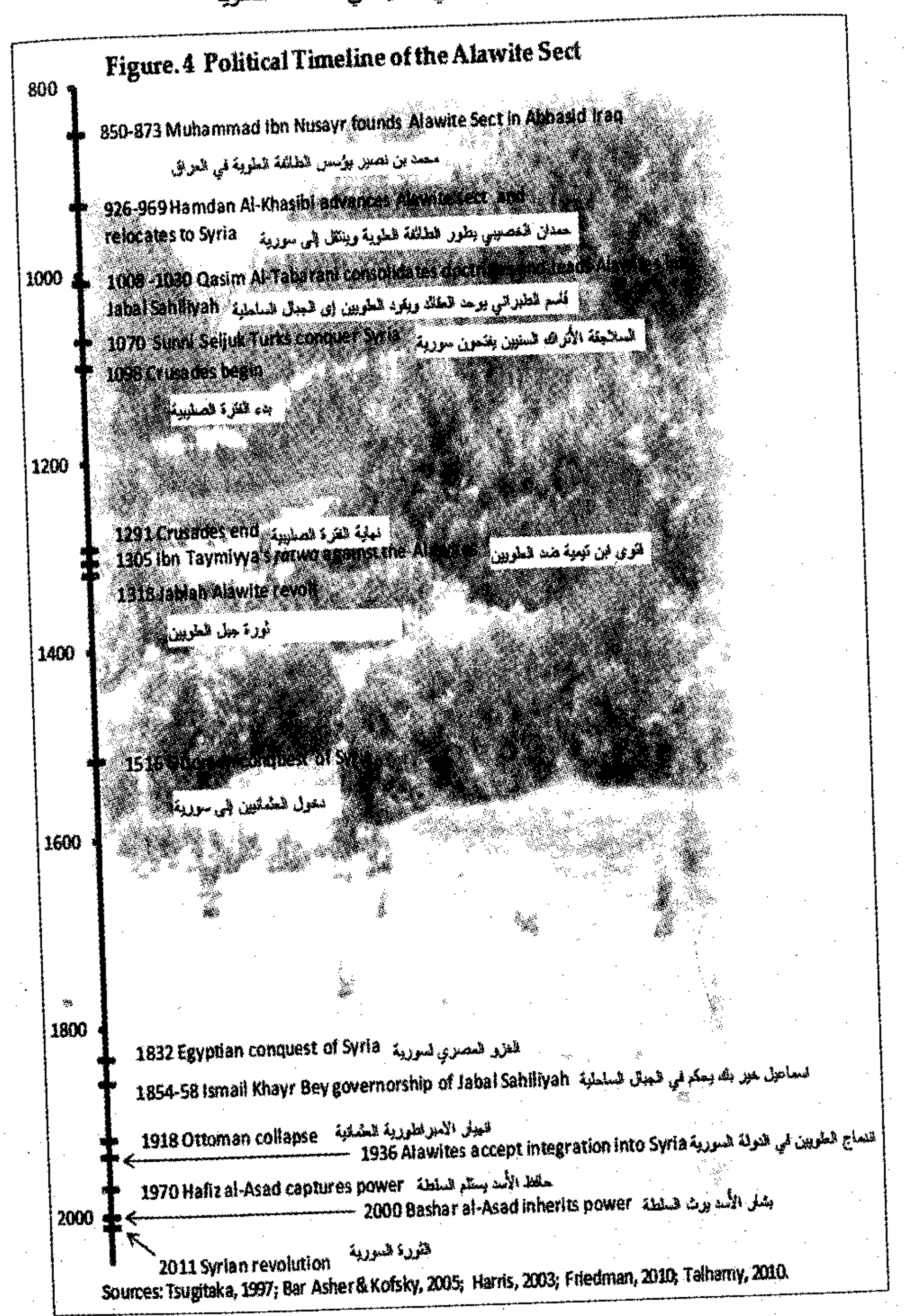
المصدر: أندرو لوني 2011 Andrew Lonie

الشكل 3: تَوَزّع العشائر العَلَوية



DePlanhol, 1997, p.87; Weulersse, 1940; 2011 Andrew Lonie المصدر أندرو لوني

الشكل 4: المخطط الزمني السياسي للطائفة العَلَوية



المقدمة

كان تنصيبُ **حافظ الأسد** رئيساً للجمهورية العربية السورية في 22 فبراير 1971 إشارةً هامة على بزوغ نجم أحد أفراد طائفةٍ تُعتبر مِنْ أكثر الطوائف حِرماناً وتخلفاً في الشرق الأوسط، وهي طائفة العَلَويين[1]. وعلى مر 41 سنة حَكَمَتْ عائلةُ **الأسد** سورية، وورِثَ **بشار الأسد** والده في شهر يونيو سنة 2000. شكّلت

(1) عُرِفتْ هذه الطائفة بعدّة أسماء ولكنني فضلتُ اسم "العلويين"، ولتجنب عدم الوضوح لابد من تقديم شرح مبسط لهذه الأسماء. كان الاسم الأصلي لهذه الطائفة هو "النَميرية"، ولكن يارون فريدمان Yaron Friedman اقترح أنه من الأفضل أن يطلق عليها اسم "النُميرية" حسب اسم طائفة ابن نُصير من قبيلة بني نُمير التي عاشت في العراق في القرن التاسع الميلادي. الاسم الكامل لابن نُصير هو: أبو شُعيب محمد بن نُصير العبدي البكري النُميري. وبذلك يوضح الاسم الأصلي لهذه الطائفة انتماءها إليه وإلى قبيلته: ابن نُصير النُميري (من قبيلة بني نمير). ابتداء من القرن العاشر أصبح اسم هذه الطائفة "النُصيرية"، ويوحي تغير الاسم بتغير الانتماء من القبيلة إلى الطائفة التي تركز أكثر على اسم مؤسسها محمد بن نُصير. في القرن التاسع عشر استخدم الرحالة والمبشرون الأوربيون اسم "أنصيرية" الذي يبدو مركباً من الاسم العربي الأصلي. احتفظت الطائفة بهذا الاسم حتى عام 1920 عندما أطلقوا على أنفسهم الاسم الرسمي "العَلَويين". كان في هذا الاسم الأخير محاولة منهم الابتعاد عن انتمائهم الديني الأصلي المبتَدَع إلى علاقة أقرب إلى الطائفة الشيعية التقليدية. يدل اسم "العَلَويين" على الارتباط برابع الخلفاء الراشدين الإمام علي ابن أبي طالب. وتفضل الطائفة هذه الأيام أن يطلق عليها اسم "العَلَويين" وتصر على أن استخدام اسم "النُصيريين" الذي يستخدمه خصومهم إنما يقصد فيه التحقير والانتقاص من قدر الطائفة، وقد كانت هذهِ الملاحظة واضحة في لقاءات ثلاثة قام بها المؤلف مع شيوخ العَلَويين في شهر مارس 2011. يمنح العَلَويون الإمام علي بن أبي طالب مركزاً أساسياً في عقيدهم الدينية ولذا يبدو لهم من المنطقي أن ينتسبوا إليه. في اللغة العربية يطلق اسم "العَلَوي" على الفرد واسم "العَلَويون" على الطائفة، ولكن بما أن هذا البحث باللغة الإنكليزية فسيتم فيه استخدام اسم "Alawite" كاسم رسمي لهذه الطائفة.

الطائفة العَلَوية الأساس القوي لحكم عائلة **الأسد**، ورغم بعض التحسن الذي حَدَثَ في أحوال العَلَويين أثناء حكم **حافظ الأسد**، إلا أنّ حُكْم عائلة **الأسد** في نهاية الأمر لمْ يمنحهم تقدماً هاماً في حالتهم الاجتماعية، ولا تحسناً جيداً في مستوى معيشة الغالبية العظمى مِنَ العَلَويين السوريين. كما سَلَبَ حُكْم **الأسد** العَلَويين كثيراً مِنْ خصوصية هويتهم الدينية المتميزة التي حافظوا عليها في ظروف صعبة على مر العصور. فلماذا ساهم العَلَويون في تأسيس ودعم حكم عائلة **الأسد**؟ ولماذا يدافعون عنه بشراسة ضد الثورة السورية التي مازالت مآسيها مستمرة في 2012؟

في سنة 2007 كتبتُ أطروحة عن الجغرافيا السياسية للأقلية العَلَوية في الجمهورية العربية السورية[1]. وفي محاولاتي لتجميع المراجع لذلك البحث أدركتُ مدى قلة الدراسات الموجودة عن العَلَويين، وبدا لي ذلك شاذاً بالنظر إلى دورهم الأساسي الخطير في سورية الحديثة. كان هدفي الأول مِنْ كتابة هذا البحث هو التعريف بالدور السياسي للعَلَويين في سورية، وهذا هدفٌ مهم، وإضافةٌ علمية ضرورية.

عندما تعمقتُ أكثر في دراستي، تحوّل تركيزي عن الهدف الأساسي إلى التعمق في دراسة نشأة وخلفية العَلَويين المعاصرين وميولهم السياسية، خاصة علاقتهم بنظام **الأسد**. إذ أنّ الدراسة العميقة للخلفية التاريخية، ولطبيعة العلاقة السياسية بين العَلَويين ونظام **الأسد**، تَحمِل أهمية بالغة في فهم موضوع السياسات الطائفية، وانتشار أنظمة الحكم الاستبدادية في الشرق الأوسط. وإنّ دراسة حالة العَلَويين السوريين يمكن أنْ توضح هذا الموضوع، وذلك بإظهار التأثير السلبي للخوف والشعور بعدم الأمن على التفاعل بين فئات المجتمع، وكيف أنّ خوف الأقليات وسياسة الخوف الطائفي تعيق تأسيس التعددية السياسية في الشرق الأوسط.

حاولتُ في هذه الدراسة فَهم الأسباب التي تدفع الأقليات إلى التحالف والتلاحم مع الأنظمة الاستبدادية، وكيف يمكن أنْ تنحلّ هذه الروابط السياسية،

(1) ليون غولدسميث Leon Goldsmith "الكشف عن العَلَويين: الجغرافيا السياسية للطائفة العَلَوية في سورية". لائحة الشرف في أطروحات جامعة أوتاغو 2007.

ولماذا لا تنفصم في بعض الحالات. مِنَ الناحية المنهجية والنظرية، فإنّ أفضل دراسة لهذه التساؤلات نجدها في المقدمة التي كتبها **ابن خلدون**، الفيلسوف السياسي التونسي في القرن الرابع عشر. في الفصل الثالث مِنَ المقدمة طرَحَ **ابن خلدون** نظريةً مفصَّلَةً عن الأسباب التي تؤدي إلى ظهور الولاء وتماسك الجماعات، وما يؤدي إليه مِنْ صعود وانهيار في السلالات الحاكمة[1].

قدَّرَ **ابن خلدون** الإمكانيات السياسية للقبائل والطوائف والفئات والأقليات بحسب قوة شعور أفرادها بالانتماء إلى الجماعة، ووعيهم بالفئة، وتكاتفهم الجماعي[2]. وحَسْبَ **ابن خلدون** لا تستطيع قبيلةٌ أو جماعةٌ أنْ تؤسسَ حكماً أو دولةً إلا إذا كان لديها شعور قوي بالانتماء إلى الجماعة. يضعف هذا الشعور الجماعي تدريجياً، ويؤدي ذلك إلى ضعف السلالة الحاكمة، وانتقال السُلطة إلى قبائل وفئات تتمتع بدرجة أقوى مِنَ الشعور الجماعي أو "العَصَبية"[3]. هل تستطيع هذه النظرية تفسير صعود عائلة **الأسد**، وأنْ تتنبأ بانهيارها المحتم؟ أم أنّ شعور الجماعة بالخوف وعدم الأمان، الذي أَغفَلَهُ **ابن خلدون**، يمكن أنْ يَمنَعَ ضعف وانهيار دعم العَلَويين لحكم عائلة **الأسد**؟[4]

ناقَشَ **غسان سلامة ووليام هاريس** William Harris، المختصان بدراسات الشرق الأوسط، قدرةَ نظريات **ابن خلدون** على تقديم تفسير للمسائل السياسية المعاصرة، وقرَّرَ **سلامة** أنّ أفكار **ابن خلدون** يمكن أنْ تُفسِّر خضوع الدول الضعيفة للولاءات التقليدية[5]. في حين كَتَبَ **هاريس** أنّ نظريات **ابن خلدون** في "التضامن

(1) ابن خلدون، المقدمة في التاريخ، ترجمة فرانز روزنتال Franz Rosenthal، مختصر داوود N.J. Dawood (London: Routledge & Kegan Paul, 1967) الصفحات 123 – 263
(2) داوود N.J.Dawood "التقديم" في مقدمة ابن خلدون، صفحة XI
(3) المرجع السابق. الصفحة 123، إيف لاكوست Yves Lacoste، ابن خلدون: ولادة التاريخ وتاريخ العالم الثالث. (London: Verso, 1984)، صفحة 100
(4) لاحَظ فؤاد خوري هذه الفجوة في نظريات ابن خلدون وأرجَعها إلى معتقداته الخاصة وظروفه التاريخية. فؤاد خوري، الأئمة والأمراء، الدولة، الدين والطوائف في الإسلام. (London: Saqi Books, 1990)، صفحة 54-55
(5) غسان سلامة، الدول القوية والضعيفة، العودة إلى المقدمة، في كتابه: أسس الدولة العربية، الجزء الأول (New York: Croom Helm, 1987)، صفحة 223

القَبَلي" غير كافية لتفسير تفاعلات الجغرافيا السياسية المعقدة لنشوء الدول في الماضي والحاضر[1]. الفكرة المركزية في هذه الدراسة هي أنّ توسيع نظرية **ابن خلدون** السياسية، بحيث تَشمل الهوية الطائفية، يمكن أنْ يفسِّر صعود حكم عائلة **الأسد** بالاعتماد على قوة العصبية والشعور بالانتماء الجماعي في الطائفة العَلَوية. ولكن **ابن خلدون** لا يستطيع أنْ يقدم تفسيراً كاملاً لأسباب استمرار العَلَويين في تقديم الدعم القوي لحكم عائلة **الأسد**. يمكن تصحيح هذا النقص في نظريات **ابن خلدون** بإضافة ما يسميه كاتبُ هذا البحث: "سياسة الخوف الطائفي". يتضمن هذا العامل الأسبابَ السياسية، ونتائج وجود الخوف وعدم الأمان بين الطوائف الدينية، ويُقدِّم تفسيراً لسبب استمرار العصبية والشعور الجماعي قوياً، في حين أنّ كل العوامل التي ذكرها **ابن خلدون** والتي يمكن أنْ تؤدي إلى ضعفه قد تَحققت.

ينشأ شعور الخوف وعدم الأمان لدى الطائفة عادة نتيجة الذكرى الجماعية للاضطهاد والتمييز، والخوف مِنَ الأحكام المسبقة التي تُطلَق غالباً بسبب الجهل بالأفكار والصفات الحقيقية للطوائف والفئات المختلفة. مِنَ النتائج الشائعة لسياسة الخوف الطائفي صعوبة التوصل إلى التعددية السياسية الحقيقية في الدولة، والميل إلى تركيز السلطة في فئة مستبدة، وحدوث الصراع في المجتمع. وقد تَشكَّل المستقبل السياسي للعَلَويين بشكل رئيسي تحت ضغط الشعور بالخوف وعدم الاطمئنان بسبب الاضطهاد المتكرر على يد السُلطات المسلمة السنيّة على مر تاريخهم، ولذا فقد كان الخوف وعدم الاطمئنان هو العامل الأساسي الذي حدَّد السياسة العَلَوية وتَزايدُ قوة الشعور الجماعي لديهم. أدَّتْ هذه العَصَبية العَلَوية إلى دعم وصمود حكم عائلة **الأسد**.

اقترح **فولكر برثيس** Volker Perthes أنّ الروابط الطائفية غير كافية للمحافظة على الولاء للنظام الحاكم لفترة طويلة، لأنّ ذلك "*يقتضي بالضرورة توزيعاً انتقائياً للامتيازات*"[2]. يُعيد هذا البحث دراسة هذه الفكرة، ويقترح أنّ

(1) ويليام هاريس William Harris، الهلال الخصيب، فسيفساء محطمة، (Princeton: Markus Wiener, 2003). صفحة 58

(2) فولكر برثيس Volker Perthes الاقتصاد السياسي السوري تحت حكم الأسد. (London: I.B. Taurus, 1995) صفحة 185

الدعم والتأييد السياسي المبني على الخوف الطائفي هو أقوى وأكثر ثباتاً مِنَ الدعم والتأييد الذي يَنتج عن الرعاية والامتيازات الاجتماعية. كما تُبيِّن هذه الدراسة أنّ قِلةً مِنَ العَلَويين تتمتع بامتيازات استثنائية في سورية المعاصرة، بينما يستمر تأييد العَلَويين لحكم عائلة **الأسد** قوياً ومتماسكاً بشكل عام، ويَشهَد على ذلك استمرار تأييدهم للرئيس السوري **بشار الأسد** بعد مرور أكثر مِنْ سنة على الثورة ضد حكمه خلال 2011-2012.

يساعِد منهجُ البحث في هذه الدراسة على فهم وتفسير العلاقة السياسية بين العَلَويين وعائلة **الأسد**، ويقدِّم وجهة نظر جديدة لفهم الاستبداد والطائفية ودور الأقليات في سياسات الشرق الأوسط. مِنَ الناحية العملية هناك حاجة ملحة لدراسة العَلَويين السوريين، لأنّ سورية عنصر مركزي في الشرق الأوسط مِنَ الناحية الجغرافية والسياسية، وما يحدث في سورية له نتائج واسعة في المنطقة، فمِنَ الضروري فهم العلاقات والتفاعلات الداخلية في سورية التي تشمل العَلَويين.

لَمْ يتعامل **ابن خلدون** في حياته مع العَلَويين مباشرة، وربما لَمْ يكن يعلم بوجودهم، رغم أنه كان مع الفاتح المغولي الكبير **تيمورلنك** في العاشر مِنْ يناير سنة 1401 حين وَقَفَ على أبواب دمشق، المدينة التي أصبحتْ عاصمة لحكم عائلة **الأسد** العَلَوية[1]. كان اللقاء مع **تيمورلنك** لحظةً حاسمةً في حياة **ابن خلدون**، لأنه رأى في ذلك القائد وجنوده تجسيداً لنظريته في صعود وانهيار الأمم حسب قوة وضعف الشعور الجماعي لديهم. استخدَم **ابن خلدون** اصطلاح "العَصَبية" في اللغة العربية لوصف هذا التلاحم والشعور الجماعي الذي كان العامل الأساسي في نظريته التي تقول أنّ القبائل البدوية التي تتمتع بعصبية قوية هي وحدها التي تستطيع أنْ تستولي على الحكم، وأنْ تُنشئ دولةً أو سلالةً حاكمة. وحسب **ابن خلدون**، ما أنْ يتمّ تأسيس الدولة وتثبيت دعائم الحكم حتى يدبَّ الضعف في عصبية القبيلة الحاكمة بسبب التمدين والرفاه والفساد. ويتسارع الضعف عندما ينتقل الحكم إلى الأجيال التالية.

(1) آلن فرومهيرز Allen Fromherz، ابن خلدون، حياته وزمانه (Edinburgh University Press) 2010 صفحة 1-3

في الفترة التي تمّ فيها لقاء **ابن خلدون** في دمشق، لَمْ يكن هنالك سلالة حاكمة قد ظهرتْ في منطقة سورية (بلاد الشام) منذ أنْ حَكَمَ المرداسيون حلب في القرن الحادي عشر. كما أنّ تجربة **ابن خلدون** في سورية اقتصرتْ على زيارة المدن الحضرية الرئيسية مثل القدس ودمشق وحلب، ولذا فمِنَ الممكن فهم سبب تصريحه بأنه لا يوجد قبائل تتمتع بعصبية قوية في سورية[1]. ولكنْ في الجبال الساحلية، على بُعد أقل مِنْ مئتي كيلومتر شمال المكان الذي التقى فيه **ابن خلدون** مع **تيمورلنك**، سَكَنَتْ عشائر العَلَويين ومارسَتْ ديانتها الخاصة في تركيبة قَبَلية قوية ولكنْ غير منظمة.

حَدَثَ تغيّر هام في تطور العصبية عند العَلَويين سنة 1305 عندما وَسَمَهم الفقيه السنيّ الشهير **أحمد بن تيمية** بالكفر ومعاداة الإسلام. تَعرَّض العَلَويون لكثير مِنَ الأذى والاضطهاد نتيجة للرأي السلبي الذي قدّمه **ابن تيمية** في تصنيفهم، وامتد التعصب ضدهم خلال فترة الحكم المملوكي والعثماني مِنْ 1305 حتى 1918. هذا الإرث مِنَ الاضطهاد المستمر دفعَ العَلَويين إلى زيادة الاعتماد على أنفسهم لضمان مصالحهم الخاصة بطريقةٍ تتفق مع تعريف **ابن خلدون** للعصبية، فيما عدا أنها كانت في حالة العَلَويين عصبية طائفية وليست عصبية قَبَلية أو اجتماعية. وهكذا عندما استولى العَلَوي **حافظ الأسد** على السُلطة في دمشق سنة 1970 وأسَّس دولة "غير متوقعة"[2] في سورية المعاصرة، كان ذلك بفضل الدعم والتأييد الذي تلقّاه مِنْ عصبية طائفته. ورغم أنّ الحكومة السورية هي حكومة جمهورية تنتمي أساساً إلى حزب البعث، فليس هنالك أي شك بأنّ القوة السياسية الحقيقية مُركَّزة في عائلة **الأسد**[3]. وقد دلّتْ على ذلك مثلاً زلة لِسان ذكرتْها فتاة صغيرة على التليفزيون السوري في 2002 عندما صَرَّحتْ بحماس بعد درس تعليم للعزف على الكمان أنها تشكر "العائلة المالكة" في سورية على رعايتها، موضحة

(1) ابن خلدون، المقدمة، صفحة 283

(2) وصفها دانييل بايبس Daniel Pipes بأنها "كأن أحد فقراء الهند المنبوذين أصبح مهراجا، أو أن يهوديا أصبح قيصراً لروسيا". سورية الكبرى، تاريخ طموح (New York: Oxford University Press)، صفحة 175

(3) أيد هذه الفكرة وزير الخارجية اللبناني السابق إيلي سالم في مقابلة له مع المؤلف في لبنان بتاريخ 16 مارس 2002

بذلك مدى هشاشة الواجهة الزائفة للنظام الجمهوري[1]. وحتى كتابة هذا النص مازال الجيل الثاني مِنْ عائلة **الأسد** يمسك بسُلطة الحكم.

مقدمة مختصرة للجغرافيا والتوزع السكاني والانتماءات الدينية للعشائر العَلَوية في سورية:

العَلَويون السوريون هم جزء مِنْ فئة العَلَويين العرب التي يبلغ تعدادها حوالي أربعة ملايين نَسَمَة[2]، يعيش أغلبهم في منطقةٍ تمتد بشكل هلال على الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط مِنْ شمال لبنان إلى سهول كيليكيا في تركيا. والعَلَويون السوريون هم أكبر فئة بين العَلَويين العرب، ويُشكّلون حوالي 12% إلى 15% مِنْ سكان سوريا، أي حوالي ثلاثة ملايين نَسَمَة[3]. يتركز العَلَويون في شمال غرب سورية خاصة في مدينتي اللاذقية وطرطوس، وهناك تجمعات عَلَوية في دمشق والريف المحيط بمدينتي حمص وحماة، ولكنّ أغلب العَلَويين يعيشون في قرى صغيرة عديدة في منطقة الجبال الساحلية.

(1) مجلة نيويورك تايمز 21 يناير 2002

(2) مِن المستحيل معرفة العدد الحقيقي للعَلَويين بسبب عدم وجود تعداد حديث لطوائف السكان في سورية ولبنان وتركيا. وقد تم التوصل إلى هذا العدد التقريبي بجمع الأعداد التقريبية للعَلَويين العرب في تركيا وسورية ولبنان. قُدر عددهم في أضنة ومرسين في تركيا بحوالي 147000 - 329000 سنة 2000 وفق Prozchazka & Prozchazka 2010 صفحة 59، وقَدر بعض العَلَويين في أنطاكية أن عددهم في لواء اسكندرون بلغ حوالي 500000 سنة 2011، وقُدر عدد العَلَويين في لبنان بأقل من 100000 وفق Yalbeck 2008، كما قُدر عدد العَلَويين السوريين بحوالي 3 ملايين. الملاحظة رقم 18 "

(3) لايوجد تعداد لطوائف السكان في سورية منذ سنة 1960. ويذكر عالِم السكان أون وينكلر Onn Winckler أنّ عدد العَلَويين السوريين ربما يكون أكبر بكثير من نسبة 12% التي تُذكر عادة، انظر: أون وينكلر، توزع السكان السياسي للعرب: النمو السكاني وهجرة العمل وسياسة الإنجاب، الطبعة الثانية (Eastbourne: Sussex Academic Press, 2009)، صفحة 34. انظر أيضاً: يحي سادوسكي Yahya Sadowski تطور الهوية السياسية في سورية، في كتاب الهوية والسياسة الخارجية في الشرق الأوسط، تحرير (S. Telhamy & M. Barnett, (London: Cornell University Press, 2002)، صفحة 144

تتوزع الطائفة العَلَوية إلى أربع عشائر [أو اتحادات عشائرية] رئيسية هي: الخياطين والمتاورة والحدادين والكلبية، وتنتمي عائلة **الأسد** إلى عشائر الكلبية (انظر الجدول 1 والشكل 3). تتضمن كل مِنْ هذه العشائر عدة فئات صغيرة متحالفة. تَسكن عشائر الخياطين المناطق الجنوبية مِنَ الجبال الساحلية وحول نهر الكبير الذي يَجري على مسار الحدود اللبنانية. يَتركز المتاورة في شمال وشرق اللاذقية حتى الحدود التركية شمالاً ومنطقة مصياف جنوباً. في حين تَسكن عشائر الحدادين، التي كانت أكبر وأقوى العشائر العَلَوية قبل صعود عائلة **الأسد**، في المناطق الساحلية حول مدن طرطوس وبانياس وجبلة واللاذقية. وأخيراً تَتركز عشائر الكلبية حول قرية القرداحة التي ولد فيها **حافظ الأسد** وفي مناطق جبلة والحفة واللاذقية[1]. وهناك فرع آخر مِنَ الطائفة العَلَوية هو طائفة المُرشِديين الذين شكّلوا هذه الفئة في العشرينيات (انظر الشكل 3)[2]. [بعد أن حمل المرشديون هذا الاسم رسميًا وتكنوا به في اوائل الخمسينيات، لم يَعتبروا أنفسهم علويين بل أتباع مذهب مستقل].

الجدول 1: التوزّع السكاني للعشائر العَلَوية السورية

العشيرة:	1930~	1959	1970	2011
الكلبية	50,700	79,156	~ 108,800	~ 480,000
الخياطين	42,700	79,113	~ 108,800	~ 480,000
الحدادين	49,600	91,962	~ 125,800	~ 560,000
المتاورة	46,200	94,421	~ 129,200	~ 570,000
آخرون	24,670	150,348	~ 204,000	~ 900,000
الكلي:	213,870	495,000 (1960)	680,000	~ 3,000,000

المصدر: غوبسر Gubser، 1979، وينكلر Winckler 2009، بريل Brill 1927

(1) بيتر غوبسر Peter Gubser، الأقليات في السلطة: العَلَويون السوريون، في كتاب: الدور السياسي للأقليات في الشرق الأوسط (New York: Praeger, 1979)، صفحة 30-31. فؤاد خوري، الأئمة والأمراء الدولة الدين والطوائف في الإسلام. (London: Saqi, 1990)، صفحة 55. كزافيير دى بلانهول Xavier de Planhol الأقليات في الإسلام، الجغرافيا السياسية والاجتماعية، (Paris: Flammarion, 2007)، صفحة 87

(2) غيتا يافي Gitta Yaffe ويوريل دان Uriel Dann سلمان المرشد: ظهور قائد عَلَوي، في مجلة دراسات الشرق الأوسط الجزء 29 العدد 4 أكتوبر 1993 صفحة 624-640

يُعتبر العَلَويون فئةً مِنْ غلاة المسلمين الشيعة[1]، ولكنهم يَعتبرون أنفسهم فئةً شرعية مِنْ فئات الشيعة الإثني عشرية[2]. وبشكل عام فإنّ المعتقدات الدينية العَلَوية تتضمن عناصر توفيقية تشمل المسيحية والوثنية بالإضافة إلى الاعتقاد بتناسخ الأرواح[3]. والعَلَويون بشكل عام أكثر ليبرالية مِنَ المسلمين المحافظين فيما يتعلق بدور الدين في حياتهم اليومية، فمثلاً يُسمح لهم بشُرب الكحوليات، كما يُسمح للنساء العَلَويات بعدم ارتداء الحجاب وبالاختلاط الحر في المجتمع. لا يُطلب مِنَ العَلَويين الصلاة في المسجد، ويؤمنون بأنّ التعبير عن الديانة هو أمر شخصي، في حين تُعتبر مزارات الأولياء والرجال العَلَويين الصالحين أمراً جوهرياً في التزامهم الديني[4]. والفارق الأساسي بينهم وبين الشيعة الأثني عشرية هو مبالغتهم في رفع مرتبة الخليفة الرابع **علي بن أبي طالب** وسلالته مِنْ أئمة أهل البيت [أهل بيت الرسول **محمد** صلى الله عليه وسلم] إلى درجة التقديس[5]. وكانت هذه الناحية في الديانة العَلَوية السبب الرئيسي لاتهامهم بالكفر لدى المحافظين المتشددين من السنّة والشيعة الإثني عشرية[6].

(1) ماتي موسى Matti Moosa، الشيعة المتطرفة: طوائف الغـلاة، (New York: Syracuse University Press, 1988)

(2) تم التأكيد على أن العَلَويين يعتبرون أنفسهم جزءاً من الشيعة في مقابلات مع ثلاثة من شيوخ العَلَوية في انطاكية بتركيا في شهر مارس 2011، انظر أيضاً: يارون فريمان Yaron Friedman النُصيرية -العَلَوية: مقدمة إلى الدين والتاريخ والهوية للأقلية القائدة في سورية (Leiden: Brill, 2010)

(3) تم تأكيد وجود هذه المعتقدات في الديانة العَلَوية في مقابلات للمؤلف مع شيوخ العَلَوية بأنطاكية في شهر مارس 2011

(4) رغم أن دراسة لهذه الجوانب من طقوس الديانة العَلَوية قد أجريت من قبل بروشازكا-إيزل-بروشازكا: سهل الأولياء والأنبياء، الطائفة النصيرية العَلَوية في كيليكيا (جنوب تركيا) والأماكن المقدسة Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2011

(5) يعتقد العَلَويون أن علي بن أبي طالب هو أقرب تجسيد لقدسية الله في الأرض، ولكن هذه القضية معقدة لأن مفهوم العَلَويين عن القدسية هو مفهوم مجرد متأثر بالأفلاطونية الجديدة كما يعتقد يارون فريدمان Yaron Friedman، انظر فريدمان 2010 صفحة 72-73

(6) ينفي العَلَويون بقوة هذا الاتهام بالتطرف ويقارنون ذلك بموقف المسيحية في تقديس المسيح، كما ذُكر في مقابلة أجراها الكاتب مع الشيخ نصير إيزكيوكاك Nasir Eskiocak في 29 مارس 2011 في أنقرة. لعل أهم دراسة منشورة عن عقائد العَلَويين هي دراسة مائير بار-آشر Meir Bar-Asher وآريا كوفسكي Aryeh Kofsky، الديانة النُصيرية - العَلَوية: دراسة في لاهوتها وطقوسها، (Leiden: Brill, 2002).

كان الغموض الذي يحيط بمعتقدات العَلَويين مشكلتهم الرئيسية على مر التاريخ، فقد أدى غموض معتقداهم إلى تشويش الباحثين، وإلى إثارة الشك هم لدى السلطات السياسية على مر القرون. وقد ظلّت المصادر الأكاديمية عن ديانة العَلَويين قليلة ومحدودة[1]، ومثيرة للجدل في أغلب الأحوال[2]. مِنَ الواضح أنّ العَلَويين يشعرون بالحساسية نحو الطريقة التي تُصَور بها ديانتهم، وعندما طَلب المؤلف مِنَ الشيخ العَلَوي **محمد بوز** Muhammad Boz أنْ يسمح له بنشر مقابلة أجراها معه، وافق الشيخ على ذلك ولكنه أكد على ضرورة توضيح أنّ: *"العَلَويون يحبون الله، ونحن نحب كافة الرسل، وأنّ محمد والمسيح وموسى كلهم متساوون بالنسبة لنا، ولا نميز بين السنّة والمسيحيين واليهود"*[3]. لا يحاول هذا البحث الإجابة على التساؤلات الدينية حول الديانة العَلَوية لأنّ الباحثين في الديانات قد نَشروا بحوثاً جيدة عن هذه المسائل[4]. وبالنسبة لهذه الدراسة فإنّ هذا الغموض والتشويش الذي يلف هوية العقيدة الدينية للعَلَويين هي عامل هام في إدراك شعورهم بالخوف وعدم الأطمئنان.

تأثرت البنية الاجتماعية للعَلَويين بشكل عميق بسبب تهميشهم السياسي والديني في العالم الإسلامي الذي أبعدهم عن مناطق المدن، فمنذ بداية القرن الحادي عشر تَجَمَّعت الطائفة العَلَوية في الأرياف الفقيرة. حتى القرن العشرين عاش العَلَويون في فئتين رئيسيتين: فئة الفلاحين في السهول الساحلية والداخلية، وفئة الجبليين في الجبال الساحلية[5]. عمل الفلاحون بالتعاقد مع مُلاّك الأراضي

(1) أهم المصادر هي رينيه دوسو Rene Dussaud 1900، صمويل لايد Samuel Lyde 1860، بار آشر وكوفسكي Bar Asher & Kofsky 2003، يارون فريدمان Yaron Friedman 2010، وفصول في ماتي موسى Matti Moosa 1988، فؤاد خوري 1990، تورد أولسون Tord Olsson 1998.

(2) ذكر تورد أولسون Tord Olsson 1998 هذه الملاحظة. صفحة 176

(3) مقابلة مع المؤلف في 28 مارس 2011 بأنطاكيا في تركيا

(4) مثلاً ماير بار-آشر Meir Bar-Asher وآريا كوفسكي Aryeh Kofsky الديانة النُصيرية-العَلَوية: دراسة في لاهوتها وطقوسها، (Leiden: Brill, 2002).

(5) غوبسر Gubser 1979 صفحة 19، حنا بطاطو، الفلاحون السوريون أحفاد نبلاء الريف وسياساتهم (New Jersey: Princeton University Press, 1999)، صفحة 12 و188

الزراعية وأغلبهم مِنَ السنّة، بينما ظلّ الشعور القَبَلي قوياً بين الجبليين الذين كانوا أكثر استقلالاً[1]. وبشكل عام كانت الطائفة متقاربة الأحوال مع قليل مِنَ التمايز الطَبَقي. ومع ذلك فقد كانت الطائفة العَلَوية منقسمة بعمق ولمدة طويلة في ولاءاتها القوية للتجمعات القَبَلية المَحلية مما أدى لانقسامها وتفرقها. يَظهر التشتت في تركيبة الطائفة بعشوائية توزّع عشائرها الذي نَتج عن وعورة وتقطع تضاريس الجبال الساحلية (الشكل 2، 3).

في العصور الحديثة، أدتْ معيشة الطائفة العَلَوية في الريف الفقير، والمساواة العامة في تركيبتها الاجتماعية، وتاريخها الطويل مِنَ الاضطهاد الديني، إلى اتجاه العَلَويين فكرياً نحو العلمانية والاشتراكية[2]، وهذا يفسِّر شعبية حزب البعث بينهم منذ منتصف الخمسينيات، واستمر هذا الاتجاه العام حتى السبعينيات. ولكنّ ظهور نظام **حافظ الأسد** أدى إلى ظهور العلامات الأولى للانقسام الطبقي في الطائفة العَلَوية، لأنّ قبيلة الكلبية استفادتْ بشكل أكثر مِنَ العشائر الأخرى[3]. وكقاعدة عامة تَنتمي النُخبة العَلَوية إلى عشيرة **الأسد** الكلبية أو لعشائر الحدادين، وهي العشيرة التي تَنتمي إليها زوجته **أنيسة**. ولكن باستثناء أخيه **رفعت الأسد**، الذي فضّل سياسات اقتصادية يمينية، فإنّ الغالبية العظمى مِنَ الطائفة العَلَوية ونخبتها ظلّتْ ملتزمة بالاتجاه الاشتراكي. تَسارَع تحضّر العَلَويين في السبعينيات بشكل كبير، رغم أنّ أغلبهم فَضّل المحافظة على وجود مزدوج بين المدينة والريف. ولذا فإنّ أي تأثير اجتماعي وفكري لحياة المدينة عارضَته الانتماءات الريفية القوية.

في التسعينيات، وخاصة بعد سنة 2000 مع تنصيب **بشار الأسد** رئيساً للدولة، بدأت الطائفة العَلَوية بالانقسام طبقياً وفكرياً بشكل واضح، فقد نشأ

(1) دي بلانهول De Planhol 1997، صفحة 87 - 89

(2) أكثر الدراسات تعمقاً عن الاتجاهات السياسية والاقتصادية للفلاحين في سورية، بما فيهم العَلَويين، هي دراسة بطاطو 1999 صفحة 3-191، وفؤاد خوري، الأئمة والأمراء: الدولة والدين والطوائف في الاسلام (London: Saqi Books, 1990) صفحة 75، وعن عقائد العَلَويين انظر زيادة 2011 صفحة 16، ماوز Maoz 1997 صفحة 220

(3) عشيرة الكلبية التي ينتمي إليها الأسد هي جزء من تحالف عشائر الكلبية الذي يحمل الاسم نفسه، غوبسر Gubser 1979 صفحة 30

أولاد النخبة السياسية العَلَوية في ظروف حَضَرية متميزة، ودرَسوا في الخارج، وفَقدوا اتصالهم بالصفات الريفية والاجتماعية والمساواة مع بقية الطائفة[1]. ويمثّل **بشار الأسد** نفسه هذا الجيل الجديد مِنَ النخبة العَلَوية، وبدأ بتطبيق اصلاحات اقتصادية ليبرالية أدتْ إلى توسع الفجوة الاجتماعية والاقتصادية في الطائفة العَلَوية.

رغم أنّ معرفة أكثر العَلَويين بدِينِهم قد تضاءلتْ، فإنّ الانتماء الطائفي الديني أصبح أقوى العوامل التي تجمع بينهم منذ السبعينيات بعد أنْ تفرقوا قبل ذلك حسب انتماءاتهم القبلية[2]. ولكنْ رغم ظهور الفروق الواضحة في الفكر والثروة والمستوى الاجتماعي في الطائفة العَلَوية، فقد ظلّ نظام **الأسد** العَلَوي مرتبطاً بقوة مع طائفته التي تطلّعتْ إلى النظام لضمان أمنها وسلامتها.

تُعتبر طائفة العَلَويين السوريين مِنْ أكثر الأقليات الاجتماعية إثارة للفضول في الأهمية الأكاديمية والسياسية هذه الأيام، وهُمْ مِنْ أقل الفئات التي دُرِسَتْ في العلوم الاجتماعية[3]. لَمْ تُنشر ولا دراسة واحدة أكاديمية عن سياسة العَلَويين السوريين، ولا شك بأنّ هناك فئات وطوائف أخرى لَمْ تتم دراستها أيضاً[4]، إلا أنّه ليس لأي منها الأهمية السياسية التي يمكن مقارنتها بالعَلَويين. فمنذ 1963 لعب العَلَويون دوراً هاماً في تأسيس هيكلية السياسة الداخلية السورية والمحافظة عليها، مِنْ قمة رموز النظام إلى عناصر أجهزة الأمن العسكرية السورية الكبيرة. كما أنّ الدولة السورية تلعب دوراً محورياً في قضايا المنطقة بما فيها القضية الاسرائيلية- الفلسطينية، وعدم الاستقرار السياسي في لبنان والعراق، والمصالح الاستراتيجية الإيرانية. ولذلك فإنّ العَلَويين السوريين لهم أهمية كبيرة في دراسة العلاقات الدولية والسياسة الخارجية.

(1) فلينت ليفيريت Flynt Leverett ووراثة سورية: اختبار بشار بالنار. (Washington: Brookings Institution Press, 2005) صفحة 62–63

(2) اقترح تورستاين وارن Torstein Worren أن حقيقة جهل أكثر العَلَويين بدينهم يدعم هويتهم العلمانية بالنسبة للطوائف الأخرى. وارن، الخوف والمقاومة، اطروحة ماجستير 2007. انظر أيضاً غوبسر Gubser 1979 صفحة 22

(3) رغم أن بعض الاهتمام قد أعطي لدراسة عقائد وتاريخ العَلَويين في السنوات الأخيرة. انظر بار آشر Bar Asher وكوفسكي Kofsky 2003، وفريدمان Freidman 2010

(4) مثال آخر في الشرق الأوسط هو الطائفة اليزيدية في شمال العراق.

ومِنَ المهم فَهْمُ العَلَويين السوريين في دراسة قضايا الصراع والنزاعات. وهناك حاجة ملحّة لتطوير فهم الصراعات الاجتماعية في سورية، واحتمالات الحرب الأهلية، وما يمكن أنْ يوضحه ذلك عن النزاعات الطائفية بشكل عام.

مِنَ الغريب أنه مع ازدياد أهمية العَلَويين سياسياً انخفض الاهتمام بدراسة هذه الطائفة. ففي أواخر الفترة العثمانية كان العَلَويون طائفة غير مهمة سياسياً، إلا أنّ الباحثين الغربيين نَشروا عدة دراسات عميقة عنهم[1]. ولكنْ منذ الستينيات، ورغم تصاعد أهمية العَلَويين في قضايا السياسة السورية، لَمْ يُجرَ أي بحث علمي عميق عن سياسة الطائفة العَلَوية[2]. أمرٌ آخر يثير الفضول في العَلَويين هو أنه رغم أهميتهم السياسية فإنّ أغلبهم ظلّ فقيراً ومتخلفاً في تطورهم الاجتماعي والاقتصادي. ورغم صعوبة القيام بدراسات وأبحاث سياسية في سورية إلا أنّ هذا البحث يأمل بتقديم دراسة مستفيضة وبحث علمي حديث عن العَلَويين.

تشمل هذه الدراسة ومنهج البحث فيها الجزء الأكبر مِنْ تاريخ العَلَويين، وتبدأ بالبحث في النشأة المتنوعة الحافلة لمُلهِم الطائفة العَلَوية ومؤسسها **محمد بن نُصير** خلال القرن التاسع في العراق، وتنتهي بالثورة ضد حكم عائلة **الأسد** في بداية 2011. ستقسّم هذه الفترة الزمنية إلى أربع مراحل رئيسية تتعلق بنموذج **ابن خلدون** في صعود وانهيار الأمم حسب حالة "العصبية" في المجتمع والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- كيف تتطور مستويات قوية مِنَ العصبية في المجتمعات؟

2- ماهي تأثيرات فئة أو قبيلة ذات عصبية قوية على السياسة وعلى صعود أو تأسيس الدول أو السلالات الحاكمة؟

(1) مثلاً دراسة الأب صمويل لايد Samuel Lyde، الغموض الأسيوي كما يتجلى في تاريخ وديانة وحالة النصيرية في سورية، (London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1860)، الملازم والبول Walpole، النصيريون في رحلات الشرق الأقصى في 1850–51 (Paris: Bouillon, 1900)

(2) باستثناء اطروحة الماجستير لتورستاين شيوتز وارن Torstein Schiotz Worren، الخوف والمقاومة: صُنع الهوية العَلَوية في سورية، اطروحة الماجستير، قسم علوم المجتمع والجغرافيا الانسانية، جامعة أوسلو، فبراير 2007

3- كيف تحافظ الدولة أو السلالة الحاكمة على عصبيتها قوية؟

4- كيف تنهار عصبية الجماعة في الأجيال المتتالية للسلالة الحاكمة؟

يَرسم الفصلُ الأول الخطوطَ العامة، ويفسر اختيار منهج استقرائي نوعي في هذه الدراسة. ويَشرح الفصلُ الثاني الأرضيةَ النظرية لهذا العمل، ويتضمن نظرية **ابن خلدون** في دورة صعود وانهيار الأمم، ويقدم مبدأ "سياسة الخوف الطائفي وعدم الاطمئنان"، مع دراسة حالة العَلَويين والنتائج التي يمكن أنْ تترتب عليه.

يَبحث الفصلُ الثالث في كيفية تطور الشعور الجماعي عند العَلَويين، أو بكلمة أخرى كيف حَصل العَلَويون على الصفات التي يسميها **ابن خلدون** "مستويات قوية مِنَ العصبية"؟ بالإضافة إلى أهمية السؤال عن كيفية تطورهم إلى حالةٍ مِنَ العمران البَدَويّ في تفسير تاريخ العَلَويين. تبدأ الفترة التي دُرسَتْ في الفصل الثالث بنشوء الطائفة بالعراق في منتصف القرن التاسع، وتمتد إلى انتقالهم مِنَ العراق إلى الجبال الساحلية في سورية، وتنتهي بفترة انهيار الحكم العثماني لسورية في 1830. كما فُسِّرتْ أسباب وجذور الخوف الطائفي وعدم الاطمئنان عند العَلَويين في تلك الفترة، وأحداث الاضطهاد الأولى التي أدتْ إلى ظهور الخوف وعدم الاطمئنان لديهم.

يبيّن الفصل الرابع كيف أثّرَ الشعور القوي بالخوف وعدم الاطمئنان لدى العَلَويين على علاقاتهم بالطوائف والفئات الأخرى، وعلى اندماجهم في المجتمع السوري أثناء تَشكّل الدولة السورية الحديثة. هذه الفترة التي بدأتْ في 1832 تتضمن فترة ضعف وانهيار الامبراطورية العثمانية، والانتداب الفرنسي في 1919-1946، ودور العَلَويين في سورية المستقلة حتى صعود **حافظ الأسد** وتسلمه السلطة سنة 1970. الفرضية الرئيسية في هذا الفصل هي أنّ العَلَويين حاولوا الاندماج في المجتمع السوري العام، ولكنّ خوفهم وعدم اطمئنانهم، بالإضافة إلى التعصب السنيّ، أعاق أي اندماج حقيقي. منذ منتصف الستينيات سيطرتْ سياسة الخوف الطائفي وعدم الثقة بين الطوائف في سورية، وأخذتْ كل فئة تتهم الفئات الأخرى بالطائفية. وفي النهاية أصبح الخوف الطائفي لدى العَلَويين معادلاً لمستويات عالية مِنَ العصبية القوية التي استخدمها **حافظ الأسد** بنجاح في توكيد مصالحه السياسية بعد أن وطد دعائم سلطته.

موضوع الفصل الخامس هو: كيف استطاع **حافظ الأسد** أنْ يصون العصبية في الطائفة العَلَوية؟ المتغير الرئيسي الذي يعتبره **ابن خلدون** ضرورياً في نجاح تأسيس سلالة حاكمة جديدة هو أنه "*مِنَ النادر أنْ تنجح سلالة في تأسيس حكمها في بلاد تحتوي على قبائل وجماعات كثيرة مختلفة*"[1] [الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلّ أنْ تَستحكم فيها دولة]. وحسب هذه التقديرات فإنّ احتمال نجاح **حافظ الأسد** في الدولة السورية المتنوعة الفئات والطوائف كانت ضئيلة. يناقش هذا الفصل كيف أنّ سياسة الخوف الطائفي بين الطائفة السنيّة والطائفة العَلَوية أدّت إلى المحافظة على قوة العصبية لدى العَلَويين. كان اصطدام حكم عائلة **الأسد** بالإخوان المسلمين السنّة في 1976-1982 سبباً رئيسياً في استمرار الخوف وعدم الاطمئنان عند العَلَويين، وشكّل هذا الصراع نقطة تحول لآمال العَلَويين في الاندماج الحقيقي ضمن المجتمع السوري. أدى الصراع الطائفي المتسارع إلى مأساة مدينة حماة في 1982 حيث قُتل حوالي 20,000 شخص، وأصبح حُكْم **الأسد** راسخاً بعد ذلك، وانحدرتْ سورية في دوامة القمع السياسي الذي لعِب العَلَويون دوراً رئيسياً في تطبيقه.

يبحث الفصل السادس والسابع نظرية **ابن خلدون** في ضعف العصبية القبَلية عبر الأجيال المتتالية للسلالات الحاكمة، ويدرس علاقتها باستلام **بشار الأسد** للسلطة، والعقد الأول مِنْ حكْمه، ويوضح أنّ كل العوامل التي ذَكَرها **ابن خلدون**، والتي تؤدي إلى ضعف العصبية وانهيار الدولة، قد ظَهرتْ خلال حكْم **بشار الأسد**، وهي تتضمن: "*عندما يَطلب الحاكم المساعدة مِنْ عملائه وأتباعه مِنْ غير طائفته أو قبيلته، وعندما لا يكون الحاكم الذي ورثَ السلطة متمرساً في فنون الحكم والسياسة، وعندما تمارس السلطة العنف الزائد، ودخول الحاكم في نشاط تجاري يضر برعاياه ويقلل دخل الضرائب*"[2]. ورغم انطباق كل هذه العوامل على حُكْم **بشار الأسد**، فإنّ إحكام قبضته على السلطة ظلّ قوياً بسبب صمود وقوة العصبية العَلَوية. ولا شك بأنّ الثورة السورية التي اندلعتْ ضد حكم **الأسد** في مارس 2011 ستكون اختباراً جيداً لعصبية الطائفة العَلَوية.

(1) ابن خلدون، المقدمة صفحة 130

(2) المرجع نفسه صفحة 130-232

في عصر يوم 25 مارس 2011 انطلقتْ أولى المظاهرات المناوئة للحكومة في اللاذقية، المدينة الساحلية الهادئة. وفي الشارع الرئيسي للمدينة، رمى المتظاهرون الحجارة على تمثال برونزي ضخم لرجل ممتد اليدين، وكان ذلك التمثال للرئيس السوري السابق **حافظ الأسد**، رمز السلطة السياسية في سورية. كان المؤلفُ يسير قرب ذلك المكان برفقة صديق عَلَوي مِنْ قريةٍ في الجبال القريبة مِنَ المدينة. ابتعدنا بسرعة عن حشد المظاهرة في خضمّ الهتافات وأصوات إغلاق سريع لأبواب المحلات التجارية. لاحظتُ نظرةَ صدمةٍ وخوفٍ في عيون مرافقي. كانت الدموع تسيل على خدَّيه. كنتُ أعلم أنه مِثلَ كثير مِنَ السوريين آنذاك يعيش في ضائقة اقتصادية، ولَمْ يستفد كثيراً مِنَ النظام السياسي الذي كان يتحداه المتظاهرون. فما الذي أثار قلقَ مرافقي العَلَوي؟ هل كان مَحبةً صادقة لنظام **الأسد**؟ أمْ تضامناً اجتماعياً غريزياً؟ أمْ خوفاً وعدم اطمئنان طائفي؟ أصبح البحث عن إجابة لهذا السؤال مسألة حيوية في فهم الطبيعة الحقيقية للسياسة العَلَوية.

بعد أنْ غادرتُ اللاذقية، ووصلتُ تركيا في مارس 2011، ناقشتُ المظاهرات المعارِضة للنظام مع أعضاء بارزين مِنَ الطائفة العَلَوية في لواء اسكندرون، وعبَّر الشيخ **محمد بوز** بوضوح عن قلق العَلَويين تجاه نوايا الطائفة السنيّة قائلاً:

"لايوجد فرق بالنسبة لنا بين السنّة والشيعة والعَلَويين واليهود. لايوجد فرق - إنما مشيئة الله... ليس هناك مشكلة بالنسبة لنا. بينما هناك مشاكل عديدة بالنسبة للسنّة... لأنّ السّنة لا يحبون العَلَويين... السنّة لا يحبون إلا السنّة. عندما تقول لهم أنّ هذا عَلَوي سيقولون لك إنه ليس مسلماً. والآن يصرح السنّيون أنّ ***بشار الأسد*** *لا يعامِل الناس بالعدل والمساواة، وهم لايريدونه لأنه عَلَوي"* (1)

تمثل وجهة النظر هذه الخوف وعدم الاطمئنان الذي يَشعر به العَلَويون تجاه الطائفة السنيّة، كما توحي بأنّ الدافع وراء الثورة هو التعصب الطائفي السنّي. في حين أنّ الشيخ **علي ييرال** Ali Yeral طَرح تفسيراً مختلفاً للثورة على أنها ضغط غير طائفي لتحقيق تغيير سياسي ديموقراطي:

(1) الشيخ محمد بوز، مقابلة مع المؤلف، 28 مارس 2011 أنطاكيا، تركيا

" [الصراع في سورية] ليس بين الطوائف، ولكن الشعب يريد الحرية والعيش الأفضل. ونحن العَلَويون نتضرع إلى الرحمن الرحيم ألا يكون هناك خطر لا على العَلَويين ولا على السنّة... وندعو الله أنْ يتجه الشعب العربي نحو الحرية والديموقراطية دون أنْ يقتل بعضهم بعضاً ودون اللجوء إلى سفك الدماء. هناك حاجة إلى التقارب والحوار والتفاهم والمناقشة وليس الاقتتال وسوء الفهم" (1)

عندما شارفَ هذا البحث على نهايته لَمْ تكن نتائج وانعكاسات الثورة السورية قد اتضحتْ بعد، ولكن أمراً واحداً قد تأكد: الطائفةُ العَلَوية واستمرار عصبيتها في دعم حكم عائلة **الأسد** هي أهم العوامل التي ستُحدِّد النتائج. باختصار، إذا استمر ولاء العَلَويين لنظام **الأسد** فربما ستتجه سورية إلى حرب أهلية، أما إذا تَخلى العَلَويون عن دعمهم للنظام فربما ستنتقل سورية إلى نظام تعدّدي حقيقي بعد انهيار حكم عائلة **الأسد**. ولكي نفهم كيف وصَل العَلَويون السوريون إلى هذه المرحلة الحَرِجة، نحتاج إلى بحثٍ عميق في تاريخهم السياسي. وفي البداية لا بد مِنْ شرحِ منهجِ البحث والنظرية التي وَجَّهَتْ هذه الدراسة.

(1) الشيخ علي ييرال، مقابلة مع المؤلف 28 مارس 2011 أنطاكيا، تركيا

الفصل الأول

طريقة استقرائية نوعية في البحث

كانت رحلة البحث التي قادتْ إلى هذا النص رائعة وغنية بالتحديات. فقد أخذتني هذه الرحلة مِنْ نيوزيلندا إلى سورية ولبنان وتركيا وانجلترا وفرنسا، وبالإضافة إلى تحدي الحاجة إلى تعلّم اللهجة العربية السورية، عقدتُ اجتماعاً في باريس مع أحد المهاجرين السوريين المهمّين، وشهدتُ بعض المظاهرات الرئيسية الأولى المعارِضة للنظام في سورية خلال ثلاثة عقود، وقبَضَتْ عليَّ قوات الأمن السورية، وحصلتُ على الشرف النادر في إجراء مقابلة باللغة العربية مع ثلاثة مِنْ شيوخ العَلَويين المهمّين. وهذه قلة مِنَ التجارب التي انغَمَر فيها هذا البحث، وسيُذكَر تأثيرها في منهج البحث العام فيما بعد. في البداية لا بد مِنْ مناقشةِ طريقةِ البحث المبدئية التي تمّ اتباعها في هذه الدراسة، ولماذا تمّ اختيارها.

خلال فترة البحث (2008–2011) كانت قدرتي على تجميع المصادر والبيانات محدودة لسببين: الأول هو أنّ العَلَويين كانوا دائماً مهمَّشين وغامضين، مما يعني ندرة وجود معلومات مفصلة عنهم في المنشورات التاريخية. والسبب الثاني هو أنه منذ الانقلاب السوري البعثي سنة 1963 أصبحتْ دراسة أو مناقشة الطوائف أو الأقليات أو الأعراق مِنَ الناحية السياسية ممنوعة بصرامة حسب القانون السوري. وقد أعاق ذلك حصولي على البيانات في سورية. بالنظر إلى هذه القيود، فإنّ التحليل النوعي للبيانات الأولية والثانوية المتوفرة كان المنهج الوحيد الممكن تطبيقه. بالإضافة إلى أنّ دراسة المفاهيم الخفية، مثل شعور الجماعة (العصبية) وخوف الأقليات وعدم الاطمئنان، اقتضى طريقة بحث نوعية وتفسيرية.

الحالة النموذجية التي يفضِّلها الباحث هي أنْ يتمكن مِنْ جمع المعلومات مستخدِماً طرقاً مختلفة مِنْ مصادر متعددة، مثل الاستبيانات والمقابلات مع الأشخاص المهمّين للبحث، ودراسة المعلومات العامة المنشورة، والمحفوظات، والبحث في المصادر الأدبية المعتمدة. ولكنّ أغلب هذه الأمور لَمْ تكن متاحة في سورية، وكانت الأبحاث المنشورة عن العَلَويين السوريين نادرة. اشتملتْ وسائل البحث الرئيسية على: مقابلة أشخاص مهمّين خارج سورية، والملاحظات الميدانية، والمحادثات الخاصة مع أشخاص لا يمكن تسميتهم داخل سورية، والتحليل العميق للوثائق الأولية ومصادر الأخبار، والقراءة النقدية مع إعادة تركيب المصادر الأدبية الموجودة. شكّلتْ هذه الوسائل بمجموعها مادّة كافية سمحتْ لي بدراسة أسئلة الدراسة.

في البحث عن إجابات للأسئلة حول السلوك والتفاعل الإنساني، يتعامل الباحثون في علم الاجتماع دائماً مع مواضيعَ معقدة ومائعة ومتغيرة. يَبحثُ علماء السياسة مثلاً عن إجابات لتساؤلاتهم حول "السلطة والتحالف والتبادل"[1]، وكلها أفكار مجردة تخضع للتغير المستمر. وإنّ حيوية التغير والليونة هي بالفعل السمة الدائمة الوحيدة لعلم الاجتماع، فلا توجد "نهاية للتاريخ"[2]. ولذلك فإنّ الهدف الرئيسي للبحث النوعي هو طرح مناقشة مقْنعة بالاستناد إلى فهم معقول لمصادر عديدة تتعلق بموضوع البحث. ولكنّ الاستنتاجات النهائية يجب ألاّ تُطرَح كحقائق مثبتة، كما هي الحال في نتائج الدراسات الكمية، بل تُطرَح بشكل تقديرات تمّ التوصل إليها بحذر وعناية بالاستناد إلى وزن الأدلة[3].

ظلّت الطائفة العَلَوية موضوعاً غامضاً أمام المؤرخين والباحثين في الأديان والسلطات السياسية خلال ألف سنة. ولذا فمن المُتصوَّر أنّ الحصول على معلومات مفصلة وموثقة عن هذه الطائفة سيكون صعباً. وفي الواقع كان مجرد

(1) إليوت أيزنر Elliot W. Eisner العين المتنورة، التحقيق النوعي وتعزيز الممارسة التعليمية، (New Jersey: Prentice Hall, 1998) صفحة 28

(2) فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama، نهاية التاريخ، مجلة The National Interest الجزء 16، 1989 صفحة 3–18

(3) أيزنر Eisner، 1998 صفحة 39

التوصل إلى أفضل الأسئلة التي يجب طرحُها للبحث مسألة غير سهلة. ما هي أفضل نقطة مناسبة يمكن الانطلاق منها للبحث في مثل هذا الموضوع الغامض؟ ما هي المواضيع الأساسية التي تجب دراستها للتوصل إلى استنتاجات مفيدة؟ ثم بالنظر إلى ندرة المعلومات التاريخية والمعاصرة عن هذه الطائفة، هل كان مِنَ الحكمة التركيز على طرق ضيقة في البحث؟ قادتْ هذه المصاعب إلى تبني المنهج الاستقرائي النوعي.

يعني الاستقراءُ النوعي تحليلاً واسعاً لمصادر عديدة في محاولة لاكتشاف مواضيع وأفكار يمكن ترتيبها للوصول إلى هدف البحث[1]. وبدلاً مِنَ البحث عن دليل يثبتُ مفاهيم وآراء مسبقة، فقد تمتْ دراسة المصادر بالمقارنة مع نظرية **ابن خلدون** (المبيَّنة فيما سبق) لاكتشاف المواضيع والأنماط التي يمكن تطبيقها على أسئلة البحث. كانت وجهة نظر الباحث بالطبع عاملاً رئيسياً فيما تمّ انتقاؤه مِنْ مواضيع في المصادر، ولذلك لابد مِنَ الأخذ بعين الاعتبار النظرة البُنيوية بأنّ المعرفة والرأي هما مِنْ نتائج التجربة الشخصية. ولكنّ المقارَبة البُنيوية يجب أنْ تسعى إلى سويةٍ عالية مِنَ الموضوعية. وقد طرح **ابن خلدون** والفيلسوف المعاصر **برتراند رسل** Bertrand Russell مناقشة مماثلة. ففي المقدمة كتَبَ **ابن خلدون** ما يلي عن منهج البحث:

"يرتاب الناس عادة بالمعلومات التاريخية، كما أنهم يميلون إلى المبالغة في سرد بعض المعلومات أحياناً في محاولة لإضفاء أهمية خاصة لحديثهم... ولذا يجب على المرء أنْ يتفحص مصادره بالاعتماد على نفسه، وأنْ يميز بين الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة بذهن صاف وفهم للمنطق الطبيعي للأمور، ثم قبول الأمور التي تدخل في دائرة الاحتمالات الممكنة ورفض غير ذلك"[2] [إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني، الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال... ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه، ومنها التشيّعات للآراء والمذاهب، فإنّ النفس إذا كانت على حال

(1) ديفيد توماس David R. Thomas، طريقة استقرائية عامة في تحليل بيانات التقييم النوعية، المجلة الأمريكية للتقييم، الجزء 27، العدد 1، مارس 2006 صفحة 5

(2) ابن خلدون، المقدمة صفحة 146

الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيّع لرأي أو نحلة قبلتْ ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة. وكان ذلك الميل والتشيّع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله. ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين، وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح... فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يُعرض].

وكَتَبَ الفيلسوف الوضعي **برتراند رسل** في سياق انتقاد ويلات الحرب العالمية الثانية:

"في غمار فوضى العصبيات المتصارعة، فإنّ الالتزام بالحقيقة العلمية يظل أحد قوى التوحيد والتآلف القليلة، وأقصد بذلك أنْ نعتاد على ترسيخ آرائنا ومعتقداتنا بالاستناد إلى الملاحظات والاستنتاجات المحايدة والمجردة عن التحيز للأمور المحلية والمزاجية بقدر ماهو ممكن للبشر... ولكي نتوصل إلى تقليل التعصب وزيادة القدرة على التعاطف والتفاهم المتبادل، يجب أنْ تمتد هذه العادة في تحري الحقيقة والصواب مِنْ ممارستها في منهج الفلسفة إلى كافة جوانب النشاط البشري"[1].

الناحية الأساسية في منهجَي **ابن خلدون** و**برتراند رسل** هي التركيز على التمسك بعقلية منفتحة ناقدة، والتوصل إلى استنتاجات غير متحيزة بقدر ما هو ممكن للطبيعة البشرية. ويبدو أنّ **برتراند رسل** يدافع عن أملٍ مستحيلٍ في التوصل إلى موضوعيةٍ مثالية، بحيث أننا حتى لو فشلنا فإنّ المحاولة ستُحَسِّن نوعية البحث. وهو بذلك يقرّ أساساً بأنّ البشر هم سجناء ظروفهم وتحيزهم الشخصي، وأقصى ما يمكنهم فعله هو محاولة التحرر مِنْ ذلك ما أمكن. وبما أنّ هذه الدراسة هي دراسة نوعية، فلا بد مِنْ قبول ما تفترضه البُنيوية بأنّ النتائج ستكون ذاتية.

بالنظر إلى الاضطرابات والنزاعات السياسية العنيفة في الشرق الأوسط، يبدو مِنَ الملائم محاولة استحضار المناهج الفلسفية العقلانية غير المتحيزة **لابن خلدون**

(1) برتراند رسل Bertrand Russell، تاريخ الفلسفة الغربية، (London: Unwin University Books, 1946)، صفحة 789

و**برتراند رسل** في الدراسة النوعية، فربما يمكن التوصل بهذه الطريقة إلى وضع أسس راسخة لهذه الدراسة. ويجب ملاحظة أنّ هذا البحث قد انطلق مِنْ مكان بعيد جداً عن موضوع الدراسة (نيوزيلندا). ورغم أنّ ذلك قد أدى إلى مصاعب مالية، إلا أنه كان ميزة ذهنية، لأنّ الطبيعة المضطربة للسياسة في الشرق الأوسط تُنتج بشكل عام مشاعر قوية وآراء متحيزة. ويمكن القول إنه في المحافظة على نظرة سياسية موضوعية إلى الشرق الأوسط تقترب نيوزيلندا كثيراً مِنْ فكرة "النقطة **الأرخميديسية**" التي اقترَحها الباحث الراحل **إدوارد سعيد**[1].

رغم أنّ **ابن خلدون** قد وُصِف بأنه "مُلاحِظ تجريبي"[2] إلا أنّ منهجه في البحث يقترب مِنَ المنهج الاستقرائي. وحسب الباحث الفرنسي **إيف لاكوست** Yves Lacost فإنّ **ابن خلدون** يُحَوِّلُ *"مجموعة مِنَ الحوادث التي تبدو غير مترابطة ولا معنى لها إلى مفهوم كلي متماسك"* مِنْ خلال *"تطور مركّب ومعقد ولكنه منطقي"*[3]، وهذه بالضبط هي المهمة التي واجهَت المؤلف. فمِنْ خلال تجميع وتمحيص مصادر غير مترابطة في فترة طويلة مِنَ التاريخ، بدأتْ صورةٌ تتشكل وتظهر عن طبيعة سياسة العَلَويين.

جانب آخر مِنْ منهج **ابن خلدون** هي فرضيته القائلة أنّ التاريخ يسير في دورات، تشبه دورة حياة البشر التي *"عكستْ مفهوم الإغريق عن طبيعة التاريخ"*[4]. ويَظهر إيمانه بدورة التاريخ في كل نظرياته، خاصة تلك التي تتعلق بالسياسة ونشوء وانهيار الدول. ومِنَ السهل تفهم السبب الذي دفع **ابن خلدون** إلى تبني نظرة دورية للتاريخ، ففي فترة حياته وخلال القرون التي سبقتْها، انهارتْ

(1) إدوارد سعيد، إعادة النظر في الاستشراق، كما ذُكر في قارئ الجغرافيا السياسية، تحرير أوتواثيل O'Tuathail (London: Routledge, 2006)، صفحة 251

(2) زيد أحمد، ابيستيمولوجية ابن خلدون، (London: Routledge Curzon, 2003)، صفحة 159-160

(3) إيف لاكوست Yves Lacoste، ابن خلدون: ولادة التاريخ وماضي العالم الثالث، (London: Verso, 1984)، صفحة 63

(4) لوكاس آشورث Lucas Ashworth، ابن خلدون ونشوء سياسة الدولة، في كتاب ما بعد الاستعمار ونظرية السياسة، تحرير ن. برسرام N. Persram (Plymouth: Lexington Books, 2007)، صفحة 44

سلالات حاكمة عديدة، وظهرتْ سلالات جديدة بدلاً منها. ولكنْ في العصور الحديثة فإنّ هذا المنهجَ محدودٌ كطريقةٍ لفهم السياسة. فمثلاً رغم أنّ نظام **الأسد** يمكن وصفه بأنه سلالة حاكمة، فلا يوجد أي ضمان بأنّ نظاماً مماثلاً سيخلفه.

الهدف الرئيسي مِنْ هذا البحث هو معرفة وشرح التطور السياسي لحالة العَلَويين السوريين في إطار مفهوم العصبية عند **ابن خلدون**. في طريقي نحو تحقيق هذا الهدف باستخدام المنهج الاستقرائي والإطار النظري **لابن خلدون**، مررتُ بمراحل متعددة مِنَ الاستقراء العام والبحث عن الحالات الاجتماعية والسياسية والجغرافية المختلفة لتاريخ العَلَويين. ظهرتْ مواضيع رئيسية عدة خلال ذلك، مثل: القمع والاضطهاد المتكرر لهذه الطائفة، وتركّزها في عزلة ريفية، وظهور النزعة الواقعية العملية فيها، والعوامل الجغرافية التي أدّتْ إلى بقائها وتخلفها. ولكن الموضوع الرئيسي الذي برز خلال بحثي الاستقصائي هو الخوف الطائفي وعدم الشعور بالأمن والاطمئنان. وأصبح الاستقصاء عن كيفية انغراس الخوف الطائفي، وكيف يظهر تأثيره في سياسة العَلَويين، الموضوع الأساسي في دراسة الهدف الرئيسي لهذا البحث.

شكّل البحث عن أفضل طريقة لدراسة العَلَويين تحدياً معقداً، وتساءلتُ كثيراً عما دفعني لاختيار موضوع شائك مثله! إذ تبدو المواضيع ذات المصادر المتوفرة والأدبيات الكثيرة أكثر جاذبية، ويفضّل علماء الاقتصاد مثلاً مبدأ "الثمرة الناضجة" في بحثهم عن الدراسات السهلة[1]. وعلى كل حال فإنّ الموضوع الذي اخترتُه للبحث هو مثال جيد للتأكيد على أنّ المواضيع الصعبة القليلة المصادر والتي تبدو غير عملية يجب أنْ تُدرس إلى أقصى مدى ممكن، وإنّ هذه المواضيع الأكثر صعوبة هي التي يجب أنْ تحظى بأكثر اهتمام أكاديمي في أغلب الأحيان.

المصادر وكيف تم الحصول عليها

جُمِعتْ مصادر هذه الدراسة في أربع فئات: مقابلات شخصية مع عناصر أساسية، وملاحظات ميدانية، ومصادر أخبار ووثائق، وأبحاث منشورة. ستُلخَص

(1) برنانك وفرانك Bernanke & Frank، مبادئ الاقتصاد، الطبعة الثالثة، (New York: McGraw-Hill, 2007) صفحة 49

المصادر وأهميتها وكيفية الحصول عليها فيما بعد، وسيتم سرد القيود التي واجَهَت البحث ضمن مناقشة كل جانب مِنْ جوانبه بدلاً مِنْ وضعها في قسم خاص.

المقابلات

أجريتُ ستَّ مقابلات مع عناصر رئيسية، اثنتين في 2009، وأربع في 2011.

في 12 مايو 2009 أجريتُ مقابلة مع قاضٍ ألماني هو **ديتليف ميليس** Detlev Mehlis الذي رأس لجنة الأمم المتحدة الدولية المستقلة للتحقيق في مقتل رئيس وزراء لبنان السابق **رفيق الحريري** سنة 2005. شكّل هذا التحقيق، وما نتج عنه مِنْ تأسيس للمحكمة الدولية الخاصة بلبنان في هولندا، تهديداً كبيراً لحكم عائلة **الأسد** في النصف الثاني مِنَ العقد الأول للقرن الحادي والعشرين، ومصدراً رئيسياً للقلق في سياسة العَلَويين الحديثة. أُجريتْ هذه المقابلة في جامعة أوتاغو في نيوزيلاندا.

في 16 سبتمبر 2009 أجريتُ مقابلة طويلة ومفصلة مع **عبد الحليم خدام** وزير الخارجية ونائب رئيس الوزراء السوري السابق، وهو سنّيّ مِنْ مدينة بانياس، وقد شاركَ في السياسة السورية في أعلى المستويات على مر أكثر مِنْ أربعين سنة، وكان صديقاً حميماً ومقرباً مِنَ الرئيس **حافظ الأسد**. وقد وافقتْ سيرته وتجربته مع حكم عائلة **الأسد** والسياسة السورية بشكل عام فترةً حرجةً مِنْ تاريخ العَلَويين حين وصل أفراد مِنْ تلك الطائفة إلى سدة الحكم. رغم أنّ بعض المعلقين السياسيين يزعمون أنّ لديه خطة سياسية خاصة[1]، إلا أنّ مصداقيته كمصدر جيد قد أكّدها كثيرون، مثل الاقتصادي اللبناني **مروان اسكندر** الذي كتَبَ في 2006:

*"في عمر 77 سنة عرَّضَ **خدام** حياته للخطر بالتعبير عن آرائه، وبالنسبة إلى رجل دولة محنك وذكي وسليم وبعيد النظر لابد مِنْ أنْ تَصدر مثل تلك المبادرة*

(1) صرح القاضي ميليس Mehlis للمؤلف أنه لا شك بأن عبد الحليم خدام لديه خطة سياسية خاصة ولكن ذلك لا يعني أنه يكذب في روايته عن أحداث سورية. وذكر ميليس ذلك بالمقارنة مع رستم غزالة الذي يعمل مع النظام السوري والذي ثبت كذبه للمحققين الدوليين.

عن شعور عميق بالمسؤولية التاريخية... إنه يخشى أنّ جيله قد خذل الأمة العربية[1].

صدر تصريح آخر يدل على صِدق **عبد الحليم خدام** مِنَ القاضي **ديتليف ميليس** الذي استَجوَب **خدام** في ديسمبر 2005. وتؤهّل شهادات **ميليس** القانونية للتعليق على مصداقية شهادة **خدام**:

*"أعتقد أنّ ما قاله **خدام** صحيح... فهو يعرف النظام ويعرف كيف يعمل هذا النظام... ويستطيع أنْ يفسر الأمور والتصرفات والأسرار والشخصيات الفاعلة مِنَ الناس... وعن انفعالاتهم وعواطفهم... وعن تسلسل القيادة وكيف تعمل"*[2].

وعلى كل حال فإنّ المعلومات التي تم الحصول عليها في مقابلة **عبد الحليم خدام** أعطتْ رؤية نادرة لطريقة العمل الداخلية في السياسة السورية الغامضة، وأضافتْ عنصراً هاماً لهذا البحث. تمّ الحصول على المقابلة بعد محاولات عديدة للاتصال **بعبد الحليم خدام** في منزله بباريس حيث يعيش بعد أنْ غادر سورية في 2005. وتطلّب اللقاء **بخدام** احتياطات أمنية كثيرة، ولا شك بأنه أصبح هدفاً أساسياً بعد اتهاماته لنظام **الأسد** بقتل رئيس الوزراء اللبناني السابق **رفيق الحريري**.

في عام 2011 أجريتُ أربع مقابلات هامة، كانت الأولى مع **إيلي سالم** وزير الخارجية اللبناني السابق ورئيس جامعة البلمند. قدّمتْ هذه المقابلة معلومات جيدة عن وجهة النظر اللبنانية بعائلة **الأسد**، وخاصة عن دورها في لبنان. أجريتْ المقابلة في 15 مارس 2011 بجامعة البلمند في شمال لبنان. ولسوء الحظ تَحتّمَ محو التسجيل الصوتي لهذه المقابلة بعدها بعشرة أيام عندما قَبَضَتْ عليَّ قوى الأمن السورية في اللاذقية. واستعدتُ العناصر الرئيسية لهذه المقابلة مِنَ الذاكرة بعد مغادرتي سورية في 26 مارس 2011.

أُجريتْ المقابلات الثلاث الأخرى في مدينة أنطاكية في تركيا بتاريخ 28 مارس 2011، وكانت مع الشيوخ العَلَويين **محمد بوز وعلي يرال ونصير**

(1) مروان اسكندر، رفيق الحريري ومصير لبنان، (London: Saqi, 2006)، صفحة 225

(2) ديتليف ميليس Detlev Mehlis، مقابلة مع المؤلف، دندين 12 مايو 2009

إيزكيوكاك (وكلها باللغة العربية). هناك جالية عَلَوية كبيرة في أنطاكية وما حولها، ويُعتبر هؤلاء المشايخ شخصيات دينية هامة ومِنْ قيادات الطائفة.

بالنظر إلى صعوبة إجراء مثل هذه المقابلات في سورية، فقد كانت هامة ولا تقدر بثمن. ورغم أنّ مواضيع تاريخية ودينية قد بُحثتْ، إلا أنّ هؤلاء الشيوخ كانت لديهم أيضاً معلومات غنية وفهم واضح للقضايا السياسية المعاصرة التي تتعلق بطائفتهم في سورية. وبفضل مقابلة كل مِنْ هؤلاء المشايخ على انفراد، أمكن مقارنة معلوماتهم عن المواضيع المتماثلة، والتوصل إلى انطباع حقيقي نادر عن وجهة النظر العَلَوية. تمّ ترتيب هذه المقابلات بمساعدة مشكورة لمعارف أتراك مِنْ أنقرة وأنطاكيا.

الملاحظات الميدانية

تمّ تحصيل الفئة الرئيسية الثانية مِنَ المصادر بالعمل الميداني في سورية. قمتُ برحلتين إلى سورية في أغسطس 2009 ومارس 2011. وبسبب القيود التي وضعَتها الحكومة السورية على إجراء حوار عن الطوائف والأقليات، فقد كان العمل الميداني غير منظم وغير رسمي، واعتمَدَ بشكل أساسي على الملاحظة. كان الهدف الرئيسي في الميدان هو تجميع أكبر كمية ممكنة مِنَ المعلومات ضمن الظروف المتاحة، للوصول إلى فهمٍ لحالة العَلَويين في سورية. ولذلك فقد قضيتُ أغلب الوقت في الشمال الغربي مِنْ سورية حيث يعيش أغلب العَلَويين. وقسّمتُ وقتي بين المناطق المَدَنية، خاصة في اللاذقية، ومعقل العَلَويين في منطقة الجبال الساحلية.

الملاحظات المباشرة في سورية كانت مهمة جداً للتوصل إلى تقييم مستقل للحالة الاجتماعية والاقتصادية والميول السياسية للعَلَويين بشكل خاص، وللدولة بشكل عام. وقد استطعتُ تكوين معارف وصداقات مع العَلَويين وغيرهم مِنَ السوريين، ورغم أنّ مناقشة المواضيع السياسية بشكل صريح مع هؤلاء لَمْ تكن مأمونة، وقد طلبوا جميعاً الاحتفاظ بسرّية أسمائهم، إلا أنني استطعتُ الحصول على حوارات بنّاءة ساعدتْ على تعريفي وتفهمي لموضوع البحث.

خلال التحضير لهذا الجانب الهام مِنَ البحث، كان عليَّ تعلم اللغة العربية بشكل مكثف. كنتُ قد دَرَستُ اللغة العربية بشكل جزئي منذ 2007، وقمتُ

بزيادة جهودي في هذا المجال قبل زياراتي الميدانيـــة إلى ســـورية في 2009 و2011. وبالفعل فقد كانت مهارتي في اللغة العربية ضرورية لأنّ السكان، خاصة في المناطق الريفية السورية، لا يتحدثون اللغة الإنكليزية. وحتى في المناطق التي يستطيع فيهـا الناس التحدث بالإنكليزية، فإنّ قدرتي على التحدث بالعربية فَتَحَتْ أمامي الفرصة لتواصلٍ أفضل، والسوريون مشهورون بحسن ضيافتهم وهم يستحقون هذه الشهرة بالفعل.

حرصتُ على توثيق زياراتي بتصوير الأماكن والأشخاص والأشياء التي تتعلق بالبحث، فمثلاً قمتُ بتصوير منطقة حماة لتوضيح آثار الصراع الذي حَدَثَ فيهـا سنة 1982، وبتصوير الجبال الساحلية لتوضيح طبيعة المنطقة والحالة الاجتماعيـة والاقتصادية. كانت هذه الصور هامة لأنني لم أستطع الاحتفاظ بملاحظات مكتوبة يمكن أنْ تثير الشكَ لدى الجهات الرسمية إنْ اكتُشِفتْ. ولسوء الحظ ففي زيـارتي الثانية صادَرَت الجهاتُ الأمنية شريحة الذاكرة الموجودة في كاميرا التصوير عنـدما شكّوا بأنني صحفي، وألقوا القبض عليَّ أثناء مظاهرات ضد النظام في اللاذقية. ولمْ تبقَ لديّ سوى الصور التي كانت عندي مِنْ رحلة 2009، وسأنشر بعضها في هذا البحث لتوضيح بعض النقاط.

هناك جانب هام آخر في بحثي الميداني يصعب وصفه، وهو التعرف المباشـر على الضغط المتزايد في نفوس السوريين في أواخر 2011. كان هنالك مناخٌ سياسي عام مِنَ القمع والاضطهاد في سورية لعقود مِنَ الزمن، مما خَلَقَ شعوراً مِنَ الشـك وعدم الثقة بين الناس الذين كانوا يخافون مِنَ التحدث بصراحة أو التصرف بحرية. ازداد ثقل هذه المشاعر تحت وطأة الظروف الاجتماعية والاقتصادية الصـعبة. في 2009 كان الضغط داخل المجتمع السوري محسوساً، ولكنْ مع حلول عـام 2011، تفجرتْ هذه الضغوط بشكل مظاهرات شملتْ كافة أنحاء الدولة في الفتـرة الـتي وصلتُ فيها إلى سورية.

ربما كان العمل الميداني في سورية بشكل عام هو أهم مصادر البحث النوعية. رغم أنّ قيمة هذه المعلومات كانت صعبة التقدير لأنها اعتمدت بشـكل أساسـي على الانطباعات الشخصية، ولأنّ جميع المصادر المذكورة ظلّتْ مغفلة الأسماء، إلا

أنها قدّمتْ وجهة النظر اللازمة لتفهم المصادر الأولية والثانوية، وســاعدتْ علـى التوصل إلى استنتاجاتي الخاصة.

الوثائق الأولية ومصادر الأخبار

استخدمتُ الوثائق الأولية قدر المستطاع في صياغة هذه الدراســة. ولكـنّ اتساع موضوع البحث، وضيق الوقت المتاح لإتمامه، قلّصَ قدرتي علـى تركيـز البحث ضمن فترة محددة. كنتُ أتمنى لو استطعتُ مثلاً أنْ أحصَل علـى مصـادر أولية عن العَلَويين في الفترة العثمانية مِنَ الأرشيف في اسطنبول، ولكنني اكتشـفتُ أنّ التوصل إليها سيكون صعباً بدون معرفة جيدة باللغة التركية العثمانية، كما أنّ عدم تصنيف الوثائق بشكل جيد يَستدعي ضياع كثير مِنَ الوقـت للوصـول إلى معلومات مفيدة. وربما يستطيع مؤرخون متخصصون القيام بمثل هذه الأبحاث عن العَلَويين السوريين في المستقبل. وسأذكر لاحقاً تفصيل الوثائق الأولية التي حصلتُ عليها ومصادر الأخبار التي استخدمتُها.

بالنسبة للفترة العثمانية، حصلتُ على ثلاث وثائق تحتوي علـى أقسـام عـن العَلَويين السوريين (النُصَيريين): سجلات الدولة العثمانية في أواخـر القـرن التاسـع عشر[1]، سجل ولاية **سليمان باشا العادل** 1804–1819، جمع **ابـراهيم العـورة**[2]، و"لبنان، مباحث علمية واجتماعية"، جمع **اسماعيل حقي** في 1918[3]. بالنسبة للفتـرة 1920–1939، رجعتُ إلى الأعداد ذات الصِلة مِنَ المجلة الرسمية لعصبة الأمـم، مـع الانتباه بشكل خاص إلى التفاصيل المتعلقة بالدولة العَلَويـة في الفتـرة 1922–1936. اعتمدتُ في دراسة الفترة 1936–1969 على المطبوعات الموجودة التي قمـتُ بإعـادة دراستها وتحليلها ووضعها في السياق المناسب لأهداف البحث. المصادر الرئيسية للفترة

(1) ابن جبرايل القلاعي، زجليات، (Beirut: Dar Lahad Khatar, 1982)

(2) إبراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشـا العـادل 1804–1819، (History of the Province of Suleyman al-'Adil, 1804-1819)، صفحة 205–206 ترجمـة المؤلـف بالاشتراك مع جان لوك بايان Jean-Luc Payan 2010

(3) إسماعيل حقي، لبنان: مباحث علمية واجتماعية، تحرير فؤاد بستاني، من الأصل 1918، جزءين، (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، 1970)

1969–1999 كانت متوفرة في سجلات الصحف اليومية، وخاصة في صحيفة النيويورك تايمز وصحيفة التايمز اللندنية. تحتفظ هاتان الصحيفتان بأرشيف كامل فيه تقارير منتظمة لمراسلين مِنْ سورية مثل **توماس فريدمان** Thomas Friedman **وسوزان ساكس** Susan Sachs، **وروبرت فيسك** Robert Fisk في صحيفة التايمز. وفي الفترة 2000–2004 احتوتْ مجلة الإيكونوميست Economist ومجلة الفينانشيال تايمز Financial Times على تقارير هامة عن أحداث السياسة السورية.

في الفترة 2004–2007، تمّ الاستشهاد بقرارات مجلس الأمن UNSC والوثائق الرسمية للمحكمة الجنائية الدولية للبنان STL ضمن المصادر الثانوية. وللفترة 2007–2010، وضعتُ قاعدة بيانات خاصة لمصادري مِنَ الأخبار حسب نشرها. وقد رجعتُ إلى مصادر أخبار كثيرة سأذكر أهمها فقط. ويمكن تصنيف هذه المصادر الصحفية المعاصرة في فئات أربع: سورية وعربية وإسرائيلية ودولية.

كان أهم مصدر سوريّ للأخبار هو الطبعة الإنجليزية لوكالة الأنباء السورية SANA التي تصدر يومياً على الإنترنت، كما شملتْ أيضاً شام برس Cham Press وداي برس نيوز Day Press News. وتمّ الرجوع أيضاً إلى مجلة سورية اليوم. جميع هذه المصادر الأخبارية هي مصادر رسمية تابعة للدولة أو أنها تعمل تحت إشرافها، وهي لذلك تنقل وجهة نظر النظام ولا يمكن الاعتماد عليها كمصادر حيادية في نشر الأحداث. ولكنّ مصدراً سورياً واحداً للأخبار قدّم معلومات مستقلة، وكان صحفياً يعمل في مؤسسة تقارير الحرب والسلام IWPR وطَلَبَ الاحتفاظ باسمه سرياً. وقد أُغلقْ فرع هذه المؤسسة بسورية في شهر أبريل سنة 2010.

كانت صحيفة الديلي ستار Daily Star اللبنانية هي أهم مصادر الأخبار العربية. وهي تُصدِر طبعة مستقلة يومية باللغة الإنجليزية. كما كان موقع جريدة النهار اللبنانية مصدراً مهماً. وضمّتْ مصادر الأخبار العربية أيضاً الصحيفتين السعوديتين: الحياة، والشرق الأوسط. كما كانت الصحيفتان الإسرائيليتان هاآرتز Ha'aretz والجيروزالم بوست Jerusalem Post مفيدتين في مقارنة تقارير الأحداث. وتُعتبر الأولى صحيفة الوسط، في حين تُعتبر الثانية صحيفة يمينية في توجهاتها السياسية. ورغم أنّ مصادر الأخبار الإسرائيلية بشكل عام تُركّز على

المصالح الإسرائيلية، إلا أنها تتمتع بدرجة مهنية صحفية جيدة في نشر الأخبار.

مصادر الأخبار الدولية الرئيسية شمَلَت الصحف الأمريكية: نيويورك تايمز New York Times، واشنطن بوست Washington Post، الأسوشيتدبرس Associated Press وأحياناً لوس أنجلوس تايمز Los Angeles Times. والمصادر الأوروبية: أخبار BBC الإنجليزية ووكالة الأنباء الفرنسية AFP. تنشر هذه المصادر أخبار سورية مِنْ وجهة النظر الغربية. مصادر الأخبار الدولية الأخرى التي نَشرتْ وجهة نظر مختلفة أكثر تعاطفاً مع النظام السوري شملتْ: موقع الأخبار الإيراني Press TV، وموقع الأخبار الصيني Xinhua. بمقارنة مصادر الأخبار هذه بمجموعها، أمكن التوصل إلى معرفة حقيقية واقعية مقبولة عن أحداث ووقائع الفترة المعاصرة بعد عام 2007.

الأبحاث المنشورة:

لا توجد دراسات تركز على قضية المصالح السياسية للعَلَويين وتطورهم. تحاول هذه الدراسة سدّ هذه الفجوة في الأبحاث المنشورة عن العَلَويين وعن سورية. ركّزتْ أهم الأعمال المنشورة عن العَلَويين على الجوانب العقائدية والدينية لهذه الطائفة وبداياتها التاريخية[1]. نُشِرتْ دراسات عن السياسة العَلَوية المعاصرة في الدوريات وبعض فصول الكتب الأكاديمية. وكان الموضوع العام لهذه الدراسات هو التأكيد على أنّ العَلَويين هم أقلية مسيطِرة في سورية[2]. اعتمدتْ هذه

(1) يارون فريدمان Yaron Friedman، النُصيريون–العَلَويون: مقدمة عن الدين والتاريخ والهوية للأقلية الحاكمة في سورية، (Leiden: Brill, 2010); Meir M. Bar-Asher and Aryeh Kofsky, *The Nusayri-'Alawī Religion: An Enquiry into its Theology and Liturgy* (Leiden: Brill, 2002).

(2) انظر مثلاً: محمد فقش، الطائفة العَلَوية في سورية: قوة سياسية جديدة مسيطرة، مجلة دراسات الشرق الأوسط، الجزء 20، العدد الثاني، (أبريل 1984) صفحة 133–153. دانييل بايبس aniel Pipes، استلام العلويين للسلطة في سورية، مجلة دراسات الشرق الأوسط، الجزء 25، العدد الرابع، (أكتوبر 1989) صفحة 429–450. إ. زيسر E. Zisser، العلويين، أمراء سورية: من أقلية طائفية إلى فئة حاكمة، تحرير: أوفرا بنجيو Ofra Bengio وج. بن-دور G. Ben-Dor الأقليات والدولة في العالم العربي، (Boulder & London: Lynne Reiner Publishers, 1999)، صفحة 137

الدراسات في الغالب على مقاربة مِنَ الأعلى إلى الأسفل، والتركيز على عائلة **الأسد**، وموضع العَلَويين كعمود دعمه الأساسي. ولكنّ خلفية وأساس هذا الدعم واستمراره لَمْ يُدْرَس بشكل وافٍ في الدراسات المنشورة، ولذلك أعدتُ دراسة المؤلفات في هذا البحث بغرض تشكيل وجهة نظر جديدة في موضوع السياسة العَلَوية.

لبناء البحث عن بداية تاريخ العَلَويين في الفترة 850–1300، درستُ أعمالاً أكاديمية عديدة، لعل أهمها الكتاب الذي نُشر في 2010 بعنوان: "النُّصَيريون–العَلَويون: مقدمة عن الدِّين والتاريخ والهوية للأقلية الحاكمة في سورية" مِنْ تأليف الباحث الإسرائيلي **يارون فريدمان** Yaron Friedman[1]. يقدّم هذا الكتاب إضافة ضرورية للدراسات عن العَلَويين، ويضفي وضوحاً لازماً في بحث موضوع كان يبدو غامضاً عن تاريخ الطائفة العَلَوية. يَبحث الكتاب بشكل رئيسي في التطور الديني لهوية العَلَويين حتى القرن الرابع عشر، كما يقدِّم بعض الملاحظات عن الصراع السنّي – الشيعي في الشرق الأوسط المعاصر. وهناك دراسة هامة أخرى عن العَلَويين قدَّمها كتّاب إسرائيليون في كتاب نُشر سنة 2002 بعنوان: "الديانة النُّصَيرية – العَلَوية: بحث في عقائدها وطقوسها" تأليف **مائير م. بار–آشر** Meir M. Bar-Asher **وآريه كوفسكي** Aryeh Kofksy[2]. يَنحصر موضوع هذا الكتاب في بحث الديانة العَلَوية، ويُشكّل مرجعاً قيِّماً في دراسة تطورهم الديني.

مِنَ المفارقة، وربما مِنْ سوء الحظ، أنّ الإسرائيليين هم أكثر الدارسين حماسة لتوزّع الأديان السياسي في سورية، وتُواجههم في الوقت نفسه أكثر القيود صعوبة في دراساتهم الميدانية. يُقدِّر المؤلفُ جهود **يارون فريدمان**، ويَسعى للبناء على أسس دراساته، ويضيفُ عليها فوائد الزيارات الميدانية إلى سورية، ومراقبة العَلَويين

(1) يارون فريدمان Yaron Friedman، النُّصيريون–العَلَويون: مقدمة عن الدين والتاريخ والهوية للأقلية الحاكمة في سورية، (Leiden: Brill, 2010). الفصل الثالث صفحة 175–221

(2) مائير م. بار–آشر Meir M. Bar-Asher وآريه كوفسكي Aryeh Kofsky، الديانة النُّصيرية – العَلَوية: بحث في عقائدها وطقوسها، (Leiden: Brill, 2002)

بشكل مباشر. وإنّ وضوح دراسة **فريدمان** في دراسة نشأة العَلَويين وأصولهم هو نقطة انطلاق يعتمد عليها الباحثون في التحليل السياسي المتعمق هذه الأيام.

وجدتُ تفاصيلَ عن نشأة العَلَويين في كتابات المؤرخ **ماتي موسى** Matti Moosa[1]، والجغرافي الفرنسي **زافييه دى بلانهول** Xavier de Planhol[2]، والمؤرخ **كايس فيرو** Kais Firro[3]. أمكن فهم السياق السياسي للعَلَويين في فتراتهم الأولى مِنْ خلال أعمال مثل: "نشوء الإسلام، الديانة والمجتمع في الشرق الأدنى 600–1800" للمؤلف **جوناثان بيركي** Jonathan Berkey[4].

تجمع هذه الدراسة عناصر مِنْ كل هذه الأبحاث الأساسية لبناء صورة للسياسة العَلَوية في مراحلها الأولى. يسهم هذا البحث بإضافة ودمج تفاصيل مِنْ تاريخ العَلَويين تمّ الحصول عليها بمقابلة ثلاثة مِنْ شيوخ العَلَويين كما ذُكر سابقاً. فهناك تراث عَلَوي قديم في نقل المعلومات التاريخية مِنْ خلال شيوخهم. وبالانسجام مع أهداف هذه الدراسة، فإنّ الكيفية التي يَنظر بها العَلَويون إلى تاريخهم تُشكّل جانباً أساسياً هاماً في فهم تطور سياساتهم، وفي نشوء عصبيتهم الطائفية بشكل خاص.

هناك كثير مِنْ عدم الوضوح في تفاصيل حالة العَلَويين في الفترة بين القرن الرابع عشر والقرن التاسع عشر. قدَّم المؤرخ **ساتو تسوغيتاكا** Sato Tsugitaka رصْداً ممتازاً لثورة العَلَويين في مدينة جبلة الساحلية في بدايات القرن الرابع عشر[5].

(1) ماتي موسى Matti Moosa، الشيعة المتطرفة، الفئات المتطرفة، (New York: Syracuse University Press, 1988)

(2) زافييه دى بلانهول Xavier de Planhol الأقليات في الإسلام، الجغرافيا السياسية والاجتماعية، (Paris: Flammarion, 2007)، صفحة 83–91

(3) كايس فيرو Kais Firro، العَلَويون في سورية الحديثة: من النُّصيرية إلى الإسلام عبر العَلَوية، مجلة Der Islam الجزء 82، العدد الأول، والتر دى غرويتر Walter de Gruyter 2005

(4) جوناثان بيركي Jonathan Berkey نشوء الإسلام، الديانة والمجتمع في الشرق الأدنى 600–1800 (UK: Cambridge University Press, 2003)

(5) ساتو تسوغيتاكا Sato Tsugitaka الدولة والمجتمع الريفي للإسلام في القرون الوسطى (Leiden: Brill, 1997)

وصورةً جيدة للمجتمع العَلَوي في تلك الفترة. قامتْ **إيفيت تلحمي** Yevette Talhamy بدراسة فتاوى **ابن تيمية** ضد العَلَويين في تلك الفترة نفسها[1]. وفيما عدا ذلك وعلى امتداد خمسة قرونٍ مِنْ 1318 وحتى منتصف القرن التاسع عشر، هناك فجوات واسعة في الدراسات عن العَلَويين. ذَكر **يارون فريدمان** Yaron Friedman هذا النقص في المصادر كسببٍ لتوقف تأريخه عند القرن الرابع عشر[2]، ولمْ تتمكن هذه الدراسة مِنْ تجاوز هذه الفجوة التاريخية إلا باستخدام تفاصيل متفرقة، ومناقشة الأحوال السياسية العامة في المنطقة وتقدير انعكاسات تأثيرها على العَلَويين. هناك حاجة للبحث والاستقصاء عن تلك الفترة.

ظهَرَ العَلَويون مِنْ جديد في الدراسات بعد منتصف القرن التاسع عشر حين قدَّم الرحالة الأوربيون والمستشرقون والمبشِّرون مِنْ أمثال: الملازم **ف. والبول** F. Walpole، والأب **صموئيل لايد** Samuel Lyde، والأب **هنري جيسوب** Henry Jessup، وصفاً مباشراً جيداً عن حالة العَلَويين في منتصف القرن التاسع عشر 1850-1860 في فترة كانت مضطربة وصعبة بالنسبة لهذه الطائفة[3].

وفي نهاية القرن التاسع عشر نَشر الباحث الفرنسي **رينيه دوسو** Rene Dussaud دراسة عن العَلَويين[4] ظلَّت المرجع الأكاديمي الرئيسي عن هذه الطائفة حتى صدور أبحاث **بار آشر** Bar Asher و**كوفسكي** Kofksy و**فريدمان** Friedman في السنوات الأخيرة. وهناك مصدر هام عن العَلَويين كُتِبَ في 1007، واستَخدمه الباحثون في القرن التاسع عشر كمرجعٍ رئيسي، وعنوانه: "كتاب الأعياد" الذي يُنسَب إلى الشيخ العَلَوي **أبو سعيد الميمون ابن قاسم الطَبَراني** [اسمه

(1) إيفيت تلحمي Yvette Talhamy الفتاوى والنُصيرية/العَلَوية في سورية، مجلة دراسات الشرق الأوسط، الجزء 46، العدد الثاني 2010

(2) فريدمان Friedman 2010 صفحة 64

(3) الملازم ف. والبول F. Walpole النُصيريون ورحلات الشرق الأدنى في 1850-1851 (London: Richard Bentley, 1851)*51*، الأب صموئيل لايد Samuel Lyde، توضيح غموض آسيا في التاريخ والدين والحالة المعاصرة للنصيريين في سورية، (London: Longman, Green, Longman & Roberts, (1860، الأب هنري جيسوب Henry Jessup ثلاث وخمسون سنة في سورية (London: Fleming H. Revell, 1910)

(4) رينيه دوسو Rene Dussaud، تاريخ وديانة النُصيريين، (Paris: Bouillon,1900)

الكامل هو أبو سعيد الميمون بن سرور بن القاسم الطبراني (358- 426هـ/ 969- 1035 م)]. حصل **جوزيف كاتافاغو** Joseph Catafago على هذا الكتاب الذي كَشف كثيراً عن العَلَويين، وأهداه إلى القنصل البروسي العام وإلى المجلة الآسيوية Journal Asiatique في 1848[1]، وفي سنة 1862، نُشر كتابٌ عن ديانة العَلَويين مِنْ تأليفِ عَلَويّ تحوَّل إلى البروتستانتية اسمه **سليمان أفندي الأذني**[2]. رغم أنّ المعلومات عن الحالة الاجتماعية والهوية الدينية للعَلَويين قد تحسنتْ كثيراً بعد هذه الدراسات والاكتشافات، إلا أنّ دراسة الأحوال والميول السياسية للعَلَويين في تلك الفترة ظلّتْ ناقصة. كيف ظَهرتْ آثار التهميش العام لطائفة العَلَويين على مستقبلهم وطموحاتهم السياسية في العقود الأخيرة مِنَ الدولة العثمانية؟ أو بصيغة مختلفة: كيف كانت شدة العصبية الطائفية لدى العَلَويين في أواخر حكم العثمانيين؟

في النصف الأول مِنَ القرن العشرين، شَملتْ أهم الدراسات التي صَدرتْ عن العَلَويين بحثاً قام به الفرنسي **جاك ويللرس** Jacque Weulersse في أواخر الثلاثينيات. توصَّلَ **ويللرس** إلى بعض الاستنتاجات المتينة عن الطبيعة المرنة القوية التي تُميز العَلَويين، والتي يمكن أنْ ترجع إلى مستوى العصبية عندهم[3]. مساهمة أخرى هامة هي دراسة **غيتا يافي-شاتزمان** Gitta Yaffe-Schatzmann عن اندماج منطقة العَلَويين سنة 1936 في دولة سورية المستقلة الناشئة[4]. أضفتْ دراسة **يافي- شاتزمان** الضوءَ على الاتجاه العملي الذي سار فيه قادة العَلَويين حتى

(1) للرجوع إلى هذه التفاصيل والترجمة الإنكليزية لهذا المصدر انظر: لايد Lyde 1860 صفحة 282

(2) للترجمة الإنكليزية انظر: إدوارد ساليزبري Edward E. Salisbury، الثمرة الناضجة الأولى، الإفصاح عن أسرار الديانة النصيرية، مجلة الجمعية الأمريكية للمستشرقين Journal of the American Oriental Society، الجزء الثامن، 1866، صفحة 227-308

(3) جاك ويللرس Jacque Weulersse، دولة العَلَويين، (Tours: Arrault & Cie, Maitres imprimeurs, 1940) أطروحة في جامعة باريس

(4) غيتا يافي-شاتزمان Gitta Yaffe-Schatzmann، العَلَويون الانفصاليون والاتحاديون: أحداث 25 فبراير 1936، مجلة دراسات الشرق الأوسط، الجزء 31، العدد الأول، (يناير 1995)، صفحة 28-38

وصلوا إلى قرار تأييد اندماج الطائفة مع الأكثرية السنيّة في الدولة السورية الناشئة.
في دراستهم المفصلة عن السياق السياسي العام في العقود الأولى مِنَ القرن العشرين، قدّم فيليب خوري وستيفن لونغريغ Stephen Longrigg دراسةً عميقة لفترة الانتداب الفرنسي[1]. كما تضمنتْ دراسة حنا بطاطو عن نشوء طبقة الفلاحين السوريين في القرن العشرين تفصيلات هامة وتحليلاً عميقاً عن حالة العَلَويين[2]. وحول سيرةِ أفرادٍ مهمّين مِنَ العَلَويين مثل حافظ الأسد، يُعتبر كتاب **باتريك سيل** Patrick Seal مصدراً رئيسياً[3]. إلا أنّ التمحيص المركّز على الاتجاه العام لسياسة العَلَويين في تلك الفترة ظلّ غائباً. كيف تطورتْ عصبية العَلَويين في تلك الفترة؟ وكيف كان تأثيرها السياسي على الدولة السورية الوليدة؟

في النصف الثاني مِنَ القرن العشرين كان أهم عمل يتعلق بالعَلَويين السوريين هو التحليل المفصل الذي قام به **نيكولاوس فان دام** Nikolaos Van Dam عن الطائفية في السياسة السورية[4]. قدّم **فان دام** تفصيلاً ممتازاً وتحليلاً للصراع السياسي الذي دار بين الطوائف الدينية السورية المختلفة في الستينيات، وكان للعَلَويين دور كبير في ذلك الصراع، حتى ظَهروا سنة 1970 قوةً رئيسيةً داعمة للنظام الذي أسسه **حافظ الأسد**. درس حنا **بطاطو** أيضاً هذه الفترة جيداً، وكذلك فَعَلَ **آلاستير دريسديل** Alasdair Drysdale[5]. ولكن ظلّتْ هناك

(1) فيليب خوري، سورية والانتداب الفرنسي: سياسة القومية العربية، (London: IB Taurus, 1987)، ستيفن لونغريغ Stephen Longrigg، سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، (London: Oxford University Press, 1958).

(2) حنا بطاطو، الفلاحون في سورية، أحفاد أعيان الريف البسطاء وسياساتهم، (New Jersey: Princeton University Press, 1999).

(3) باتريك سيل Patrick Seal، أسد سورية، (London: IB Taurus, 1988).

(4) نيكولاوس فان دام Nikolaos Van Dam، الصراع على السلطة في سورية: السياسة والمجتمع تحت حكم الأسد وحزب البعث، (New York: IB Taurus, 1997).

(5) حنا بطاطو، ملاحظات عن الجذور الاجتماعية للحكم السوري، الفئة العسكرية وأسباب هيمنتها، مجلة الشرق الأوسط، الجزء 35، (صيف 1981) صفحة 331-344. آلاسدير دريسديل Alasdair Drysdale، النخبة السورية السياسية، 1966-1976: تحليل مكاني واجتماعي، مجلة دراسات الشرق الأوسط، الجزء 17، العدد الأول، (يناير 1981) صفحة 3-31.

حاجة لدراسة هذه الأحداث مِنْ ناحية الدور الخاص الذي لعبته الطائفة العَلَوية. كيف أتاحت العصبية العَلَوية الفرصة لتأسيس حكم عائلة الأسد؟ وكيف كانت قوة العلاقة بينهما؟

بعد أنْ وصل **حافظ الأسد** إلى سلطة الحكم في سورية سنة 1970، كثرت الدراسات عن العَلَويين، وأُضيفتْ إلى الخطابات الأكاديمية عن طبيعة وتطور حكم **الأسد**. ووُضِعت الطائفة تحت مظلة خيالية متوهَّمَة بأنها "الأقلية المسيطرة" التي تدعم حكم عائلة **الأسد** بسبب هويتهم العَلَوية المشتركة[1]. لم يعد العَلَويون موضوعاً للبحث في حد ذاتهم. ولا شك بأنّ إمكانية القيام بمثل هذه الدراسات كانت محدودة بسبب القيود التي فُرضتْ على الخطاب الطائفي تحت حكم البعث في سورية. وعلى كلٍ ستحاول هذه الدراسة أنْ تعيد صياغة التعريف العام بالعَلَويين على أنهم "الأقلية المسيطرة" في سورية، بل أنّهم بشكل عام أكثر الأقليات انعزالاً وعرضة للخطر في سورية هذه الأيام.

هناك سببٌ آخر لابتعاد الأبحاث الجامعية عن دراسة العَلَويين في الفترة 1970-2000 هو بروز أسئلة أكثر أهمية في الأوساط الأكاديمية، مثل الصراع العربي الإسرائيلي، والحرب اللبنانية، وتوازنات المنطقة أثناء الحرب الباردة. في حين أنّ مسألة السياسات العَلَوية خلال تلك الفترة كان يجب أنْ تحتل مكاناً حرجاً مستعجَلاً في الدراسات الجامعية، خاصةً بالنظر إلى مجزرة حماة التي حدثتْ بسورية في فبراير سنة 1982. ولذلك فقد ركّزتْ هذه الدراسة على السؤال: كيف ولماذا استطاع حكم عائلة **الأسد** أنْ يحافظ على استمرار العصبية العَلَوية في دعمه وتأييده خلال هذه الفترة؟

(1) أهم الأمثلة على هذه الفكرة هي: محمود فقش، الطائفة العَلَوية في سورية: قوة سياسية جديدة متسلطة، مجلة الشرق الأوسط، الجزء 35، العدد الثالث، (أبريل 1984)، صفحة 133-153. دانييل بايبس Daniel Pipes، استيلاء العَلَويين على السلطة في سورية، مجلة دراسات الشرق الأوسط، الجزء 25، العدد الرابع (أكتوبر 1989) صفحة 429-450. إيال زيسر Eyal Zisser، العَلَويون حكام سورية: من أقلية طائفية إلى فئة حاكمة، في الأقليات والدولة في العالم العربي، تحرير أوفرا بنغيو Ofra Bengio وبن-دور G. Ben-Dor (Boulder & London: Lynne Reiner Publishers, 1999)، صفحة 137.

استمرتْ دراسات السياسة السورية في إهمالها للسياسة العَلَوية في الفترة بعد سنة 2000، وكانت المواضيع المفضلة هي البحث في توريث الحكم إلى **بشار الأسد**، واحتمالات نجاحه في المحافظة على سلطته، وفرص نجاح الاصلاحات السياسية والاقتصادية في سورية[1]. ولَمْ يحظَ الدور الأساسي للعَلَويين في استمرار الجيل الجديد مِنْ عائلة **الأسد** على الاهتمام الكافي. يرتبط بقاء عائلة **الأسد** باستمرار تأييد العَلَويين، ويعتمد ذلك على العصبية العَلَوية، وفيما إذا كانت ستضعف وفق نظرية **ابن خلدون** أم لا.

بشكل عام كان الهدف الرئيسي لهذه الدراسة هو شرح طبيعة ودوافع سياسة العَلَويين السوريين، وهو بحثٌ سيسد فراغاً في دراسات العَلَويين والسياسة السورية. كما سيتمم الدراسات عن العَلَويين السوريين بجمع الأجزاء المتفرقة المعروفة عنهم في أكمل وجه ممكن لتاريخ هذه الطائفة في الدراسات الأكاديمية الغربية[2].

(1) انظر مثلاً: آلان جورج Alan George، لا خبز ولا حرية، (London & New York: Zed Books, 2003). دافيد ليش David Lesch، الأسد الجديد في دمشق: بشار الأسد وسورية الحديثة، (Yale University Press, 2005). فلينت ليفيريت Flynt Leverett، وراثة سورية: اختبار بشار بالنار، (Washington: Brookings Institute Press, 2005). إيال زيسر Eyal Zisser، حكم سورية: بشار الأسد والسنوات الأولى في السلطة، (New York: IB Taurus, 2007). باري روبن Barry Rubin الحقيقة عن سورية، (New York: Macmillan, 2007)

(2) هناك تاريخ كامل عن العلويين باللغة العربية: انظر محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العَلَويين (بيروت 1966). انتقد يارون فريدمان Yaron Friedman هذا التاريخ بأنه "إشكالي" بمعنى أنه غير دقيق في مصادره وصحته التاريخية، انظر يارون فريدمان 2010، الملاحظة 40

الفصل الثاني

نظرية ابن خلدون عن دور العصبية في نشوء وانهيار الدول

يُعتبر **عبد الرحمن بن خلدون** (1406) أحد أعظم المفكرين على مر العصور، وغالباً ما يوصَفُ بأنه مؤسس تاريخ وعلم وفلسفة العلوم الاجتماعية[1]. يظلّ **ابن خلدون** مهماً في العلوم السياسية المعاصرة، خاصة في الباب الثالث مِنَ الكتاب الأول مِنْ مقدمته: [في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية، وما يعرض في ذلك كله مِنَ الأحوال، والذي يَبحث في مراتب الملك والسلطان وألقابها، ووظائف الحكومة وكل ما يتعلق بهذه الأمور][2]. صحيح أنّ **ابن خلدون** قد قدَّمَ تفسيراً شاملاً لسياسة وأعمال الدول بالاعتماد على دراسته للتاريخ وملاحظاته عن العصر المضطرب الذي عاش فيه[3]، إلا أنّ فرضيته الأساسية كانت أنه "*لا يمكن تأسيس السلطة الملكية والممالك الكبيرة إلا بقوة شعور الجماعة*"[4]. يَتعلق هذا الفرض الأساسي بسورية المعاصرة حيث حصل **حافظ الأسد** على

(1) رونالد ميسيير Ronald A. Messier، عوالم ابن خلدون: المقدمة، مجلة دراسات الشمال الأفريقي، الجزء 13، العدد الثالث، سبتمبر 2009، صفحة 275. عن مساهمة ابن خلدون في علم الاجتماع انظر أيضاً: محسن مهدي، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، (London: Allen & Unwin, 1957)

(2) ابن خلدون، المقدمة، صفحة 123-297

(3) للاطلاع على دراسة حديثة لحياة ابن خلدون انظر آلن فرومهيرتز llen Fromherz، ابن خلدون، حياته وزمنه، (Edinburgh University Press, 2010)

(4) ابن خلدون، المقدمة، صفحة 123، [المترجم: انظر أيضاً "وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلَب، والغلَب إنما يكون بالعصبية"، المقدمة صفحة 57]

السلطة السياسية، وأسس حكم عائلته بالاعتماد على قوة الشعور الجماعي لطائفته العَلَوية. وإذا كان **ابن خلدون** يستطيع أنْ يفسر واقع نشأة حكم عائلة **الأسد**، فلعلّ تطبيق نظرياته يمكن أنْ يشير إلى انهياره؟ وإذا كان الشعور الجماعي هو أهم عنصر في استمرار قوة السلالة الحاكمة، فإنّ ذلك يشكل سبباً وجيهاً لدراسة سياسة العَلَويين السوريين مِنْ خلال مفاهيم نظرية **ابن خلدون**، للتوصل إلى رؤية جديدة لطبيعة صمود واستمرار العلاقة بين **الأسد** والعَلَويين. وباختصار، لكي نفهم بشكل أفضل لماذا تتشابه السياسات المعاصرة لمنطقة بلاد الشام في كثير مِنْ جوانبها مع سياسات المغرب العربي في العصور الوسطى، يبدو مِنَ المعقول أنْ نُطبِّق أفكار باحث مغربي مِنَ العصور الوسطى.

لا ريب أنّ **ابن خلدون** سيتعجب كثيراً مِنَ التأثيرات المعقدة للعولمة على المجتمعات الحديثة وسياساتها. ولكنه لن يشعر بكثير مِنَ البعد والاستغراب عن فهم مشكلات الشرق الأوسط الحديث. فقد وَقَعَ العالم الإسلامي في العصور الوسطى تحت تأثير تدخلات عدائية، مثل الحروب الصليبية والمغول، والتي يمكن تشبيهها بالاستيطان الإسرائيلي والغزو الاقتصادي والعسكري الغربي للعالَم العربي الحديث. ومِنْ ناحية الظروف البيئية، فإنّ تغيرات المناخ في العصور الحديثة، وفي "العصر الجليدي الصغير" الذي حَدَثَ أثناء القرن الثالث عشر، تتشابه في تأثيراتها الاقتصادية الصعبة[1]. ومِنَ المهم بالنسبة لهذه الدراسة، ونتيجةً للعوامل المذكورة سابقاً، فقد خَضَعَ المغرب العربي في العصور الوسطى للتمزق السياسي الداخلي والصراع الفئوي والعنف وعدم الاستقرار بحالةٍ تشبه ما يحدث في الشرق الأوسط المعاصر. ولذلك فإنّ محاولات **ابن خلدون** لدراسة وفهم حالة الفوضى في تلك الفترة تظلّ مفيدة بكل تأكيد في فهم وتفسير حالة الشرق الأوسط المعاصر.

لعلّ فكرة انطباق نظرية سياسية مِنَ العصور الوسطى على الحالة السياسية في سورية المعاصرة تُثير انطباعات هامة عن تطور السياسة في الشرق الأوسط بشكل عام. فمثلاً لماذا تَهاوتْ سورية إلى حالة "**خلدونية**" مِنْ سياسة حكم العائلة بعد أنْ

(1) فيليب جينكينز Philip Jenkins تاريخ المسيحية الضائع. (New York: Harper-Collins, 2008) صفحة 135-136

اتجَهت الدولة الفتية المستقلة نحو تأسيس جمهورية متعددة السياسات؟ وبالمثل فإنّ الطموحات الثورية في القرن العشرين في دول مثل ليبيا والعراق واليمن ومصر، تَهاوتْ كلها نحو أنظمةٍ محاباة ضيقة وصَلَتْ إلى حد احتكار السلطة السياسية في عائلة واحدة[1]. إنّ الأسباب التي أدتْ إلى اعتبار **ابن خلدون** باحثاً سياسياً مناسباً لدراسة السياسة في الشرق الأوسط المعاصر قد ازدادتْ وضوحاً مع ثورات الربيع العربي. فهناك مجال واسع لتطبيق نظريات **ابن خلدون** وتفسيراته في فهم الربيع العربي[2]. فالأنظمة التي سقطَتْ في تونس وليبيا، وسقطتْ جزئياً في مصر واليمن، كانت تعتمد على ولاءاتٍ قَبَلية، أو تحالفات حزبية ذات شعور جماعي "أو عصبية" ضعيفة نسبياً. ومِنَ المهم ملاحظة أنه في كلٍ مِنْ هذه الحالات كان الحاكم ينتمي إلى غالبية مِنَ الطائفة السنيّة في تلك الدول. بينما في سورية والبحرين كان النظام الحاكِمُ أكثر مقاومة. وفي هاتين الدولتين تنتمي العائلة الحاكمة إلى طائفةٍ أقلية. إذ تنتمي عائلة **الأسد** إلى الطائفة العَلَوية التي تحكم أكثرية سنيّة، وتنتمي عائلة **آل خليفة** في البحرين إلى الطائفة السنيّة التي تَحكُمُ أكثريةً شيعية[3]. ولذلك فهل مِنَ الممكن تقدير أنّ الشعور الجماعي (العصبية) لدى مؤيدي هذه العائلات الحاكمة هو أقوى مما لدى الأنظمة الأخرى التي سَقطَت؟ لا شك بأنّ تفسيرات مختلفة تشمل النواحي الجغرافية-السياسية والاستراتيجية يمكن أنْ تؤخذ بعين الاعتبار، مثل الموقع الاستراتيجي الهام للبحرين في منطقة الخليج، وأنه ربما استطاع **معمر القذافي** أنْ يصمد في ليبيا لولا التدخل العسكري لحلف الناتو[4]. وعلى كل حال فلابد مِنَ

(1) للتعمق في دراسة سياسة وراثة السلطة انظر: فولكر بيرثيس Volker Perthes النخبة العربية: التفاوض في سياسة التغيير. (Boulder: Lynne Riener, 2004)

(2) فؤاد عجمي: الربيع العربي في مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs (مارس/أبريل 2012) الجزء 91 العدد الثاني صفحة 56-65

(3) الإحصائيات السكانية التي تتعلق بالطوائف غير متوفرة في سورية والبحرين. يعتقد في البحرين أن 70% من السكان هم من الشيعة، 12% من السنة، 9% من المسيحيين، 9% من طوائف مختلفة حسب تقديرات Long, Reich, Gasiorowski, (eds.) *The Government and Politics of the Middle East and North Africa*, (Boulder: Westview Press, 2007) صفحة 166-167

(4) دادلدر وستافريديز Dadlder & Stavridis: انتصار الناتو في ليبيا. مجلة الشؤون الدولية Foreign Affairs (مارس/أبريل 2012) الجزء 91، العدد الثاني، صفحة 2-7

الموافقة على أنّ صمود الأنظمة الحاكِمة في البحرين وسورية يمكن أنْ يَرجع إلى قوة العصبية الطائفية بالمقارنة مع العصبية القبلية أو الحزبية في المجتمع. ورغم أنّ ذلك يخرج عن نطاق هذه الدراسة، فهناك مجال غني وواسع لإجراء دراسةٍ معمقة للمقارنة بين هاتين الدولتين باستخدام نظريات **ابن خلدون**.

يتبنى **ابن خلدون** النظرية الإغريقية القديمة في حتمية دورة التاريخ بطريقة مشابهة لدورة حياة الإنسان[1]، وهو يعتبر أنّ السلالات الحاكمة هي عناصر طبيعية في دورة الحياة السياسية العضوية، وأنها تنمو وتكبر، ثمّ تضعف وتزول حسب مستوى القوة في الشعور الجماعي (أو العصبية) لديها. توضّح حالة العَلويين أنّ هناك حاجة لتوسيع نظريات **ابن خلدون** بحيث تأخذ بعين الاعتبار تأثير خوف الطائفة وعدم اطمئنانها، فهذا العامل يبدو أنه يُعيق أو يُغيِّر مِنَ المسار "الطبيعي" المتوقّع لضعف الشعور الجماعي (العصبية). وقبلَ الخوض في مزيد مِنَ التفصيل، يجب الاتفاق على تعريف محدد للعصبية، وتبيان كيفية تطبيقها على فئات ذات انتماء طائفي.

تعريف العصبية وأبعادها الطائفية

العصبية هي مفهوم معقد يصعب تعريفه، ولا توجد ترجمة دقيقة لهذا الاصطلاح في اللغة الإنكليزية[2]. يرجع أصل كلمة "العصبية" إلى حرفي الصاد والباء، اللذان يدلان على الارتباط والانتماء[3]، فمثلاً يدل الفعل (عَصَبَ) على: رَبَطَ أو طَوى أو لَصَقَ أو لَفَّ. ويدل الاسم (عَصَبْ) على الأعصاب أو المشاعر[4]. كما يُشير قاموس المورد إلى اسم (عُصْبَة) الذي يُعرَّف بأنه فئة أو نقابة أو شلة أو زمرة أو دائرة أو جماعة أو فريق أو فرقة عسكرية. ولذا فمن الممكن أنْ

(1) آشوورث Ashworth 2007 صفحة 44
(2) انظر في: العَظْمة: ابن خلدون، بحث في إعادة التفسير. (Budapest: Central European Press, 2003) صفحة 150 لمناقشة قصور الترجمات الإنكليزية للنص الخلدوني الأصلي. وانظر في: محسن مهدي، 1957، صفحة 196 لمناقشة الترجمات المختلفة للعصبية.
(3) لاكوست Lacoste 1984 صفحة 103
(4) قاموس المورد القريب، 2008 صفحة 278

نَفهم لماذا ترجم **فرانز روزنتال** Franz Rosenthal كلمة "العصبية" باصطلاح "الشعور الجماعي"[1]. ومِنَ المهم أنْ ندرك الفرق بين المعنى العام لاصطلاح "الشعور الجماعي"، والمعنى الخاص الذي قصده **ابن خلدون** باصطلاح "العصبية". وحسب مصادر الحديث النبوي الشريف فقد سُئل الرسول [صلى الله عليه وسلم] عن العصبية[2].[حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا زياد بن الربيع اليحمدي، عن عباد بن كثير الشامي، عن امرأة منهم يقال لها فسيلة، قالت: سمعتُ أبي يقول، سألتُ النبي صلى الله عليه وسلم، فقلتُ: يا رسول الله أمِنَ العصبية أنْ يُحب الرجلُ قومَه؟ قال: "لا، ولكن مِنَ العصبية أنْ يُعين الرجلُ قومَه على الظُلم". سنن ابن ماجة، إسناده ضعيف]. يوضّح هذا التعريف أنّ مفهوم العصبية لا يعني الحب غير المشروط الذي تدل عليه جملة: "أنْ يُحب الرجلُ قومَه" بل هي تعبئة سياسية عملية لقبيلة أو فئة أو طائفة.

يتفق الدارسون **لابن خلدون** على أنّ العصبية هي فكرة ترتبط مباشرة بتنشيط وتعبئة التضامن القَبَلي أو رابطة الدم والقُربى مِنْ أجل تحقيق أهداف سياسية[3]. وهكذا تدل العصبية على حالة أكثر مِنْ مجرد الشعور النفسي لدى قبيلة أو فئة تجمعها رابطة القرابة. بل تدل العصبية على كيفية تأثير الشعور الجماعي في نشأة وصعود واستمرار الدول والسلالات الحاكمة. والجماعة التي تتمتع بعصبية قوية يمكن أنْ تَنشأ منها دولة أو سلالة حاكمة، وأنْ تدعم استمرارها. ثم تَضعف عصبية الجماعة، فتضعف الدولة وتتعرض للتلاشي. لا يوجد سبب للشك بأنّ العصبية يمكن أنْ تعمل بطريقة مماثلة في الجماعات التي تَحمل هوية دينية مشتركة. وفي هذا البحث سنُعرِّف العصبية بأنها: **قوة الدعم والتأييد الفعلية أو الكامنة التي تحملها جماعة مؤيدة لسلالة حاكمة أو لدولة.**

(1) استبدَلَ روزنتال كلمة "العصبية" باصطلاح "الشعور الجماعي" في ترجمته لمقدمة ابن خلدون.
(2) إيف لاكوست Yves Lacoste في: ابن خلدون: ولادة التاريخ وتاريخ العالم الثالث (London: Verso, 1984) صفحة 103
(3) العظمة. 2003 صفحة 30، 171. انظر أيضاً: لاكوست Lacoste 1984 صفحة 116

طَرَحَ الباحثان **إيف لاكوست** Yves Lacoste **وفؤاد خوري** ضرورةَ إدراج العصبية الطائفية في إطار نظريات **ابن خلدون**[1]. وحَسْب **لاكوست** فإنّ السلالة الحاكمة التي تأسستْ على العصبية الطائفية هي "دولة سياسية دينية"[2]. قبل القرن الرابع عشر كان هنالك تنوع ديني واسع بين التجمعات القَبَلية في الشمال الأفريقي، مما أدى إلى تأسيس دول سياسية–دينية ذات سمات مشتركة وميزات دينية خاصة. زال هذا التنوع الديني بسبب ازدياد قوة وظهور الأصولية الدينية خلال فترة حياة **ابن خلدون**، وحسب **لاكوست** فإنّ *"الممالك المتأخرة لَم تُظهر الخصوصية الدينية المميزة التي كانت تُرسِّخ الممالك التي سبقتها... وغيّرت القبائل والمشايخ والوزراء انتماءاتهم بسهولة أكبر"*.

في الواقع يبدو أنّ الممالك السياسية–الدينية استطاعتْ أنْ تحتفظ بعصبيتها بكفاءة أكبر مِنَ الممالك القَبَلية. وتُعتبر الدولة الاسماعيلية الشيعية الفاطمية مثالاً جيداً على ذلك، فقد احتفظتْ بمملكتها التي تأسستْ في مصر مِنَ القرن العاشر حتى القرن الثاني عشر. تستطيع الهوية الدينية المشتركة أنْ تجمع قبائل متفرقة في عصبية واحدة. ووفق المناقشة "**الخلدونية**" فحتى *لو كان لجماعةٍ بيوت متعددة وتنوع داخلي، إلا أنّ شعوراً جماعياً يمكن أنْ يوجد لديهم، وأنْ يكون أقوى مِنْ كل المشاعر الجماعية الأخرى... ويدفعهم للخضوع لتأثيره، بحيث تتوحد كل المشاعر الجماعية المختلفة الأخرى تحت رايته... لتصبح عصبية مشتركة واحدة*"[3].

كيف تنشأ العصبية القوية في جماعة؟

رغم أنّ **ابن خلدون** قد بيَّنَ الصفات الضرورية التي يجب أنْ تتوفر في جماعة لكي تؤسس سلالة حاكمة، إلا أنه لَم يوضح كيف تنشأ هذه الصفات، فقد قال: ["الغلَب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة فمَنْ كان مِنْ هذه الأجيال أعرق في

(1) إيف لاكوست Yves Lacoste 1984 صفحة 90. فؤاد خوري: الأئمة والأمراء، الدولة والدين والطوائف الإسلامية. (London: Saqi Books, 1990) صفحة 52

(2) خوري 1990 صفحة 52. ذات المصدر صفحة 89–90

(3) لاكوست Lacoste 1984 صفحة 106

البداوة وأكثر توحشاً كان أقرب إلى التغلب على سواه "][1]. ولذلك فإنّ صفة "أكثر توحشاً" تشير إلى أنّ بُعد جماعة ما عن المجتمع المتحضر يجعلها أقدر على التطور نحو نشوء عصبية قوية فيها. وبشكل عام فإنّ المرحلة الأولى في دورة حياة الممالك والدول عند **ابن خلدون** هو نشوء جماعة قَبَلية بدوية تتمتع بعصبية قوية. إلا أنه ليس مِنَ الضروري أنْ تكون الجماعة بدوية الأصل، وليس مِنَ الضروري أنّ جماعة بدوية قد كانت دائماً كذلك، وحالة العَلَويين مثال جيد على ذلك، وكيف أنّ جماعة تمّ عَزلها عن المجتمع تحركتْ إلى الأطراف الاجتماعية والجغرافية، وأصبحتْ أكثر بداوة وتوحشاً، وتشكلتْ لديها حالة التماسك الجماعي التي يصفها **ابن خلدون** بالعصبية. وإنّ دراسة كيفية نشوء الصفات الضرورية للعصبية القوية في جماعة هي أمرٌ مهمٌ لفهم تطورها السياسي العام. وهذه ناحية يحاول هذا البحث أنْ يتوسع فيها ضمن نظرية **ابن خلدون**.

طبيعة وتأثير الجماعة ذات العصبية القوية

حالما تجتمع فئة حول هوية دينية أو قبلية أو غيرها، فإنّ قوة العصبية في هذه الجماعة تُحَدِّد فيما إذا كانت ستتمكن مِنْ تأسيس سلالة حاكمة أو دولة. فما الذي يميز جماعة تتمتع بسوية قوية مِنَ العصبية عن غيرها؟ يجب أولاً التركيز على أهمية مفهوم **ابن خلدون** في "العمران البدوي". يمكن ترجمة هذا المفهوم بالحياة في الصحراء أو البداوة. حسب تفسير **لانكوست** يقصد **ابن خلدون** بالعمران البدوي *"حياة سكان المناطق الريفية أو القروية بشكل عام... وليس حياة البداوة فقط"*. وعلى العكس مِنَ "العمران البدوي" يتحدث **ابن خلدون** عن "العمران الحضري" أي حياة المدن أو الاستقرار. والمنطلق الأساسي في فلسفة **ابن خلدون** هو أنّ سكان العمران البدوي أكثر قدرة على الاحتفاظ بسوية قوية مِنَ العصبية، ويمنح الجماعات القوة اللازمة لتأسيس دولة. ولكن تحقيق هذا الهدف يُسبب تحول القبيلة إلى العمران الحضري، الذي يؤدي بدوره إلى ضعف عصبيتها.

(1) ابن خلدون: المقدمة صفحة 107

تلعب القيادة دوراً هاماً في تنشيط العصبية. وحسب **ابن خلدون** هناك فرق بين قبيلة لا يمتلك زعيمها سوى قيادة رمزية، وقبيلة يتمتع زعيمها بهيمنة قوية، لأنّ القبيلة الثانية تستطيع أنْ تزيد مِنْ عصبيتها. ولكنّ نظرية **ابن خلدون** تحدد أنّ *"القبائل التي تتمتع بعصبية قوية هي وحدها التي تمتلك القدرة السياسية على جعل زعمائها قادة لدولة"*. ويبدو أنّ تحريك العصبية الكامنة يحتاج إلى توافق وجود الظروف المناسبة في جماعة مع وجود قيادة قوية ومسيطرة في الوقت نفسه. حالما يستطيع زعيم فرض سلطته في جماعته، فإنّ نزعته الطبيعية تدفعه إلى مد سلطته الجديدة لتحقيق مكاسب سياسية وعسكرية أخرى، أي كما ذكر **ابن خلدون**:

["وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقوة، وصاحبُ العصبية إذا بلغ إلى رتبةٍ طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتّباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس، ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعاً فالتغلب الملكي غاية للعصبية"][1].

وكما سنبين لاحقاً فإنّ صعود **حافظ الأسد** يوضح هذا النوع مِنَ الفعالية السياسية، فبعد أنْ رسّخ نفوذه في الطائفة العَلَوية، وجد الطريق مفتوحة أمامه للحصول على السلطة وتأسيس نوع مِنَ الأسرة الحاكمة.

كيف تحافظ الأسرة الحاكمة على قوة العصبية؟

كانت القبائل والطوائف في عصر **ابن خلدون** متساوية بشكل عام في تركيبتها السكانية وقوتها العسكرية. وكانت حالة البداوة في اقتصادها القَبَلي تقتضي أنْ يكون كل رجل في القبيلة فارساً يحمل السلاح. وبالتالي لَمْ تكن قوة السلاح حكراً على زعيم القبيلة. وقد أطلق **لاكوست** على ذلك اصطلاح: "الديموقراطية العسكرية"[2]. مثالٌ جيد على هذه الحالة الاجتماعية هي حالة قبائل البربر في جبال الشمال الأفريقي، التي تشبه حالة العَلَويين في كثير مِنَ الصفات

(1) ابن خلدون: المقدمة صفحة 108

(2) لاكوست Lacoste 1984 صفحة 30-31

خاصة بطبيعتهم الثائرة والمتمردة[1]. في مثل هذه الأحوال تظلّ الزعامة جزءاً مِنَ القبيلة في المراحل الأولية مِنْ تطور العصبية. ثم تقوى أواصر رابطة الدم تحت تأثير زعامة القبيلة في تعبئة الرجال لتحقيق انتصارات عسكرية. وتؤدي الانتصارات العسكرية إلى زيادة القوة السياسية والمادية، مما يُضعِف العصبية في القبيلة تدريجياً بينما تتشكل طبقة حاكمة[2]. كما أنّ تحضّر الجماعة وما يرافقه مِنْ ثروة وترف يُضْعِفَ عصبيتها، وتتغير رابطة الدم تدريجياً ليحل محلها الولاء والتبعية[3]. ومِنَ المفارقة أنّ رابطة الدم تتخذ أهمية ظاهرية زائدة عندما تحاول الطبقة الحاكمة التأكيد على تميزها وأهميتها لكي تحافظ على ولاء القبيلة والاحتفاظ بالسلطة.

لكي تحافظ الطبقة الحاكمة على دعم القبيلة وتأييدها تسعى لإدخال الجماعة في نزاعات، وذلك لكي تقوّي شعور وحدة الجماعة في مواجهة خطر وهمي مشترك. إذ يجمع تهديدُ عدو خارجي (أو داخلي) القبيلةَ حول الأسرة الحاكمة ويساعد في تقوية العصبية. ويذكر **ابن خلدون** سبباً آخر يتعلق بالمحافظة على السلالة الحاكمة هو قدرتها على توجيه الخطاب الديني. يقدِّم ذلك في البداية قوة أخرى للسلالة الحاكمة بالإضافة إلى قوة الشعور الجماعي لدى مؤيديها[4]. قصد **ابن خلدون** بذلك قدرة السلالة الحاكمة على تقديم نفسها بأنّ لديها رسالة مقدسة لدعم الإسلام، وبعبارة عصرية يمكن تشبيه توجيه الخطاب الديني بالإيديولوجية السياسية. فالزعيم الذي يرفع شعارات إيديولوجية شعبوية جماهيرية، بينما يحتفظ في الوقت نفسه بالسلطة والزعامة في جماعة تتمتع بعصبية قوية، يكون في وضع مناسب لتأسيس حكمه مع الاحتفاظ بعصبيته. وفي هذا المجال قدَّمت الإيديولوجية الاشتراكية لحزب البعث في نظام **الأسد**، خاصة تحت حكم **حافظ الأسد**، المبرر الشرعي لسلطته، وساعدته على الاحتفاظ بعصبية وتأييد العَلَويين.

(1) ابن خلدون: المقدمة، صفحة 131. تحدث ابن خلدون فقط عن البربر، والمقارنة للمؤلف.

(2) لاكوست Lacoste 1984 صفحة 30-31

(3) المصدر نفسه صفحة 106-107

(4) ابن خلدون: المقدمة، صفحة 126-127

الأحوال التي تؤدي إلى نجاح حكم السلالة

هناك عاملان متغيران أساسيان في نظرية ابن خلدون يؤثران على قوة واستمرار السلالة الحاكمة. المتغير الأول الذي طرحه ابن خلدون هو أنّ عظمة المملكة وامتدادها الجغرافي واستمرارها الزمني يعتمد على القوة العددية لأتباعها ومؤيديها [والسبب في ذلك أنّ الملك إنما يكون بالعصبية، وأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليه، فكلما كان مَنْ في الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً وكان مُلكها أوسع][1]. وهكذا فإنه مِنَ المتوقع أنّ مملكة أو سلالة حاكمة ذات عدد قليل مِنَ الأتباع ستمتد في مساحة متوسطة مِنَ الأرض، وستحافظ على قوتها لفترة قصيرة مِنَ الزمن. وقد حَسَبَ المحلل الاستراتيجي **جيمس كوينليفان** James Quinlivan أننا نحتاج إلى 20 مؤيد في كل 1000 نَسَمَة للمحافظة على السلطة والتحكم في دولة استبدادية تكون الأغلبية السكانية فيها مِنَ المعارَضة[2]. ووفق هذه التقديرات، إذا كانت نسبة الرجال المؤيدين للسلطة في القبيلة أو الفئة أو الطائفة المُسيطرة أقل مِنْ هذه النسبة الحرجة فإنّ قدرة هذه الجماعة في المحافظة على عصبيتها تكون ضعيفة.

المتغير الثاني الذي طرحه **ابن خلدون** هو أنه مِنَ النادر أنْ تتمكن جماعة مِنْ تأسيس مُلكها بقوة في إقليم أو منطقة تحتوي على كثير مِنَ القبائل أو الجماعات أو الطوائف [الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قَلَّ أنْ تستحكم فيها دولة، والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء، وأنّ وراء كل رأي منها وهوىً عصبيةً تُمانع دونها، فيكثر الانتقاضُ على الدولة والخروجُ عليها في كل وقت وإنْ كانت ذات عصبية، لأن كل عصبية ممنْ تحت يدها تظن في نفسها منعةً وقوة][3]. ووفق هذا

(1) ابن خلدون: المقدمة. صفحة 129

(2) جيمس كوينليفان James Quinlivan: دراسة الانقلاب: الممارسة والنتائج في الشرق الأوسط. مجلة الأمن الدولي International Security. الجزء 24، العدد الثاني (خريف 1999) صفحة 136-137

(3) ابن خلدون. المقدمة. صفحة 130

العامل المتغير فإنّ مملكةً أو سلالةً تحاول فرض سيطرتها على مجموعة متنوعة مِنَ القبائل ستواجه مقاومة عنيدة أمام محاولتها لتعزيز سلطتها واستمرار حكمها. وفي دولةٍ تضم جماعات ذات مصالح سياسية متضاربة وهويات مختلفة يجب أنْ يتمتع الحاكم بقدراتٍ متميزة في فنون الحكم للمحافظة على العصبية لدى مؤيديه وجماعته، ولكي يتمكن مِنْ تحقيق التوازن مع المصالح السياسية لدى أعدائه المتربصين. إذا اجتمع هذان العاملان المتغيران، أي إذا كان لدى السلالة الحاكمة نسبة قليلة العدد مِنَ المؤيدين، وكانت تحكم دولة كثيرة الفئات والطوائف، فمِنْ وجهة نظر **ابن خلدون** سيكون مستقبل هذه السلالة قاتماً. وفي هذا البحث يُشكل العَلَويون نسبة تبلغ حوالي 12% - 15% مِنْ عدد السكان في سورية، ورغم أنّ هذه النسبة ليست قليلة، إلا أنها صغيرة إلى درجة لا يستطيع معها نظام **الأسد** أنْ يتحمل أي ضعف في عصبية العَلَويين.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ سورية هي واحدة مِنْ أكثر الدول تنوعاً في الشرق الأوسط بما فيها مِنْ طوائف وأعراق وهويات مختلفة ومتداخلة، ففيها مثلاً الأكراد والعرب، المسلمون والمسيحيون، السنّة والشيعة، بالإضافة إلى انتماءات قَبَلية قوية. وبينما يشكل هذا التنوع الكبير في سورية تحدياً كبيراً أمام تثبيت واستمرار حكم سلالة **الأسد**، كما سيبين هذا البحث، إلا أنّ سياسة الخوف الطائفي، وغياب الثقة والاطمئنان فيما بين الفئات المختلفة، تمنح **الأسد** ميزة في حكمه بحيث يستطيع أنْ يوظف هذا الخوف الطائفي لتقويض المعارَضة الليبرالية، ولدعم العصبية في طائفته العَلَوية.

كيف تضعف العصبية؟

يشمل مفهوم العصبية عند **ابن خلدون** العناصر التي تؤدي إلى النجاح السياسي لقبيلة أو لفئة في الوصول إلى سدة الحكم، كما أنه يتضمن بذور فشلها وانهيارها. ويفسر ذلك الباحث السياسي **لوسيان آشوورث** Lucian Ashworth قائلاً: *"يطرح **ابن خلدون** فكرة أنّ الشعور الجماعي في مملكة يؤدي إلى النجاح المبدئي للسلطة الحاكمة، ولكن هذا الشعور الجماعي ذاته يتناقص طبيعياً في الأجيال*

التالية"(1). ويؤدي هذا النهج إلى أنّ فئاتٍ أو جماعاتٍ "شابّة" ذات حيوية أقوى، وتتمتع بدرجات أعلى مِنَ العصبية، تقهر الممالك "المُسِنّة". وقد فَسَّر **ابن خلدون** بهذه الطريقة جزئياً عدم الاستقرار السياسي الذي أصاب المغرب العربي في القرن الرابع عشر. وتفسّر وجهةُ نظر **ابن خلدون** في دورة التاريخ قبوله بهذه الحالة السياسية المتقلبة. تتضح الطبيعة الجَدَلية للعصبية بأنّ المحرك الذي يبدو وكأنه يدفع الدولة في البداية، هو نفسه الذي يدمّر استمرارها حسب مقولة **إيف لاكوست**.

[*"يدمّر الترف والثروة الجديدة تماسك القبيلة، فكلما ازداد تجميع الأرباح وازدادت الفوارق بين أفراد القبيلة... يصبح مِنَ الواضح أنّ الحاكم وحاشيته القريبة هم أكثر الناس استفادة مِنْ انتصارات القبيلة، وتصبح علاقات القربى والارتباطات القبلية مجرد ادعاءات، إذ توزّع الغنائم والأرباح بين فئة قليلة نسبياً، مما يتيح للقلة المتميزة إحاطة أنفسهم بمزيد مِنَ الموالي المقربين، وتضعف بالتدريج أواصر القربى ورابطة الدم"*](2).

تؤدي هذه التغيرات إلى التناقض الذي ذُكر سابقاً عن زيادة تركيز الفئة الحاكمة على القرابة ورابطة الدم في الوقت الذي تتناقص فيه أهمية هذه الروابط. وبينما تُكدِّس الأسرة الحاكمة مزيداً مِنَ السلطة والثروة، تزداد حاجتها إلى الأتباع المخلصين لتضمن موقعها، ولذلك تلجأ إلى التركيز على أهمية القربى ورابطة الدم مِنْ أجل تقوية الولاء والتأييد.

هناك إشارات أربع طرحها **ابن خلدون** تدل على ضعف المَمالك والسلالات الحاكمة. تحدث الأولى عندما يلجأ الحاكم إلى طلب العَون مِنْ عملاء وأتباع لا ينتمون إلى قبيلته أو طائفته(3):

[إعلم أن صاحب الدولة إنما يتم أمره كما قلناه بقومه، فهم عصابته وظهراؤه على شأنه، وبهم يقارع الخوارج على دولته، ومنهم يقلد أعمال مملكته ووزارة

(1) لوسين آشوورث Lucian Ashworth "ابن خلدون ونشأة سياسة الدولة". تحرير برسرام Persram في: ما بعد الاستعمار والنظرية السياسية. (Plymouth: Lexington Books, 2007) صفحة 44-47

(2) لاكوست Lacoste 1984. صفحة 113-116

(3) ابن خلدون. المقدمة. صفحة 146-149

دولته وجباية أمواله، لأنهم أعوانه على الغلَب وشركاؤه في الأمر ومساهموه في سائر مهماته، هذا ما دام الطور الأول للدولة كما قلناه. فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد صاروا في حقيقة الأمر مِنْ بعض أعدائه، واحتاج في مدافعتهم عن الأمر وصدّهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين مِنْ غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون أقرب إليه مِنْ سائرهم وأخص به قرباً واصطناعاً وأولى إيثاراً وجاهاً لما أنهم يستميتون دونه في مدافعة قومه عن الأمر الذي كان لهم والرتبة التي ألفوها في مشاركتهم... وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التي كان بناء الغلَب عليها].

تأتي هذه المساعدة مِنْ حلفاء خارجيين أو مرتزقة، ويدل ذلك على أنّ الحاكم قد فقد تواصله مع أهله وعشيرته، أو أنه يحاول إبعادهم عن السلطة.

تحدث الإشارة الثانية التي تدل على بداية الضعف والانهيار عندما لا يكون الحاكم الذي ورث الحكم مؤهلاً بشكلٍ جيد في فن الحكم والسياسة. وفي هذا السياق وفق **ابن خلدون** قد يسيطر آخرون على الحاكم في المملكة. وبحسب هوية الذين يسيطرون على الحاكم وطموحاتهم الخاصة يمكن أنْ تنشأ حالة يتخذ فيها الحاكم خطوات وقرارات قد لا تكون في مصلحة قبيلته وجماعته، مما يؤدي إلى إضعاف العصبية.

مِنَ الإشارات الأخرى التي تدل على ضعف المملكة وقرب انهيارها في نظر **ابن خلدون** هي ظهور الظلم والعقوبات القاسية في المملكة(1). فعندما تضطر الدولة إلى الظلم والقسوة لكي تحافظ على سطرتها، يدل ذلك على فقدانها للشرعية الأخلاقية ودخولها مرحلة الشيخوخة، وما أنْ تبدأ هذه المرحلة حتى تصبح غير قابلة للإصلاح.

إشارة أخرى في نظرية **ابن خلدون** في نشوء الممالك وانهيارها هو تأكيده على أنّ مشاركة الحاكم في النشاط التجاري يضر بأتباعه ويقلل دخل الدولة مِنَ الضرائب. ويقصد **ابن خلدون** بذلك إلى أنّ مشاركة الأسرة الحاكمة لرعاياها في التجارة والاستثمار يُدخِلها في تنافس معهم، ويؤدي إلى تضررهم وتضرر

(1) المصدر السابق. صفحة 152-255

الاقتصاد. أو بالاصطلاحات المعاصرة، يمكن اعتبار ذلك بمثابة تدخل حكومة فاسدة في النشاط الاقتصادي، واستخدام سلطتها السياسية لتحقيق امتيازات ومكاسب مالية. يترتب على هذين العاملين: الظلم والفساد، ضعفُ العصبية في القبيلة الحاكمة التي لا تتقبل القسوة والفساد في الحكام. وينتاب القبيلةَ أو الطائفةَ المؤيِّدة شعور بالحرمان، بينما تصبح الدولة أكثر ثراء وترفاً، بالمقارنةِ مع حالة العدل والمساواة التي كانت سائدة بين أفراد القبيلة عند تأسيس الدولة.

تدخل الدولة مرحلة الانهيار والهرم عندما تضعف دعامتيها الأساسيتين: قوتها الاقتصادية وعصبية قبيلتها. ويقول **ابن خلدون** أنّ الدولة في هذه الحال تكون قد سقطتْ ولا يمكن إنقاذها [في هذا الطور تحصل في الدولة طبيعةُ الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه برء إلى أنْ تنقرض]. ويطرح **ابن خلدون** ملاحظة أخرى هامة يمكن أنْ تكون بمثابة النبوءة في هذا البحث، وهي أنه في مرحلة انهيار الدولة يزداد عدد السكان وتحدث المجاعات بشكل متكرر: [تُشْرِف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والنماء... ثم إنّ المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه: أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة مِنَ العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج]. تُبين في هذا البحث أنّ الثروة الاقتصادية لأسرة **الأسد** الحاكمة قد تنهار بالفعل، ولكنّ ضعف عصبية الطائفة العَلَوية أمر غير مؤكد، لأنّ عصبيتهم ستظل قوية تحت تأثير الخوف الطائفي، الذي ربما سيثبتُ أنه أقوى مِنْ عصبية **ابن خلدون** القَبَلية أو الاجتماعية.

حسب نظرية **ابن خلدون** في دورة التاريخ، تنشأ الممالك والدول الجديدة الفتية لتحل محل الدول الهرمة، وتبدأ فوراً بالانحدار والضعف في دورة تشبه دورة حياة الإنسان(1). وبصيغة معاصرة فربما تُستبدَل الدول الهرمة بدول جديدة تتمتع بأشكال حكومية تعددية. لمْ يتصور **ابن خلدون** شكلاً مختلفاً مِنْ أنظمة الحكم غير شكل الحكم المطلق للأسرة المالكة. ولذلك بينما يساعدنا في فهم نشوء وانهيار

(1) آشوورث 2007. صفحة 44

الممالك والأسر الحاكمة، إلا أنه قد لا يستطيع مساعدتنا في التنبؤ بما يمكن أنْ يحدث بعد انهيارها وزوالها. ولا يمكن الافتراض بالطبع أنّ أُسَرًا وسلالات حاكمة جديدة لن تنشأ في الشرق الأوسط، وقد كان هناك توقعٌ في الأربعينيات والخمسينيات في كثير مِنَ الجمهوريات المستقلة الناشئة في الشرق الأوسط، مثل سورية والعراق ومصر، أنّ ظهور أُسَر وسلالات حاكمة قد أصبح مسألة تاريخية مضتْ وانقضتْ، إلا أنّ التاريخ الحديث قد أثبتَ غير ذلك. ولذا ففي حالة دول الشرق الأوسط فإنّ التساؤل عن السياسة **الخلدونية** ربما مازال سارياً.

مشكلة الأمن وسياسة الخوف الطائفي

رغم أنّ نتائج ثورات 2011-2012 في الشرق الأوسط لمْ تتضح بعد، ولكن يبدو أنّ سياسة الخوف الطائفي سيكون لها دور رئيسي يمكن أنْ تنجو بسببه بعض الدول مِنَ الدورة **الخلدونية** في حياة الدول. وكما بيّنا سابقاً ففي سورية والبحرين تُظهر بوضوح مقاومة قوية ضد الحركات الشعبية التي تطالِب بالتغيير السياسي، بينما نرى أنّ الدول المتجانسة دينياً، مثل تونس ومصر وليبيا، تتجه بحذر نحو التمثيل السياسي الحقيقي(1).

آخر تغير جيو - سياسي مماثل في اتساعه للربيع العربي حَدَثَ بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا في التسعينيات. أدى الصراع الذي حدث آنذاك بين القوميات المستقلة الناشئة إلى طرح تفسيرات لنظرية جديدة في العلاقات الدولية تركز على مشكلة الأمن والاطمئنان للمجموعات والطوائف الدينية - العرقية. هل هناك تشابه بين النظرية **الخلدونية**، وسياسة الخوف الطائفي، ومشكلة الأمن لدى الطوائف الدينية - العرقية؟ كتب **باري بوزن** Barry Posen في بحثه الهام الذي نشره سنة 1993 تحت عنوان: "مشكلة الأمن والصراع العرقي":

"عندما يستطيع البشر أنْ يتعاونوا مع بعضهم بسهولة فإنّ نتيجة الجهد الجماعي تكون أكبر مِنْ مجموع أجزائه، مما يخلق وحدة وتماسكاً أقوى مما يوجد في الفئات والطوائف التي لا تتمتع بهوية جماعية واضحة. ولذلك فإنّ وحدة

(1) تضم مصر أقلية مسيحية قبطية هامة تبلغ 10% تقريباً.

وتكاثف الفئات العرقية أو الدينية أو الثقافية التي تظهر بعد انهيار الإمبراطوريات تمنح كلاً منها قوة عسكرية هجومية كامنة"[1].

يبدو تحليل **بوزن** لصفات الفئات الاجتماعية الأصغر مشابهاً لتعريف **ابن خلدون** للفئة أو المجموعة أو القبيلة ذات العصبية القوية. فكلما كانت الهوية الجماعية للفئة أو الطائفة أوضح، كانت قدرتها الهجومية الكامنة أقوى وأنجح في تحقيق الانتصارات وفرض السيطرة على الفئات والطوائف ذات الشعور الجماعي الأضعف. يَخلق ذلك مشكلة أمنية حين تَشعر الفئات والطوائف بالتهديد مِنْ قِبَل بعضها بعضاً، وتسعى بالتالي إلى التعبئة السياسية والعسكرية ويَنشأ الصراع[2].

هناك تشابه في هذا السياق مع سياسة الخوف الطائفي، إذ يدفع غياب الأمن الطوائف والجماعات العرقية إلى الحشد والتعبئة نتيجة لغياب الثقة بنوايا الطوائف والجماعات الأخرى، حتى ولو كانت هذه الجماعات المتواجهة تطمح في الواقع للتوصل إلى التكامل السياسي، وهو ما حصل في سورية في فترة الستينيات.

هناك حالة أخرى يجب طرحها فيما يتعلق بالكتابات عن مشكلة الأمن، فقد لاحظ **إيريك ميلاندر** Erik Melander سمة غريبة في المناطق المتعددة الطوائف والأعراق وهي أنّ:

"التنوع العرقي يقلل احتمال حدوث الصراع في البداية، ويخلق دافعاً قوياً لتجنب اللجوء إلى العنف. ولكنه يزيد العنف إذا حدث الصراع"[3]. يمكن تفسير هذه الازدواجية بالاستناد إلى سياسة الخوف الطائفي. ففي البداية تُدركُ الطوائف والجماعات المتواجهة مدى خطورة الفوضى التي يمكن أنْ ينزلق إليها المجتمع إذا حدث الصراع، مما يخلق لديها دافعاً قوياً لتجنب الصراع. كان هذا واضحاً في

(1) باري بوزن Barry Posen: مشكلة الأمن والصراعات العرقية. في كتاب الصراعات العرقية والأمن العالمي. تحرير براون M. Brown New Jersey: Princeton University Press صفحة 106

(2) لمراجعة تصوير توضيحي لهذه العملية انظر مقالة شيبينغ تانغ Shiping Tang: مشكلة الأمن والصراع العرقي: نحو نظرية ديناميكية تكاملية في الصراع العرقي. مجلة Review of International Studies، الجزء 37 (2011) صفحة 515، الشكل الأول.

(3) إيريك ميلاندر Erik Melander: جغرافية الخوف: التنوع العرقي في المنطقة ومشكلة الأمن والصراع العرقي. المجلة الأوروبية للعلاقات الدولية (2009) الجزء 15، العدد 95، صفحة 118

دولة متعددة الطوائف مثل لبنان، خاصة بعد الصراع الطائفي الذي حدث فيها في الفترة 1975 – 1990[1]. وعلى العكس فمِنَ الممكن استغلال التنوع العرقي والطائفي لدعم حكم استبدادي، حيث يستطيع النظام الحاكم أنْ يستخدم التهديد بخطر فوضى الصراع العرقي – الطائفي في الدعاية لنفسه كعامل هام في تحقيق الاستقرار. بل ويمكن أنْ يُشعِل الصراع بين الطوائف والأعراق إذا أحسّ بوجود خطر يهدد موقفه، وذلك لكي يثبت ويؤكد رسالته ودوره الهام في حفظ التعايش السلمي بين الطوائف والأعراق. تُعتبر هذه الفكرة عنصراً أساسياً في التاريخ السياسي للعَلَويين السوريين، وسنوضحها بالتفصيل لاحقاً في الفصول القادمة.

والخلاصة هي أنّ التطبيقات العرقية – الدينية في نظرية مشكلة الأمن تطرح أفكاراً تتعلق بالقلق وعدم الاطمئنان الذي تشعر به الجماعات تجاه التهديد الذي تتصوره وتتوجس منه، فتسعى للحصول على الأمن خوفاً مِنْ بعضها بعضاً[2]. ولكن هناك فرق أساسي بين مقاربة "مشكلة الأمن" و"سياسة الخوف الطائفي". إذ توضّح المقاربة الأولى أسبابَ حدوث الصراع بين الجماعات المختلفة **بعد** انهيار الإمبراطوريات أو الدول المتنوعة، مثل الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا والامبراطورية العثمانية. في حين أنّ المناقشة المتّبعة في هذا البحث تجمع بين أفكار **ابن خلدون** عن هوية الشعور الجماعي ونشوء الدولة، مع مفهوم الخوف الطائفي. يقدّم هذا المنهج طريقة لفهم التاريخ السياسي الكلي لجماعة أو طائفة. بعد دراسة تشكل العصبية أو الشعور الجماعي لدى هذه الطائفة، يخبرنا **ابن خلدون** أنّ فرداً مِنْ هذه الطائفة يمكن أنْ يقوم بتعبئة هذه العصبية سياسياً، وأنْ يثبّتَ زعامته فيها، مما يفتح الطريق لتأسيس سلطة سياسية تشبه السلطة الملكية[3]. وبعد ضبط وتعديل نظرية **ابن خلدون** بحيث تأخذ في الحسبان سياسة الخوف الطائفي، يمكن اكتشاف تفسيرات لصمود واستمرار العصبية الطائفية.

(1) ويليام هاريس William Harris. لبنان: التاريخ 600-2011. مقالة تحت الطبع (New York: Oxford University Press)

(2) بوزن Posen 1993. صفحة 105-107

(3) ابن خلدون. المقدمة. صفحة 108

الفصل الثالث

كيف تطوّرت العصبية القوية لدى العَلَويين، 850 - 1832

يبحث هذا الفصل في أصل وتاريخ العَلَويين، ويسلط الضوء على العوامل التي أدتْ إلى تشكل العصبية الطائفية القوية لديهم. تَخلَّلَ تاريخ العَلَويين فترات عديدة مِنَ الاضطهاد الشديد مِنْ جهة السلطات السياسية والدينية السنيّة في أغلب الأحيان، مما أدى إلى تقوية الشعور الجماعي في هذه الطائفة، وشعورها بتميزها واعتمادها على نفسها وخوفها وعدم اطمئنانها. كانت هنالك فترات أخرى، مثل فترة حكم الحمدانيين والصليبيين، تمتعتْ خلالها هذه الطائفة بالأمن والاندماج في المجتمع العام. ولكنَّ هذه الفترات لَمْ تدمْ طويلاً، وتلتْها دائماً فترات أخرى مِنَ الظلم والاضطهاد والتمييز الطائفي. وربما كان تطور سوية مرتفعة مِنَ العصبية هي النتيجة النهائية للطريقة التي تمّ التعامل بها مع هذه الطائفة مِنْ جهة القوى المهيمنة والمجتمع العام.

كما يدرس هذا الفصل الكيفية التي حقّق فيها العَلَويون شروط **ابن خلدون** بأنّ الجماعة يجب أنْ تَنشأ في حالة "العمران البدوي" حتى تتشكل لديها عصبية قوية. ففي خلال فترة عشر قرون مِنَ الزمان يغطيها هذا الفصل، مِنَ القرن التاسع تحت الحكم العباسي في العراق حتى بداية انهيار الإمبراطورية العثمانية في سورية حوالي 1830، انتَقل العَلَويون مِنْ طائفة دينية عاشتْ في مدن العراق، إلى طائفة مجتمع قَبَلي منعزل عاشتْ في الجبال الشمالية الغربية في سورية. هناك عوامل أخرى هامة في تطور العَلَويين السياسي، وهي تحولهم مِنْ أقلية منتشرة في المجتمع إلى أقلية

متراصة[1]، وكذلك الفرص الاقتصادية الضيقة والمحدودة بسبب عيشهم في مناطق جبلية فقيرة نائية، والعوامل الاجتماعية الأخرى مثل التمييز القانوني والديني ضدهم. يلخّص الشكل 4 تاريخ العَلَويين، مع توضيح الزعماء الرئيسيين والأحداث المفصلية.

الأصول الأولى

تطَوَّرَ العَلَويون في الفترة بين 850 إلى 1070 ميلادي إلى طائفةٍ فريدةٍ مِنَ الإسلام الشيعي، وُجدتْ أولاً في مدن العراق الرئيسية، ثم في سورية بدءاً مِنَ القرن العاشر. تشكّلت العقائد الدينية للعَلَويين خلال تلك الفترة على يد الشخصيات الرئيسية في التاريخ العَلَوي مِنْ أمثال: **محمد بن نُصير، وحسين بن حمدان الخُصَيبي، و[ميمون] ابن قاسم الطَبَراني**. كان أكثر أتباع هؤلاء الرواد مِنَ الطبقة الوسطى، وكان منهم علماء الدين والمفكرون مِنْ أبناء المدن في الشرق الأوسط.

كان السياق السياسي العام في الفترة الأولى يتسم بالفوضى والاضطراب. إذ كان الخليفة العباسي يكافح بصعوبة للمحافظة على الحكم[2]، وكان الإسلام ينقسم إلى فئات وطوائف دينية ذات اتجاهات سياسية، والخليفة تحت ضغط مستمر مِنْ جهة الدولة البيزنطية المتجددة في الشمال. في هذه الظروف، تلقى العَلَويون دعماً سياسياً مِنْ زعماء شيعة أقوياء في العراق أولاً، ثم في سورية. ولكنّ ظهور قوة سنيّة متعصبة على يد السلاجقة الأتراك في أواخر القرن الحادي عشر حَرَمَ

(1) الأقليات المنتشرة في المجتمع ليس لديها منطقة أساسية بل تكون موزعة بين أرجاء الأكثرية، بينما تتركز الأقلية المتراصة في منطقة أساسية تشكل فيها أكثرية محلية. انظر جبرائيل بن دور Gabriel Ben-Dor: الأقليات في الشرق الأوسط: النظرية والتطبيق، تحرير بنجيو Bengio وبن دور Ben-Dor (Boulder: Lynne Riener, 1999) صفحة 1-20

(2) ديفيد واينز David Waines: أزمة العباسيين الداخلية في القرن الثالث. مجلة الاقتصاد والتاريخ الاجتماعي في الشرق. الجزء 20، العدد الثالث، أكتوبر 1977، صفحة 282-306

العَلَويين مِنَ الدعم والتأييد والمساعدة في منطقة شرق المتوسط، وأجبرهم على الهجرة. وَجَدَت الطائفة ملجأً لها في منطقة وعرة بين القوة البيزنطية على الساحل، والقوة السلجوقية في الداخل، وظلّت فيها حتى عام 1080.

مع نهاية القرن الحادي عشر، أدت الهجرة إلى تحول جذري تام في الطائفة مِنْ مجتمع مدني متعلم ومثقف، إلى مجتمع قبلي ريفي فلاحي محروم مِنْ أية أهمية سياسية أو دعم وتأييد. وبعد اندماج العَلَويين بالسكان المحليين الريفيين، انحصر وجودهم في الجبال الشمالية الشرقية مِنْ سورية. بعد وصول الصليبيين، مَنح الانقسام الجغرافي السياسي في المنطقة الفرصة للعَلَويين للتماسك في منطقتهم، مما ساعدهم على البقاء عندما استعادت السُلطة السنيّة سيطرتها على منطقة شرق المتوسط بعد انسحاب الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر.

ظلّ العَلَويون فترةً طالتْ سبعة قرون في حالة صعبة مِنَ الحياة في ملاذهم الجبلي القاسي، تشكّلتْ خلالها لديهم هوية اجتماعية ودينية فريدة ومتميزة. ظلّ العَلَويون مهمشين ومضطهدين حتى بدأ الوهن والضعف يدبّ في حكم الامبراطورية العثمانية السنيّة في القرن التاسع عشر. ومِنَ المفارقة أنّ اضطهادهم وانعزالهم وضعفهم السياسي كان مِنْ أهم عوامل بقائهم[1]. ولكنّ تحولهم التام إلى أقلية ريفية متراصة، واستمرار اضطهادهم، هو الذي أدى إلى نشوء عصبية طائفية قوية لديهم.

تأسيس الطائفة العَلَوية-النُصيرية في 850-926

يصعب تصور بدايات تاريخ العَلَويين بدقة لأنه يجب التمييز فيه بين الحقائق والأساطير والروايات المضللة. وقد تركزتْ أغلب الأبحاث في تاريخهم المبكر على دراسة عقائدهم[2]، ولَمْ تهتم كثيراً بالسمات السياسية للجماعة الأولية. يركز هذا الفصل على الجوانب السياسية في بدايات تاريخ العَلَويين.

(1) زافيير دي بلانهول Xavier De Planhol الأقليات في الإسلام، الجغرافيا السياسية والاجتماعية. (France: Flammarion, 1997) صفحة 84

(2) فريدمان Friedman 2010 صفحة 6-7

مِنَ المعترف به بشكل عام أنّ تاريخ العَلَويين يبدأ بمؤسس هذه الطائفة **محمد بن نُصَير** (ولد في 883 أو 873) بالعراق في منتصف القرن التاسع[1]. يمكن اعتبار منطلقات **ابن نُصَير** كجزء مِنَ حركة غلاة الشيعة التي نشأتْ في القرن الثامن في مدينة الكوفة بالعراق. ويُعتبر تنزيه وعصمة الإمام الرابع **علي ابن أبـي طالب** وذريته أساس حركة غُلاة الشيعة. يَعتبر الشيعةُ هذه الحركة تطرفاً ومغالاة، ويَعتبرها السنّة الأصوليون هرطقة وكفراً.

ظهرتْ حركة غُلاة الشيعة في سياق التمزق السياسي للإسلام في القرن السابع. تنبأ الرسول **محمد** [عليه الصلاة والسلام] بتفرق المسلمين إلى بضع وسبعين فرقة[2]. والفرقة المسلمة الرئيسية التي تفرع عنها الغلاة كانت فرقة الشيعة، أتباع **عليّ**، التي بدأ تشكلها في حركة دينية – سياسية مختلفة ومستقلة منذ فترة حكم الخليفة الراشدي الثالث **عثمان بن عفان** [رضي الله عنه] حوالي سنة 644[3]. كان الشقاق والاختلاف بين الفرقتين الرئيسيتين في الإسلام، الشيعة والسنّة، اختلافاً سياسياً يرتكز أساساً على الخلاف بينهم حول طريقة اختيار الإمام الحاكم. اعتقد الشيعة أنّ الإمام يجب أنْ يكون مِنْ عائلة النبـي (أهل البيت)، بينما اعتقد السنّة بمبايعة خليفة راشد. ولكنّ غُلاة الشيعة ارتفعوا بهذا الخلاف إلى مستوى أعلى بإعلانهم تنزيه وتقديس ابن عم الرسول وزوج ابنته الإمام **علي ابن أبـي طالب** [رضي الله عنه]. ويُنسَب التحريض على هذه الحركة إلى **عبد الله ابن سبأ**، وهو يهودي يَمَني تحول إلى الإسلام في فترة حكم الإمام **علي ابن أبـي طالب** [رضي الله عنه] (656–661)، وأعلن تقديسه للإمام **عليّ** على الملأ[4].

(1) قيس فيرو Kais M. Firro: العَلَويون في سورية الحديثة: من النُصيرية إلى الإسلام عبر العَلَوية. مجلة الإسلام. الجزء 82، العدد الأول. والتر دي غرويتر Walter de Gruyter 2005.. ماتي موسى Matti Moosa 1988 صفحة 259. بار آشر مائير Bar-Asher Meir وآريا كوفسكي Aryeh Kofsky العقائد والطقوس في كتاب المعارف للعالِم النُصيري أبو سعيد الميمون بن قاسم الطَبَراني (426/1034–35) مجلة أرابيكا Arabica 2005 صفحة 54

(2) بركي J.P. Berkey نشوء الإسلام، الدين والمجتمع في الشرق الأدنى 600–1800. (United Kingdom: Cambridge University Press) 2003 صفحة 83

(3) موسى 1988 صفحة XV

(4) بركي Berkey 2003 صفحة 95

كان فهمُ الغُلاة للإسلام غير مقبول للسلطات السياسية والدينية في ذلك الوقت لأنه يتحدى سلطة الخليفة، وبما أنه لا يوجد في القرآن والحديث أي تصريح واضح عن وجود مَنْ يمثل القداسة في الأرض فقد تم اضطهاد الغُلاة على أنهم كفار عندما تمّ كشفهم. ويقترح **بيركي وفريدمان** أنّ الغُلاة لمْ يُعتبروا متطرفين في أوائل أيامهم، بل كانوا يمثلون نوعاً مِنَ التوفيقية والأفكار الجديدة في الإسلام مع احتفاظهم بتقاليد ثابتة، وكانوا مقبولين إلى حد ما[1]. ولكنْ مِنَ المهم عدم التقليل مِنْ الفاعلية السياسية للتقية التي حَمَتْ طوائف الغُلاة مِنَ الانكشاف التام أمام السلطات. ومِنَ المؤكد أنّ الغُلاة قد اضطروا لممارسة التقية منذ بدايات الخلافة العباسية (750)، وأنهم احتفظوا بعقائدهم سريةً لتجنب الاضطهاد. تعني ممارسة التقية أنّ الغلاة كانوا غير موجودين سياسياً، ولمْ يلعبوا دوراً سياسياً هاماً في العالم الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع. في هذا السياق التاريخي يمكن تصور وجود العَلَويين كفرع جديد مِنْ غُلاة الشيعة الذين كانوا منذ ذلك الحين طائفة مِنَ المهمشين والمضطهدين.

كان **محمد بن نُصَير** عالِمَ دِينٍ ذا شخصية غامضة وشعبية جذابة في أواسط القرن التاسع. وكان ينتمي إلى قبيلة بني نُمير الشيعية التي سكنَتْ قرب نهر الفرات في العراق، وكانت مِنْ حلفاء قبيلة بني تغلب التي شكّلتْ نواة الدولة الحمدانية بمدينة حلب في القرن العاشر[2]. بزغ نجم **ابن نُصَير** عندما زَعَمَ سنة 850 أنه (الباب) لأئمة الشيعة المعصومين المُقَدّسين. وقد أكد لي الشيخ العَلَوي **نصير إيزكيوكاك** إيمان العَلَويين بما أعلنه **ابن نُصير**، وقال: "إنّ **محمد ابن نُصير** في عقيدة العَلَويين هو الباب والخادم للإمام **الحسن العسكري**، الإمام الحادي عشر مِنْ أهل البيت"[3].

تجمّع الأتباع حول **ابن نُصير** في العراق في أواسط القرن التاسع بسبب شخصيته الجذابة وولاءاته القَبَلية. كان بالنسبة لأتباعه ومريديه زعيماً محبوباً

(1) المصدر نفسه صفحة 89. فريدمان Friedman 2010 صفحة 223

(2) فريدمان Friedman 2010 صفحة 6–7. أصبحت هذه العلاقة السياسية مهمة للعَلَويين عندما انتقلت زعامتها إلى سورية في القرن العاشر.

(3) الشيخ نصير إيزكيوكاك Nasir Eskiocak مقابلة مع المؤلف.

وصاحب معجزات وقدرات خارقة[1]. كما مَنحته صفاته الشخصية المتميزة القدرةَ على التقرب مِنْ أئمة الشيعة في القرنين العاشر والحادي عشر، مثل الإمام **علي الهادي** (868) [الإمام العاشر لدى الشيعة الإمامية وهو **أبو الحسن علي الملقب بالعسكري أو الهادي** (214-254ه/ 829-868 م)]، والإمام **الحسن العسكري** (873). [**أبو محمد الحسن العسكري** (232- 260ه/ 846 - 874 م) الإمام الحادي عشر لدى الشيعة الإمامية].

يُقدّم لنا التراث العَلَوي حول علاقة **ابن نُصير** بالإمام الحادي عشر **الحسن العسكري** صورةً عن علاقته المزعومة بأئمة الشيعة، والغموض الذي زرَعَه **ابن نُصير**:

*"جاءتْ جماعة مِنْ فرسان العجم لزيارة **الإمام الحسن العسكري**، ووجدوه يرتدي زياً أخضر اللون، وأحاط نفسه بسجاجيد ووسائد خضر، وبجواره جلس **ابن نُصير** باللباس الأخضر أيضاً... طلب منهم الإمام أنْ يقدموا طلباتهم وما يريدون. أعطى كل منهم الإمامَ ديناراً، فتوجه الإمام بالدنانير إلى **ابن نُصير** للتوقيع عليها وإعادتها إلى أصحابها... وفوجئ الجميع عندما وجدوا عبارةً مكتوبةً على وجه كل دينار تقول: "لا إله إلا **الحسن العسكري**، واسمه **محمد**، وبابه **أبو شعيب محمد بن نُصير بن بكري النميري**، ومَنْ يقول بغير ذلك فهو كاذب"*[2].

تضع هذه القصة بدايات التراث العَلَوي جنباً إلى جنب مع زعماء وأئمة الشيعة، كما أنها تشير إلى إيمانهم بقدسية وعصمة سلالة **عليّ بن أبي طالب** رضي الله عنه، وأنّ **ابن نُصير** هو الباب الذي يوصل إلى هذه القدسية.

ليس مِنَ الواضح تماماً ماهو التأثير الذي مارَسَه **ابن نُصير** على أئمة الشيعة، ولكن بالنظر إلى أنّ هؤلاء الأئمة لَمْ يكن لهم سوى نفوذ رمزي ديني وسياسي محدود في زمن العباسيين، فيبدو أنّ **ابن نُصير** كان له تأثير قليل. فمثلاً يُحكى أنّ اجتماعاً قد عُقِد بين **ابن نُصير** والإمام **الهادي** حوالي سنة 850 في محاولةٍ لمنع العباسيين مِنَ الحَفر في المكان المقدس الذي دُفن فيه الإمام **الحسين** في كربلاء[3].

(1) فريدمان Friedman 2010 صفحة 6-7

(2) بار-آشر Bar-Asher وكوفسكي Kofsky 2005 صفحة 54

(3) فريدمان Friedman 2010 صفحة 9-11

ولكنّ تخريب ذلك الموقع على يد الخليفة **المتوكل**[1] رغم تدخّل الإمام وجهوده لمنع ذلك يوضح ضعف الأهمية السياسية **لابن نُصير** والإمام **الهادي** في ذلك الوقت. ويبدو أنّ ارتباطات **ابن نُصير** بأئمة الشيعة لَمْ تعطه إلا الفرص البلاغية والدعوية. وقد استفاد مِنْ هذه الفرص لتقديم صورةٍ غامضة عن نفسه، استخدمها في جذب أتباعه ومريديه.

تألفت الجماعة التي التفّتْ حول **ابن نُصير** مِنْ عَشر حواريين مقربين. ويشير **فريدمان** إلى أنّ هؤلاء كانوا في الغالب زعماء وقادة لمجموعة أكبر مِنَ الأتباع في قبيلة بني نُمير، وأنّ علاقاته تلك تفسر بقاء واستمرار هذه الطائفة في ظروف معادية. الأسبابُ التي دَفعتْ قبيلة بني نمير إلى دعم وتأييد **ابن نُصير** وأتباعه لَمْ تكن واضحة. فربما كان ذلك بسبب تعاطفهم مع رؤيته وتجلياته الدينية، ولكن الأرجح أنّ ذلك الدعم والتأييد كان بدافع مِنَ التضامن القَبَلي أو العصبية. ويؤيد هذا الاستنتاج استمرار الالتزام الصارم في بني نمير وحلفائهم بني تغلب (الحمدانيين فيما بعد) بعقائد الشيعة الإمامية.

كانت بوادر حركة العَلَويين المعاصرة كامنة في تلك الجماعة الهامشية الصغيرة. وربما يعود الفضل التام في وجودها إلى شخصية **ابن نُصير**، ويرجع الفضل في استمرارها إلى علاقات **ابن نُصير** القوية مع القبائل ومع آخر أئمة الشيعة الأحياء. كان **ابن نُصير** شخصيةً مثيرة للجدل والخلاف، وخلَقَ كثيراً مِنَ الأعداء في المؤسسات الدينية الشيعية والسنيّة. قام بعض زعماء الشيعة بتكذيبه ولعنه بسبب ادعائه الارتباط الخفي بالأئمة، واتهموه بارتكاب المعاصي والسلوك غير الأخلاقي، مما أدى في النهاية إلى إدانته وطرده مِنَ الطائفة الشيعية[2]. وفي المعتقدات العَلَوية، حَرَم تشويه سمعة **ابن نُصير** أخذه مكانه الصحيح في التراث الشيعي. وحسب الشيخ **نصير إيزكيوكاك** *"كان هناك فريقٌ مِنَ الناس هاجَم السيد **محمد بن نُصير**،*

(1) كليفورد إدموند بوزورث Clifford Edmund Boseworth الموسوعة الإسلامية. الملحق، الجزء 12. (Leiden: Brill, 1980) صفحة 94

(2) فريدمان Friedman 2010 صفحة 8. استخدَم فريدمان اصطلاح "العزل والحرمان" في وصف العقاب الذي أُنزل بابن نُصير.

وقد هاجموه ليتنقصوا منه ومِنَ المستقبل الذي كان مقرراً له. اتهموه... بدون أي دليل - كذب"(1). وبالنسبة إلى العَلَويين فإنَّ هذا الغدر كان أول مثال على سوء المعاملة والتهميش السياسي والديني الذي تعرضَتْ له طائفتهم. ويعتقد العَلَويون أنَّ حرمان **ابن نُصير** مِنْ مكانته الحقيقية التي يستحقها في كونه "باب" الأئمة المقدسين كان الفصل الأول في تاريخ طويل في حرمان العَلَويين مِنْ وضعهم الشرعي كمؤمنين حقيقيين.

بينما لعب **ابن نُصير** الدور الأساسي في إنشاء فرقة دينية جديدة، يبدو أنه بعد موته في (873 أو 883)(2) صارعَتْ هذه الفرقة مِنْ أجل البقاء والاستمرار. استطاع الزعيمان اللذان خلفا **ابن نُصير** وهما: **محمد ابن جندب** ثم **عبد الله بن محمد الجنان الجنبلاني** [الاسم الكامل هو **أبو محمد عبد الله بن محمد العابد الزاهد الجنان الجنبلاني** (235هـ –287م)]، أنْ يحافظا على حياة هذه الطائفة، ولكنهما لمْ يستطيعا أنْ يحققا أي تقدم يذكر(3). ولمْ تكْبُر الطائفة وتتوصل إلى تأصيل هويتها إلا بعد ظهور **أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخُصَيبي** مِنْ منطقة جنبلا في جنوب العراق. خلال فترة زعامته حوالي سنة 926 بدأت الطائفة تكثر وتتطور هويتها الخاصة(4). ووفق التراث العَلَوي كان **الخُصَيبي** زعيم الحَمَديين مِنْ قبيلة بني حمدان... وكان رجلاً يتمتع بمعرفة دينية واسعة في المذهب الشيعي الإمامي. وكان **للخُصَيبي**، مثلما كان **لمحمد بن نُصير**، روابط قَبَلية قوية ساعدته في نشر دعوته الدينية.

في بداية القرن العاشر استمرتْ الظروف السياسية الصعبة في مواجهة طوائف الغُلاة (مثل العَلَويين) في العراق العباسي. سُجنَ **الخُصَيبي** في الفترة 936 – 945، ويبدو أنه استطاع الهرب إلى سورية(5). وهناك رواية متكررة عن ظهور المسيح عليه السلام **للخُصَيبي** بينما كان في السجن، وأنّ ذلك كان السبب وراء

(1) الشيخ نصير إيزكيوكاك Nasir Eskiocak في مقابلة مع المؤلف. أنطاكيا، تركيا، 29 مارس 2011

(2) فيرو Firro 2005 صفحة 1. موسى Moosa 1988 صفحة 259

(3) فريدمان Friedman 2010 صفحة 16–17

(4) المصدر نفسه صفحة 17. بار–آشر Bar-Asher وكوفسكي Kofsky 2005 صفحة 57

(5) فريدمان Friedman 2010 صفحة 22–23

هجرته إلى سورية وليس إلى إيران(1). في الحقيقة كانت فرصة حصوله على الدعم والتأييد أكبر في سورية حيث يعيش أقرباؤه وقبيلته التي كانت قد أسست دولة الحمدانيين في حلب، والتي امتد مُلكُها حتى منطقة اللاذقية على الساحل السوري.

هناك معلومات قليلة عن الفرع العراقي مِنَ العَلَويين بعد أواسط القرن العاشر، وعلى الأغلب أنهم قد احتفظوا بمركز لهم حتى دمار بغداد على يد المغول في 1258(2). ومنذ هجرة **الخُصَيبي** أصبحتْ سورية مركز الثقل للعَلَويين.

حَدَثَ الحصار التدريجي للعَلَويين في منطقة الجبال الساحلية السورية على مدى القرنين العاشر والحادي عشر، وتُشكّل هذه الهجرة المرحلةَ الأولى في تحولهم السياسي. كان العَلَويون في العراق العباسي فئةً صغيرة هامشية تفرعتْ عن الطائفة الشيعية مِنَ الإسلام، وتأثرتْ بالثقافة الفارسية(3). عندما هاجَروا إلى سورية، انتقلوا مِنْ هذه الأجواء إلى منطقةٍ فيها عدد كبير مِنَ المسيحيين، وظروفٍ جغرافية - سياسية ممزّقة تحت تأثير الصراع الإسلامي البيزنطي(4). كانت الظروف في سورية مختلفة جداً بالنسبة للعَلَويين، فهذه المنطقة الممزّقة جغرافياً وسياسياً أتاحتْ لهم الفرص للمناورة بين القوى المتصارعة، ولاكتشافِ ملجأٍ لهم في المنطقة الوعرة مِنْ سواحل شرق المتوسط. ولكنها كانت في الوقت نفسه خطوة نحو الانعزال على هامش المجتمع وأطراف المنطقة الجغرافية للعالم الإسلامي، مما أدى إلى ظهور وتطور هوية عَلَوية طائفية.

يمكن تلخيص الفترة العراقية في النصف الثاني مِنَ القرن التاسع وبدايات القرن العاشر بظهور العَلَويين في فترة مِنَ الصراعات الدينية والسياسية بينما كانت الخلافة العباسية تُصارِع مِنْ أجل البقاء(5). وبينما اتضح الموقف السياسي للطائفة الشيعية،

(1) موسى Moosa 1988 صفحة 265

(2) فريدمان Friedman 2010 صفحة 35

(3) مائير ميشيل بار آشر Meir Michael Bar-Asher: الجانب الإيراني من العقيدة العَلَوية. مجلة إيران. الجزء 4 (2003) صفحة 222

(4) حنا بطاطو، الفلاحون السوريون أحفاد نبلاء الريف وسياساتهم (New Jersey: Princeton University Press, 1999)، صفحة 105، والمصدر نفسه صفحة 223

(5) ويليام هاريس William Harris الهلال الخصيب، فسيفساء محطمة، (Princeton: Markus Wiener, 2003). صفحة 54

إلا أنها أصبحت هي الأخرى مُهمَّشة، وبلغتْ ذروة ضعفها مع غياب آخر الأئمة سنة 873. كانت فئات غُلاة الشيعة، مِنْ أمثال العَلَويين، هي أكثر الفئات ضعفاً، مما اضطرهم إلى الهجرة نحو أطراف سورية. أعطَت المعاملة القاسية التي تلقاها زعماء العَلَويين على يد السلطات السنيّة في العراق (مثل سَجن **الخُصَيبي**) اللمحة الأولى لنمط الاضطهاد الذي سيتعرض له العَلَويون كلما واجهوا سلطة سياسية سنيّة.

مِنَ العمران الحضري إلى العمران البدوي 926 - 1070

غادَر **الخُصَيبي** بغداد بين 926 إلى 945، وكانت هذه هي الخطوة الأولى في تحول هذه الطائفة مِنْ أقلية مَدَنية منتشرة إلى أقلية ريفية متماسكة ومتراصة، وهي مرحلة ضرورية في نظرية **ابْن خلدون** لتشكّل عصَبية قوية. كان الدافع الرئيسي وراء هجرة العَلَويين هو الاضطهاد السنيّ، الذي زاد بدوره مِنْ شعور العَلَويين بالخوف وعدم الاطمئنان، والشعور بالعداء نحو السلطات السنيّة الدينية والسياسية. مع حلول القرن الحادي عشر أصبح العَداء للسنّة جزءاً رسمياً مِنَ الخطاب العَلَوي الديني[1]. تمتّع العَلَويون في بداية الأمر بفترةٍ مِنَ الأمان النسبي والاندماج الاجتماعي في سورية حيث كانت القوة السياسية منقسمة بين الحمدانيين الشيعة والبيزنطيين المسيحيين.

كان أول موطن أسسه **الخُصَيبي** للعَلَويين في سورية هو في مدينة حَرَّان الواقعة – شمال سورية، وهي تابعة الآن لتركيا، وكان يَسكن فيها فلاسفة وعلماء فلَك وطائفةُ الصابئة[2]. وربما ترجع كثير مِنَ الجوانب الوثنية في تراث العَلَويين إلى حياتهم في تلك المدينة[3]. مِنَ الناحية السياسية كانت تلك المدينة هامشيةً وتمثّل إلى حد ما آخر البقايا المدنية مِنَ العصور القديمة في زاوية منعزلة مِنَ الشرق الأوسط في العصور الوسطى.

(1) بار آشر Bar-Asher وكوفسكي Kofsky 2005 صفحة 62
(2) فريدمان Friedman 2010 صفحة 72
(3) موسى Moosa 1988 صفحة 134

كان وصول **الخُصَيبي** إلى بلاط **سيف الدولة الحمداني** في حلب علامةً فارقة في دخول العَلَويين إلى سورية. لكي يتقرب **الخُصَيبي** إلى الحمدانيين الشيعة أكدَّ على إيمانه بالأئمة، بنوع مِنْ ممارسة التقية السياسية العملية. ولكي يحصل على الدعم السياسي، كان على **الخُصَيبي** أنْ يُحافظ على هويتين مختلفتين: كونه عالِم دِين في الشيعة الإمامية، وزعيم للطائفة العَلَوية في الوقت نفسه. وحسب رأي الشيخ **إيزكيوكاك** كان **الخُصَيبي** زعيما لأحد مذاهب الشيعة الإمامية، مثلما هو الحال في مذاهب المالكية والحنبلية والحنفية والشافعية عند السنّة. وعلى كل حال فقد كانت الفترة الحمدانية في حلب (945–1005)[1] أول فترات تماسك الطائفة العَلَوية، والفترة الذهبية في تاريخها.

كان ارتباط العَلَويين بالحمدانيين، وخاصة بالأمير **سيف الدولة**، أول تماس لهم مع السلطة السياسية في سورية. وكان دعم الحمدانيين السياسي لهم امتداداً للدعم والتضامن القَبَلي الذي تلقاه العَلَويون مِنْ بني نُمير وحلفائهم مِنْ بني تغلب (الحمدانيين) في العراق. ولا يوجد دليل يوحي بأنّ الحمدانيين قد تعاطَفوا أو تبنّوا المذهب الديني العَلَوي[2]. كانت العلاقة تعتمد على ممارسة التقية، وعلى تصوير العَلَويين بأنهم فئة مِنَ الشيعة الإمامية، وأنّ **الخُصَيبي** هو عالِم دِين شيعي إماميّ متين. عاش العَلَويون في تلك الفترة تحت مظلة العصبية القَبَلية للحمدانيين. ورغم أنهم كانوا فئة دينية مدنية قليلة إلا أنهم اندمجوا بشكل جيد في المجتمع. وهذا يعني أنّ دوافعهم لخلق ولتطوير عصبية طائفية على الطريقة **الخلدونية** كانت ضعيفة.

مَنَحَ دعمُ الحمدانيين **الخُصَيبي** فرصةَ النهوض بالعَلَويين، ويبدو أنه كان كاتباً نشيطاً، ففي خلال وجوده تحت ظل الحمدانيين بحلب استطاع أنْ يرسّخ قواعد العقيدة الدينية العَلَوية التي انتشرتْ في شمال سورية[3]. وحين توفي **الخُصَيبي** (969)

(1) هاريس Harris 2003 صفحة 197
(2) بعد سنة 960 حكم الحمدانيون كسلطة عازلة عملت لصالح الإمبراطورية البيزنطية ولم يكونوا في وضع يسمح لهم بفرض سياسة دينية في شمال سورية.
(3) فريدمان Friedman 2010 صفحة 33. يارون فريدمان Yaron Friedman، الحسين بن حمدان الخُصَيبي: السيرة التاريخية للطائفة النُصيرية-العَلَوية. مجلة الدراسات الإسلامية. 2001 الجزء 93. كما تم تأكيد ذلك في مقابلة مع الشيخ علي ييرال Ali Yeral والشيخ نصير إيزكيوكاك Nasir Eskiocak.

كان العَلَويون قد انتشروا في حلب وحرّان وبيروت وطَبَرية وطرابلس[1].

بدأت الدولة الحمدانية بالتراجع والانهيار في سنة 962 عندما سقطتْ حلب على يد البيزنطيين، وأُخرج **سيف الدولة** منها مؤقتاً[2]، ثم بعدها بقليل في سنة 969، عندما توفي **سيف الدولة** وتوفي **الخُصَيبي**[3]. شكّل ذلك ضربتين مؤلمتين للعَلَويين، وبدأ موقف الطائفة يضعف تدريجيا. لم يكن تأثير نهضة البيزنطيين على نشاط العَلَويين في سورية واضحاً، وربما لم تكن هذه الطائفة الصغيرة مهمة بالنسبة للبيزنطيين الذين حوّلوا شمال سورية إلى منطقة عازلة خاضعة لنفوذهم[4]. ولكنّ عدم وجود دولة مسلمة قوية في شمال سورية بعد 960 لم يكن سيئاً بالنسبة للعَلَويين، فقد استغلوا تلك الفترة لتجميع مؤلفات **الخُصَيبي**[5].

مِنَ الواضح أنّ عودة تأسيس سلطة إسلامية قوية في حلب كان سيئاً بالنسبة للعَلَويين، وبحسب **فريدمان** فقد تقلص نشاطهم عندما وصل المرداسيون الإماميون إلى الحكم في حلب سنة 1025 (أو 2013). وقد ذكر أنّ العَلَويين قد لعَنوا المرداسيين، مما يعني أنّ هذه الدولة الجديدة قد اضطهدتهم. ومنذ تلك الفترة لم يَحصل العَلَويون على أي دعم سياسي في شرق المتوسط.

جاء **أبو سعيد ميمون بن القاسم الطَبَراني** مِنْ مدينة طَبَرية في أواخر القرن العاشر[6]. وتكمن أهميته بأنه وَحّدَ الطقوس الدينية العَلَوية اللازمة للتطبيق العام[7]. كما يبدو أنه هو الذي قاد العَلَويين للهجرة إلى الجبال الساحلية، وهي الهجرة التي أنقذتهم مِنَ الانقراض. عندما جاء **الطَبَراني** إلى حلب كان عمره 18 سنة، ويبدو أنه

(1) دى بلانهول De Planhol 2007 صفحة 85. فريدمان Friedman 2010 صفحة 38-39. ستيفان وينتر Stefan Winter، الشيعة في لبنان تحت الحكم العثماني، 1516-1788. (Cambridge: Cambridge University Press, 2010) صفحة 61

(2) هاريس Harris 2003 صفحة 60

(3) فريدمان Friedman 2010 صفحة 36 وصفحة 33

(4) هاريس Harris 2003 صفحة 60-64

(5) فريدمان Friedman 2010 صفحة 34-41

(6) بار آشر Bar-Asher وكوفسكي Kofsky 2005 صفحة 43، فريدمان Friedman2010 صفحة 41

(7) المصدر نفسه صفحة 43-65، فريدمان Friedman 2010 صفحة 40

قد غادرها بسبب الاضطرابات في تلك المدينة[1]. المكان الذي هاجر إليه ليس معروفاً بشكل مؤكد، ولكنْ مِنَ المتعارف عليه أنه هاجر مِنْ حلب إلى مدينة اللاذقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط[2]، ومِنَ الممكن أنه كان في طرابلس حوالي 1007-1008[3]. ويبدو أنه قد غادر منطقة الجبال الريفية إلى الداخل في شمال اللاذقية (وليس إلى المدينة ذاتها)، حيث ظلّ مِنْ تلك الفترة حتى وفاته في 1034-1035[4]. ربما ترجع هجرة **الطَبَراني** إلى المناطق الجبلية الوعرة في شمال سورية لسببين: الأول هو أنّ المنطقة الجبلية في شرق بيروت وطرابلس وطبرية كانت كثيرة السكان، والسبب الثاني المحتَمل هو الدعم الذي احتفظتْ به الطائفة مِنْ عائلة محلية شيعية مِنْ بني محرز كانت تمتلك حصناً في الجبال الساحلية قرب اللاذقية، وقد تم ضمُّ هذا الحصن إلى البيزنطيين في 1030، ولذلك يمكن الاستنتاج أنّ هجرة **الطَبَراني** قد حدثتْ قبل ذلك.

يبدو أنّ **الطَبَراني** وأتباعه كانوا الطليعة التي بدأت الانتقال إلى الحياة الريفية في المناطق النائية في اللاذقية، ومهّدوا الطريق لبقية الطائفة. مِنَ المؤكد أنّ وصول السلاجقة الأتراك السُنَّة إلى شرق المتوسط في 1070 كان كارثة على مَنْ بقي مِنَ العَلَويين في حلب والمناطق الداخلية[5]. غيّرَ انتصار السلاجقة على الجيش البيزنطي في معركة مانزيكرت سنة 1071[6] التوازنَ الاستراتيجي في شرق المتوسط لصالح نهضة سنيّة قوية، مما اضطر العَلَويين إلى الهرب واللجوء إلى الجبال الساحلية. وأصبح بقاء هذه الطائفة في هذه المرحلة في يد القدر. فلو قرر السلاجقة الأتراك مد سلطتهم في شمال سورية مباشرة بدلاً مِنَ العودة إلى الأناضول[7]، لما كان

(1) قيس فيرو Kais M. Firro العَلَويون في سورية الحديثة: من النُصيرية إلى الإسلام من خلال العَلَوية. مجلة الإسلام. الجزء 82 العدد الأول صفحة 1-31. من تحرير والتر دى غرويتر Walter de Gruyter 2005 صفحة 3

(2) هاريس Harris 2003 صفحة 65، وقيس فيرو Kais Firro 2005 wtpm 3

(3) بار آشر Bar-Asher وكوفسكي Kofsky 2005 صفحة 65، كانت طرابلس آنذاك تحكمها أسرة بني عمار التي تتبع الشيعة الإثني عشرية

(4) فريدمان Friedman 2010 صفحة 42-48

(5) دى بلانهول De Planhol 1997 صفحة 85

(6) تاريخ المؤرخين (London: The Times, 1909) الجزء VII صفحة 255

(7) هاريس Harris 2003 صفحة 67

هروب العَلَويين إلى الجبال الساحلية كافياً لإنقاذهم. مرّتْ فترة بلغتْ حوالي خمس عشرة سنة بين انتصار السلاجقة في قلب المشرق العربي وعودتهم إليه لإزالة الوجود البيزنطي في الساحل السوري. أعطتْ هذه الفترة القصيرة، بالإضافة إلى هجرة **الطَبَراني** المبكرة إلى الجبال، فرصةً كافية للعَلَويين لكي يرسّخوا وجودهم في الجبال قبل أنْ تشمل السلطة السنيّة كامل المشرق العربي.

استمر نمط نكسات العَلَويين أمام القوى السنيّة، مما دفعهم إلى أطراف العالم الإسلامي. وفي ذلك الوقت أصبح عداء العَلَويين للسنّة جزءاً رسمياً في تعاليم دينهم. وكَتَب **الطَبَراني** مثلاً عن "دولة الشيطان" السنيّة وعن تحرير العَلَويين مِنَ الاضطهاد السنيّ"[1].

والخلاصة، امتدت الفترة الأولى مِنْ تاريخ العَلَويين حوالي قرنين مِنَ الزمان، منذ انطلاقها على يد الزعيم المحبوب **ابن نُصَير** في منتصف القرن التاسع، حتى بداية هجرتهم إلى الجبال الساحلية في القرن الحادي عشر مع **الطَبَراني**. تحت ضغط الاضطهاد السنيّ، انتقل **الخُصَيبي** بالطائفة مِنَ العراق إلى حلب، حيث وَجَدَ حماية قوية في كنف الحمدانيين. كانت تلك الفترة جيدة للعَلَويين الذين تجمعوا بشمال سورية في أواسط وأواخر القرن العاشر. ثم واجه العَلَويون الاضطهاد مرة أخرى على يد الأتراك السلاجقة السنيّين، الذين طمحوا بقوة لتحقيق الوحدة الدينية في بلاد الشام، واضطَهدوا الطوائف الشيعية المخالِفة لهم، مثل العَلَويين. أكمَلتْ هجرة العَلَويين إلى الجبال الساحلية وانحصارُهم فيها تغيّرَهم مِنْ طائفة حضارية مدنية ذات علاقات قبلية، إلى ما وَصَفَه الباحث الفرنسي **كزافييه دي بلانهول** Xavier De Planhol باصطلاح "مجتمع اللاجئين إلى الجبال"[2]. أدى هذا التغيّر إلى انتقال الطائفة مِنَ العمران الحضري إلى العمران البدوي، ومِنْ جماعة منتشرة في المجتمع إلى أقليةٍ متماسكة. وقد أدى هذا إلتراجع التدريجي والانعزال الريفي إلى بذور تشكّل العصبية الطائفية العَلَوية. كان مِنْ أهم مميزات فترة البداية

(1) بار آشر Bar-Asher وكوفسكي Kofsky 2005 صفحة 62

(2) كزافييه دي بلانهول Xavier De Planhol: العالَم الإسلامي (New York: Cornell University Press, 1959)

هو تشكّل نمط متواتر مِنَ الاضطهاد على يد القوى السنيّة المسلمة، مما غذّى الشعور العام بالخوف الطائفي وعدم الأمان في التراث العَلَوي.

أبناء الجبال 1070 - 1350

في الفترة بين أواخر القرن الحادي عشر وحتى توطّد حكم المماليك في سورية أواخر القرن الرابع عشر، اقتطَع العَلَويون لأنفسهم وجوداً جديداً في ملجئهم الجبلي. بينما شهدتْ فَترتهم الأولى تَشكّل الهوية الدينية للطائفة، لعِبت الفترة الطويلة مِنَ العزلة في الجبال الساحلية القاسية دوراً هاماً في تشكّل هويتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية[1]، وقرّبتهم أكثر مِنَ الحالة التي عرّفها **ابن خلدون** كجماعة ذات عصبية قوية.

كان ملجأ العَلَويين الجبلي، رغم فقره بالمصادر والإمكانات الاقتصادية، ذا موقع استراتيجي جيد، وقد منَحهم القدرة على الدفاع ضد مَحوهم أو إخضاعهم[2]، كما أنّ ضآلة الأهمية النسبية للعَلَويين في الأحداث السياسية الرئيسية في تلك الفترة عمِلَتْ في نهاية الأمر لصالحهم. تأمّلْ مثلاً في مصير طائفة ذات أهمية سياسية أكبر، مثل الاسماعيليين (الحشاشين)، أو الأرمن، الذين تمّ بتر وتحديد طموحاتهم السياسية في تحقيق استقلال سياسي على يد القوى العظمى[3].

مِنَ الأفضل أولاً توضيح التوزع السكاني في المنطقة التي ستصبح قاعدة المهاجرين العَلَويين، فمنذ فجر التاريخ حتى القرن الحادي عشر لَمْ تكن جبال سورية الشمالية مأهولة بشكل كبير[4]. ومع أواخر القرن الحادي عشر عندما بدأ وصول العَلَويين إلى الجبال الساحلية لَمْ يكن فيها سوى مستوطنَتين مسيحيتين: في

(1) دي بلانهول De Planhol 1997 صفحة 84

(2) المنحدرات الشرقية للجبال الساحلية وعرة كما هو مبين في الشكل 2. انظر أيضاً: كولبيرت هيلد Colbert Held، الأنماط في الشرق الأوسط: المناطق والسكان والسياسة. (Boulder: Westview Press) صفحة 242 الوصف الجغرافي للجبال الساحلية.

(3) عن الاسماعيليين انظر المصدر نفسه صفحة 85. وعن الأرمن انظر: هاريس Harris 2003 صفحة 100

(4) دي بلانهول De Planhol 1997 صفحة 84

منطقة صافيتا ومشتى الحلو في الجنوب، وعند النهر الكبير في الشمال. وكلتا هاتين المستوطَنَتين موغلة في القِدَم. ربما عادتْ قلّة السكان في تلك المنطقة آنذاك إلى هجرة قبائل المَرَدَة الجبلية المسيحية عنها في أواخر القرن السابع[1]. وعلى كل حال فإنّ وعورة وفقر هذه الجبال لمْ تشجع الناس على سكناها فيما عدا أولئك الباحثين عن ملجأ.

كان سكان تلك المناطق النائية في شمال غرب سورية بشكل عام مِنَ الفئات المسيحية المنشَقّة أو الشيعية المهرطِقة. احتفظ المسيحيون بشكل خاص بوجود هام ومستمر في الأرياف السورية رغم تزايد التحول إلى الإسلام خلال الفترة العباسية الأولى (750–850)[2]. ويشير **بطاطو** إلى أنّ الغالبية العظمى مِنْ فلاحي سورية كانوا مسيحيين حتى أواخر القرن الثالث عشر[3]، وربما كان الحال كذلك في مناطق الأرياف الجبلية، فمثلاً تجاوزت الفتوحات الإسلامية الأولى منطقة الجبال إلى الداخل مِنَ اللاذقية، وفي 636–637 ذُكر أنّ القوات الإسلامية تقدّمتْ مِنْ أنطاكية والقدس على طول االساحل السوري[4]، وتمّ دعم المسيحيين الذين تبقوا بعد الفتوحات الإسلامية بعد عودة القوة البيزنطية إلى شرق المتوسط بين 963 – 1025[5]. اتّصفتْ المسيحية التي استمرتْ بين فلاحي سورية بالتقليدية والإيمان بالخرافات مثل التعاويذ والسحر والمعجزات[6]. وهكذا كانت جماعات المسيحية الريفية وطائفة الشيعة هي المجتمعات التي احتكّ بها المهاجرون العَلَويون خلال ترحالهم في الجبال خلال القرن الحادي عشر.

احتاج استقرار العَلَويين في الجبال الساحلية إلى مزيد مِنَ البحث والاستقصاء، لأنّ ظروف هذه السيرة ظلّتْ غير واضحة. وبالنظر إلى قلة عدد أفراد الطائفة حتى

(1) هاريس Harris 2003 صفحة 49–53
(2) بيركي Berkey 2003 صفحة 117–118
(3) حنا بطاطو، الفلاحون السوريون أحفاد نبلاء الريف وسياساتهم (New Jersey: Princeton University Press, 1999)، صفحة 105
(4) تاريخ المؤرخين، الجزء VIII صفحة 158
(5) تاريخ المؤرخين، الجزء VII صفحة 242
(6) بطاطو 1999 صفحة 103

فترة انعزالهم في الجبال الساحلية بالمقارنة مع العدد الكبير نسبياً مِنَ العَلَويين في الحاضر (حوالي 3 مليون نَسَمة)، يبدو مِنَ المنطقي أنّ نوعاً مِنَ التحول إلى هذه الديانة قد حَدَثَ. ورغم أنّ السلطة البيزنطية في أنطاكية واللاذقية لمْ تكن لتتقبل في الغالب أي نشاط علني في الدعوة إلى الباطنية العَلَوية في منطقة اللاذقية والساحل، إلا أنه مِنَ الممكن أنّ المسيحيين النسطوريين المضطَهَدين[1]، والفلاحين الشيعة قد استجابوا للدعوة العَلَوية[2]. كان سكان المناطق الحضَرية في مدن ساحل شرق المتوسط قد استقروا طويلاً في انتماءاتهم الدينية على مذهب الإسلام السنيّ أو المسيحي الأورثوذكسي، وربما كان سكان المناطق الريفية هم الهدف الوحيد المتبقي للدعوة العَلَوية. هذا بالإضافة إلى أنّ فلاحي الأرياف ربما كانوا بعيدين عن نظر السلطات البيزنطية. وكان فشل العَلَويين في العودة إلى الحياة في المدن الساحلية السورية سبباً آخر لتطورهم إلى مجتمع ريفي (عمران بدوي).

يقترح **فريدمان** Friedman أنّ الخلايا المدنية التي أسسها **الخُصَيبي** في سورية أحاطتْ بها مناطق ريفية تم استهدافها بشكل مقصود مِنْ قِبَلِ دعاة الطائفة. ويمكن الاختلاف حول احتمال أنْ يكون العَلَويون قد انتبهوا آنذاك إلى أنّ وجودهم في المدن قد يعرضهم للخطر، وأنهم قرروا اللجوء للسَكَن في الريف بين الفلاحين. وحسب بعض التفسيرات للديانة العَلَوية يجب أنْ يولَدَ المرءُ عَلَوياً، ولذا فإنّ الدعوة إلى هذا المذهب لا يمكن أنْ تكون مقبولة[3]. وإذا كان هذا التفسير صحيحاً يجب البحث عن الفترة الزمنية التي تمّ فيها إدراجه ضمن هذه العقيدة. وإذا افترضنا حدوث دعوة نشيطة وتحول ديني، فربما كان ذلك التحول هو السبب الرئيسي للزيادة السكانية في هذه الطائفة.

ثبت أنّ الغزو الصليبي الأول في سنة 1097 كان هاماً بالنسبة لهذه الفئة الجبلية الوليدة، فقد قَدَّمت التغيرات السياسية التي أحدَثَها الصليبيون في شرق المتوسط فسحةَ تنفس هامة للطائفة العَلَوية التي كانت قد استقرتْ آنذاك في الجبال

(1) فريدمان Friedman 2010 صفحة 37–38
(2) هاينز هالم Heinz Halm صفحة 159 نقلاً عن هاريس Harris 2003 صفحة 65
(3) بطاطو 1999 صفحة 14

الساحلية. ربما كان أول احتكاك بين الأوروبيين والعَلَويين قد حدث عندما تقدَّم الجيش الصليبي إلى جنوب اللاذقية قادماً مِنْ أنطاكية في شهر مايو سنة 1098[1]. حرَّكَ الغزو الصليبي الجغرافيا السياسية في شمال غرب سورية الذي ظلّ يدور قبل ذلك حول التوازن البيزنطي – الفاطمي[2]. ولكن عندما استخدم البيزنطيون الدولةَ الحمدانية كقوة عازلة على السفوح الشرقية لجبال أنطاكية واللاذقية، اتجه الصليبيون إلى احتلال المناطق المحيطة بالعَلَويين[3]، وعَزَلَ ذلك التطويقُ العَلَويينَ عن أعدائهم السنّة الذين يمثّلهم السلاجقة آنذاك. وفي داخل تلك الشرنقة الجغرافية السياسية طَوَّر العَلَويون طائفتهم ومجتمعهم الخاص.

بعد وفاة **الطَبَراني** (1034 أو 1035)[4] يبدو أنّ الطائفة قد تفرقتْ في ملجئها الجبلي الجديد، وأصبحتْ أكثر انتشاراً مِنَ الناحية السياسية والدينية[5]. وطَّدَ الزعماء المحليون سيطرتهم السياسية على مناطق صغيرة في الجبال، وتفرّقت الطائفة إلى عشائر متعددة[6]. ويبدو مِنَ الغريب أنّ الجماعة التي كانت متماسكة جغرافياً قد خسرتْ تكاتفها عندما انعزلتْ كأقلية في الجبال الساحلية. ويمكن تفسير ذلك بسببين: الأول هو عدم وجود زعامة قوية بعد **الطَبَراني**، ولكن ربما الأهم مِنْ ذلك هو الصفات الجغرافية لمنطقة الجبال بذاتها، والتي أدتْ إلى تفرق العَلَويين، ومنعتْ ظهور زعامات موحّدة قوية[7].

يبلغ ارتفاع الجبال الساحلية في المتوسط 1400 متر، وتتألفُ مِنْ جغرافية

(1) تاريخ المؤرخين الجزء III صفحة 351

(2) هاريس Harris 2003 الخريطة 6 صفحة 59، والخريطة 7 صفحة 75 لتوضيح هذه المقارنة

(3) دى بلانهول De Planhol 1997 صفحة 85

(4) فريدمان Friedman 2010 صفحة 42

(5) موسى Moosa 1988 صفحة 267–269 والمصدر نفسه صفحة 47

(6) المصدر نفسه صفحة 267، ودى بلانهول De Planhol 1997 صفحة 87

(7) تقترح إيفيت تلحمي Yvette Talhamy أن غياب قيادة دينية أو طائفية واضحة حرم العَلَويين من التجمع والوحدة، ولكن ربما يعود ذلك أيضاً إلى وعورة الجبال الساحلية. إيفيت تلحمي: القائد النُصيري اسماعيل خير بك والعثمانيون (1854–1858) مجلة دراسات الشرق الأوسط، الجزء 44، العدد 6 نوفمبر 2008 صفحة 895

وَعِرة، مع عدم وجود استمرار جغرافي بين أجزائها[1]. نشأتْ هذه الجغرافية المتعرجة عن حركة الصفيحة القارية العربية في العصر الثلثي الأوسط وعصر الهولوسين، مع تأثير الطي والتكسر والانهدام والحَتِّ والتعرية على مر العصور[2]. أعاق تَجزُّؤ هذه الجبال تجمُّعَ السكان[3]. صفةٌ أخرى للجبال الساحلية كان لها دور هام في مصير اللاجئينْ العَلَويين وهي سوء خواص تربتها. إذ تتألف أرضها بشكل عام مِنْ تربةٍ غير متماسكة تشكَّلتْ مِنْ عوامل الحَتِّ والتعرية لصخور صوانية قديمة[4]. ومنذ القرن الحادي عشر عاش المستوطنون العَلَويون مع مَنْ تحول إلى دينهم في مناطق زراعية فقيرة صغيرة وموزعة في هذه الجبال[5]. ولَمْ يتغير ذلك الحال على مر قرون عديدة. وقد ذَكَرَ **حنا بطاطو** أنه في عام 1930 كان متوسط عدد السكان في القرية العَلَوية لا يزيد عن 100 – 250 نسمة[6].

(1) تمتد الجبال الساحلية من فجوة حمص قرب قلعة الحصن في الجنوب إلى جسر الشغور (الشكل 2)، وتُطلق على هذه الجبال أسماء عديدة، فقد كان اسمها قديماً الجبال السوداء (Ukomo)، وأطلق عليها الرومان اسم بارجيليوس Bargylus، وسمّاها العربُ الجبال السوداء وفق اسمها السوري القديم، ومنذ القرن الحادي عشر وظهور الديانة النُصيرية بين سكانها أطلق عليها اسم جبال النُصيرية، وسميت أحياناً جبال الأنصارية. وتم تغيير الاسم إلى جبال العَلَويين عندما غيَّرَ النُصيريون اسم طائفتهم في بداية القرن العشرين. وأخيراً غيرت الحكومة السورية الاسم الرسمي لهذه الجبال إلى الجبال الساحلية. ويدل الاسم الأخير على سياسة الحكم في الابتعاد عن الهويات الطائفية. ولا يَظهر اسم الجبال إطلاقاً في الخرائط الرسمية لوزارة السياحة السورية بل تشير إليها فقط على أنها مناطق جبلية خضراء جميلة. وفي غياب أي تأكد مطلق من الاسم الصحيح لهذه الجبال، ولأنه من الواضح أن الأمر الثابت الوحيد عنها هو هو مكانها الجغرافي، فربما يكون أكثر اسم مناسب لها هو الجبال الساحلية. انظر: لايد Lyde 1860 صفحة 5، موسى Moosa 1988 صفحة 256، هيلد Held 2000 صفحة 242، خريطة وزارة السياحة السورية: الساحل السوري، صالحاني، دمشق 2008.

(2) روبرت محفودا Robert F. Mahfouda وجيمس بيك James N. Beck، الدراسات الصخرية والجغرافية – الكيميائية... في منطقة طرطوس شمال غرب سورية. مجلة Microchemical Journal الجزء 78 (2004) صفحة 115

(3) دى بلانهول De Planhol 1997 صفحة 83

(4) محفودا Mahfouda وبيك Beck 2004 صفحة 116

(5) دى بلانهول De Planhol 1997 صفحة 83

(6) حنا بطاطو، ملاحظات حول الجذور الاجتماعية للفئة العسكرية في سورية وأسباب سيطرتها. مجلة الشرق الأوسط. الجزء 35 العدد 3 (صيف 1981) صفحة 334-335

عاملٌ آخر أدى إلى تأخر وتخلف الطائفة هو عدم اتصالهم بالساحل. فقد زاد انعزالَ العَلَويين إقصاؤهم عن الشريط الساحلي الذي يبلغ طوله 175 كيلومتر، ويتراوح عرضه مِنْ 10 إلى 20 كيلومتر بين الجبال والبحر. انقطع كل اتصال ممكن مع الغرب بعدما احتلّ المماليك السنّة الشريط الساحلي في القرن الثالث عشر. وكما كتب الباحث الفرنسي **جاك ويللرس** Jacque Weulersse فقد "*أصبح ملجؤهم سجناً*"[1]. زاد ذلك الانعزال في الجبال الساحلية مِنْ خصوصية العَلَويين، وقوّى اعتمادهم على أنفسهم واستقلالهم وصلابتهم، وهذه كلها عوامل يعتبرها **ابن خلدون** ضرورية لتطور مستويات قوية مِنَ العصبية.

بينما كان العَلَويون منعزلين عن العالم الخارجي، كانوا منعزلين عن بعضهم أيضاً، ففي الجبال الساحلية الوعرة المنقطعة ترسّخت الانقسامات القبلية، وامتنع تَشكلّ العصبية الطائفية. يوضح الشكل 5 نموذجاً للتضاريس المتعرجة في الجبال الساحلية.

كانت هناك انقطاعات جغرافية فيما بين العشائر المتحالفة أيضاً (انظر الشكل 3)، فمثلاً يضم تحالف الخياطين عشائر في أقصى المناطق الجنوبية والشمالية، وتتوزع بينها عشائر أخرى. وكذلك توزعتْ عشائر التحالفات الأخرى بشكل غير منتظم. كانت أكثر التحالفات القَبَلية تقارباً مِنَ الناحية الجغرافية هي عشائر الكلبية الذين تركّزوا حول القرداحة، وامتدوا إلى الداخل مِنْ جبلة واللاذقية. ولا يمكن التأكد مِنْ أنّ ذلك كان سبباً في سيطرة العشائر الكلبية فيما بعد.

كان التوزع الجغرافي للعشائر العَلَوية يميز بشكل عام الانتشار السياسي والاجتماعي للطائفة في ملجئهم الجبلي. كما أنّ دخول الفلاحين المسيحيين والشيعة في الطائفة ربما أدّى إلى تشكلّ هوية عَلَوية دينية، خاصة خلال وجودهم في الجبال الساحلية. رغم أنّ العَلَويين اكتسبوا صفات قَبَلية ريفية (أو عمراناً بدوياً) كطائفة، إلا أنهم كانوا متفرقين بشكل عام. وقد بيّن **ابن خلدون** أنّ تفرق جماعة في

(1) جاك ويللرس Jacque Weulersse، الفلاحون في سورية والشرق الأوسط. (Paris: Gallimard, 1946) صفحة 272

الشكل 5: قرية عَلَوية في شمال الجبال الساحلية.



تصوير المؤلف في أغسطس 2009

مناطق عدة لا يمنع تشكل عصبية جامعة مُحدَّدَة تكون أقوى مِنْ كل ما غيرها، ويمكن أنْ تؤدي إلى تجمعهم[1] ["ثم أنّ القبيل الواحد وإنْ كانت فيه بيوتات مفترقة وعصبيات متعددة، فلا بد مِنْ عصبية تكون أقوى مِنْ جميعها، تغلبها وتستتبعها

(1) لاكوست Lacoste 1984 صفحة 106

وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى "]. ولمْ يُظهر المجتمع العَلَوي في تلك المرحلة إلا بوادر قليلة لتطور مثل هذا النوع مِنَ العصبية الطائفية المشتركة.

في بداية القرن الثاني عشر تَحصَّن الصليبيون في مستعمراتهم الجديدة، بما فيها تلك التي كانت تحيط بالجبال الساحلية[1]، ولمْ يُؤثّروا بشكل كبير على الحياة اليومية للعَلَويين. تواجد الصليبيون بشكل عام بين الطوائف والتجمعات السكانية في جبال شرق المتوسط[2]، ولمْ يكن للعَلَويين أهمية حقيقية في أمْن الصليبيين خلال تلك الفترة. سجَّلَ المؤرخ السرياني **بار هيبرايوس** Bar Hebraeus أنّ الصليبيين قد قَتَلوا في بداية الأمر بعض العَلَويين (النُّصَيريين)، ولكنهم أصبحوا أكثر تقبلاً لهم عندما عرفوا أنّ العَلَويين ليسوا طائفة مسلمة حقيقية[3]. وعلّق بعضهم أنّ البنية القوية الأوروبية التي يتمتّع بها كثير مِنَ العَلَويين تدل على وجود أصول مشتركة بينهم وبين الصليبيين[4]. وليس مِنَ المستبعد حصول تزاوج مشترك بينهم، مما أضاف إلى التنوع الوراثي للعَلَويين.

في القرن الثاني عشر كان العَلَويون يشبهون سكان الجبال مِنَ المسيحيين في مظهرهم وفي عاداتهم إلى حد ما، فقد كان التمازج بين الناس العاديين مِنْ أديان مختلفة خلال العصور الوسطى في شرق المتوسط ودّياً بشكل عام بعيداً عن الصراعات السياسية. ويصف **بيركي** مشاركةَ المسلمين والمسيحيين في الأعياد لإظهار اجتماعيتهم، وكذلك لأنّ الأعياد كانت تتبع دورة الفصول الطبيعية في الحياة الريفية[5]. ولا يمكن التأكد فيما إذا لجأ العَلَويون لتقديم أنفسهم آنذاك كمسيحيين لكي يتجنبوا الاضطهاد، إذ لا تتوفر مصادر تدل على ذلك. وبالنظر إلى ما فعلته الطائفة مِنْ قبل حين قدَّمتْ نفسها إلى الحمدانيين على أنها فئة مِنَ

(1) دي بلانهول De Planhol 1997 صفحة 86. هاريس Harris 2003 صفحة 15
(2) هاريس Harris 2003 صفحة 16-17
(3) موسى Moosa 1988 صفحة 269
(4) انظر مثلاً ملاحظة فريا ستارك Freya Stark في مقالتها: قلاع سورية، المجلة الجغرافية، الجزء 10، لندن، ديسمبر 1939 صفحة 96
(5) بيركي Berkey 2003 صفحة 251

الشيعة الأمامية، فربما اتبعوا سياسة مشابهة مع الصليبيين. وعلى كل حال فإنّ تقديم العَلَويين أنفسهم على أنهم مسيحيون هو أصعب عليهم مِنْ تقديم أنفسهم كشيعة إمامية يشتركون معها بالفعل في معتقدات دينية كثيرة.

مَنَحتْ فترةُ الصليبيين العَلَويينَ بشكل عام فرصةً هامةً لتوطيد وجودهم في الجبال الساحلية، ولمْ يعانوا خلالها كثيراً مِنَ الاضطهاد. وربما تراجع الخوف الطائفي قليلاً في تلك الفترة. ولكن في بداية القرن الثاني عشر اصطدم العَلَويون في الجبال الساحلية مع أقلية دينية أخرى هي طائفة الشيعة الاسماعيلية النزارية القادمة مِنْ إيران (يُشار إليهم غالباً باسم: الحشاشين).

نجح الاسماعيليون في تأسيس دولة مستقلة حول منطقة القدموس ومصياف في الأجزاء الجنوبية مِنَ الجبال الساحلية في بداية القرن الثاني عشر[1]. تنافس الاسماعيليون مع العَلَويين في الجبال على مدى قرن ونصف مِنَ الزمن حتى زالتْ دولتهم على يد المماليك في 1271-1273. يمكن اعتبار الدولة الاسماعيلية في جنوب الجبال الساحلية كياناً دينياً سياسياً تأسس على العصبية الطائفية، ولكنّ قلّةَ عدد أفراد هذه الطائفة، وتَشدد مؤسساتها الدينية والسياسية يفسِّر صغر امتداد هذه الدولة الاسماعيلية.

تراجعتْ أحوال العَلَويين مع النهضة السنّية في شرق المتوسط التي بدأتْ مع السلاجقة، وتوقفتْ لفترة مع الصليبيين، ودخلوا فجأة في مرحلة جديدة عندما انتصر الأتراك الأيوبيون السنّة بقيادة الأمير **نور الدين محمود** على الصليبيين في معركة هامة قرب بانياس سنة 1164، فوقعَ العَلَويون وجهاً لوجه مع القوى السنيّة الصاعدة قرب ملجئهم الجبلي مباشرة. وكان لدى السنّة شكٌ كبير بالدور الذي لعبته الطوائف الشيعية إلى جانب الصليبيين، فراقبوا العَلَويين بشكل دقيق. عادتْ أحوال العَلَويين إلى التراجع مِنْ جديد عندما أصبحوا أقلية صغيرة متباعدة في مواجهة أكثرية مسلمة سنيّة قوية، وفقدوا الاستقلال النسبي والحرية الدينية التي

(1) ديفين ستيوارت Devin J. Stewart: مقامات أحمد بن أبي بكر بن أحمد الرازي الحنفي والمذاهب المقاومة للصليبيين في القرن الثاني عشر في سورية. مجلة Middle Eastern Literatures الجزء 11 العدد 2 (أغسطس 2008)

تمتعوا بها خلال وجود الصليبيين، وعادوا إلى حالةٍ مِنَ الانعزال والخوف الطائفي.

مِنَ الغريب أنّ العامل الذي ساعد على توحيد العَلَويين، وهو الغزو الصليبي، كان بذاته هو العامل الرئيسي الذي أدى إلى تهميشهم الديني والسياسي. فقد كان التحدي الصليبي قوة توحيد للمسلمين كانت نتيجتها سيطرة الأصولية السنيّة. كما أنّ وضوح الأهمية الاستراتيجية لجبال شرق المتوسط في الصراع مع الصليبيين أدى إلى دخول العَلَويين في الحسابات الاستراتيجية السنيّة[1]. وضعَ **نور الدين** تقوية روح الجهاد في مقدمة أولوياته لدعم الجهود العسكرية، مما يعني مقاومة الصليبيين، ومحاربة مَنْ يشك بهم مِنْ حلفائهم أصحاب الميول الشيعية، مثل العَلَويين[2].

مع انهيار الفاطميين في القاهرة على يد الأيوبيين سنة 1171، انهارتْ آخر القوى الشيعية السياسية الرئيسية، وأصبح الإسلام السنيّ القوة المسيطرة الوحيدة في سورية[3]. كانت تلك ضربة قاصمة للمستقبل السياسي للعَلَويين، الذين لم يشاهدوا بعدها ظهور قوة شيعية أخرى في شرق المتوسط حتى الثورة الإيرانية سنة 1979[4]. في نهاية القرن الثاني عشر لمْ يكن خارج سيطرة القوى السنيّة سوى جيوب صغيرة في شمال شرق المتوسط ظلّتْ تحت سيطرة الصليبيين في صور وطرابلس وأنطاكية[5]، ومنطقة الاسماعيليين (الحشاشين) في القدموس ومصياف[6].

تحسّنتْ حال التحديات التي واجهها العَلَويون في العقود الأولى مِنَ القرن الثالث عشر بسبب تغيرات حدثت في العراق، فقد وصل الشيخ **أبو محمد الحسن بن يوسف المكزون السنجاري** (ولِد في 1164 أو 1168) وأتباعه إلى الجبال

(1) هاريس Harris 2003 صفحة 9-10
(2) ستيوارت Stewart 2008 صفحة 227. هاريس Harris 2003 صفحة 15
(3) لوتز ويدرهولد Lutz Weiderhold: التجديف على النبي محمد وأصحابه: مقدمة في موضوع مؤلفات الشريعة الشيعية وعلاقتها بالشريعة القانونية تحت حكم المماليك. (*Journal of Semitic Studies* XLII/1(1997 صفحة 65
(4) "وصول الإيرانيين إلى سورية للقتال إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية" مجلة التايمز *The Times*, London, December 19, 1979
(5) تاريخ المؤرخين (London: The Times, 1909, Vol. VIII) صفحة 382
(6) هاريس Harris 2003 الخريطة 8 صفحة 83

الساحلية حوالي 1220-1223[1]، وهو مِنْ أحفاد أحد المعاصرين **للخُصيبي** في العراق، وكان ينتمي إلى الديانة العَلَوية[2]. كان تأييده للعَلَويين بمثابة التأكيد على أهمية الفترة الأولى مِنْ تاريخ العَلَويين، وأنّ تلك العلاقة ظلّتْ مهمة في حساباتهم السياسية. ومما نُشر عن الشيخ **المكزون** سنة 1972:

*"في سنة 1218 أرسل النُصَيريون (العَلَويون) مِنْ منطقة بانياس واللاذقية رسالة إلى الشيخ **المكزون** (الذي كان أميراً على سِنْجار في شمال غرب العراق) وطلبوا منه المساعدة ضد خصومهم الأكراد (الذين جاء بهم الأيوبيون والاسماعيليون إلى منطقتهم). ومما حفّز **المكزون** على التدخل حدوث مجزرة للنُصَيريين (العَلَويين) في غابة صهيون أثناء احتفالهم بعيد النيروز، فجاء مِنْ سنجار مع 25000 مِنْ جنوده لقتال الأكراد... ولكنه عاد إلى سنجار ليضاعف جنوده ثم جاء ثانية ومعه 50000 مقاتل سنة 1222... واستمر في القتال حتى هرب الأكراد والاسماعيليون مِنَ الجبال"*[3].

لا شك بأنّ الأعداد التي وَردتْ في هذا النص غير دقيقة وغير واقعية، واعترف **فريدمان** بذلك وأرجعه إلى عدم وجود مصادر أصلية مِنْ تلك الفترة[4]. ولكن هناك دليل موثق يرجح حدوث هجرة مِنَ العراق إلى سورية في تلك الفترة. فهناك نسخة لوثيقة عَلَوية كُتبتْ في العراق قبل عشرين عاماً مِنْ غزو المغول سنة 1258، وقد ظَهرتْ تلك الوثيقة في سورية في الوقت الذي جاء فيه **المكزون**[5]. وربما يؤيد انتقال هذه الوثيقة الاستنتاج أنه قد حدثتْ بالفعل هجرة لمؤيدي العَلَويين مِنَ العراق إلى سورية في النصف الأول مِنَ القرن الثالث عشر.

(1) فريدمان Friedman 2010 صفحة 52. موسى Moosa 1988 صفحة 270
(2) الشيخ نصير إيزكيوكاك Nasir Eskiocak في مقابلة مع المؤلف 29 مارس 2011
(3) أسعد أحمد علي: معرفة الله والمكزون السنجاري. بيروت 1972 صفحة 343-346 نقلاً عن فريدمان Friedman 2010 صفحة 52-53
(4) المصدر نفسه صفحة 51
(5) وثيقة اجتماع بين المتصوفين العَلَويين الصايغ والجسري. Ms. Paris 1450, fol. 176b-179a; Cat: Massignon item 38 كما وردت في فريدمان Friedman 2010 صفحة 35 والحاشية 127

كان **المكزون** شخصية هامة للعَلَويين في القرن الثالث عشر، وقد أدتْ انتصاراته الحربية إلى دعم الطائفة في مواجهة الاضطهاد السنيّ وفي الصراع مع الطوائف الأخرى مثل الاسماعيلية. وليس مِنَ الممكن التأكد مِنْ عدد المقاتلين في جيش **المكزون** الذين ظلّوا في سورية، ويُعتقد أنّ حوالي الألف منهم انتقلوا للسكنى في الجبال الساحلية، مما شكلّ زيادة سكانية هامة بالنسبة للطائفة[1]. ويَعتقد **ماتي موسى** أنّ الحدادين والمتاورة والمهالبة والدراوسة والنميلاتية وعشائر بني علي وفروعها كلها مِنْ نسل جيش **المكزون** وأتباعه[2].

كان **المكزون** مهماً مِنْ ناحية ثانية، فحسب رأي **فريدمان** قام **المكزون** بإجراء محاورة دينية هامة ضد خصوم العَلَويين مِنَ الفرقة الإسحاقية [أتباع **اسحق بن الأحمر**] (فئة مِنْ بقايا المراحل الأولى) نجح فيها بسحقهم وأحرق كتبهم. ولذا يبدو أنّ **المكزون** قد نجح بلا هوادة في القضاء على الشقاق في الطائفة العَلَوية، مما زاد في تماسكهم واتحادهم، وفتَحَ المجال أكثر أمام ظهور عصبيتهم الطائفية.

كان توقيت ظهور ونتائج تدخل **المكزون** يمثل حظاً سعيداً بالنسبة للعَلَويين، وربما بالنسبة لأتباعه أيضاً، فقد تلى هجرتهم وصول "الانفجار النووي" المغولي الذي ضرب بغداد سنة 1258، والذي كان مِنَ الممكن أنْ يقضي على أية فرصة لدعم العَلَويين مِنْ تلك المنطقة. ورغم أنّ الشيخ **المكزون** كان زعيماً مهماً للعَلَويين، وأنه كان يتمتع بصفات دينية صوفية باطنية[3]، إلا أنه لم ينجح في تحريك العصبية العَلَوية لتأسيس دولة أو مملكة. وربما يرجع ذلك إلى تفرق العَلَويين في الجبال الساحلية الوعرة، وكذلك لم تسمح الظروف الجغرافية-السياسية في المنطقة آنذاك بنشوء دولة عَلَوية، فقد كانت هناك طوائف وقبائل أكثر قوة وعصبية مثل المغول. توفي الشيخ **المكزون** السنجاري قرب حماة في طريق عودته إلى شمال العراق سنة 1240[4].

(1) فريدمان Friedman 2010 صفحة 55-56
(2) موسى Moosa 1988 صفحة 270
(3) الشيخ علي بيرال في مقابلة مع المؤلف في أنطاكية، تركيا، 28 مارس 2011
(4) فريدمان Friedman 2010 صفحة 53

انتصر المماليك في معركة عين جالوت في شمال فلسطين سنة 1260 ضد جيش مغولي صغير نسبياً، وأدى ذلك إلى أنْ يرث المماليك سورية مِنْ حكم الأيوبيين الذي قَضى عليه المغول[1]. كان المماليك جنوداً أرقّاء أصولهم تركية مِنْ منطقة شمال البحر الأسود، وقد أسسوا حكمهم في القاهرة حوالي سنة 1250[2]. كان المماليك مثل الأيوبيين مِنَ المتمسكين بشدة بالمذهب السنيّ في الإسلام، وكانوا يَنظرون بكثير مِنَ الشكّ إلى العَلَويين بسبب ميولهم الشيعية وعلاقاتهم بالصليبيين، وقد شنّوا حملات عقابية ضد العَلَويين والدروز والشيعة الإثني عشرية في أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر[3].

كان الاسماعيليون أكثر الخاسرين تضرراً، فقد سقطتْ أقوى قلاعهم في القدموس ومصياف على يد السلطان المملوكي **بيبرس** في 1271-1273[4]. وفي الواقع دَفَع الاسماعيليون ثمن الدور السياسي الذي لعبوه في المنطقة بتحالفهم مع الصليبيين، ومحاولتهم اغتيال **صلاح الدين**[5] (مثلما حدث في معركة عناب حين تحالف الاسماعيليون مع **ريموند** حاكم أنطاكية)[6]، ومحاولاتهم الاحتفاظ باستقلالهم في الأجزاء الجنوبية مِنَ الجبال الساحلية. كان في القضاء على القوة الاسماعيلية دافعٌ قوي للعَلَويين الذين أصبحوا منذ ذلك الوقت الجماعة المسيطرة الوحيدة في جبال الساحل السوري.

مِنَ المهم ملاحظة أنّ الاسماعيليين كانوا يَخضعون لنظام سياسي وديني أكثر صرامة وجموداً مِنَ الذي كان لدى العَلَويين. وقد أدى ذلك الجمود إلى قلة عدد أتباعهم، وإلى كونهم أقل قدرة على التكيف والتلاؤم مع تغير الظروف

(1) عن معركة عين جالوت انظر: ر. أميتاي R. Amitai: عين جالوت من جديد. في كتاب: المغول في أرض الإسلام (Aldershot: Ashgate/Valorium, 2007) صفحة 119-150
(2) شرَحَ الشيخ نصير إيزكيوكاك Nasir Eskiocak بالتفصيل وجهة نظر العَلَويين عن وصول المماليك إلى سورية في منتصف القرن الثالث عشر، مقابلة مع المؤلف.
(3) بيركي Berkey 2003 صفحة 191
(4) ستيوارت Stewart 2008 صفحة 224
(5) انظر برنارد لويس Bernard Lewis: صلاح الدين والحشاشون، في مجلة Bulletin of the School of Oriental and African Studies الجزء 15 العدد 2 (1953) صفحة 239-245
(6) ستيوارت Stewart 2008 صفحة 220

السياسية(1). ومِنَ الواضح عند مقارنة الاسماعيليين بالعَلَويين أنّ بقاءهم بعيداً عن الأنظار، وقلّة تنظيمهم، وغموضهم الديني، وتقبُّلَهم للمهتدين الجدد بشكل عام، قد حسَّنَ فرص المستقبل السياسي للعَلَويين، فازداد عدد المنتمين إلى الطائفة العَلَوية، ورسّخوا سيطرتهم على كامل منطقة الجبال الساحلية.

في نهاية القرن الثالث عشر، أصبح مِنَ الواضح وجود نمط محدد في التاريخ العَلَوي الذي توجَد فيه فترات مِنَ التقدم الاجتماعي والسياسي، تتخللها فترات مِنَ الاضطهاد والتعصب الذي كان في الغالب مِنْ جهة القوى الإسلامية السنّية، فالتقدم الأوليّ أيام **محمد بن نُصير والخُصَيبي** في العراق تمّ إجهاضه على يد السلطات العباسية السنيّة. كما أنّ تجمع وانتشار الدعوة العَلَوية في شمال سورية قد وُضِع حدّ له على يد السلاجقة السنّيين. والاستقلال والأمان النسبي الذي تمتّع به العَلَويون في الفترة الصليبية قَضَتْ عليه انتصاراتُ الأيوبيين السنّة في شرق المتوسط. كما أنّ الحماية العسكرية المؤقتة التي حققها الشيخ **المكزون** السنجاري تبعها وصول المماليك السنّة. وفي كل مرة خضع العَلَويون للاضطهاد تمّ دفعهم بعيداً في المناطق الجغرافية النائية مِنَ العالَم الإسلامي. وكلما تعرض العَلَويون للاضطهاد تَعمَّق شعورهم بالخوف الطائفي خاصة تجاه المسلمين السنّة. وفي بدايات الحكم المملوكي في سورية تمّ إغلاق كل فرص اللجوء والهجرة أمام العَلَويين، وأصبح العَلَويون أبناء الجبال، وفي تلك الجبال تمكنوا مِنَ البقاء كجماعة وطائفة(2).

المماليك وابن تيمية وتأسيس عصبية الطائفة العَلَوية

بعد طرد الصليبيين سنة 1291، سيطر المماليك على شرق المتوسط، رغم أنهم ظلّوا مُعرَّضين لمواجهة الخطر المغولي شرق الفرات مع حلفائهم الأرمن في الشمال(3)، ولذلك ظلّت الفئات والطوائف المُبتدِعة، مثل العَلَويين الذين سكنوا

(1) دى بلانهول De Planhol 1997 صفحة 87

(2) خوري، 1990 صفحة 74

(3) بور Power وستاندن Standen: الحدود المتنازعة في مناطق الحدود في أوراسيا. 700–1700 تحرير روفن أميتاي Reuven Amitai: المغول في العالم الإسلامي، دراسات في تاريخ الخانات. (Aldershot and Burlington: Ashgate Publishing, 2007), pp. XIV) صفحة 134–140

قرب الجبهة الشمالية، مجموعات هامة استراتيجياً بالنسبة للمماليك. بعد سقوط دمشق في يد المغول سنة 1299، قرر المماليك تدعيم مواقعهم في المناطق الجبلية المتمردة(1)، فقاموا بتطبيق سياساتٍ مثل توطين الجنود المخلصين مِنَ التركمان في السهول المجاورة للجبال الساحلية لكي يراقِبوا ويضبطوا أي تهديد محتَمَل مِنْ جهة العَلَويين. ولكنّ السياسة المفضّلة للسلطنة المملوكية كانت في دعم الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في المناطق الحدودية(2)، وكان ذلك مِنْ حسن حظ العَلَويين لأنّ الجانب المغولي مِنْ مدينة حرّان الحدودية تمّ تدميره تماماً بعد 1270.

شكّلَ المماليك تحدياً جديّاً لمصالح العَلَويين بسبب كونهم قوة عسكرية تتمتع بنظام سياسي صارم. أُجري مسح في كافة المناطق الخاضعة للمماليك في سورية في الفترة بين 1313 و1325 لمعرفة طبيعة التوزع السكاني(3). وتمّ مسح منطقة طرابلس ومناطق العَلَويين في الجبال الساحلية سنة 1317. وفي نوفمبر 1317 أصدر السلطان المملوكي **الناصر محمد بن قلاوون** أمراً يتعلق بالعَلَويين جاء فيه: "*نحن نَمنَع خِطاب النصيريين. وبعد صدور هذا الأمر يُمنعوا مِنَ القيام بأي خِطاب، كما يُمنع أكابرهم وشيوخهم مِنَ الخِطاب، ومَنْ يتجرؤ منهم على ذلك سيتم عقابه بشدة*"(4) [أنّ بالأطراف القاصية مِنْ هذه المملكة قرى سكانها يعرفون بالنُصيرية لم يلج الإسلام لهم قلبا، ولا خالط لهم لبا، ولا أظهروا له بينهم شعارا...]، ثم يقول: [وأما النُصيرية فليعمِّروا في بلادهم بكل قرية مسجدا... وكذلك رسَمنا أيضا بمنع النُصيرية مِنَ الخِطاب، وأنْ لا يُمكنوا بعد ورود هذا مِنَ الخِطاب جملة كافية، وتُؤخذ الشهادة على أكابرهم ومشايخ قراهم لئلا يعود أحد منهم إلى التظاهر بالخِطاب، ومَنْ تظاهر به قوبل أشد مقابلة].

ويشير "الخِطاب" في هذا النص إلى طقوس الدخول في الديانة العَلَوية. وهكذا سَعَت السلطات المملوكية إلى توجيه العَلَويين نحو المسار الديني "الصحيح". وكان

(1) هاريس Harris 2003 صفحة 98. وساتو تسوغيتاكا Sato Tsugitaka: الدولة والمجتمعات الريفية الإسلامية في القرون الوسطى. (Leiden: Brill, 1997) صفحة 172

(2) بور Power وستاندن Standen 2007 صفحة 142

(3) تسوغيتاكا Tsugitaka 1997 صفحة 170– 175

(4) النويري XXX 108، عقد الجمان 329، كما ورد في تسوغيتاكا 1977 صفحة 170–173

السلطان المملوكي **بيبرس** قد أمر ببناء مساجد في القرى العَلَوية، ولكنْ تمّ استخدامها لإيواء الحيوانات فيما بعد حسب **ابن بطوطة**[1] [بنوا بكل قرية مسجداً بعيداً عن العمارة، ولا يَدخلونه ولا يَعمرونه، وربما أوَتْ إليه مواشيهم ودوابهم، وربما وَصل الغريب إليهم فينزل بالمسجد]. وقد تمّ التأكيد على ذلك الأمر بعد المَسح الذي أُجري في 1317[2]. وبالنسبة للعَلَويين كان تطبيق هذه القوانين، خاصة فيما يتعلق بمنع الخِطاب، يعني عملياً إنهاء وجود طائفتهم التي استمر وجودها آنذاك أكثر مِنْ خمسة قرون. وبشكل عام يمكن اعتبار القوانين المملوكية التي صَدرتْ في 1317 هجوماً بيروقراطياً ضد وجود العقيدة العَلَوية[3].

بعد ذلك بقليل في 20 فبراير 1318 ثار العَلَويون في منطقة الجبال[4]. وتركّزت الثورة حول رجل اتَّخَذَ اسم **محمد بن الحسن المَهدي**، وهذا يشير في الاصطلاحات الشيعية إلى الإمام الثاني عشر المُختفي في السرداب. جاء "**المَهدي**" الذي لم يُعرف اسمه الحقيقي مِنْ قريةٍ قرب مدينة جَبْلَة[5]. ادعى **المَهدي** أنه تلقى تعليمات مقدسة مِنْ حمامة بيضاء، فجمع 3000 فلاح عَلَوي، وأعلن موت السلطان المملوكي في القاهرة، وهاجم مدينة جبلة الساحلية[6]. أعلن **المَهدي** سيطرة العَلَويين على منطقة جبلة[7]، كما أعلن غياب الذِكْر والدولة بين المسلمين،

(1) ابن بطوطة صفحة 177 نقلاً عن تسوغيتاكا 1997 صفحة 172

(2) ساتو تسوغيتاكا Sato Tsugitaka 1997 صفحة 171-172. يتحدث لوتز فيدرهولد Lutz Weiderhold عن مرسوم مشابه صدر في 1310 عن السلطان المملوكي الناصر لبناء مساجد في القرى العَلَوية حول طرابلس، انظر "التجديف ضد النبي محمد وأصحابه (سب الرسول وسب الصحابة): مقدمة الموضوع في كتابات الشافعية وعلاقتها بالممارسات القانونية في حكم المماليك". *Journal of Semitic Studies* XLII/1, spring 1997 صفحة 66

(3) تسوغيتاكا 1997 صفحة 174

(4) بيركي Berkey 2003 صفحة 191 أخطأ في تاريخ الثورة على أنها حدثت في 1317، ولكن تسوغيتاكا Tsugitaka يقدم الدليل على أنها حدثت في فبراير 1318. انظر المصدر نفسه صفحة 163-164

(5) فريدمان Friedman 2010 صفحة 58، تسوغيتاكا 1997 صفحة 164

(6) تسوغيتاكا Tsugitaka 1997 صفحة 163-167

(7) المصدر نفسه صفحة 167. لم يمكن تحديد المنطقة التي سيطر عليها هؤلاء الثوار بدقة.

وأنّ العَلَويين يجب أنْ يحكموا البلاد. كانت تلك أول حادثة موثَّقة قام فيها العَلَويون بادّعاء سيطرتهم السياسية على منطقة معينة. وعلى كل حال فقد تمّ سحق الثورة بسهولة خلال خمسة أيام على يد 1000 فارس مملوكي أرسلهم والي طرابلس. قُتِل 600 ثائر عَلَوي، وقُتِل **المَهدي** أثناء قمع الثورة[1].

ترجع تلك الثورة إلى ثلاثة أسباب: الأول امتعاضُ العَلَويين بسبب مَنح أراضٍ للجنود التركمان لكي يستوطنوا فيها، لأن ذلك يعيق وصولهم إلى السهول الخصبة. والثاني قابلية العَلَويين الريفيين في تلك الفترة لتصديق الخرافات. والثالث، وهو الأهم في رأي **تسوغيتاكا** Tsugitaka، هو رد الفعل الانفعالي الذي حدث لدى العَلَويين ضد التحديات التي وجهتها القرارات المملوكية للديانة العَلَوية. ومِنَ الممكن أنّ أتباع **المَهدي** قد صَدَّقوا فعلاً أنه **المهدي** المُنتظَر (الإمام الغائب) واتَّبعوه بحماس ديني.

عند دراسة تاريخ العَلَويين حتى تلك المرحلة، يتضح أنّ ثورة **المَهدي** كانت خروجاً عن الاستراتيجيات السابقة التي اتَّبعَتها الطائفة، فقد كانت الهجرة، أو التطبيق الحكيم لمبدأ التقية، هو السلوك الذي اتبعته الطائفة في مواجهة الخطر. ولكنّ خيار الهجرة لَمْ يعد متاحاً لهم بعد أنْ أصبحوا مُحاصَرين في ملجئهم الجبلي، ولكن ليس مِنَ الواضح لماذا لَمْ يطبِّق العَلَويون في جبلة مذهب التقية ويتظاهروا بقبول القرارات المملوكية لكي يتجنبوا الاضطهاد؟ يَقترح **فريدمان** أنّ العَلَويين في جبلة كانوا مِنْ نسل الجنود الذين أتوا مع جيش **المَكزون**، وأنّ تربيتهم العسكرية دفعتهم إلى استخدام السلاح[2]. ولهذه الفرضية ما يَدعَمها مِنَ الدلائل، إلا أنّ السهولة التي انتصر فيها 1000 مِنْ جنود المماليك على 3000 مِنْ الثوار العَلَويين تُبيّن أنّ هؤلاء المنتسبين إلى جيش **المَكزون** لَمْ يُظهروا قوة عسكرية حقيقية، أو ربما كان تسليحهم ضعيفاً.

كانت الثورة محدودة النطاق ولَمْ تكسبْ تأييد العَلَويين، ولَمْ تَحدثْ ثورة شاملة تأييداً لها في بقية مناطق الجبل، رغم أنّ العدد الكبير للذين شاركوا في الثورة

(1) تسوغيتاكا Tsugitaka 1997 صفحة 167-169 حسب ابن كثير XIV صفحة 83

(2) فريدمان Friedman 2010 صفحة 56

(3000) يدل على أنها قد شملتْ نسبة عالية مِنَ العَلَويين المقيمين حول مدينة جبلة. وربما يرجع سبب عدم إثارة العصبية العَلَوية آنذاك إلى تَشتت العَلَويين، بالإضافة إلى تخوف بعض شيوخهم. كانت العصبية العَلَوية آنذاك غير كافية لتحقيق نصر عسكري ضد الدولة المملوكية القوية، إلا أنّ رد فعل المماليك أدى إلى زيادة الخوف وعدم الاطمئنان لدى الطائفة العَلَوية.

مِنَ المؤكد أنّ عموم العشائر العَلَوية قد عوقبتْ بسبب الثورة، وحسب **ابن بطوطة** فقد قام والي طرابلس بحملة تأديبية قُتِل فيها 20,000 عَلَوي[1]. وفي الغالب بالغَ **ابن بطوطة** في هذه الأرقام، ولكن تَبيَن أنّ والي طرابلس قد تدخل في الواقع لحماية العَلَويين في الوقت الذي أَمَرَ به السلطان المملوكي في القاهرة بالقضاء عليهم بعد الثورة. فقد كَتَبَ الوالي إلى السلطان أنّ *"النُصيريين يقومون بخدمة المسلمين بفلاحة الأرض، وأنّ القضاء عليهم يمكن أنْ يضعف المسلمين"*[2]، فعَفى السلطان عنهم. ويَنسجم هذا التفسير مع سياسة المماليك العامة بتقوية الجماعات في الثغور حين كانت اتفاقية السلام مع المغول على بُعد سنتين فقط من ذلك التاريخ[3].

طَلَبَت العشائر العَلَوية أنْ تعاملهم السلطات المملوكية معاملَة أهل الذمة مِنْ أهل الكتاب، واقترحوا دفع الجزية. توضح هذه الاستراتيجية التي اتّبعها العَلَويون اعترافهم الضمني بأنهم ليسوا مِنَ المسلمين، ومِنْ ناحية أخرى يمكن أنْ تدل على أنّ زعماء العَلَويين قد فقدوا الأمل بإقناع المماليك أنهم مسلمون. هذا الجانب مهمّ وستتم مناقشته فيما بعد.

كانت ثورة **المَهدي** في 1318 أول محاولة قام بها العَلَويون لإثبات وجودهم عسكرياً في مواجهة قوة سنّية. وقد أوضح فشلهم التام عدم جدوى ذلك المنهج، وأثّر ذلك دون شك على السلوك السلبي الظاهر للعشائر العَلَوية بعد ذلك

(1) ابن بطوطة في تحفة المزار صفحة 292 نقلاً عن فريدمان Friedman 2010 صفحة 2، ودانييل بايبس Daniel Pipes استيلاء العَلَويين على السلطة في سورية. *Middle Eastern Studies*, Vol. 25, No. 4 (Oct., 1989) صفحة 436

(2) فريدمان Friedman 2010 صفحة 62

(3) أميتاي R. Amitai حل الصراع المغولي المملوكي، *The Mongols in the Islamic Lands*, XVI صفحة 359–390

التاريخ. كانت الثورة شذوذاً في تاريخ العَلَويين السياسي حتى ذلك الوقت. ولَمْ يَشعر المماليك بضرورة القضاء عليهم. ويبدو أنّ أهمية العَلَويين الاقتصادية قد تَغلبتْ على خطرهم الاستراتيجي ضد السلطنة المملوكية.

غالباً ما تضاربت الاستراتيجية السياسية العملية للمماليك تجاه الأقليات مع التقاليد الدينية السنّية. وفي بداية القرن الرابع عشر أثار التحدي المشترك للصليبيين والمغول التعصبَ الديني السنّي. كما أدى "العصر الجليدي الصغير" في نهاية القرن الثالث عشر أيضاً إلى زيادة التعصب الديني، فقد أدت التغيرات المناخية آنذاك إلى القحط والمجاعة في أوروبا والشرق الأوسط[1]. وكان الفقيه السنّي **تقي الدين أحمد بن تيمية** (1328) أشهر المناصرين المتحمسين للتشدد الديني وعدم قبول الفئات الدينية المبتدعة[2]. جاء **ابن تيمية**، الذي سيكون له تأثير عميق على مستقبل العَلَويين، إلى شرق المتوسط مِنْ منطقة حَرّان لاجئاً مِنَ الغزو المغولي في 1270[3]. وربما أَثّر هربه مِنْ بطش المغول الكفار في تشدده الديني الذي اعتُبر مشكلة حتى بالنسبة للسلطات المملوكية[4]. وعلى كل حال فقد كان لفتاويه الثلاثة عن العَلَويين أثرٌ كبير في موقفهم ومستقبلهم السياسي. قدّم **ابن تيمية** فتاويه بين 1305 – 1318. أيّدتْ فتواه الأولى في 1305 الحملات المملوكية في منطقة كسروان (لبنان) التي قُتِل فيها كثير مِنَ العَلَويين، وهرب الناجون منهم شمالاً إلى الجبال الساحلية[5]. تاريخ الفتوى الثانية غير مؤكد، ولكن الثالثة صَدرتْ في بداية ثورة المهدي سنة 1318[6].

(1) فيليب جينكينز Philip Jenkins التاريخ المفقود للمسيحية. (New York: Harper-Collins, 2008) صفحة 135–136

(2) يارون فريدمان Yaron Friedman فتاوى ابن تيمية ضد الطائفة النصيرية العَلَوية. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 46, No. 2, 2010 صفحة 178–179

(3) إيفيت تلحمي Yvette Talhamy: الفتاوى والطائفة النُصيرية العَلَوية في سورية. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 46, No. 2, 2010 صفحة 178–179

(4) المصدر نفسه صفحة 179. انظر أيضاً دونالد ليتل Donald Little الأهمية التاريخية والجغرافية لاعتقال ابن تيمية. في مجلة *International Journal of Middle East Studies*, Vol.4, 1973 صفحة 311–327

(5) تلحمي Talhamy 2010 صفحة 180–181، وينتر Winter 2010 صفحة 63

(6) تسوغيتاكا Tsugitaka 1997 صفحة 175–176، تلحمي Talhamy 2010 صفحة 180

يُطرح الاستفتاء عادة بشكل سؤال، وتكون الفتوى بمثابة الإجابة والقرار[1].

تُبيّن مقدمة الفتوى الأولى **لابن تيمية** المبادئ الرئيسية لهجومه الديني على العَلَويين:

"وسُئل رحمه الله تعالى ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين وأعانهم على إظهار الحق المبين وإخماد شعب المبطلين في "النُصيرية" القائلين باستحلال الخمر وتناسخ الأرواح وقدم العالم وإنكار البعث والنشور والجنة والنار.. وبأنّ إلههم الذي خَلق السموات والأرض هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه... وبأنّ النُصيري عندهم لا يصير نُصيريا حتى يخاطبه معلمه... فهل يجوز لمسلم أنْ يزوجهم أو يتزوج منهم؟... وهل يحل أكل ذبائحهم والحالة هذه أم لا؟... وهل يجوز دفنهم بين المسلمين أم لا؟... وهل دماء النُصيرية المذكورين مباحة وأموالهم حلال أم لا؟... هل ذلك أفضل وأكثر أجراً مِنَ التصدي والترصد لقتال التتار؟"

فأجاب شيخ الإسلام **تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية**: الحمد لله رب العالمين. هؤلاء القوم المسَمون بالنصيرية، هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر مِنَ اليهود والنصارى؛ بل وأكفر مِنْ كثير مِنَ المشركين، وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم مِنْ ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم. فإنّ هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيّع وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكِتابه... ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة... كما قتلوا مرة الحُجاج وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا مرة الحجر الأسود... وقد اتّفق علماء المسلمين على أنّ هؤلاء لا تجوز مناكحتهم؛ ولا يجوز أنْ يُنكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة، ولا تباح ذبائحهم... ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين، ولا يُصلّى على مَنْ مات منهم؛ فإنّ الله سبحانه وتعالى نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين".

وَضّحتْ فتوى **ابن تيمية** قَلق السنّة بشأن إضعاف تكاتف المسلمين في مواجهة الصليبيين والمغول، والذي أدى بهم إلى الشك بولاء الطوائف المبتدِعة، كما أنها تدل على عدم وجود معرفة دقيقة بالعَلَويين لأنه جمَعَهم في فئة واحدة مع

(1) تلحمي Talhamy 2010 صفحة 177–180

الطوائف الأخرى المنحرفة عن الاسلام. إعترض **فريدمان** بقوله أنّ نص الفتوى يشير إلى أنّ **ابن تيمية** ربما كان قد خلط بين العَلَويين والاسماعيليين[1]. ولكن التساؤل عما إذا كان **ابن تيمية** كان يفتي فعلاً عَن العَلَويين هو تساؤل شكلي مِنَ الناحية السياسية، لأن **ابن تيمية** كأصولّي سنيّ قد شمل كل الطوائف المبتدِعة في فريق واحد: زنادقة وأعداء للإسلام. وتكمن الأهمية السياسية لفتوى **ابن تيمية** في حقيقة أنّ العَلَويين قد تمّ وضعهم لأول مرة وبشكل رسمي خارج الإسلام.

تلك كانت فترة حرجة في تاريخ العَلَويين لأنها رسَّخَت انفصالهم الديني وعصبيتهم الطائفية. ولو تَصوّرنا تأثيرها في مستقبلهم لتوصلنا إلى رؤية تناقض هام: إذ أنّ فتوى **ابن تيمية** التي أدتْ إلى تقوية العصبية الطائفية لدى العَلَويين قد أثّرتْ على مصير الطائفة السنيّة في سورية القرن العشرين، والحالة الصعبة التي سيعانون منها في وضعهم السياسي مقارنة بالعَلَويين الأكثر تقارباً وتماسكاً.

منذ زمن فتوى **ابن تيمية** وحتى 1939 اعتُبر العَلَويون طائفةً غير مسلمة في نظر أغلب فقهاء السنّة. وأدى ذلك إلى القضاء على كل فرصة أمام العَلَويين لتحسين وضعهم الاجتماعي في الظروف الدينية والسياسية التي ظلّتْ سائدة في شرق المتوسط حتى القرن العشرين. وحتى بعد أنْ انتهى حكْم الامبراطوريات السنيّة، ظلّ العَلَويون يشعرون بتأثير فتوى **ابن تيمية**. وفي 2007 استَشهَد السلفيون والأصوليون مِنَ السنّة **بابن تيمية** وطالبوا بالإبادة الجسدية لكل العَلَويين[2].

شَهد القرن الرابع عشر نهاية الحرب المغولية المملوكية في 1320، والقضاء على المملكة الأرمينية في الشمال سنة 1375[3]. أدى تماسك وترسيخ القوة المملوكية في المنطقة إلى فقدان الجبال الساحلية لأهميتها الاستراتيجية، ولعل قلة المعلومات المتوفرة عن العَلَويين بَعد القرن الرابع عشر كان نتيجةً لهذا التغير في الجغرافيا السياسية. كما أنّ رد فعل المماليك على ثورة المهدي سنة 1318 قد ترك آثاره، وأدى إلى هدوء العَلَويين

(1) يارون فريدمان Yaron Friedman: فتوى ابن تيمية ضد الطائفة النُصيرية العَلَوية. مجلة *Der Islam*, 2005, Vol. 82, No. 2، صفحة 349

(2) نبراس كاظمي: العدو النموذجي. في *New York Sun*, June 1, 2007

(3) هاريس Harris 2003 صفحة 99–100

تحت حكم المماليك دون وجود ما يدل على أي معارضة عَلَوية أخرى. عاد المغول لفترة وجيزة، كمسلمين هذه المرة، واحتل **تيمورلنك** دمشق سنة 1401[1] حين قام **ابن خلدون** بلقائه التاريخي مع الفاتح المغولي على أبواب دمشق[2].

فيما عدا تلك الفترة الوجيزة مِنَ الغزو المغولي، استمر حكم المماليك في شرق المتوسط والجبال الساحلية دون أي انقطاع حتى 1516. استمر العَلَويون في تطورهم المنعزل، وأصبحوا أكثر استقراراً في انتماءاتهم القبلية المختلفة، واستخدَموا التقية عند اللزوم في محاولة للعيش في مناطقهم الوعرة القاسية. وفي مناطقهم المنعزلة، ورغم تشتتهم السياسي والاجتماعي والديني، تطورتْ لديهم هوية تركزتْ حول ارتباطهم بالجبال الساحلية، وحتى في هذه الأيام يُفضِّل العَلَوي أنْ يُطلَقَ عليه لقب "ابن الجبل"[3]. لدى العَلَويين ارتباط بمظاهر الطبيعة في منطقتهم التي يعتبرونها غنية بالرموز الروحانية[4]. هذا الجانب مِنَ العقيدة العَلَوية لَمْ يكن موجوداً في المرحلة الأولى عندما كانت الطائفةُ ظاهرةً مدنيةً ركّزت اهتمامها على التفسيرات العقلانية للدين والفلسفة دون الحاجة إلى تطوير هوية محلية. ولكنْ بعد أنْ أصبح العَلَويون معزولين عن الحياة الاجتماعية للمدن الإسلامية في الشرق الأوسط[5]، ظهرتْ عندهم صفات الجماعة التي يَسِمُها بوضوح ما ذكره **ابن خلدون** عن العصبية والعمران البدوي.

اعتَبر سكانُ المدن المستقرة في سورية العَلَويين "زنادقة" و"مرتدين" و"رجال البرِّية" ربما بسبب عزلتهم وغموضهم وابتعادهم عن المجتمع السوري في العصور الوسطى. خَضَعَ سكان سورية مِنَ العرب السنّة لحكْم النخبة المملوكية التي تتحدث باللغة التركية، ونَظروا إلى العَلَويين بعين الشك والخوف. وكلما طال ابتعاد العَلَويين عن بقية السكان، ازداد نفورهم وعزلتهم. وبينما انتمى العَلَويون إلى أضعف

(1) موسى Moosa 1988 صفحة 273
(2) آلان فرومهيرز Allen Fromherz ابن خلدون، حياته وزمنه. (Edinburgh University Press, 2010) صفحة 1
(3) خوري 1990 صفحة 74
(4) دي بلانهول De Planhol 1997 صفحة 89
(5) ألبيرت حوراني: نشأة الشرق الأوسط الحديث. (London: Macmillan, 1981) صفحة 19–35

الطبقات في المجتمع السوري كانت عصبيتهم تزداد قوةً وفق نظرية **ابن خلدون** بأنه: *"كلما تأصلت معيشة جماعة في حياة الصحراء وازداد توحشها، أصبحت أكثر قرباً مِن الوصول إلى تحقيق سيطرتها على الآخرين"* [1]. [فمَن كان مِنْ هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشاً، كان أقرب إلى التغلب على سواه].

الحكم العثماني: استمرار تهميش العَلَويين

انتهى حكم المماليك على يد الأتراك العثمانيين القادمين مِنَ الأناضول سنة 1516، و لَمْ يُغَيِّر ذلك شيئاً مِنْ حالة العَلَويين، وظلّوا في حالةٍ مِنَ التهميش كأقليةٍ مُحتَقرة[2]. كان الحكام الجدد مِنَ المسلمين السنّة وينتمون إلى العرق التركي، ولذا فقد أكدوا على الدِين كهوية مركزية في امبراطوريتهم لإضفاء الشرعية على حكمهم، و لَمْ يَمنح التغيرُ في الحكْم العَلَويين أي راحة أو أمل، وظلّ خوفهم الطائفي وعدم اطمئنانهم شديداً إنْ لم يزداد شدة وتوكيداً.

سَعَت السُلطة الجديدة لتوكيد حكمها بالضغط على الفئات والطوائف التي يُشتبه بها، مثل الشيعة والعَلَويين. وكان العثمانيون مهتمين في الوقت نفسه بضمان ولاء هذه الفئات في حربهم الرئيسية ضد الشيعة الصفوية الفارسية[3]. ادعى بعض المؤلفين أنّ السلطان **سليم الأول** بعد أنْ حصل على فتوى مِنْ مفتي سورية، أعدم 9400 مِنَ الشيعة في حلب عندما احتلها في أغسطس 1516[4].

(1) ابن خلدون: المقدمة. صفحة 107
(2) كولين إمبر Colin Imber: الإمبراطورية العثمانية 1300–165 (Basingstoke & New York: Palgrave - Macmillan, 2002) صفحة 216
(3) موسى Moosa 1988 صفحة 275
(4) المصدر نفسه صفحة 275. الطويل: تاريخ العَلَويين، الطبعة الرابعة (بيروت: دار الأندلس، 1981) صفحة 394–5، نقلاً عن إيفيت تلحمي Yvette Talhamy: الزعيم النُصيري اسماعيل خير بك والعثمانيين (1854–1858) مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 44, No. 6, November 2008 صفحة 895. انظر أيضاً تلحمي: الفتاوى والنُصيرية-العَلَوية في سورية، مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 46, No. 2 (2010) صفحة 181–182. دانييل بايبس Daniel Pipes استيلاء العَلَويين على السلطة في سورية، مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 25, No. 4 (Oct., 1989) صفحة 436

ليس مِنَ الواضح تأثير مذبحة السلطان **سليم الأول** على العَلَويين، إذ كان مِنَ المستحيل معرفة كم مِنَ العَلَويين عاش في حلب آنذاك، وربما كانوا قلة قليلة بالنظر إلى أنّ أغلبهم كان قد هاجر إلى الجبال الساحلية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. حسب **موسى**، الذي اعترف بأنه اعتمد على رواية **الطويل** الإشكالية، فقد حاول السلطان العثماني القضاءَ على العَلَويين في منطقتهم، ولكنّ وعورتها وتضاريسها الصعبة حالتْ دون ذلك، بينما كان العَلَويون الذين عاشوا في السهول أسوأ حالاً، واضطر أغلبهم إلى الهجرة. ذكر **موسى** في مصدرٍ إشكالي آخر أنّ السلطان **سليم** نَقَلَ نصف مليون تركي لتسكينهم في الجبال الساحلية لكي يُضعِف النُصيريين. ولا شك بأنّ هذا الرقم غير حقيقي بشكل واضح لأنّ عدد سكان سورية كلها كان حوالي المليونين في بداية القرن السادس عشر[1].

تباينُ المعلومات المتاحة عَن العَلَويين في بدايات الحكم العثماني في سورية يجعل التأكدَ مِنْ أي تغير حقيقي في ظروفهم السياسية في ظِلّ الحكم الجديد صعباً. وربما مِنَ المعقول افتراض أنّ العَلَويين قد عانوا مِنَ الاضطهاد في السنوات الأولى مِنْ حكم العثمانيين. يَحتاج الأمر إلى فترة مِنَ الزمن قبل أنْ يستطيع العثمانيون تقييم الميول السياسية لهذه الطائفة التي سيتم التعامل معها بكثير مِنَ الشك. ومثلما فَعَلَ المماليك مِنْ قبل، قامَ العثمانيون بالتعامل مع العَلَويين بطريقة عملية[2]. مِنْ وجهة نظر العَلَويين كان العثمانيون مثل المماليك: مسلمون سنّيون يتحدثون بالتركية، ويَضطهدون العَلَويين كلما أثاروا حساسيات المسلمين السنّة، أو أظهروا تحديهم لسلطة الدولة. كانت السياسة العَلَوية الرئيسية خلال الفترة العثمانية هي اتبّاع مبدأ التقية. توضح ملاحظات الرحالة البريطاني **هنري موندريل** Maundrell سنة 1697 غموض هوية العَلَويين في تلك الفترة:

(1) رسل J.C. Russell: سكان البلقان وآسيا الصغرى في أواخر العصور الوسطى. مجلة *Journal of the Economic and Social History of the Orient,* Vol.3, No.3 (1960) صفحة 268 العدد 5

(2) علق ستيفان وينتر Stephan Winter على التعايش العملي الذي قام به العثمانيون مع الفئات الشيعية المبتدعة مثل العَلَويين. انظر وينتر 2010 صفحة 18

[العَلَويون لهم] *"صفة غريبة منفردة. لأن مبدؤهم هو عدم الالتزام بدين معين، أيّاً كان، يمكن أنْ ينعكس عليهم مِنَ الشخص الذي يكلمهم... لَم يستطع أحد أبداً أنْ يكتشف ما هي طبيعة ضمائرهم الحقيقية. كل ما هو مؤكد عنهم هو أنهم يصنعون كميات كبيرة مِنَ الخمر الجيد، وأنهم يشربون كثيراً"* [1].

أدى غموض العَلَويين وعناد مقاومتهم وتحصنهم في الجبال الوعرة إلى أنهم شكّلوا هدفاً صعباً لإخضاعهم التام. كما كان لدى المماليك والعثمانيين اهتمامات أكثر إلحاحاً وأهمية مِنْ شَنّ حملات لإخضاع العشائر الجبلية العَلَوية الهامشية الفقيرة. أحسّت الإمبراطورية العثمانية منذ أواسط القرن السابع عشر بصعوبة المحافظة على مكتسباتها السابقة، وواجهتها حروب مستمرة مع الامبراطورية النمساوية، والقيصرية الروسية، والصفوية الفارسية، والبندقية، وبولندا. ولذا فقد كانت أولويات الأستانة في منطقة شرق المتوسط هي المحافظة على السلم وتحصيل الضرائب[2].

تمّ دمج العَلَويين بطريقة سيئة في نظام المِلّة العثماني والاقتصاد العام في الامبراطورية[3]. وفيما عدا بعض المشاكل الصغيرة التي سبَّبها ثوار عَلَويون في منطقة اللاذقية في 1691–1692، خَضَعَ العَلَويون، ولَمْ يُشكّلوا أي خطر استراتيجي[4]. لعب العَلَويون دوراً هاماً في زراعة التبغ، ورغم محاولة السلطان العثماني **مراد الرابع** لمنع التبغ على أنه مخالفٌ للإسلام سنة 1631[5]، إلا أنّ هذا

(1) هنري موندريل Henry Maundrell: رحلة من حلب إلى القدس سنة 1697 (بيروت، خياط، 1963) صفحة 16–17

(2) هاريس Harris 2003 صفحة 107–108

(3) ستيفان وينتر Stefan Winter: النصيرية قبل التنظيمات في نظر الولاة العثمانيين 1804–1834 في كتاب من منطقة سورية إلى الدولة السورية واللبنانية، تحرير فيليب T. Philip وشومان C. Schumann (بيروت، مؤسسة الشرق، 2004) صفحة 109. ذكر وينتر أيضاً كيف أن العَلَويين في منطقة صافيتا وجنوب الجبال الساحلية وضعوا تحت حكم عائلة حمادة اللبنانية الشيعية. انظر وينتر 2010 صفحة 80

(4) يبدو أن أولئك الذين ثاروا ضد العثمانيين لم يتم عقابهم. انظر وينتر 2010 صفحة 106، 113

(5) لوفين Louvain: عرض دراسة الأتراك، الجزء 17 في كتاب: دراسات عن المجتمع العثماني وثقافته في القرنين السادس عشر إلى الثامن عشر. تحرير موري R. Murphey (Aldershot: Ashgate Publishers, 2007), p. XIV، صفحة 205–208

المحصول كان مصدراً هاماً للدخل في الامبراطورية خلال القرن الثامن عشر. تضمّن كشف حساب أحد تجار دمشق في 1728–1729 شحنةً مِنَ التبغ الساحلي مِنْ منطقة جبال العَلَويين التي كانت آنذاك أحد المنتجين الرئيسين للتبغ في الامبراطورية. ذكر **فريدريك والبول** Frederick Walpole سنة 1850 أنه تمّ تصدير 300,000 باوند مِنَ التبغ سنوياً عبر ميناء اللاذقية[1].

وهكذا مع حلول القرن الثامن عشر تمكّن العَلَويون مِنَ الحصول على مصدر جيد للدخل رغم الإمكانيات الزراعية المحدودة في الجبال، ولكنّ احتمالات استفادة العَلَويين مِنْ تلك التجارة لتحقيق تطور اقتصادي قد تمّ إجهاضه، ففي سنة 1769 رَفَضت السلطات العثمانية في ولاية حلب اقتراحاً بإنشاء ميناء تصدير تجاري في السويدية. كان لديهم قلق بشأن خسارتهم للتجارة الأجنبية وتَحولها بعيداً عن طرق التجارة البرية التقليدية عبر حلب[2]. بالإضافة إلى تلك الإعاقة التي وُضعتْ أمام تجارة العَلَويين، فقد فَرضَت الدولة العثمانية ضرائب باهظة على منتجي التبغ، فمثلاً يسجل **لوفين** Louvain أنّ الفلاحين العَلَويين قد هَجروا حقولهم في الجبال القريبة مِنْ طرابلس بسبب الضرائب العالية التي فُرضَتْ على زراعة التبغ. كما ذكر **جاك ويللرس** Jacques Weulersse أنّ أكبر المستفيدين مِنْ صناعة التبغ في منطقة اللاذقية في نهاية القرن التاسع عشر كانوا التجار السنّة في المدن الساحلية[3].

ظلّتْ تجارة التبغ مهمة بالنسبة للعَلَويين حتى في هذه الأيام. تَنتشر زراعة التبغ في مناطقهم، ويُعتبر مصدر دخل هام لكثير مِنَ العائلات العَلَوية. وقد شاهد المؤلف كثيراً مِنْ انتاج التبغ على نطاق صغير في قرى الجبال الساحلية في 2009 و2011. ولكن النظام السوري أصدر قوانين جديدة سنة 2009 تحظر التدخين في

(1) فريدريك والبول Frederick Walpole: النصيريين (أو الحشاشين) في رحلات إلى الشرق الأقصى في 1850–1851، الجزء الأول (London: Richard Bentley, 1851) صفحة 45. انظر المصدر نفسه صفحة 368 لوصف انتاج التبغ العَلَوي في 1850–1851

(2) لوفين Louvain 2007 صفحة 212. زار المؤلف السويدية في تركيا (تسمى الآن ساماندق) في مارس 2011 ودهش لأن 90% من سكانها هم من العَلَويين

(3) جاك ويللرس Jacques Weulersse 1940 صفحة 324–325 نقلاً عن دى بلانهول De Planhol 1997 صفحة 89

الأماكن العامة مما قد يَضر العَلَويين اقتصادياً[1]. بالنظر إلى التاريخ الطويل لأهمية التبغ بالنسبة للعَلَويين يبدو مِنَ الغريب أنّ أول قانون ضد التدخين في سورية منذ فَرَمان **مراد الرابع** سنة 1631 صدَر عن نظامٍ مِنَ المفترض أنه "عَلَوي"!

كان الوضع القانوني للعَلَويين غامضاً في النظام الاجتماعي والاقتصادي العثماني، وسبَّب نوعاً مِنَ المعضلة للسلطات العثمانية[2]. في بداية الحكم العثماني وحتى أواخر القرن السادس عشر كان على العَلَويين دفع ضريبة "درهم الرجال"، وهي ضريبة خاصة فُرضتْ على كل رجل مِنَ العَلَويين المرتدّين بسبب هرطقتهم[3]. كانت المعضلة أمام العثمانيين أنه حسب "الشريعة الإسلامية" يجب عدم تحمل العَلَويين إطلاقاً، في حين أنّ المسيحيين واليهود يمكن قبولهم لأنهم مِنْ أهل الكتاب. وفي المحاكم الشرعية والقانونية حسب الشريعة الإسلامية يجب ألا تُقبل شهادة العَلَويين، ولكن يبدو أنّ شهادتهم كانت تؤخذ بعين الاعتبار في أغلب الحالات[4]. ومِنَ المهم أنْ يُلاحَظ أنّ العَلَويين كانوا مصدر دخل هام للسلطات المحلية يصل إلى 73% مِنْ ضرائب الزراعة (الاقطاعيات) في منطقة الجبال الساحلية. وهكذا اختار العثمانيون والسلطات المحلية في الغالب غضّ النظر عن إشكالية هوية العَلَويين الدينية. ولكن ذلك لمْ يمنع الدولة العثمانية مِنَ المُسارعة إلى اضطهادهم ومعاقبتهم عند أي تجاوز.

كانت أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر فترة صعبة بالنسبة للعَلَويين، فقد كانت الدولة العثمانية تعاني صعوبة في المحافظة على سيطرتها في المناطق البعيدة والأطراف، ولذلك كانت أقل تحملاً لأي اضطراب في الولايات

(1) "سورية تصدر قانوناً جديداً ضد التدخين القاتل" مجلة *Middle East Online* دمشق، 6 ديسمبر 2009

(2) إيفيت تلحمي Yvette Talhamy: الزعيم النصيري اسماعيل خير بك والعثمانيين (1854–1858) في مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 44, No. 6, November 2008 صفحة 896

(3) ديك دوز Dick Douwes العثمانيون في سورية، قصة عدالة وظلم. London, I.B. Taurus, 2000 صفحة 142. انظر أيضاً برنارد لويس Bernard Lewis ملاك الأرض العثمانيين والضرائب في سورية. في مجلة *Studia Islamica*, No.50, 1979 صفحة 121. وذكر وينتر Winter 2004 صفحة 106 ضريبة طالمة أخرى هي ضريبة "الميري".

(4) دوز Douwes 2000 صفحة 80–143

المركزية، خاصة مِنْ قِبل المهمّشين مِنَ العَلَويين الجبليين. وتجلى احتقار العثمـــانيين للعَلَويين سنة 1783 عندما تمّ اعتبار الديانة العَلَوية رسمياً بأنها خاطئة وســطحية[1]. وعندما رفض الشيخ العَلَوي **صقر محفوظ**، مِنْ عشيرة شمسين مِنْ تحالف الحدادين قرب صافيتا، (أو ربما لَمْ يستطع) دفع ضرائبه للسلطات العثمانيــة ســنة 1806، أُرسِل 3000 جندي امبراطوري لإخضاعه. وذُكر أنّ الجنود قد أحرقوا المــزارع، والحصاد وكل شيء، وأخذوا كثيراً مِنَ النقود مِنَ النصيريين[2].

تدهور وضع العَلَويين أكثر بعد أنْ أُثير الشك بقتلهم لضابط فرنسي زائر سنة 1811. جهّز والي طرابلس العثماني **سليمان باشا العادل** حملــة ضــد العَلَــويين استمرتْ خمسة أشهر، قُتِل فيها كثير مِنَ العَلَويين وتمّ قطع رؤوسهم[3]. لابــد أنّ هذه القسوة غير المتناسبة قد أجّجت الغضب بين أغلب العَلَويين الذين لَمْ يكن لهم أي دور في جريمة قتل الضابط الفرنسي. وفي سنة 1813 ثار العَلَويون الكلبيون في منطقة القرداحة ضد الاضطهاد العثماني، وكان رد **سليمان باشا** قاسياً حسبما ورد في السجلات العثمانية:

"*في هذه السنة [1813/1228] ثار النُصيريون مِنَ أهل القرداحة وامتنعــوا عــن العمل في اللاذقية. اقترح* ***مصطفى باربر*** *على أمير طرابلس إرسال جنود لإخضاعهم وجعلهم عبرةً ومثلاً... سار* ***باربر*** *في حملة ضدهم، وقَطع رؤوس 27 رجل منــهم، وأخذ الرؤوس معه. عُرضت الرؤوس لمدة ثلاثة أيام في باب عكــا. أرســل أمــير طرابلس إلى الباب العالي في الأستانة. وأرســل الســلطان توجيهاتــه إلى* ***بــاربر*** *لاسترقاقهم وإجبارهم على الطاعة، ثم تركهم وأرسل الجنود إلى الثكنات*"[4].

---

(1) ابن جبرائيل القلعي: زجليات. (بيروت، دار لحد خطار، 1982) الجزء الأول صفحة 138

(2) المصدر نفسه. الجزء الثاني صفحة 501

(3) ستيفان وينتر Stefan Winter 2004 صفحة 108. يقدم صموئيل لايــد Samuel Lyde تفاصيل عما يمكن أن يكون وصفاً للحادثة نفسها فيما عدا أن الضابط الفرنسي كــان الكابتن بوتان Boutin الذي تمت سرقته وقتله على يد عصابات في بلدة عرب الملــك جنوب جبلة في منطقة الكلبيين، انظر لايد 1860 صفحة 194–195

(4) تاريخ ولاية سليمان باشا العادل 1804–1819. ابراهيم العورة، كما ترجمها المؤلف مع جان لوك بايان Jean-Luc Payan 2010

يجب التنويه أنّ تركيز العثمانيين الأول كان في المحافظة على سيطرة قوية وعلى جمع الضرائب، وأنّ الجنود المحليين مِنَ العرب السنّة، وليس جنــود الامبراطوريــة الأتراك، هم الذين قاموا بذلك القمع، وأظهروا كراهية دينية عظمى للعَلَويين[1].

لا شك بأنّ اللجوء إلى قَطع الرؤوس هو عقاب شديد، ولكن إذا أُخذ بعــين الاعتبار إيمانُ العَلَويين بتناسخ الأرواح يصبح هذه العقاب أشد قسوة[2]. فحســب عقائد العَلَويين تُغادر الروح جسد المتوفى عبر فمه، فإذا قُطع الــرأس لا تســتطيع الروح مغادرة الجسد وتظل تائهة. قدّم العَلَويون أموالاً طائلة للمسؤولين العثمانيين لإعدام المحكومين مِنْ أفراد عائلاتهم بالشنق أو بالخازوق بدلاً مِنْ قَطع الــرأس[3]، ولذلك فلابد أنّ قَطع الرؤوس الذي قام به **سليمان باشا** في 1811–1813 قد أثار استياء ويأساً عميقاً.

ربما أدتْ تلك الحملات، بالإضافة إلى التمييز الاقتصــادي والــديني ضــد العَلَويين بشكل عام، إلى دفع كثير مِنَ العَلَويين للهجرة شمالاً نحو منطقــة أضــنة والسويدية قرب أنطاكية في أوائل القرن التاسع عشر[4]. كما أنّ ما ورد عن تدمير العثمانيين لمزارع الحمضيات وأشجار التوت التي يربى عليها دود القز لانتاج الحرير في قرى العَلَويين ربما دفعهم أيضاً للهجرة مِنَ الجبال الساحلية[5]. ولكن مَنْ تبقــى منهم في الجبال أصبحوا أكثر تحصناً في خوفهم الطــائفي وعــدم اطمئنــانهم وفي عدائهم لخصومهم السنّيين.

---

(1) وينتر Winter 2004 صفحة 106

(2) ناقش مائير بار آشر Meir M. Bar-Asher وآريــا كوفســكي Aryeh Kofsky إيمــان العَلَويين بتناسخ الأرواح في: الديانة النصيرية العَلَوية: دراسة في عقائــدها وطقوســها (Leiden: Brill, 2002) صفحة 62–66

(3) صموئيل لايد Samuel Lyde أسرار آسيا المصورة في التاريخ والدين والحالــة الراهنــة للنُصيريين في ســورية. (London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1860) صفحة 143

(4) ج. بروزخازكا-إيزيــل G. Prozchazka-Eisel وس. بروزخازكــا S. Prozchazka: سهول القديسين والأنبياء، الطائفة النُصيرية العَلَوية في كيليكيا (جنوب تركيا) وأماكنها المقدسة. (Wiesbaden, Harrassowitz Verlag) 2010 صفحة 56–57، انظــر أيضــاً: وينتر Winter 2004 صفحة 104

(5) لايد Lyde 1860 صفحة 196

تنسجم الوسائل العنيفة التي لجأتْ إليها الامبراطورية العثمانية في مراحل ضعفها مع نظرية **ابن خلدون** بأنّ المبالغة في القسوة هي مِنْ عوارض انهيار الدولة، في حين بدأتْ علامات تصاعد العصبية العَلَوية في الجبال الساحلية، فظَهَر الزعماء العَلَويون المحليون، وازداد استقلالهم، وتجمع حولهم أتباع مسلحون. وَجَدَ العثمانيون أنه مِنَ الضروري أحياناً إعطاء بعض الصلاحيات لهؤلاء الزعماء مِنْ أجل جمع الضرائب وتطبيق القانون. ومنذ أوائل القرن التاسع عشر لعِب المُقَدَّم **صقر المحمود** هذا الدور في منطقة صافيتا[1]، وفي أواخر 1820 ظهر مُقدَّمٌ عَلَوي آخر هو **عثمان خير** مِنْ تحالف عشائر المتاورة، وسيطر على أغلب المناطق الجنوبية في الجبال الساحلية. استطاع **عثمان خير** تجميع قوة عسكرية كبيرة، بل ونَسَبَ لنفسه لقب "البيك" وهي رتبة تركية عسكرية[2]. وارتفع ابنه **اسماعيل** إلى مراتب أعلى سنة 1850.

أدتْ زيادة ثقة العَلَويين بأنفسهم إلى توتر السنّة في اللاذقية والمدن الساحلية الأخرى، مما أثار مزيداً مِنَ التعصب الطائفي. وفي أوائل 1820 أصدر الشيخ السنيّ **محمد ناصر الدين المغربي** (توفي 1827) في اللاذقية فتوى، كانت الأولى ضد العَلَويين منذ سنة 1516، ونَصَّتْ حسبما أورد **صموئيل لايد** على أنّ: "*حياة وممتلكات النُصَيريين (العَلَويين) هي مباحة للمسلمين*"[3]. وبعدها بقليل في سنة 1824 هاجمتْ مجموعة مِنْ جنود العثمانيين قرى عَلَوية قرب اللاذقية وقتلوا ثلاثين أو أربعين رجلاً واستَرَقُّوا النساء والأطفال[4].

يمكن فهم هذه التصرفات العنيفة ضد العَلَويين في عشرينيات القرن التاسع عشر ضمن سياق محاولات العثمانيين في احتواء الحركات القومية الصاعدة داخل امبراطوريتهم. وبشكل خاص كان عليهم مواجهة حركة الاستقلال اليونانية القوية

(1) هاريس 2003 Harris صفحة 112. في الغالب هذا الزعيم هو نفسه صقر المحفوظ الذي ذكره ابن جبرائيل 1982 الجزء الثاني صفحة 501
(2) دوز 2000 Douwes صفحة 70 ورقم 22 في صفحة 70
(3) إيفيت تلحمي Yvette Talhamy: الفتاوى والنُصيريين العَلَويين في سورية. مجلة Middle Eastern Studies, Vol. 46, No. 2, 2010 صفحة 183. لايد 1860 Lyde صفحة 196
(4) وينتر 2004 Winter صفحة 102

في البلقان. وبشكل مشابه لما حدث في بداية حكم المماليك والعثمانيين مِنَ الشك بولاء العَلَويين، فقد شكَّ العثمانيون أيضاً بتعاون العَلَويين مع اليونانيين. ولذلك رغم التعامل الواقعي العملي مع العَلَويين طوال أغلب فترات الحكم العثماني، فقد كانت نظرة السلطَنَة الأساسية تجاه العَلَويين هي العنف والشك والازدراء. تتضح هذه النظرة في رسالة موجهة إلى الأستانة عن الثورة اليونانية جاء فيها:

"*استطاع اليونانيون الأشرار القيام بأعمالهم اللئيمة والحقيرة ضد أمة الإسلام، باستخدام أفكارهم الفاسدة الماكرة، وبما عُرف عنهم مِنْ مبادئ التآمر والتكاتف مع طوائف الدروز والعَلَويين الذين لا يتحلون بالاسلام، بل ربما هم أسوأ مِنَ الأعداء الكفرة*".

التعاون بين القوميين اليونانيين والعَلَويين هو أمر مشكوك فيه، إذ أنّ تفرقهم القَبَلي، وغياب أية سلطة مركزية لديهم، والمستوى المنخفض مِنَ العصبية الطائفية بينهم آنذاك بشكل عام يعني أنّ تعاطفهم مع نضال قومي مثل نضال اليونانيين سيكون ضعيفاً.

يبدو أنّ حالة العَلَويين في المجتمع العثماني لَمْ تتحسن أبداً. بل إنّ المراسلات العثمانية تُظهر أنهم مازالوا يعانون مِنْ آثار فتوى **ابن تيمية** في 1305. كان استمرار تهميشهم وفصلهم عن التطور العام للمجتمع هو العامل الرئيسي في ظهور العصبية الطائفية العَلَوية. طالما أنّ السلطات السياسية ظلّتْ تعمل ضمن حدود الشرائع الاسلامية السنيّة، فقد ظل العَلَويون مهمشين وخائفين. ولكن في سنة 1832 أُصيبتْ هذه الطريقة في الحكم، التي استمرتْ طوال العهد المملوكي والعثماني، بصدمة قوية.

الخلاصة

على مر ألف سنة مِنْ تاريخها حتى 1830، تطوّرت الطائفة العَلَوية مِنْ حياة العمران الحضري إلى حياة العشائر الريفية في العمران البدوي. وبينما كان خوفهم الطائفي يزداد قوة بشكل مستمر بسبب اضطهادهم على يد السُلطات السنيّة، تخلل هذا المسار العام فترات مِنَ الاطمئنان النسبي والتآلف. فمثلاً في فترة

الحمدانيين وفترة الصليبيين تناقصَتْ شدة العصبية الطائفية لدى العَلَويين. ولكن طول فترة الحكم الامبراطوري السنيّ، التي استمرتْ مِنْ أواخر القرن الثالث عشر حتى القرن التاسع عشر، رسَّختْ خوف العَلَويين حتى لَمْ يعد بإمكانهم التوصل إلى اندماج ناجح في المجتمع. ولا عجب أنّ خمسمئة سنة مِنَ الحياة غير المستقرة في جبالهم الفقيرة الوعرة، والتمييز الاجتماعي والاقتصادي ضدهم بشكل ضرائب مرتفعة ورسوم مجحفة، بالإضافة إلى هجمات عنيفة متكررة، مثل قطع الرؤوس، قد أدتْ إلى ترسيخ الخوف وعدم الاطمئنان سِمَةً رئيسيةً للسياسة العَلَوية.

تحوَّلَ هذا الخوف وعدم الاطمئنان إلى عصبية قَبَلية ازدادت قوةً على مر السنين. ورغم استمرار ازدراء العثمانيين للعَلَويين، اضطرت الأستانة منذ عشرينيات القرن التاسع عشر إلى تحمّل ظهور زعماء عَلَويين محليين، وكان ذلك دليلاً على بداية اضمحلال الدولة العثمانية، وبداية مرحلة جديدة في تاريخ العَلَويين، وظهور عصبيات قبلية قوية مستقلة فيما بينهم أخذتْ تؤثر في السياسة بالمناطق الشمالية مِنَ شرق المتوسط.

الفصل الرابع

العصبية العَلَوية وتشكيل السياسة السورية 1831 - 1970

يدرس هذا الفصل كيف أثَّرت العصبية العَلَوية القوية في الدور الذي لعبوه في السياسة السورية بعد انهيار السلطة السنيّة العثمانية. بعد زوال الامبراطورية العثمانية في 1918 تعقدت التفسيرات **الخلدونية** للسياسة السورية بسبب تدخل القوى الغربية والمجتمع الدولي عن طريق عصبة الأمم. ويوضِّح ذلك أنّ نظرية **ابن خلدون** في تطور الدول والممالك تنطبق فقط على النظم السياسية المغلقة، وهو ما دَرَسه ولاحظَه في المغرب العربي خلال العصور الوسطى. ولكن عصبية الطائفة العَلَوية التي كانت متفرقة في الجبال الساحلية بدأتْ في التكتل والتلاحم عندما ازداد احتكاكهم بالطوائف والجماعات الأخرى، وأصبحوا أكثر وعياً بهويتهم الجماعية التي تختلف عن بقية الجماعات في المجتمع السوري.

في الفترة بين 1830 – 1970 تطورت الطائفة العَلَوية تدريجياً نحو الاندماج في المجتمع السوري العام. ولَمْ يكن ذلك التغير سهلاً، بسبب ظهور الصراعات الطائفية المحلية أحياناً، واستمرار سياسة الاضطهاد العثماني ضد العَلَويين حتى 1918. وعلى كل حال فقد كان سير التطور العام في تلك الفترة يشير إلى أنّ تاريخ عزلة العَلَويين الطويلة في الجبال الساحلية قد اقترب من نهايته.

يمكن تقسيم مسار العَلَويين نحو الاندماج إلى أربع مراحل: شهدت الفترة 1832–1918 انهيار السلطة العثمانية السنيّة وظهور فرص جديدة أمام العَلَويين لإظهار وجودهم السياسي والاجتماعي بشكلٍ أوضح مما كان متاحاً لهم مِنْ قبل. وشهدت الفترة 1919–1945 استقلالاً سياسياً ظاهرياً للعَلَويين بشكل دولة

العَلَويين المستقلة التي مَنَحَهم إياها الفرنسيون. وقد دفع ذلك بزعمائهم إلى اتخاذ قرار عملي وواقعي بقبول اندماج الطائفة في الدولة السورية الوليدة المتعددة الديانات. سعى العَلَويون في الفترة 1936–1946 بنشاط وحماس للدخول في كافة جوانب النشاط في سورية المستقلة بما فيها القوات المسلحة الوطنية والتعليم. وقد أعطتْ فرص التعليم، التي لمْ تكن متاحة للعَلَويين مِنْ قبل، مجالاً لهم للمشاركة في الحراك السياسي الذي ظهر في سورية بعد استقلالها سنة 1946، وهكذا تمكن عَلَويون مثل **زكي الأرسوزي** مِنْ لعب دور هام في نشوء وتطور أفكار سياسية تُناسب دولة متعددة الديانات. وفي سنة 1963 أتى الانقلاب البعثي بثورة اجتماعية لصالح الأقليات الريفية الفقيرة مثل العَلَويين. وأثبت وصول أحد أفراد طائفتهم **حافظ الأسد** إلى رئاسة الجمهورية سنة 1970 أنّ سعيهم للاندماج والقبول في المجتمع السوري قد نجح أخيراً. ولكن زيادة نفوذ العَلَويين في سورية أثارت شكوكاً ونعرات طائفية أدتْ إلى ظهور مشكلات أمنية بين الطوائف والجماعات، وظهرتْ سياسة الخوف الطائفي بوضوح في سورية.

فرص الاندماج الأولى

في الثلاثينيات مِنَ القرن التاسع عشر أصبح واضحاً أنّ الصعود العثماني القوي الطويل للعثمانيين قد بدأ في الانحدار، فقد ظهرتْ مراكز قوى جديدة في كافة أنحاء الامبراطورية وتحدتْ سلطة الأستانة، كما بدأت القوى الأوروبية بالتدخل عميقاً في السياسة والاقتصاد للولايات العثمانية بما فيها المشرق العربي. وفي سياق هذا التمزق العثماني ظَهَرت الفرصة أمام للعصبية الطائفية العَلَوية لتلعب دوراً في السياسة السورية. ظلّ العَلَويون مهمشين عدة مئات مِنَ السنين، وعندما تتاح لهم الفرصة هل سيحاولون الاندماج في المجتمع العام؟ أم أنهم سيتحركون سياسياً بشكل طائفة؟ في بدايات القرن التاسع عشر كانت هوية العَلَويين المتميزة واضحةً على المستوى المحلي. وساعدت الانتماءاتُ القَبَلية زعماءَ العَلَويين (المُقدَّمين) على اقتطاع مزارع شبه مستقلة في الجبال الساحلية. ولكن العصبية الطائفية العَلَوية لمْ تكن قد وصلتْ بعد إلى درجة قوية مِنَ التماسك بحيث يمكن أنْ

تجمع الطائفة وتُحَركها بشكل جماعة عامة. كما أنه لمْ يوجد لديهم القائد الذي يستطيع أنْ يسيطر على العشائر المتفرقة.

التدخل المصري وفُرص العَلَويين الضائعة

كان غزو سورية على يد والي مصر **محمد علي باشا** في 1832 نقطة تحول هامة في تاريخ سورية وتاريخ العَلَويين، لأنه كَسَر ثلاثمئة سنة مِنَ السيطرة العثمانية. بعد الانتصار على جيش السلطان، حَكَمَ **ابراهيم باشا ابن محمد علي** سورية لمدة تسع سنين، قبل أنْ يتمكنوا مِنْ قَهره بمساعدة الإنكليز سنة 1841[1].

كان هدف **ابراهيم باشا** هو توطيد سيطرته على سورية وتأسيس دولة علمانية حديثة. كان مِنَ الممكن أنْ يستفيد العَلَويون مِنْ تحقيق ذلك. وقد رحّب بهذه التغييرات كثيرٌ مِنَ العَلَويين في السهول الساحلية والداخلية الذين كانوا فلاحين خاضعين لسلطة مُلاّك الأراضي السنّة[2]. فمثلاً أصلَحَ **ابراهيم باشا** النظام الضريبي الذي كان يُميِّز ضد العَلَويين قبل ذلك[3]. ولكن العَلَويين أساؤوا استغلال الموقف بتحالفهم مع السلطان العثماني مِنْ أجل الحصول على السلاح ومحاربة المصريين[4]. وقد ذَكَر ضابط البحرية البريطانية **فريديريك والبول** الذي عاش مع العَلَويين في الفترة 1850–1851 أنّ زعماء العَلَويين أخبروه في مرات عديدة أنّ مشكلتهم الرئيسية مع حكم **ابراهيم باشا** كانت في التجنيد الاجباري، ولكنْ ما كان للعَلَويين أنْ يحاربوا المصريين بقوة مِنْ أجل ذلك، فقد كان أول نظام سياسي ذي ميول علمانية يتم محاولة تطبيقه في سورية، وكان ذلك تغير سياسي يمكن أنْ يخفف مِنْ تأثير المصدر الرئيسي لخوف العَلَويين، وهو وضعهم الاجتماعي والقانوني الأدنى في الشريعة الإسلامية.

---

(1) م. عبير M. Abir: التطور والتحديث في امبراطورية محمد علي. مجلة Middle Eastern Studies, Vol.13, No.3 (1977) صفحة 295–313

(2) وينتر Winter 2004 صفحة 105

(3) والبول Walpole 1815 الجزء الثالث صفحة 165

(4) إيفيت تلحمي Yvette Talhamy: الزعيم النُصيري اسماعيل خير بك والعثمانيين (1854–1858) مجلة Middle Eastern Studies, Vol. 44, No. 6 (2008) صفحة 896

مثال جيد يوضح إمكانية تحسين وضع العَلَويين تحت حكم **ابراهيم باشا** هو ما حدث عندما عَلِم جنود مصريون بفتوى الشيخ **المغربي**، فحاولوا استرقاق نساء عَلَويات، ولكن ضباطهم أمروهم بإطلاق سراح النسوة[1]. رفضَ الضباط المصريون قبول تصنيف الشيخ **المغربي** للعَلَويين على أنهم غير مسلمين. ويجب الاعتراف أنّ رغبة المصريين بتسجيل العَلَويين كجنود مسلمين قد لعبتْ دوراً في ذلك التصرف[2]. ومع ذلك فقد كانت مراجعة المصريين لحالة العَلَويين القانونية أول فرصة حقيقية لكي يحسِّن العَلَويون وضعهم الاجتماعي وحالتهم الأمنية.

ولكن ما حدث فعلاً هو أنّ معظم العشائر العَلَوية قاوَمَت الوجود المصري، وكما سجَّل **فريديريك والبول** قاوم العَلَويون بشدة كل محاولات السلطات المصرية لنزع سلاحهم، وضمهم إلى الجيش، ودمجهم في الدولة السورية-المصرية[3]. اتضحتْ قوة المشاعر التي شملتْ تلك الحالة سنة 1834 عندما هاجم رجال العشائر العَلَوية مدينة اللاذقية بعد أنْ حاول الجيش المصري نزع أسلحتهم، ولَمْ يمكن طردهم منها إلا بمساعدة المارونيين مِنْ لبنان تحت إمرة الأمير القوي **بشير الشهابي الثاني**[4].

يجب ملاحظة وجود تناقض في ذلك الموقف، فقد كان على **ابراهيم باشا** أنْ يُطبِّق التجنيد الإلزامي بشكل واسع بسبب الصعوبة التي واجهها في توطيد أركان حكمه في سورية. وزاد الأمر تعقيداً مقاومةُ العَلَويين المسلحة التي قاموا بها بأنفسهم وبالتعاون مع حكامهم السابقين مِنَ العثمانيين. أراد **محمد علي وابراهيم باشا** إنشاء جيش حديث مهني وفق النموذج الأوروبي[5]، ومِنَ المفارقة أنْ يقوم العَلَويون فيما

(1) إيفيت تلحمي Yvette Talhamy: الفتاوى والنُصيرية-العَلَوية في سورية. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 46, No. 2 (2010) صفحة 183

(2) كان المسيحيون وغير المسلمين معفيين من الخدمة العسكرية الإلزامية، ويدفعون الجزية بدلاً عن ذلك. انظر والبول Walpole 1851 صفحة 186

(3) روجر أوين Roger Owen: الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي 1800-1914 (London & New York: Methuen) 1981. صفحة 77

(4) دوز Douwes 2000 صفحة 197

(5) م. عبير M. Abir: التطور والتحديث في امبراطورية محمد علي. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol.13, No.3 (1977) صفحة 295-313

بعد بالتسابق للانضمام إلى جيش الاستعمار الفرنسي في الفرق الخاصة التي أُنشئتْ في عشرينيات القرن العشرين، وإلى الجيش الوطني السوري في الأربعينيات منه.

كان العَلَويون في الثلاثينيات مِنَ القرن التاسع عشر بشكل عام مجتمعاً قَبَلياً يلتزمون بالولاء لزعمائهم المقدمين، ولعشائرهم وعائلاتهم[1]. كما أنّ خوف العَلَويين وعدم اطمئنانهم جعلهم لا يثقون بأحد ليس مِنْ طائفتهم. ورغم أنّ التدخل المصري في سورية كان أول فرصة لانفتاح العَلَويين وخروجهم مِنْ عزلتهم التاريخية الطويلة والتمييز ضدهم في المعاملة، إلا أنّ عناد العَلَويين أدى إلى فقدانهم الفرصة في تحسين وضعهم الاجتماعي وحصولهم على مزيد مِنَ الأمان والاطمئنان. كان ذلك مثال على الإعاقة التي يضعها الخوف الطائفي في الطريق نحو تأسيس دولة علمانية متعددة الديانات.

بِغَضِّ النظر عن مقاومة العَلَويين، كان مشروع **محمد علي** في سورية قد أُحبِط. فلَمْ تكن بريطانيا، القوة الصناعية العظمى في ذلك الوقت، مستعدةً لترك الامبراطورية العثمانية تنهار، فتدخلتْ لهزيمة **ابراهيم باشا** في 1840-1841، وأعادتْ سلطة العثمانيين في سورية[2]. في بداية الحرب البريطانية المصرية أتمّ العَلَويون تسليح أنفسهم، وتنبأ **فريديريك والبول** الذي كان يتمتع بثقة العَلَويين في 1851 قائلاً: *"لقد تسلّح رجال الجبال، ويبقى أنْ نرى ما الذي سيفعلونه"*[3].

الزعيم العَلَوي اسماعيل خير بك

عادت الدولة العثمانية إلى المشرق العربي ولكنها كانت أكثر ضعفاً، مما شجع بعض المُقَدَّمين العَلَويين الذين ازدادت قوتهم بما حصلوا عليه من السلاح في ثلاثينيات القرن التاسع عشر[4]، وحدَثَتْ فوضى في الجبال الساحلية حيث تصارعت العشائر العَلَوية على السلطة. وفي تلك الظروف ظهر **اسماعيل خير بك**

(1) دى بلانهول De Planhol 1997 صفحة 87

(2) س. ج. شو S.J. Shaw وإ. ك. شو E.K. Shaw: تاريخ الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة. (London: Cambridge (University Press, 1977) صفحة 57

(3) والبول Walpole 1851 صفحة 353

(4) تلحمي Talhamy 2010 صفحة 896

ابن عثمان خير بك كأول زعيم عَلَوي يمكن أنْ يُحرك عصبية الطائفة العَلَوية.

جاء **اسماعيل بن عثمان بن خير بن اسماعيل بن كنان بن حيدر السنجاري** (1822–1858) مِنْ قرية اللقبة في منطقة حماة، وورث رتبة البيك التي حملها والده[1]. توافق صعود نجمه بين العَلَويين مع فترة حرب القرم بين العثمانيين وروسيا القيصرية في 1853[2]. أضعفتْ تلك الحرب سيطرة العثمانيين في المشرق العربي، واستغل **اسماعيل** ذلك لكي يبسط سيطرته المستقلة في منطقة صافيتا بين عشائر الحدادين والخياطين. وعندما لمْ يتمكن العثمانيون مِنْ إيقافه، اتخذوا قراراً جذرياً حاسماً بتعيين **اسماعيل خير بك** والياً (مُشيراً) على كل الجبال الساحلية.

حَكَمَ هذا المُقَدَّم العَلَوي 120,000 نَسَمَة مِنْ سكان الجبال، فيما عدا الأجزاء الشمالية منها، بكل مَنْ فيها مِنْ مسيحيين ومسلمين سنّة[3]. كان تلك حالة غير مسبوقة في سياسة المنطقة، اعترض السكان المحليون مِنَ العرب السنّة، ورفضوا الخضوع لحاكم كافر. ويبدو أنّ موقف المسيحيين تجاه **اسماعيل خير بك** كان أقل حدة. كان **اسماعيل** مصدر إلهام للعَلَويين، ونجح في توحيد عشائر عديدة تحت إمرته لفترة مِنَ الوقت. ولكنه استغل ذلك في أغلب الأحوال لزيادة ثروته الشخصية وثروة أتباعه باقتطاع ضرائب مِنَ السكان تحت سلطته. كما ورد أنّ **اسماعيل خير بك** قد طبّق عقوبات قاسية في الأشهر الأخيرة مِنْ حكمه، وذُكِر أنه عاقب بعض المتمردين بحرق عيونهم وقطع آذانهم وسلخهم أحياء[4].

قرر العثمانيون القضاء على سلطة **اسماعيل خير بك** في 1858، وذَكَر المُبَشّر الأمريكي **هنري غيسوب** Henry Jessup، الذي أقام في سورية مدة 53 سنة، أنّ

(1) المصدر نفسه صفحة 897. يبين اسم السنجاري أنّ اسماعيل خير بك كان من نسل المَكزون أو أحد أتباعه مِنْ سنجار.
(2) تاريخ المؤرخين الجزء XVII صفحة 562
(3) المصدر نفسه صفحة 898. بفرض أن العَلَويين كانوا يشكلون حوالي 70% من الفلاحين القرويين في الجبال خلال القرن التاسع عشر، ومع مراعاة عدد السكان في الأجزاء الشمالية، يرجح هذا العدد أن عدد العلويين بلغ آنذاك حوالي 100.000 نسمة.
(4) الأب هنري غيسوب Reverend Henry H. Jessup خمسون عاماً في سورية. (London: Fleming H. Revell, 1910). صفحة 152

العثمانيين واجهوا **اسماعيل** لأنه *"غير مسلم ولَم يدفع رشاوي كافية للحكومة"*[1]. ولكنْ مِنَ المؤكد أنّ العثمانيين كانوا يعرفون أنّ **اسماعيل** غير مسلم عندما قرروا تعيينه مشيراً للجبل، وربما كان **غيسوب** Jessup مصيباً في قوله أنّ العثمانيين قرروا مواجهة **اسماعيل** بسبب فشله في دفع الضرائب (أو الرشاوى كما ذَكَر **غيسوب**). وربما كان العثمانيون قلقين بسبب قيام **اسماعيل خير بك** بتوحيد العَلَويين، وتنامي سيطرته ونفوذه. فعندما كان العَلَويون منشغلين في الاقتتال بين بعضهم لمْ يُشكّلوا أي خطر أو تهديد لسلطة العثمانيين. وَرَدَ في رسالةٍ إلى **هنري غيسوب** سنة 1858: *"مِنَ الأفضل لحكومة السلطان أنْ يَستهلك هؤلاء السكان المتوحشون قوّتهم في قتال بعضهم بدلاً مِنَ الثورة ضد الحكومة"*. ولكن أفضل تفسير لقرار العثمانيين بالتخلص مِنْ **اسماعيل خير بك** هو انتهاء حرب القرم سنة 1858 بتفوق العثمانيين، وأصبحوا في وضع أفضل لاستعادة سيطرتهم على المشرق العربي. أدى **اسماعيل خير بك** دوره خلال فترة الحرب الصعبة كمُمثلٍ للسلطة العثمانية التي مَنحته لقب مشير الجبل، وقد حان الوقت الآن للقضاء على سلطته.

لجأ العثمانيون إلى استثارة الدعوة إلى الجهاد بين السكان المحليين مِنَ المسلمين السنّة ضد العَلَويين الكفار، ودعموهم بقوات امبراطورية جديدة. أعاد ذلك الموقف للعَلَويين تذكُّر أنّ وضعهم الديني هو رهن للقرارات التعسفية للسلطات السنيّة. حدثتْ معارك كبيرة بين محاربي **اسماعيل خير بك** والعثمانيين، ولكن انتصر العثمانيون في النهاية باستغلال الخلافات بين العَلَويين. بدأتْ بعض العشائر العَلَوية التي لمْ يثق بها **اسماعيل** بالتخلي عنه. وكانت نهاية **اسماعيل** على يد خاله **علي الشللي** الذي أطلق النار على **اسماعيل** وابنه في قرية عين كروم وسَلَّمَ رأسه إلى العثمانيين[2].

أنهى القضاء على **اسماعيل خير بك** فترةً كانت تبشر بالخير للعَلَويين الذين أسسوا نوعاً مِنَ التماسك الطائفي في عهده. واستغل العثمانيون الفرصة لكي يستعيدوا سيطرتهم بالقوة على الجبال، وحاولوا تمزيق التماسك المؤقت الذي تمتع

(1) المصدر نفسه صفحة 152. تلحمي Talhamy 2010 صفحة 902–903
(2) غيسوب Jessup 1910 صفحة 152. تلحمي Talhamy 2010 صفحة 904–906

به العَلَويون تحت حكم **اسماعيل خير بك**. ذكر مراقبٌ معاصرٌ لتلك الأحداث هو المبشِّر **صموئيل لايد** Lyde سنة 1859 قائلاً: *"أحرقت الحكومة القرى... وغَضَّت النظر عن كثير من جرائم القتل... بحيث يتناقص عدد العَلَويين بدلاً مِنْ أنْ يتزايد"*[1]. بالنسبة للعَلَويين الحاليين تُعتَبر تلك الفترة المرعبة بمثابة تنبيه للنتائج التي يمكن أنْ يُحْدِثها تصاعد وجود قوة سنيّة في منطقتهم بعد فترة مِنَ الحكم العَلَوي، ويُشكِّل الرعب مِنْ حدوث ذلك مصدراً قوياً لخوف الطائفة العَلَوية وعدم اطمئنانها.

رغم أنّ **اسماعيل خير بك** كان أول عَلَوي يصل إلى مرتبة سياسية رسمية عالية، فقد كان هناك عَلَويون آخرون مِمَّنْ استطاع الوصول إلى مراتب عالية، فقد انضم **محمد باشا**، وهو عَلَوي مِنَ اللاذقية، إلى الجيش الإنكشاري العثماني في بداية القرن التاسع عشر، وتمّت ترقيته إلى رتبة آغا سنة 1811، وأصبح حاكِمَ طرابلس في 1821–1823[2]. كان رد فعل السكان المحليين مِنَ السنّة سلبياً، ووصفوه بأنه متسلط ونُصيري، وتمّ قتلُه مع بعض أفراد عائلته في اللاذقية بعد ذلك بقليل، ومازال العَلَويون يذكرون ذلك لسنوات طويلة، ففي سنة 1851 أخبر الشيخ العَلَوي **شمسين سلطان** الضابطَ البريطاني **فريديريك والبول** أنه: *"كان لدينا باشا نُصيري ذات مرة، ظنوا أنه مِنَ الأتراك، ولكن عندما عرفوا حقيقة أمره، قاموا بقتله فوراً"*[3]. مثال واضح آخر كان **قرة محمد باشا**، وهو مِنْ أصول عَلَوية، ووصل إلى رتبة أدميرال في البحرية العثمانية، ثم أصبح حاكماً لأنقرة وجانكيري في القرن التاسع عشر. لا شك بأنّ هؤلاء قد تخلوا عن أصولهم العَلَوية لكي يتمكنوا مِنَ التقدم والصعود في الرتب العسكرية العثمانية، وفي حالة **محمد باشا** كان مِنَ المستحيل إخفاء أصله عن أنظار العرب السنّة الذين عاشوا في موطنه الأصلي. ولا توجد معلومات تدل على مصير مماثل في حالة **قرة محمد باشا**، الذي عاش في الأناضول بعيداً عن موطنه الأصلي. لمْ يُذكر هؤلاء في المصادر العَلَوية، في حين أنّ

(1) لايد 1860 Lyde صفحة 209
(2) وينتر 2004 Winter صفحة 111
(3) والبول 1851 Walpole صفحة 157

اسماعيل خير بك ظهر في مناطق العَلَويين وأصبح شخصية هامة، بل وأُسبغتْ عليه صفات التقديس[1].

حدثتْ تغيرات كبيرة في الجغرافيا السياسية للمشرق العربي بسبب التدخل المصري، ثم حرب القرم، مما أعطى العَلَويين فرصة صغيرة لتأكيد وجودهم سياسياً، ولكي يتفاعلوا مع الطوائف الأخرى في المجتمع، ويقووا عصبيتهم وشعورهم الجماعي. أغلقَ العثمانيون بمساعدة القوى الغربية هذه النافذة. وأوضَح استغلال العثمانيين للخلافات القَبَلية في الجبال الساحلية استمرار التفرق السياسي بين العَلَويين في منتصف القرن التاسع عشر. يحتاج الأمر إلى تغيرات مختلفة تماماً في الجغرافيا السياسية لكي يبدأ العَلَويون انتقالهم المستمر للخروج مِنْ عزلتهم مرة أخرى.

التنظيمات والإرساليات التبشيرية البروتستانتية

أقنع التدخل المصري العثمانيين بضرورة تحديث وإعادة تشكيل امبراطوريتهم، وأدى ذلك إلى ظهور التنظيمات الإصلاحية بدءاً مِنْ سنة 1839. يقترح **ستيفان وينتر** Winter أنه: *"في التنظيمات، خاصة في فترة السلطان **عبد الحميد**، نظر الباب العالي إلى العَلَويين على أنهم... رعايا يجب تعليمهم ومؤمنون ضالون يجب هدايتهم"*[2]. تشبه هذه السياسة تجاه العَلَويين مافعله المماليك في بداية القرن الرابع عشر. لمْ تقدِّم التنظيمات الإصلاحية أي فوائد حقيقية للعَلَويين، بل إنّ الفترة بين منتصف القرن التاسع عشر وبداية الانتداب الفرنسي على سورية كانت مِنْ أصعب الأوقات على العَلَويين مِنَ الناحية الاقتصادية. فقد اضطر العَلَويون خلالها إلى بيع بناتهم للعمل كخادمات في بيوت الحَضَر مِنْ أثرياء السنّة للتخفيف مِنْ وطأة الفقر المُدقع[3].

لمْ يهتم العثمانيون فعلاً بتغيير طريقة حكمهم لمناطق العَلَويين، ففي ستينيات القرن التاسع عشر سجَّل **هنري غيسوب** أنّ والي حماة، **كامل باشا**، شاهد شعبية

(1) تلحمي 2010 Talhamy صفحة 898. يجب أن يُذكر أن الشيخ نصير إيزكيوكاك لم يسمع باسماعيل خير بك نقلاً عن مقابلة مع المؤلف في 29 مارس 2011
(2) وينتر 2004 Winter صفحة 112
(3) دى بلانهول 1997 De Planhole صفحة 89–91، بطاطو 1999 صفحة 41

مبشّر أمريكي بين العَلَويين، هو الدكتور ر. ج. **دودز** R. J. Dodds، الذي كان يستطيع ركوب حماره ويسير دون مرافقة في الجبال الساحلية "*لأنه صَديق ورَجل سلام*" بينما "*لا يستطيع **كامل باشا** السير عبر الجبال إلا تحت حراسة 100 جندي*". تنبه الوالي لذلك، وطلب مِنَ السلطان الإذن بمحاولة أساليب حكم مختلفة مع "*العَلَويين المتوحشين وكسبهم إلى طرفه بدلاً مِنْ مُعاداتهم*". رَدّت الأستانة بإرسال تعليمات "*بالسيطرة عليهم وأخذ الضرائب منهم كالمعتاد*"[1]. يصعب التأكد مِنْ صِحة هذه الحادثة، ولكن التاريخ يُظهر أنّ العثمانيين لَمْ يُغيّروا بالفعل مِنْ طريقتهم المتشددة في التعامل مع العَلَويين.

حادثة أخرى هامة في سياسة العَلَويين تتعلق بنشاط المسيحية الغربية هي تحول العَلَوي **سليمان أفندي الأذني** (ولد 1834) إلى البروتستانتية في 1862. كان **الأذني** منتمياً إلى الديانة العَلَوية عندما جاء إلى المبشر **هنري غيسوب** في بيروت وأعلن أنه سينشر كل أسرار الديانة العَلَوية، وهذه جريمة خطيرة في نظر زعمائهم الدينيين. **غيسوب** وَصَفَ **الأذني** بأنه ذكي، إلا أنه غير متزن أحياناً، ويميل إلى الإدمان على الخمر. وعلى كلٍ فقد اتضح أنّ التفاصيل التي ذكرها عن الديانة العَلَوية مِنْ ذاكرته كانت متوافقة مع المعلومات المتوفرة مِنْ غَيره عن طقوس الديانة العَلَوية[2].

أكمل **سليمان أفندي** نشر كتابه عن الديانة العَلَوية وسماه: *الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية*[3]. تُرجم الكتاب إلى الإنكليزية تحت عنوان: "*الثمرة الناضجة الأولى، كشف أسرار الديانة النصيرية*"[4]. انتشرتْ قراءة هذا الكتاب بشكل واسع في سورية لأنه كان أول كشف متوفر عن الديانة العَلَوية التي

(1) غيسوب Jessup 1910 صفحة 255–379

(2) انظر بشكل خاص بار آشر Bar-Asher وكوفسكي Kofsky: الديانة النُصيرية العَلَوية: دراسة في عقائدها وطقوسها. (Leiden: Brill, 2002)

(3) إيفيت تلحمي Evette Talhamy: النشاط التبشيري الأمريكي البروتستانتي بين النُصيريين (العَلَويين) في سورية خلال القرن التاسع عشر. مجلة *Middle Eastern Studies*, (2011), Vol. 47, No. 2، صفحة 224

(4) إدوارد سالزبيري Edward E. Salisbury: الثمرة الناضجة الأولى، كشف أسرار الديانة النُصيرية. مجلة *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 8 (1866) صفحة 227–308

طالما كانت غامضة لدى أغلب السوريين. ولكن بالنسبة للعَلَويين كان هذا الكتاب تنبيهاً خطيراً، وطالبَ كثيرٌ مِنَ المشايخ بقتل الخائن فوراً[1]. تمّ تأخير هذه العقوبة الضرورية سنوات عديدة حتى حانَتْ فرصةٌ لتنفيذها عندما زار **سليمان أفندي** بيتَه في أضنة، حيث ذكر **غيسوب** أنّ الزعماء العَلَويين أمَروا بدفنه حياً. وذكر **غيسوب** أنه قد تأكد مِنْ صحة هذه الحادثة خلال زيارة قام بها إلى أضنة سنة 1888.

في سنة 1850 كتب الرحالة البريطاني **جيمس فليتشر** Fletcher أنّ العَلَويين: "*مارسوا في منطقتهم المنعزلة عبادة مجهولة غامضة*"[2]. كان مِنْ نتائج نشر كتاب **سليمان أفندي** في 1862 أنّ الديانة العَلَوية لَمْ تعد غامضة، مما قلل مِنْ كفاءة تطبيقهم للتقية. وباختصار فقد تضررتْ كثيراً قدرة العَلَويين على الاحتفاظ بكونهم طائفة دينية غامضة، كما تناقصتْ فرص الطائفة في ممارسة المرونة السياسية. وكثير مما هو معروف عن الديانة العَلَوية يظل مستَمداً مِنْ كتاب **سليمان أفندي** حتى هذه الأيام.

لعبت البعثات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية إلى سورية دوراً هاماً في تاريخ العَلَويين في أواخر الامبراطورية العثمانية[3]، فقد كانت أكثر المتطوعين الأجانب قرباً مِنَ العَلَويين، وهو موقف تمتعتْ به أكثر الأقليات في المشرق العربي. فالموارنة مثلاً كانوا مدعومين مِنَ الفرنسيين، وتمتّع الدروز بدعم البريطانيين[4]. وعلى العكس مِنْ بقية البعثات التبشيرية الأجنبية، وربما لسوء حظ العَلَويين، فقد جاء المبشرون البروتستانتيون لغاية واحدة فقط هي التنصير وليس لأهداف سياسية[5]. كان حماس التبشير واضحاً في طلب الأب **ويليام توموسون** سنة 1835 فتحَ مركز تبشيري في اللاذقية لتعمل بين العَلَويين قائلاً:

(1) غيسوب Jessup 1910 صفحة 261–264

(2) ج. فليتشر J. Fletcher: مذكرات من نينوى. (Philadelphia: Lea & Blanchard, 1850) صفحة 313

(3) تلحمي Talhamy 2011 صفحة 215–236

(4) شكّل البريطانيون تحالفاً مع الدروز لتحقيق التوازن مع نفوذ الفرنسيين عند الموارنة. انظر شكيب صالح: العلاقة البريطانية-الدرزية وثورة الدروز سنة 1896 في حوران. مجلة *Middle East Studies*, Vol.13, No.2 (May 1977) صفحة 251–257

(5) تلحمي Talhamy 2011 صفحة 217

"ألا يُسعِد كل صديق للإنسان، وبخاصة كل مسيحي مخلص، أنّ شعباً غارقاً في الجهل والخطيئة قد عاد بعد طول ضلال لكي يُذكَر أمام الكنيسة. شعب بلا أي دين معروف، بلا مدارس أو كتب، مكروه مِنْ كل مسيحي شاهدوه، وداس عليهم في التراب أسيادهم المسلمين، ولا يهتم أحد بأرواحهم، ولا يتعاطف حتى مع أجسادهم، فقراء وبؤساء، مكروهون ومضطهدون، جهلاء ومتوحشون، ولكنهم يستحقون الاستماع مِنْ أذن وقلب الكنيسة مثل أي شعب آخر على وجه الأرض" [1].

يرسم طلب **تومسون** صورة بائسة لأحوال العَلَويين تحت حكم العثمانيين. ولَم يبدأ عمل المبشرين الأمريكان مع العَلَويين حتى سنة 1857[2]. تمّ تأسيس 25 مدرسة في منطقة الجبال الساحلية[3]، وأُرسل 153 مبشرا بروتستانتيا اميركيا (مع عائلاتهم) إلى سورية[4]، ولكن يبدو أنّ العَلَويين لَم يتحمسوا لتغيير دينهم[5]، فمثلاً في قرية بْحَمْرَة الكلبية نجحت المدرسة التبشيرية مؤقتاً في إقناع سبعة طلاب فقط بتغيير دينهم[6]. ولكن استطاعت المدارس التبشيرية تحسين التعليم الذي كان متخلفاً كثيراً لدى العَلَويين[7]. رد العثمانيون على خطر التبشير البروتستانتي، ففي 1874 أغلقوا جميع المدارس التبشيرية في مناطق العَلَويين، وكان ذلك قراراً لَم يطبقوا مثله في المناطق الأخرى[8]. كان واضحاً أنّ العثمانيين لَم يُرحِّبوا بانتشار

(1) كمال صليبي ويوسف خوري: الإعلان التبشيري: تقارير من سورية العثمانية 1819–1870 مجلة 2 (Amman: Royal Institute for Inter-Faith Studies, 1995), Vol. 2، صفحة 65، نقلاً عن تلحمي Talhamy 2011 صفحة 221

(2) تلحمي Talhamy 2011 صفحة 224

(3) غيسوب Jessup 1910 صفحة 436

(4) المصدر نفسه، الملحق I صفحة 797–800

(5) حسب هنري غيسوب أقسَمَ 650 من العَلَويين وبعض الأورثوذكس اليونانيين في الفترة 1861–1876 على تغيير دينهم، ولكن 12 فقط ظلوا بروتستانتيين. انظر غيسوب Jessup 1910 صفحة 351، وتلحمي Talhamy 2011 صفحة 224

(6) تلحمي Talhamy 2011 صفحة 226

(7) فيما عدا مشايخ الدين كان معظم العَلَويين أميين في القرن التاسع عشر. انظر تلحمي Talhamy 2011 صفحة 221

(8) غيسوب Gessup 2010 صفحة 436. أعيد افتتاح المدارس بعد أن ضغط الدبلوماسيون الأجانب على السلطات العثمانية، التي ظلت تبحث عن طرق لإعاقة العمل التبشيري بين العَلَويين. تلحمي Talhamy 2011 صفحة 228–232

المسيحية بين رعاياهم في المشرق العربي، وربما الأهم مِنْ ذلك هو أنهم اعتقدوا بإمكانية هداية العَلَويين إلى الإسلام الصحيح[1]، ولَم يُدركوا حقيقة أنّ العَلَويين كانوا يكرهون بشدة الاسلام السنّيّ المتعصب، وهو شعورٌ تراكم لديهم على مر قرون مِنَ الاضطهاد السنّيّ.

على مر أكثر مِنْ أربعين سنة، تنافس المبشرون البروتستانتيون مع العثمانيين في تحويل العَلَويين إلى المسيحية أو إلى الإسلام السنّيّ، ولكن مع حلول العقد الأخير مِنَ القرن التاسع عشر لَم ينجح أي منهما في ذلك، لا مِنَ الناحية الدينية، ولا مِنَ الناحية الثقافية. وكما لاحظتْ **إيفيت تلحمي** أنّ ذلك يوضح الهوية العرقية والدينية الخاصة للعَلَويين. وبكلمة أخرى ففي نهاية القرن التاسع عشر أظهر العَلَويون سوية مرتفعة مِنَ العصبية الطائفية، ولكنها لَم تكن متماسكة. وقدَّمتْ أعمالُ **اسماعيل خير بك** لمحةً سريعة عما يمكن أنْ يحدث إذا اتحد العَلَويون كطائفة.

نهاية الحكم الامبراطوري السنّيّ وفتح آفاق جديدة للعَلَويين

عندما اتخذ العثمانيون قرارهم بالانضمام إلى تحالف المحور في الحرب العالمية الأولى كان مصيرهم قد خُتم. فقد كانت بداية الحرب العالمية الأولى في 1914 بدايةَ النهاية للامبراطورية العثمانية. وكان ذلك بالنسبة للعَلَويين بداية كسوف للحكم الامبراطوري السنّيّ الذي استمر دون انقطاع تقريباً منذ أواخر القرن الثالث عشر. تلك كانت فرصة غير مسبوقة لكي يخرج العَلَويون أخيراً مِنْ فترة طويلة مِنَ التهميش الاجتماعي والاقتصادي والديني. في هذه الظروف الجديدة أصبح مِنَ الممكن للعصبية العَلَوية أنْ تتحرك وتنشط بطريقة لَم تكن متاحة لها قبل ذلك.

ظهرتْ أول فرصة لتجييش العَلَويين خلال سنوات الحرب (1914–1918). ولكن قدراتهم العسكرية التي برزتْ خلال ثورتهم مع **اسماعيل خير بك** لَم تظهر بشكل ثورة مسلحة ضد العثمانيين. وربما أضعفتْ بعض العشائر العَلَوية عودةُ سلطة العثمانيين القوية في الجبال الساحلية بعد 1858، أو ربما على الأرجح أنّ

(1) وينتر Winter 2004 صفحة 112. تلحمي Talhamy 2011 صفحة 230–232

العَلَويين قد فضَّلوا الوقوف على الحياد، مثلما فعل الصليبيون مِنْ قَبل، وفضَّلوا عدم كشف أنفسهم دون داع. كانت السياسة العملية الواقعية على طريقة "لننتظر ونرى" هي السائدة آنذاك في الجبال الساحلية.

كانت أحوال المسيحيين الموارنة بائسة في جبل لبنان، فقد عانوا مِنَ المجاعة خلال الحرب، ولَمْ تكن لديهم خبرة العَلَويين في الشمال[1]. لَمْ تُسَجَّل أسباب ذلك، وربما كانت شكوك العثمانيين بتحالفات الموارنة تفسر تلك المعاملة السيئة[2]. كما أنّ الثقة بالعَلَويين كانت محل تدقيق العثمانيين أيضاً. لَمْ تتحقق آمال التنظيمات في تحويل العَلَويين إلى الإسلام السنّي. أعلن العثمانيون الجهاد في 1914، ولَمْ يكن ذلك ضد العَلَويين هذه المرة مثلما حدث في 1858[3]، وبشكل عام لا يوجد دليل على حدوث أي حملة هامة ضد العَلَويين خلال سنوات الحرب، ربما رغب العثمانيون بتجنب إثارة أي ردة فعل مِنْ جهة العشائر العَلَوية.

نظر الحلفاء مِنَ الناحية الأخرى إلى الأقليات في شمال المشرق العربي كحلفاء محتملين ضد العثمانيين. كان لدى الفرنسيين قاعدة تجسسية في جزيرة ارواد قرب طرطوس خلال الحرب، وأنزلوا 13 عميلاً سرياً في مناطق عديدة مِنْ شمال الساحل لجمع المعلومات عن السكان المحليين والقوات العثمانية[4]. مِنْ هذه المصادر، بالإضافة إلى المعلومات التي قدَّمها مخبر لبناني ماروني هو **أنطوان إدة**، اقتنعتْ وزارة شؤون المستعمرات الفرنسية أنّ 148,000 ميليشيا محلية تضم مسيحيين وشيعة وعَلَويين في الجبال الساحلية كانوا جاهزين للثورة تأييداً لغزو

(1) كريستوفر أندرو Christopher Andrew وكانيا-فورستنر Kanya-Fostner ذروة الامتداد الامبراطوري الفرنسي 1914-1926 (London, Thames & Hudson, 1981) صفحة 107

(2) لعب الحصار البحري الذي قام به الحلفاء دوراً في منع وصول الامدادات الغذائية إلى جبل لبنان. انظر آغستون G. Agoston ماسترز B. Masters: موسوعة الامبراطورية العثمانية. (New York: Infobase, 2009) صفحة 330

(3) حسب لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 47، لم يستجب السكان المحليون لدعوة العثمانيين للجهاد.

(4) إيجال شيفي Yigal Sheffy الجاسوسية العسكرية البريطانية في الحملة الفلسطينية 1914-1918. (London: Frank Cass, 1998) صفحة 80

الحلفاء[1]. ولكن ذلك الغزو لَمْ يحدث في تلك المنطقة، ولذلك لا يمكن التكهن فيما إذا كانت تلك الثورة ستحدث أم لا. ومِنَ المفارقة أنه في سنة 1918 بعد الحرب، عندما بدأت القوات الفرنسية بغزو الساحل، حمل العَلَويون السلاح ضدها.

كان انتهاء الحكم الامبراطوري السنّي واستبداله بحكم الاستعمار الغربي في منطقة العَلَويين لحظةَ تحوُّل مفصلية في تاريخ العَلَويين السياسي. تغيرت المعادلة السياسية بشكل جذري فيما يتعلق بأحوال الطوائف والفئات المختلفة والخلافات في الأوضاع السياسية. ظَلّ العرب السنّة في المنطقة هم المستفيدون مِنَ الدعم السياسي والعسكري للامبراطوريات المسلمة السنيّة مِنَ القاهرة إلى الأستانة. ظَلّ العرب السنّة في سورية بعد العثمانيين أكثرية عظمى، ولكنهم اضطروا الآن إلى التفاوض حول مصالحهم مِنْ موقف أضعف بكثير. اتخذ العرب السنّة بشكل عام موقفاً سلبياً مِنْ قضايا سورية العسكرية والسياسية منذ الخلافة العباسية، ولذا ليس مِنَ المستغرب أنّ الأقليات، مثل العَلَويين والدروز والاسماعيليين أخذوا يصرون على تحقيق مصالحهم.

مثال جيد على التداخل بين المصاعب الأمنية والنظريات **الخلدونية** هو أنّ انهيار الامبراطورية العثمانية قد أدى إلى التنافس بين الفئات والطوائف المختلفة لحماية أمنها ومصالحها. وظهر أنّ العصبية الطائفية للأقليات الدينية هي التي أثبتتْ في النهاية ميزانها السياسية للأفراد الذين يسعون لتوطيد أنفسهم في مراكز القوة، وكان العَلَويون أكبر هذه الطوائف، ففي عام 1914 كان عددهم فيما سيصبح سورية الجديدة 175,000 - 200,000 عَلَوي، بينما كان عدد الدروز 50,000 تقريباً، والاسماعيليين 12,000 - 15,000[2]. أدى تصغير الساحة السياسية للدولة السورية إلى تكبير دور الأقليات في قدراتهم النسبية على توكيد مصالحهم. وبالنسبة للعَلَويين أدى انهيار حكم الامبراطوريات السنيّة إلى إعطائهم الفرصة لتجميع العصبية التي كانت حتى ذلك الوقت موزعة في جيوب صغيرة عبر الجبال.

(1) أندرو Andrew وكانيا-فورستنر Kanya-Forstner 1981 صفحة 108-110

(2) ستيفن لونغريغ Stephen Longrigg: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي. (London: Oxford University Press, 1958) صفحة 8-9

مِنَ الصعب أنْ نتخيل عقلية العشائر العَلَوية عندما شاهدوا انهيار نظام الجغرافية السياسية الذي ظَلّ قائماً منذ 1291. تحت ظِلّ الحكم الامبراطوري السنيّ كانت أهداف العَلَويين بسيطة: المحافظة على أكبر درجة ممكنة مِنَ الاستقلال، والمحافظة على هويتهم وعاداتهم أمام السيطرة السنيّة، والسعي للأمن والعيش ضمن النطاق الضيق لمجموعاتهم القَبَلية. وبدا الموقف في 1918 كأنه نظرٌ إلى مستقبل مجهول. وحسب المؤرخ **كيث واتنبو** Keith Watenpaugh أدى انهيار الحكم العثماني إلى حالة مِنَ التناقض لدى رعاياه السابقين الذين تساءلوا: *"مَنْ نحن؟ ولِمَنْ ننتمي؟ أو بالأحرى لأيّ كل ننتمي؟"* [1]. ثم حدث طارئ جديد، فقد سُئل العَلَويون ما هو خيارهم السياسي؟ سؤال لَمْ يكن باستطاعتهم الإجابة عليه.

أرسلتْ لجنة **كينغ-كراين** King-Crane الأمريكية سنة 1919 لدراسة سكان المشرق العربي ورغباتهم السياسية بعد انهيار الدولة العثمانية. كانت نتائجها في سورية ما يلي: أراد المسلمون مساعدةً أمريكية أو بريطانية لكي يحكم العرب مِنْ دمشق، وأيَّدَ الدروز انتداباً بريطانياً، في حين أيَّدَ الموارنة وأغلب المسيحيين فرنسا، كما فضَّل الاسماعيليون انتداباً فرنسياً، في حين كان العَلَويون منقسمين[2]. يوضح تردد العَلَويين ثلاثة أمور: لَمْ يكونوا متأكدين أين تقع مصلحتهم في الظروف السياسية الجديدة، كما ظَهَر في تشتت موقف العَلَويين السياسي مقارنةً بالموارنة والدروز والاسماعيليين الذين اتخذوا مواقف سياسية موحَّدَة. ثم تمتعتْ كل الطوائف الأخرى بدعم خارجي، فيما كان العَلَويون فئة منعزلة لفترة طويلة مِنَ الزمن فيما عدا الدعم البسيط مِنَ الإرساليات البروتستانتية.

مِنَ المعقول افتراض أنّ العَلَويين كانوا يشكّون بنوايا كل الأطراف الرئيسية في تلك الفترة الانتقالية. فقد كان الدعم السياسي الموثوق الوحيد الذي تلقاه العَلَويون

(1) كيث واتنباو Keith Watenpaugh: أن تكون معاصراً في الشرق الأوسط: الثورة والقومية والاستعمار والطبقة الوسطى العربية (New Jersey: Princeton University Press, 2006) صفحة 138

(2) تقرير لجنة كينغ-كراين King-Crane الملحق السري. هنري كينغ Henry King وتشارلز كراين Charles Crane في 28 أغسطس 1919، الجزء 55 V رقم 27 الطبعة الثانية 2 ديسمبر 1922 I. II 2 "رغبات الشعب"

هو مِنَ الشيعة، ولذا فقد اعتبروا الفرنسيين وقوى الحلفاء والعرب الهاشميين السنّة بمثابة تهديد محتمل للمصالح العَلَوية، كما أنّ كل تغيير سابق في القوى المسيطرة في منطقة العَلَويين رافقته فترة أولية مِنَ الاضطهاد ضد العَلَويين منذ القرن الحادي عشر.

التدخل الفرنسي: المقاومة العَلَوية والقبول

في الفترة 1919 حتى 1921 قاوَمَ الشيخ العَلَوي **صالح العلي** (توفي 1950) عمليات الاقتحام الفرنسية في الجبال الساحلية انطلاقاً مِنْ مواقعهم في الساحل[1]. هناك خلاف بشأن دوافعه، إذ يقترح بعض الباحثين أنه كان وطنياً يعمل بالتنسيق مع القوميين العرب في دمشق[2]. في حين قدَّم آخرون فرضية أنّ هدفه الأساسي كان ضمان الحكم الذاتي للعَلَويين[3]. ربما لَمْ يدرِك العَلَويون جيداً أهداف الفرنسيين في منطقتهم، ولَمْ يشاهِدوا سوى التواجد العسكري والسياسي القوي لقوة عظمى تتعدى على استقلاليتهم المحدودة التي كانت في ظل الحكم العثماني.

حسب الشيخ العَلَوي **نصير إيزكيوكاك** (ولد 1940) فإنّ **صالح العلي** عبّر عن مصالح فئة صغيرة مِنَ العَلَويين الذين كانوا يطمحون إلى الاستقلال والحكم الذاتي، وقد أخبر المؤلف سنة 2011:

*"لَمْ يكن الشيخ **صالح العلي** منّا، فقد كان مِنَ اللاذقية. بعد انهيار الامبراطورية العثمانية واحتلال الفرنسيين لهذه البلاد، أرادتْ بعض الفئات والعائلات والعشائر أنْ تستقل وحدها. ولذلك حدثتْ صدامات بينهم وبين الدولة*

(1) لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 80، 121-122

(2) ماتي موسى Matti Moosa 1988 صفحة 283، اقترح أن صالح العلي وافق على عقد السلام مع الفرنسيين إذا وافقوا على ضم الساحل إلى الدولة السورية. لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 95، اقترح أن السلاح والدعاية الإعلامية قد أُرسلت من دمشق إلى صالح العلي.

(3) فيليب خوري: سورية والانتداب الفرنسي: سياسة القومية العربية 1920-1945 (London: I.B. Taurus, 1987) صفحة 99-102. دانيل بايبس Daniel Pipes: استيلاء العَلَويين على السلطة في سورية. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 25, No. 4 (Oct., 1989) صفحة 438

الفرنسية. ولكن لم يكن جميع العَلَويين ضد فرنسا. فقد كنا ممتنين لها، ووافقنا على أنْ تحكمنا فرنسا، ورضينا بحكمها".

رغم أنّ **صالح العلي** قد تمّ تضخيم دوره كشخصية تاريخية في القومية السورية على يد الحكومات السورية (بما فيها حكومات عائلة **الأسد**)، يبدو أنّ دوافعه كانت المصالح المحلية. لمْ يكن هنالك موقف عَلَوي موحَد تجاه التدخل الفرنسي، فبعض العَلَويين شعر أنّ مصالحهم قد تحققتْ بشكل أفضل تحت الحكم الفرنسي، في حين أجّل كثير منهم اتخاذ قراره حتى توضّح مركزهم في الترتيبات الجديدة[1].

كانت رغبة بعض العَلَويين في الحصول على دعم وحماية الفرنسيين واضحة منذ منتصف القرن التاسع عشر، ففي 1851 أخبر شيخ قرية الهنادي، القرية العَلَوية في شمال الجبال الساحلية، ضابطَ البحرية البريطاني **فريديريك والبول** أنّ عميلاً فرنسياً قد وعده *"بالمساعدة الفرنسية، وأنّ العَلَويين كانوا بانتظار صدور الأمر لإعلان تلك الدولة"*. وأخبر **والبول** ذلك الشيخ بنوع مِنَ النبوءة أنه: *"مِنَ الأفضل ألا يثق بهذه العصا البالية، وألا يورّط نفسه وطائفته مع... الفرنسيين"* [2].

بالتوافق مع نتائج لجنة **كينغ-كراين** يبدو أنّ العَلَويين قد ظلوا منقسمين سياسياً في 1919. وعلى كل حال لمْ يتم إجراء مناقشة جادة بشأن الاندماج مع السنّة في الداخل السوري. إذ أنّ أي مِنَ العشائر العَلَوية لمْ تكن ترغب بعودة حكم سنيّ إلى منطقتهم. فقد كانت فرنسا مفضّلة على الدولة العثمانية السنّية في 1851، وظلّت مفضّلة على الهاشميين السنّة والقوميين العرب بدمشق في 1919. خوف الطائفة العَلَوية يقتضي الاختيار بين الاستقلال التام، وهو ما حارب صالح العلي مِنْ أجله حسب قول الشيخ **إيزكيوكاك**، أو الحماية الفرنسية.

بينما كان **صالح العلي** مستمراً في المقاومة في 1920، رسّخ الفرنسيون سيطرتهم في شمال سورية حسبما تم الاتفاق عليه في معاهدة **سايكس - بيكو**.

(1) لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 113
(2) والبول Walpole 1851 صفحة 370

وطبّق الفرنسيون فوراً سياسة فرِّق تسُد، أو "الوصفة المغربية"[1]. سَعَتْ هذه السياسة لإثارة الأقليات العرقية والدينية في سورية ضد الأكثرية السنّية، وخلْق انقسامات بين وجهاء الأرياف والمدن، وتقويض الطبقة السياسية الموجودة[2]. كما أنّ الفرنسيين، بسبب رغبتهم بلعب دور هام في شرق المتوسط[3]، لمْ يضيعوا أي وقت في فصل المناطق الساحلية عن الداخل، مما أدى إلى استعادة حالة الجغرافيا السياسية في أيام الصليبيين[4]. عمل الفرنسيون قصداً على إنشاء دولة عَلَوية مصطنعة لمْ تتوفر فيها العناصر الضرورية لدولة مستقلة، بل ستعتمد بشكل ضروري كبير على الدعم الفرنسي[5]. وهكذا تأسست دولة العَلَويين المستقلة في 31 أغسطس 1920[6].

حصل الفرنسيون على تفويض رسمي مِنْ عصبة الأمم في يوليو 1922 لكي يُشرفوا على التعليم والتطوير السياسي للولايات العثمانية السابقة في سورية[7]. نظرياً يبدو أنّ موضوع الانتداب مفيد للعَلَويين، ففي البند الثامن مِنْ صكّ الانتداب ذِكْر خاص لوضع العَلَويين السياسي وخوفهم الطائفي:

"[البند الثامن] *يَضمن المُنتدَبُ للجميع حرية المعتقد وممارسة كل أشكال العبادات التي تتوافق مع النظام العام والأخلاق. يجب عدم وضع أي تمييز مِنْ أي نوع بين سكان سورية ولبنان على أساس الاختلاف في العرق أو الدّين أو اللغة.*

(1) مارتن توماس Martin Thomas: امبراطوريات الجاسوسية. (Berkeley: University of California Press, 2008) صفحة 159 ملخص عن الوصفة المغربية التي طبقها الفرنسيون في سورية.
(2) مارتن توماس Martin Thomas. التعامل مع الأزمات في الدول المحتلة: الجاسوسية وقمع الثورات في المغرب وسورية بعد الحرب العالمية الأولى. مجلة *Intelligence and National Security*, 2006, Vol.21, No.5 صفحة 706. لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 117، 207
(3) بورك Edmund Burke III 1973 ادموند: دراسة مقارنة للسياسة الفرنسية المحلية في المغرب وسورية، 1912-1925 مجلة *Middle East Studies*, Vol.9, No.1. صفحة 175
(4) هاريس Harris 2003 صفحة 125-126
(5) لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 125، خوري 1987 صفحة 138
(6) الجريدة الرسمية لعصبة الأمم. سبتمبر 1930، المقالة الأولى صفحة 1124
(7) دى بلانهول De Planhol 1977 صفحة 377

وسوف يُصدر المُنتدَبُ التعليمات العامــة باللغــات المحلية لتطبــق في ســورية ولبنان" (1).

واجه العَلَويين تمييزاً دينياً ضدهم خلال أغلب تاريخهم، ولذا يمثل البند الثامن إمكانية متقدمة للطائفة، ويضعهم نظرياً في حالة مساواة سياسية، كما أنّ فرص التعليم ستفتح أبوابها للعَلَويين. إنّ تطبيق البند الثامن كان مِنَ الممكن أنْ يكون خطوة هامة لتقليل عصبية الطائفة العَلَوية، ولكن مصالح الفرنسيين اقتضَتْ عكس ذلك، وقرروا تقسيم سورية إلى أجزاء طائفية، فأسسوا دولة درزية، ودولة حول أنطاكية واسكندرون ضمّتْ أغلبية تركية، ودولة عَلَوية في المنطقة الساحلية.

دولة عَلَوية مصطنعة

كانت الدولة العَلَوية التي أنشأها الفرنسيون صورة مكبّرة مِنَ الولاية التي حكمها **اسماعيل خير بك**، فشملتْ كامل الجبال الساحلية، بل وامتدتْ لتضم السهول الساحلية والمدن الرئيسية اللاذقية وطرطوس وبانياس وجبلة، وبلغتْ مساحتها حوالي 6500 كيلومتر مربع[2]. في نهاية 1933 بلغ عدد سكان هذه الدولة 334,173 نسمة، منهم 64% مِنَ العَلَويين. وكانت أكبر فئة تالية لهم هم السنّة الذين شكّلوا 18% وتركّز وجودهم في اللاذقية. كما ضَمّتْ أقلية مسيحية هامة حول قلعة الحصن قرب حمص وشمال طرطوس. بالإضافة إلى ذلك كان فيها مجموعات صغيرة مِنَ الاسماعيليين في منطقة القدموس ومصياف (الجدول 2)[3].

(1) الجريدة الرسمية لعصبة الأمم. الاجتماع الخامس والتسعين للهيئة، الملحق 1629. "الانتداب" 24 يوليو 1922، يناير 1937، البند الثامن، صفحة 47

(2) بريل E. J. Brill الموسوعة الإسلامية الأولى 1913-1936. Netherlands, Leiden, (1927; 1993)

(3) المصدر نفسه. وضعت الاحصائيات الفرنسية في 1936 نسبة العَلَويين 69%، والسنّة 17%، والمسيحيين 14% في الدولة العَلَوية. لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 207

الجدول 2: التَوَزُّع السكاني في دولة العَلَويين (1936):

الطائفة	% نسبتها من السكان	العدد
العَلَويون	64	213,870
المسلمون السنّيون	18	60,151
المسيحيون (أغلبهم من الأورثودكس اليونانيون)	16	53,467
الاسماعيليون	0.02	6,683
الإجمالي	100	334,173

المصدر: بريل E. J. Brill الموسوعة الإسلامية الأولى 1913-1936 (1927; 1993)

حَكَم الدولةَ العَلَوية بدءاً مِنْ 1923 مجلسٌ مُنتدَبٌ مركزه في اللاذقية، مع حاكم فرنسي يشرف على سير الأمور (الجدول 3)[1]. تألّف المجلس مِنْ سبع عشرة عضواً: عشرة عَلَويين، ثلاثة سنّة، ثلاثة مسيحيين، وواحد اسماعيلي[2]. وقد عكَستْ عضوية المجلس بشكل عام التركيبة الطائفية للدولة الجديدة، وحققتْ ما سماه **ليجفارت** النظام السياسي التوافقي الذي تُمثل فيه بالتناسب الفئات والطوائف الاجتماعية المختلفة[3]. كان العَلَويون مرتاحين كأكثرية في هذه الترتيبات لأنها تعطيهم الفرصة لقيادة المسار السياسي للدولة بما يوافق مصالحهم، إلا أنّ الأقلية السنّية لْم تكن سعيدة بهذا الوضع، ووجد مجلس النواب مصاعب جمة في الحكم بشكل فعال بسبب التوترات الطائفية. وكما كان رد فعل السنّة في فترة حكم **اسماعيل خير بك** في 1854، لعِبَ الخوف الطائفي والتعصب دوراً في زيادة التوتر في المجتمع. ومِنَ المفارقة أنّ البند الثامن في صكّ الانتداب دعى أيضاً إلى حماية حقوق السنّة، الذين أصبحوا أقلية في الدولة العَلَوية، ومنَعَ التمييز ضدهم.

(1) الحاكم الذي استمر أطول فترة هو شوفلر M. Schoeffler الذي كان حاكم الدولة العَلَوية من 1927 حتى 1935. لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 209

(2) دى بلانهول De Planhol 1977 صفحة 378. استمر المدنيون من السنّة والمسيحيين في أغلب المناصب الحكومية غير المُنتخَبة، لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 210

(3) أرند ليجفارت Arend Lijphart. التفكير في الديموقراطية. (Oxon: Routledge, 2008) صفحة 279

الجدول 3: تركيبة مجلس النواب في الدولة العَلَوية:

الطائفة	% النسبة للسكان	% التمثيل	عدد الأعضاء
العَلَويون	64	59	10
المسلمون السنّة	18	18	3
المسيحيون	16	18	3
الاسماعيليون	0.02	5	1
المجموع	100	100	17

المصادر: دي بلانهول De Planhol 2007 صفحة 378، لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 210، بريـل E. J. Brill (1927–1993)

بالإضافة إلى التنافس في المجلس، كان العَلَويون عرضة للتنافس والاختلاف فيما بينهم، وأصبح مندوبيهم في المجلس ممثلين للصراع بين عشائرهم. وبشكل عام أتاحتْ الدولة العَلَوية فرصة ثمينة لهم للبدء بالمشاركة في الساحة السياسية التعددية رغم انقساماتها وعدم كفاءتها. وكان باستطاعتهم السعي علناً نحو تحقيق مصالحهم، وأنْ يدخلوا في حوار مع أنفسهم ومع الفئات الأخرى. أحد أهم منجزات المجلس كانت إعادة ترتيب صناعة التبغ سنة 1934 لصالح المزارعين العَلَويين. تطور إيجابي آخر كان في تأسيس خدمات سياحية مربحة في الجبال الساحلية للمصطافين[1]. ربما ساعدتْ هذه الأمور كلها على تقليل خوف الطائفة وعصبيتها الطائفية، إلا أنّ خوف الطائفة العَلَوية ظلّ مستمراً، وبدا ذلك واضحاً في عدم هجرة العَلَويين مِنَ الجبال الساحلية إلى اللاذقية. وفي الواقع لاحظ **باتريك سيل** أنّ العَلَويين ظلوا مترددين في السفر إلى مدينة اللاذقية السنّية حتى في أربعينيات القرن العشرين[2].

بينما ضمّت الدولة العَلَوية فئات مختلفة كانت محتواة في الماضي ضمن الامبراطورية العثمانية، لمْ تكن أحوالها تشبه ما تسميه أدبيات الصراعات الأمنية

(1) السياحة في المنطقة، بما فيها لبنان، جبال العَلَويين، وجبال الأمانوس وصلت إلى 36,000 سنة 1939. انظر لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 285

(2) باتريك Patrick أسد سورية: الصراع على الشرق الأوسط. (London: IB Taurus, 1988) صفحة 57

بالحالة الفوضوية[1]. انتقلت الطوائف والفئات المختلفة مباشرةً مِنْ سلطة الامبراطورية العثمانية إلى سلطة الاستعمار الفرنسي، ومع ذلك فإنّ الاستقلال المحدود للفئات والطوائف المختلفة منَحَها رؤية لإمكانية تحريك العصبية الطائفية.

يحتاج تحريك العصبية الطائفية حسب **ابن خلدون** إلى قائد أو زعيم قادر على تأسيس تفوقهم وسيطرتهم على المجموع[2]. [لا بد مِنْ أنْ تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبيةً واحدةً شاملةً لجميع العصائب... وتلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورئاسة فيهم، ولا بد مِنْ أنْ يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم فيتعين رئيساً للعصابات كلها].

ظهر ثلاثة زعماء للعَلَويين في دولتهم هم: **جابر العباس، وابراهيم الكنج، وسلمان المرشد**. كان **جابر العباس** زعيم تحالف عشائر الخياطين ورئيس مجلس النواب حتى سنة 1930. كان منافسه الرئيسي هو **ابراهيم الكنج** زعيم عشائر الحدادين، والذي نجح بإزاحة **جابر** في انتخابات المجلس سنة 1930[3]. لمْ يكن لأي مِنْ هذين الرجلين تأثير مهم على على سياسة العَلَويين خلال العقدين الثاني والثالث مِنَ القرن العشرين ما يشابه تأثير ذلك الراعي القادم مِنْ قرية جبة برغل، والذي كان اسمه **سلمان المُرشِد** (ولِد سنة 1905 باسم **سلمان يونس**). يُشبه **المُرشِد** مِنْ نواحٍ عديدة حالة **حسن المَهدي** الذي ظهر في القرن الرابع عشر، لأنه بدأ حياته فقيراً متواضعاً، ولكن بعد أنْ جاءته "الرؤيا المقدسة" أصبح ذو سلطة ونفوذ. في 1923 باشرَ **المُرشِد** رسالته الدينية والسياسية التي شَملتْ توحيد جزء كبير مِنْ منطقة العَلَويين تحت سيطرته (الشكل 3)، ولَعِبَ دوراً هاماً في تحديد عضوية مجلس النواب، بل وأصبح عضواً في المجلس النيابي الوطني بدمشق[4].

(1) بوسن Posen 1993 صفحة 103

(2) ابن خلدون. المقدمة. صفحة 108

(3) غيتا يافي Gitta Yaffe وأريل دان Uriel Dann: سليمان المرشد: بدايات قائد عَلَوي. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 29, No. 4 (Oct., 1993) صفحة 624–640

(4) إيال زيسر Eyal Zisser: العَلَويون، سادة سورية، في كتاب الأقليات والدولة في العالم العربي. تحرير بينغيو Bengio وبن دور Ben-Dor (Boulder & London: Lynne Reiner Publishers, 1999)، صفحة 143

فشل **المُرشد** في فرض سلطته بطريقة كانَ يمكن أنْ تؤدي إلى تعبئة العصبية الطائفية العَلَوية. وكان ذلك نتيجة لعوامل عديدة، فالفرنسيون رغم حرصهم على فصل العَلَويين على مستوى الدولة، إلا أنهم كانوا، مثل العثمانيين، حريصين على إذكاء الخلافات فيما بين العَلَويين أنفسهم وإبقائهم تحت السيطرة، ولذا فقد راقبوا نشاطات **المُرشد**، بل وأبعدوه إلى المنفى ذات مرة[1]. انتبه الفرنسيون (وكذلك البريطانيون فيما بعد) إلى أهمية **المُرشد** كحليف ضد القوميين العرب، وحاولوا استغلال ميوله الانفصالية[2]. ويبدو في أغلب المصادر أنّ نوايا **المُرشد** كانت موجهة نحو غاياته الشخصية بشكل رئيسي. وقد أدى ملفه الشخصي المثير للجدل، وجشعه في جمع التبرعات مِنَ القرى العَلَوية الذي كان غير مُحبَّذ خاصة خلال الضائقة الاقتصادية في أوائل الثلاثينيات، والمعارَضة التي واجهها مِنْ أقرب أتباعه، إلى إعاقة وصوله لمراكز عالية كزعيم عَلَوي[3]. ومع ذلك فإنّ تأثيره مازال مستمراً في سورية، ومازالت هناك فئة هامة تسمي نفسها "المُرشِديين". وقد زار المؤلف إحدى قراهم سنة 2009، وشاهد صورة **سلمان المُرشد** معلقة على جدران المنازل بكثير مِنَ الاحترام والتبجيل. ولكن حسب بعض الهيئات الدينية العَلَوية، لا يُعتَبر المرشديون مِنَ العَلَويين، بل يُعتَبر إخلاصهم **لسلمان المُرشد** نوعاً مِنَ الضلال[4].

في 14 مايو 1930 أصدر المندوب السامي الفرنسي في بيروت قراراً بتغيير اسم دولة العَلَويين إلى سَنجَق أو محافظة اللاذقية[5]. وهو اسم أقل إثارة للطوائف الأخرى[6]، والأهم مِنْ ذلك هو أنّ فرنسا منحَتْ سلطات كاملة للحاكم المُعَيَّن،

(1) يافي Yaffe وذان Dann 1993 صفحة 630

(2) إيتامار رابينوفيتش Itamar Rabinovitch: المشهد من دمشق، الدولة والمجتمع السياسي والعلاقات الدولية في سورية القرن العشرين (Edgware: Valentine Mitchell, 2008) صفحة 85

(3) يافي Yaffe وذان Dann صفحة 624–640

(4) الشيخ علي يرال Ali Yeral في مقابلة مع المؤلف بأنطاكية في 28 مارس 2011

(5) الجريدة الرسمية لعصبة الأمم. سبتمبر 1930 صفحة 1124، قرار المندوب السامي للجمهورية الفرنسية رقم 3113

(6) فيليب خوري 1987 صفحة 59

وهو م. **شوفلر** Schoeffler، في حين اقتصر دور مجلس النواب على مساعدته[1]. وبذلك تمّ اختصار مجلس النواب إلى مجرد شكل تجميلي لحاكم فرنسي مباشر، ويجتمع المجلس لمدة شهر واحد في السنة، ويرجع في كل القضايا الهامة إلى الحاكم الفرنسي. وهكذا بُترتْ الفترة العَلَوية القصيرة مِنَ الاستقلال السياسي وعلاقتهم المضطربة بالأقليات الأخرى في شمال غرب سورية[2].

رغم قصور دولة العَلَويين في العشرينيات، إلا أنّ تلك التجربة فَتحت الآفاق السياسية أمام العَلَويين. كما أنّ التعليم الذي تلقاه الجيل الشاب وفق توصيات البند الثامن، خَلَقَ جيلاً جديداً مِنَ العَلَويين الذين ينظرون إلى الحياة فيما وراء منطقتهم المحدودة وهويتهم الدينية. وهكذا كان دور الفرنسيين مساعداً للعَلَويين، ولا شك بأنّ الفرنسيين قد اعتقدوا أنّ ذلك صحيح أيضاً، فقد كتب **أريستيد بريان** Aristide Briand رئيس الوزراء الفرنسي في العشرينيات، والحائز على جائزة نوبل، مخاطِباً عصبة الأمم فقال: "*أنظمة الحكم الذاتي تتماشى مع رغبات السكان، كما أنها تتوافق مع مصالحهم لأن التقارب والتعاون مع سلطة الانتداب في تطورهم الاقتصادي والاجتماعي هي الميزة الرئيسية بالنسبة لهم*"[3].

لمْ يكن الأساس الذي استند عليه الفرنسيون في التأكد من رغبات السكان واضحاً. ومِنَ العدل القول أنّ كل ما سعى إليه الفرنسيون هو تعزيز مصالحهم مِنْ خلال التقسيم السياسي المستمر لأراضي سورية. ويختلف ذلك الهدف كثيراً مع ما قَصَدتْ إليه عصبة الأمم. فقد جاء في صكّ الانتداب بوضوح أنّه: "*يجب أنْ يَضمنَ المُنتَدَب وحدة أراضي سورية ولبنان مِنَ النواحي الاجتماعية والدينية وكل ما تسمح به الأحوال*"[4]. سعى الانتداب نظرياً للتوصل إلى كيان سياسي سوري

(1) الجريدة الرسمية لعصبة الأمم. سبتمبر 1930، البند 11 صفحة 1125–1126

(2) دي بلانهول De Planhol 1997 صفحة 378

(3) رسالة من الحكومة الفرنسية إلى السكرتير العام لعصبة الأمم. باريس 11 يونيو 1930. الجريدة الرسمية لعصبة الأمم. سبتمبر 1930. البند 18. صفحة 1100

(4) الجريدة الرسمية لعصبة الأمم، اجتماع الهيئة رقم 95، الملحق 1629، الانتداب، 24 يوليو 1922، يناير 1937، البند 13، صفحة 48

موسع يضم الفئات الاجتماعية المختلفة دون تمييز[1]. سارتْ أهداف فرنسا بشكل يتعارض مع هذه المقاصد، وعملتْ بدلاً مِنْ ذلك على استغلال وزيادة الانقسامات الدينية.

وهكذا فإنّ الإرث الحقيقي للدور الفرنسي كان تأكيد الانقسامات في المجتمع السوري، بحيث أنه عندما غادروها سنة 1946 لمْ يحدث أي تقدم في التئام شمل الطوائف والفئات المختلفة. وإذا انتقلنا بهذا المبدأ إلى الأمام يمكن القول أنّ ظهور العصبية الطائفية العَلَوية التي دعمتْ نظام **الأسد** ما كانت لتحدث لو أنّ أهداف عصبة الأمم قد طُبِّقتْ. وهكذا فقد لَعِبتْ فترة الانتداب دوراً متناقضاً، فقد أخرجَت العَلَويين مِنْ عزلتهم، ومنحتهم التعليم والفرص السياسية التي لمْ تكن متاحة لهم قبل ذلك، ومِنْ ناحية أخرى فقد رسَّخَت الشكوك العميقة بين الطوائف والفئات في سورية، مما أدى إلى استمرار خوف العَلَويين كأقلية في سورية الحديثة.

منذ بداية الانتداب لجأ الفرنسيون استراتيجياً لتجنيد العَلَويين والأقليات الأخرى في قوى الأمن ضد القوميين والوطنين السوريين، وكذلك كجزء مِنْ سياستهم العامة في إثارة الطوائف والفئات المختلفة ضد بعضها بعضاً[2]. وعلى العكس مِنْ تردد العَلَويين في قبول التجنيد في جيش ابراهيم باشا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، دفعهم الفقر في عشرينيات القرن العشرين للانضمام إلى وحدات الجيش الفرنسي أملاً في الحصول على دخل ثابت[3]. ومِنَ المُلاحَظ أنه بينما كان الشيخ **صالح العلي** يحارب الفرنسيين، كان العَلَويون مِنْ عشائر أخرى ينخرطون في الفيلق السوري،

(1) نَصُّ ومقاصد الانتداب يتماشى تماماً مع نَصّ تقرير لجنة كينغ-كراين King-Crane سنة 1919 الذي تحدث أيضاً عن الحرية الدينية وعن نجاح الدولة العربية الفتية. ولوحظ أنه ذكر الدولة بصيغة المفرد وليس الجمع. انظر تقرير لجنة كينغ-كراين، الملحق السوري، هنري كينغ Henry C. King وتشارلز كراين Charles R. Crane 28 أغسطس 1919، الجزء 55، رقم 27، القسم الثاني، 2 ديسمبر 1922، III 6

(2) بو نقلي N. E. Bou-Nacklie: القوات الخاصة: التجنيد الديني والعرقي، 1946-1916. مجلة International Journal of Middle East Studies, Vol.25, No.4 (1993) صفحة 660-545

(3) المصدر نفسه صفحة 649. خوري 1987 صفحة 630-650

الذي شكَّل العَلَويون 20% مِنْ جنوده سنة 1925. يبين ذلك مرة أخرى تفرّق الطائفة العَلَوية في تلك الفترة. استمر التمثيل المرتفع للعَلَويين في الوحدات الاستعمارية الفرنسية بعد توسيع الفيلق السوري وإعادة تسميته إلى: القوات الخاصة لبلاد الشام اعتباراً مِنْ سنة 1930[1]. مِنَ المهم أنْ نلاحظ أنّ العَلَويين شغلوا أغلب الرتب المنخفضة في القوات الخاصة بشكل عام، وفي الفترة بين 1921 إلى 1946 لمْ يتخرج مِنَ المدارس العسكرية إلا 16 عَلَوي بالمقارنة مع 128 سنيّ[2].

مشكلة الاندماج والانفصال

تعرَّضَ الفرنسيون في ثلاثينيات القرن العشرين لضغط متزايد مِنَ المجتمع الدولي ومِنَ الوطنيين السوريين في دمشق لإنهاء الانتداب[3]. ووافقوا في 1936 على توحيد دولة سورية بحيث تضم مناطق الحكم الذاتي في اللاذقية وجبل الدروز[4]. يوضح رد فعل العَلَويين القوي ضد هذا الإعلان وَعيَهم السياسي الجديد، واستمرار خوفهم وعدم اطمئنانهم، واستمرار انقساماتهم أيضاً. وحسب **يافي-شاتزمان** Yaffe-Schatzman فبعد صدور الاقتراحات الفرنسية لضم المنطقة العَلَوية في فبراير 1936 "*وقفتْ صفوف طويلة مِنَ المعارضين أمام مركز بريد اللاذقية لكي يرسلوا برقيات إلى بيروت وباريس وجنيف تأييداً أو رفضاً لفكرة الاتحاد*". وصلتْ 98 عريضة إلى عصبة الأمم، عبَّر أكثرها عن قلق الأقليات بشأن توحيد سورية[5].

(1) المصدر نفسه صفحة 651، في سنة 1930 كان تعداد القوات الخاصة 9500 ولكن في 1935 بلغ عددهم 14000. انظر لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 269

(2) المصدر نفسه صفحة 656

(3) جنيفر دوويك Jennifer Dueck: الغزو الثقافي: المدارس في دائرة السياسة خلال الانتداب الفرنسي على سورية، 1946-1936. Oxford University Press, 2006 صفحة 443. غيتا يافي شاتزمان Yaffe-Schatzmann Gitta: العلويون الانفصاليون والاتحاديون: أحداث 25 فبراير 1936. مجلة Middle Eastern Studies, Vol. 31, No. 1 (Jan., 1995) صفحة 30-29

(4) الجريدة الرسمية لعصبة الأمم. اجتماع الهيئة رقم 104، الملحق 1724، فبراير 1939، صفحة 162

(5) الجريدة الرسمية لعصبة الأمم. اجتماعات الهيئة رقم 93 و94، الملحق 1622، نوفمبر 1936، صفحة 1354

اتضح خوف العَلَويين مِنْ ضمهم إلى الدولة السورية ذات الأغلبيـــة السـنيّة الساحقة في طلب العَلَويين سنّة 1936 لكي تنضم منطقتهم إلى لبنـــان ولـــيس إلى سورية[1]. وربما أدى تعيين الفرنسيين **عطا بك الأيوبـــي** كرئيس وزراء في دمشق إلى إقناع العَلَويين بأنّ الاتحاد هو احتيار مناسب، وذلك بسبب أصوله العَلَوية (التي ربما لَمْ يعرفها الفرنسيون)[2].

عُقد مؤتمر تاريخي هام في طرطوس في 25 فبراير 1936 حضره جميـــع الزعمـــاء العَلَويين المهمّين للاستفتاء على موقف العَلَويين في قضية الوحـــدة الســـورية. ورغـــم محاولات المخابرات الفرنسية لإظهار انتصار الانفصاليين، إلا أنّ النقاش كان حاداً، ولَمْ تكن النتيجة حاسمة. دافع زعيم الحدادين **ابراهيم الكنج** عن فكرة الانفصـــال تحـــت حماية الفرنسيين، بينما أيّد الوحدة **منير العباس** مِنْ تحالف عشائر الخيـــاطين، وكـــان هناك بعض العَلَويين ممن استعدوا للقتال دفاعاً عن استقلالهم، مع أو بـــدون الحمايـــة الفرنسية[3]. وبشكل عام فقد أثار الخوف الطائفي ترددَ العَلَويين في اتخاذ قرار عودتهم للخضوع في دولة يسيطر عليها أعداؤهم التاريخيون مِنَ المسلمين السنّة.

اتجه زعماء الطائفة الدينيون بشكل عملي وواقعي نحو ضمان أمن الطائفة في الدولة السنيّة الناشئة إذا تمّ توحيدها، ولذلك ففي مايو 1936 أصدر 15 مِنْ شيوخ العَلَويين قراراً ينص على أنّ:

"كل عَلَوي هو مسلم، وكل عَلَوي ينفي كونه مسلماً، ولا يقر بأنّ القـــرآن الكريم هو كتابه المقدس، وأنّ محمداً هو رسوله، لا يُعتبر عَلَوياً مِنْ وجهـــة نظـــر الشريعة"[4].

(1) لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 130. موسى Moosa 1988 صفحة 290–291، نقـلاً عن أرشيف الوزارات، باريس E.412.2 الملف 393.8 والملف 493.7

(2) غيتا يافي شاتزمان Gitta Yaffe-Schatzmann العَلَويون الانفصاليون والاتحاديون، صفحة 30. حسب يافي شاتزمان فقد وردتْ أصول الأيوبـــي العَلَوية في Rogues Gallery, by Consul Hole to Rendel, Damascus, 15 July 1932, cites FO 371 16088.

(3) بيتر شامبرووك Peter Shambrook الامبرياليـــة الفرنســـية في ســـورية 1927–1936 (Reading: Ithaca, 1998) صفحة 223

(4) يافي شاتزمان Yaffe-Schatzmann 1995 صفحة 35

إذا كان هذا القرار ممارسة حكيمة للتقية، فقد توصل إلى النتيجة المرجـــوة. فبعد شهرين مِنْ ذلك، في يوليو 1936، أصدر القومي العربـــي والمفـــتي العـــام للقدس الشيخ **محمد أمين الحسيني** (1895–1974) فتوى كانت مدهشة بالنســـبة لشيخ سنيّ، فقد أيّد بقوة اعتبار العَلَويين مِنَ المسلمين[1].

كان ذلك تحولاً جذرياً عن القرارات السابقة لشيوخ السنّة مثل **ابن تيميـــة**. ومِنَ المُفارقة أنّ فتوى **الحسيني** جاءتْ في سياق جغرافي- سياسي مشابه لفتـــوى **ابن تيمية** في 1305، فقد كانت القوى الأوروبية تَخترق وتُقسّم العالَم الإسلامي، وكان العَلَويون ومنطقتهم يحتلون مركزاً هاماً في مصالح المسلمين الاســـتراتيجية. ولكنْ بدلاً مِنْ استعداء العَلَويين واتهامهم بالتعاون مع أعداء الإسلام، اتخذ الشـــيخ **أمين الحسيني** موقفاً مُغايراً، وحاول ضم العَلَويين تحت جناح الإسلام. كان ذلـــك الموقف مشابهاً لما أراد أنْ يجرّبه حاكِم حماة في 1860. كان توقيت وتأثير فتـــوى **الحسيني** فعالاً، وساعدتْ على اقناع العَلَويين بأنّ مستقبلهم سيكون آمناً ضـــمن وحدة سورية أو عربية[2]. وهكذا ففي عام 1937 انضمّتْ حكومة اللاذقية رسميـــاً إلى بقية سورية دون أي مقاومة عَلَوية[3]. كانت تلك لحظـــة حاسمـــة في تـــاريخ العَلَويين، إذ أوضحتْ أنه رغم قرون عديدة مِنَ الاضطهاد والتمييـــز علـــى يـــد المسلمين السنّة، فقد كان العَلَويون مستعدين لمحاولة الاندماج في المجتمع الســـوري الواسع الذي يسيطِر عليه السنّة.

تأخر الانضمام الفعلي لمنطقة العَلَويين إلى سورية عقداً مِـــنَ الـــزمن، فقـــد اشتعلت الحرب في أوروبا، وأجلّ الفرنسيون تنفيذ معاهـــدة اســـتقلال ســـورية

(1) R. D.: فتوى المفتي العام للقدس بشـــأن العَلَـــويين. Syria, T. 22, Fasc. 3/4 (1941) صفحة 299. Institut Francais du Proche-Orient إيفيت تلحمي Yvette Talhamy: الفتاوى والنُصيريون-العَلَويون في سورية. مجلة Middle Eastern Studies, 46: 2, 2010 صفحة 185–186. الشعب، دمشق، 31 تموز.

(2) إيفيت تلحمي Yvette Talhamy الفتاوى والنُصيريون-العَلَويـــون في ســـورية. مجلـــة Middle Eastern Studies, 46: 2, 2010 صفحة 185

(3) الجريدة الرسمية لعصبة الأمم، اجتماع الهيئة رقم 104، الملحق 1742، فبراير 1939 صفحة 162، ورد في لونغريغ: Longrigg 1958 صفحة 244

وتوحيدها. في سنة 1939 وجد الفرنسيون مبرراً جديداً لفصل المنطقة العَلَوية عن سورية، وسمحوا لتركيا باقتطاع لواء الاسكندرون[1]. مع هزيمة فرنسا واحتلالها سنة 1940 حَكَمَ الفيشيون سورية، وشكّلوا تحالفاً مع دول المحور[2]. كانت تلك فترة مُحيرة بالنسبة للطوائف والفئات السورية المختلفة، ولا ريب أنهم وجدوا مِنَ الصعب معرفة أين تقع مصالحهم. ومرة أخرى لَمْ يشارك العَلَويون في الحرب مباشرة رغم أنهم انخرطوا بكثافة بقوة القانون في القوات الخاصة الاستعمارية الفرنسية.

حدث تطور هام سنة 1941 يتعلق بالأقليات في سورية، فقد تواجهتْ قوات الدروز في حكومة فيشي مع وحدات الجركس في جيش الحلفاء على خط القتال في جنوب سورية. وعندما أُعطيت الأوامر رفض الطرفان إطلاق النار والهجوم على "رجال بلادهم"[3]. وضّح ذلك الموقف ظهور هوية جماعية مشتركة بين الطوائف والفئات السورية. وكان مِنَ المثير أنْ يُشاهَد ما الذي ستفعله وحدات العَلَويين لو واجَهتْ موقفاً مماثلاً، غير أنهم كانوا متمركزين في الشمال الغربي مِنْ سورية، ولَمْ يتحركوا إلى الجبهة. لا شك بأنّ العَلَويين قد تعاطفوا مع الدوافع القومية والوطنية، ولَمْ تكن لديهم رغبة حقيقية بالبقاء منعزلين، خاصة بعد أنْ مَنحتهم الفتوى التي صدرتْ عن مفتي سنيّ ذي مرتبة عالية مصداقية دينية، وأصبحت الساحة جاهزة لكي يتابعوا ابتعادهم عن العزلة، مما سيخفف عصبيتهم الطائفية.

بعد انتهاء الحرب، حاول الفرنسيون استعادة سورية، ولكنهم واجهوا مقاومة عنيدة مِنَ الوطنيين السوريين، الذين أيّدهم الأمريكان والبريطانيون[4]. أُجبر

(1) الجريدة الرسمية لعصبة الأمم، احتجاه الهيئة رقم 104، الملحق 1742، فبراير 1939، ملاحظات حول إدارة بعض المناطق الخاصة تحت الانتداب. صفحة 161–162. لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 236

(2) جيمس ملكي James A. Melki: سورية ووزارة الخارجية 1937–1947 مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 33, No. 1 (Jan., 1997), Frank Cass, London صفحة 93

(3) بو نقلي N. E. Bou-Nacklie غزو سورية ولبنان في 1941، دور الميليشيات المحلية. *Middle Eastern Studies*, Vol. 30, No. 3 (Jul., 1994) صفحة 520–521

(4) ملكي Melki 1977 صفحة 96–97

الفرنسيون على الانسحاب للمرة الأخيرة، ولكنّ قصفهم الجوي والمدفعي لدمشق في 29 و30 مايو 1945 ترك انطباعاً سيئاً جداً عن الحلفاء الأحرار المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، وأضعف موقف السوريين المؤيدين للاتجاه نحو سياسة غربية حرة في الدولة المستقلة الجديدة[1]. نظر العَلَويون أيضاً إلى تصرف الفرنسيين باشمئزاز حسب **لونغريغ** Longrigg[2]، وأظهر ذلك أنّ العَلَويين لَمْ يعودوا يحبذون التواجد الفرنسي في سورية، وأنهم أخذوا بالاستعداد للاندماج في الدولة السورية وفق القرار الذي اتُّخذ قبل عقد مِنَ الزمان.

اندماج العَلَويين في دولة سورية المستقلة

اتّخذت التركيبة السياسية السكانية في سورية 1946 شكلها العام الذي ظلّت محتفظة به حتى 2011. حسب الإحصاء السكاني سنة 1947 شكّل السنّة أغلبية 70% مِنَ السكان، بينما كان عدد العَلَويين 339,466 أو 11.2% مِنَ السكان، وكان المسيحيون حوالي 10%، والدروز والاسماعيليون أقل مِنْ 5% (الجدول 4)[3]. ومِنَ الناحية العرقية، شكّل العرب الأغلبية، في حين كان الأكراد والأرمن أقليات. كان تنوع السكان في الدولة السورية مصدر قلق للحكومة الجديدة. كتب الزعيم السنيّ العربي الوطني **جميل مردم بك** حينها أنّ الأقليات شكّلتْ تهديداً مهماً للدولة السورية[4].

أدركت الحكومة السورية الجديدة إمكانية انفصال الأقليات، ولكن يبدو أنها لَمْ تمتلك سياسة واضحة للتعامل مع هذه المشكلة، فمثلاً لَمْ تكن هناك سياسة لتقليل الخوف الطائفي وتشجيع الانتماء والمواطنة. ورغم أنّ العَلَويين قد أخذوا خطوة جريئة نحو اندماجهم في الدولة السورية، إلا أنهم احتفظوا بسوية مرتفعة مِنَ

(1) غوتز نوردبروخ Gotz Nordbruch النازية في سورية ولبنان (Oxon: Routledge, 2009) صفحة 141

(2) لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 348

(3) وينكلر Winckler 2009 صفحة 34

(4) سلمى مردم بك. نضال سورية من أجل الاستقلال 1939–1945 (بيروت، إيثاكا، 1994) صفحة xxiv

العصبية الطائفية التي ثبت أنها كانت حاسمة في حلبة الصراع السياسي الداخلي.

في السنين الأولى مِنْ استقلال سورية انشغلتِ الأقليات بتحسين فرصـــهم في الدولة الجديدة، وتمّ تجنب الأفكار الانفصالية[1]. كان الجيش هو المصدر المضمون الوحيد للحصول على دخل بالنسبة للعَلَويين الفقراء[2].

الجدول 4: تَوَزُّع الطوائف الدينية في الدولة السورية (إحصاء 1947)

الطائفة	% من السكان	العدد
العَلَويون	11.2	339,466
السنّة	70	2,121,662
المسيحيون	10	303,094
الاسماعيليون والدروز	< 5	< 151,547
المجموع	100	3,030,946

المصدر: وينكلر Winckler 2009، 1989، ريفا Reeva 2003، الإحصاء السوري 1947.

انضم كثيرٌ مِنَ العَلَويين إلى القوات الخاصة خلال الانتداب الفرنسي، وهـــي وحدة عسكرية استعمارية لعبتِ الدورَ الرئيسي في إخماد الثورة الوطنية، ولذا فقد ظلّتْ صبغة التآمر ملتصقة بالطائفة العَلَوية. وقد تمّ تخفيض عدد القوات الخاصة مِنْ 7000 جندي سنة 1947 إلى 2500 جندي سنة 1948. وأُلغيت الوحدات العَلَوية، مثل كتيبة الساحل. وعندما تمّ جلاء الفرنسيين عن سورية سنة 1946، غادر معهم 500 عَلَوي مِنْ كتيبة الساحل بصفة مرتزقة[3]. لا شك بأنّ العَلَويين لمْ يســتفيدوا بعد استقلال سورية مِنْ وجودهم في القوات الخاصة، بل ربما تضرروا مِنْ ذلك في الغالب.

(1) زيادة 2011 صفحة 16

(2) حنا بطاطو، ملاحظات حول الجذور الاجتماعية للفئة العسكرية الحاكمـــة وأســـباب سيطرتها. مجلة *Middle East Journal*, Vol. 35, No. 3 (1981) صفحة 341-342

(3) بو نقلي 1993 Bou-Nacklie صفحة 652. انظر أيضاً: بو نقلي: المرتزقة السوريون في فرنسا الأفريقية. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol.27, No.4, (Oct. 1991) صـــفحة 654-667

ضُمَّت بقية القوات الخاصة إلى الجيوش الوطنية الجديدة في سورية ولبنـــان. وظلّ للعَلَويين تواجدٌ هام في الرتب الدنيا للجيش السوري، الذي بلغ عدده ســنة 1945 أقل مِنْ 10,000 مقاتل، وارتفع إلى 12,000 مع بداية الحرب في فلســـطين 1948-1949[1]. الكلّياتُ العسكرية السورية التي كانت مغلقةً أمـــام العَلَـــويين الفقراء غير المتعلمين خلال الانتداب، أصبحتْ مِنَ الأبواب القليلة المفتوحة أمام الشباب العَلَوي للصعود والتقدم[2]، فانتسبوا إليها بأعداد كبيرة[3].

كان الجيش السوري سنة 1945 في حالة سيئة مِنَ الناحية التنظيمية، وكـــان يَفتقر إلى المعدات واللوازم والذخيرة. طلبتِ الحكومة السورية مِنَ الولايات المتحدة الأمريكية التدريبَ والمعدات والسلاح، وكانت أول دولة عربية تفعـــل ذلـــك[4]. وبعد المداولة رفضت الولايات المتحدة ذلك الطلب تجنباً لإزعاج الفرنسيين. وظلّ الجيش السوري غير منظم وسيئ التسليح، وبدون تنظيم احترافي منضبطٍ أصبح الجيش السوري مُعرَّضاً لتشكل التجمعات والانقسامات فيه. ويمكن التنبؤ بأنه لو أرسل الأمريكان بعثات عسكرية إلى سورية في 1945-1946 فربما كان مِنَ الممكن تجنب حدوث سلسلة الانقلابات العسكرية التي بدأتْ في 1949، وربما اختلف دورُ الجيش في السياسة السورية. وربما تكون المقارنة بين الجيشين التركي والســـوري مفيدة في توضيح ذلك[5]. يجب أيضاً الأخذ بعين الاعتبار تأثير حـــرب فلســـطين 1948-1949 في تسييس الجيوش العربية[6]. وفي النهاية فقد كان للتواجد العَلَـــوي

(1) عاموس بيرلموتر Amos Perlmutter من الغياب إلى الحكم: الجيش السوري وحزب البعث. مجلة *The Western Political Quarterly*, Vol.22, No.4, (Dec, 1969) صفحة 830

(2) بيرلموتر Perlmutter 1969 صفحة 830

(3) بطاطو 1981 صفحة 342، بطاطو 1999 صفحة 158، إليزعـــر بـــيري Eliezer Be'eri ضباط الجيش في السياسة العربية والمجتمـــع. (New York: Praeger Publishers, 1969) صفحة 336

(4) جيمس ملكي James A. Melki: سورية ووزارة الخارجية 1937-1947، مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 33, No. 1 (Jan., 1997) صفحة 102-103

(5) لا يُقصد بذلك أن الجيش التركي لم يتدخل في السياسة التركية، ولكن الجيش التركي كان دائماً يُعيد السلطة إلى المدنيين بينما لم يفعل الجيش السوري ذلك.

(6) عاموس بيرلموتر Amos Perlmutter من الغياب إلى الحكم: الجيش السوري وحزب البعث. مجلة *The Western Political Quarterly*, Vol.22, No.4, (Dec, 1969) صفحة 830

المكثف في الجيش السوري المُسيَّس دور هام في خلق الظروف المواتية لتحريك العصبية الطائفية العَلَوية.

في الدائرة السياسية المَدَنية للدولة السورية الجديدة، كانت الأغلبية السنّيّة جاهزة للتعايش مع العَلَويين طالما أنهم لا يتخطون حدودهم في تهديد وحدة الدولة. وقد انتهت السيرة المثيرة **لسلمان المُرشِد** مثلاً بشكل مفاجئ سنة 1946 عندما تمّ إعدامه في دمشق بيد الحكومة السورية الجديدة عندما شكّل تهديداً لوحدة سورية[1]. أُعدِم **المُرشِد** بحجة تهديد الوحدة الوطنية، إلا أنّ ذلك أثار المُرشِديين الذين لمْ يغفروا للمسؤولين السوريين، وأغلبهم مِنَ السنّة، جريمة قتله. ربما كانت عصبية الطائفة المُرشِدية في ذلك الوقت أقوى مِنْ عصبية الفئات العَلَوية الأخرى، وظهر ذلك واضحاً عندما حاول **مجيب ابن المُرشِد** إشعال ثورة مُرشِدية سنة 1952[2].

كانت الساحة السياسية بالنسبة للعَلَويين بشكل عام في أواخر الأربعينيات مِنَ القرن العشرين ساحةً حيوية ومثيرة، وظهرتِ الأمور وكأن كل شيء يمكن أنْ يتحقق. بدأ العَلَويون بالنزول مِنَ الجبال الساحلية في جماعات للبحث عن فرص مستقبل وحياة أفضل، ولكن اختيار العودة لمْ يُقطع أبداً[3]. ظهر شخص مهم للعَلَويين في تلك الفترة، وللمفارقة فقد كان رجلاً سنيّاً مِنْ حماة هو **أكرم الحوراني**. لعِبَ **الحوراني** مِنْ خلال حزبه العربي الاشتراكي دوراً رئيسياً في تحقيق الأهداف السياسية لطبقة الفلاحين مِنْ كافة الطوائف، وأصبح نقطة تركيز في سعي العَلَويين لتحقيق أهدافهم الاجتماعية والسياسية[4].

(1) غيتا يافي Gitta Yaffe ويوريل دان Uriel Dann سلمان المرشد: بدايات زعيم عَلَوي. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 29, No. 4 (Oct., 1993) صفحة 638. انظر أيضاً لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 344 لوصف نهاية سلمان المرشد.

(2) محمود فقش: الطائفة العَلَوية في سورية: قوة سياسية صاعدة. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol.20, No.2 (April 1984) صفحة 139

(3) لاحظ المؤلف خلال عمله الميداني سنة 2009 و2001 أن العَلَويين قد استمروا بالعيش بطريقتين: العمل في المدينة والحياة الزراعية المحدودة في قراهم بالجبال الساحلية.

(4) سيل Seale 1988 صفحة 66

بدأ جيل جديد مِنْ شباب العَلَويين المتعلم ينخرط في غمار السياسة الوطنية في الفترة الأولى بعد الاستقلال. ففي عام 1939 سَمَحَ الفرنسيون لتركيا باقتطاع لواء اسكندرون الذي كان يضم نسبة هامة مِنَ الأتراك. ولكن عرب لواء الاسكندرون، وكذلك العَلَويين منهم، كانوا مستائين مِنْ فصلهم عن الأمة العربية[1]. هاجر كثير منهم إلى سورية، وكان بينهم مدرس عَلَوي اسمه **زكي الأرسوزي** (توفي 1968)[2]. تأثر **الأرسوزي** كثيراً باقتطاع لواء اسكندرون عن الأمة العربية، وشعر أنّ اللغة والثقافة العربية قد أصبحت مهددة[3]. دفعه ذلك إلى تأسيس حزب في دمشق تحت اسم: البعث العربي، انطلق به بخمسة أعضاء[4]. كانت رسالته قريبة جداً مِنْ رسالة مؤسسَي حزب البعث: **ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار**[5]، الذي طرح رسالة قومية عربية علمانية، أو نهضة عربية تستند إلى اللغة العربية. هل كان **الأرسوزي** هو المؤسس الحقيقي للبعث؟ تلك نقطة خلافية. في أواخر حياته انسحب بغموض وتوفي فقيراً، ولكن يرجع الفضل إليه في انضمام كثير مِنَ العَلَويين إلى حزب البعث[6]. بعد انسحاب **الأرسوزي** مِنَ الحياة السياسية، برز عَلَوي آخر هو **وهيب الغانم**، وكان

(1) حسب إحصاء 1933، كان عدد العَلَويين العرب في لواء اسكندرون 54,000، بالمقارنة مع عدد العرب السنّة الذي بلغ 20,400، وعدد الأتراك (وأغلبهم من السنّة) حوالي 70,800 نقلاً عن لونغريغ Longrigg 1958 صفحة 238

(2) انظر كيث واتنباو Keith D. Watenpaugh: خَلْق الأشباح، زكي الأرسوزي، أزمة لواء اسكندرون، ونشوء القومية العربية الحديثة في سورية. مجلة *International Journal Of Middle East Studies*, Vol. 28, 1996 صفحة 363–389

(3) الشيخ نصير إيزكيوكاك Nasir Eskiocak في مقابلة مع المؤلف بأنطاكية 29 مارس 2011. ذكر الشيخ أيضاً شخصين آخرين مهمين هاجرا إلى سورية وهما: حسن جبرا، الذي أصبح جزءاً من حكومة حسني الزعيم فيما بعد، والشيخ نصر الدين سيفا.

(4) نبيل كيلاني: نشأة حزب البعث السوري 1940–1958: النجاح السياسي والفشل الحزبي. مجلة *International Journal of Middle East Studies*, Vol.3, Issue.1 (January (1972) 3-4

(5) غوردون توري Gordon Torrey، البعث: النظرية والتطبيق. مجلة Middle *East Journal*, (Vol. 23, No. 4 (Autumn, 1969) صفحة 445

(6) جاسم عبد الغانم: العراق وإيران، سنوات الأزمة، (Sydney: Croom Helm, 1984) صفحة 27

طبيباً مِنَ اللاذقية ورفيقاً **للأرسوزي**، ولعبَ دوراً هاماً في انتشار عضوية البعث بين العَلَويين في منطقة اللاذقية[1]. في تلك المرحلة اندمج طرفا البعث مع بعضهما. وفي أواخر أربعينيات القرن العشرين، كان **للغانم** تأثير سياسي عميق على طالب شاب عَلَوي لامع مِنَ القرداحة، مِنْ عشيرة الكلبية، اسمه **حافظ الأسد**[2].

تطورت الظروف السياسية بشكلٍ مناسب بالنسبة لشاب عَلَوي مثل **حافظ الأسد**. كانت الفترة التي استمرتْ قروناً مِنَ الانعزال والاضطهاد قد أصبحتْ عهوداً مضتْ وانقضتْ، وتاق هذا الجيل الجديد إلى حياة أفضل مِنْ حياة أجدادهم. بدأ العَلَويون القرويون النازلون مِنَ الجبال الساحلية بحيوية ونشاط في التخلص مِنَ الإرث المتراكم القديم للتعصب السنّيّ. وبدا كأنما هناك سقفٌ مِنَ الزجاج في المجتمع السوري يحول دون طموح العَلَويين أمثال **حافظ الأسد**. وعلى كلٍ ففي السنوات الأولى بعد استقلال سورية، لمْ توجد إشارات واضحة لحراك هام في عصبية العَلَويين. انحدر العَلَويون مِنَ الجبال لكي يتعاملوا مع المجتمع السوري العام الذي انفتح أمامهم لأول مرة منذ أيام الحمدانيين. ولكن محاولاتهم للاندماج جاءت في سياق تحيز سنّيّ مستمر، وكان ذلك عاملٌ ساعد العشائر العَلَوية المتفرقة على التجمع والاتحاد كطائفة.

الانزلاق نحو الطائفية

في خمسينيات القرن العشرين أصبح التوتر بين الشباب الريفي العَلَوي والمجتمع المستقر في المدن "المسلمة" حلب ودمشق أكثر وضوحاً. يوضح رسم كاريكاتوري عنوانه: "أولئك مَنْ يحتقرهم الناس"، ذلك التوتر، ويقدم تحذيراً للقادمين مِنَ الأرياف بسبب سلوكهم في المدن الأكثر تحضراً (انظر الشكل 6)[3]. نظرة الاستعلاء هذه التي

(1) ميشيل فان دوسن Michael van Dusen: الاندماج السياسي والإقليمية في سورية. مجلة *Middle East Journal*, Vol. 26, No.2, (Spring 1972) صفحة 133

(2) باتريك سيل Patrick Seale: أسد سورية: الصراع على الشرق الأوسط. (London, I.B Taurus, 1989) صفحة 34، 27

(3) رسم كاريكاتوري من مجلة وزارة الدفاع السورية: مجلة الجندي، عدد 1 سبتمبر 1955، أعاد نشره كيفين مارتن Kevin Martin: الفلاحون في سورية. مجلة *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 41 (2009) صفحة 4

نظر بها العرب السنّة مِنْ سكان المدن نحو المهاجرين مِنَ الأرياف، الذين شملوا أيضاً السنّة والأقليات، تدل على عقلية لمْ تتفهم جيداً أنّ هؤلاء القرويين يمكن أنْ يشكّلوا خطراً أو تهديداً للنظام السياسي الطبيعي الذي وَضَعهم بحق في أعلى المراتب[1]. إذ طالما اعتُبر الجيش مهنة الطبقات الدنيا والأعراق المختلفة، مثل الترك والأكراد، الذين كانوا في الغالب مِنَ السنّة، وبالتالي كانت لديهم مصلحة بالمحافظة على الوضع القائم في المدن فيما يتعلق بطبقات تجار المدن والفئات الدينية. ويمكن القول في هذه المرحلة مِنْ تاريخ سورية أنّ عصبية العرب السنّة مِنْ سكان المدن كانت منخفضة، فقد كان لديهم قليل مِنَ العوامل اللازمة للوصول إلى عصبية قوية وفق نظريات **ابن خلدون**[2].

الشكل 6: صورة كاريكاتورية "أولئك مَنْ يحتقرهم الناس"

هؤلاء يحتقرهم الناس

* الذي يركض من مكتب الى مكتب ليتحدث بأمور تافهة فيعطل اعمال الموظفين.

* الذي يجلس في مقهى او مكان عام ويتحدث بصوت مرتفع وبكلمات نابية تثير اشمئزاز الحاضرين.

* الذي يأكل في الطريق العام ليبرهن على ان الانسان «حيوان ناطق».

* الذي يتهم زوجته في الطريق العام وامام الناس ليدلل على «رجولته».

تصوير كاريكاتوري في مجلة الجندي، عدد 1 سبتمبر 1955. وزارة الدفاع السورية

(1) لم يستطع الضابط السنّيّ أمين الحافظ أن يقدر مكائد الأقليات من مرؤوسيه، وهذا مثال جيد على هذه الظاهرة. أطلق مارتن سيمور Martin Seymour على ذلك اسم: "ظاهرة قيصر-بروتوس" في مقالة: ديناميكيات السلطة في سورية منذ الانفصال عن مصر. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 6, No. 1 (Jan., 1970) صفحة 37

(2) دانييل بايبس Daniel Pipes استيلاء العَلَويين على السلطة في سورية. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 25, No. 4 (Oct., 1989) صفحة 441

وبشكل معاكس، كان العَلَويون الذين تمتعوا بعصبية قوية مع مجموعات عشائرهم قد بدؤوا بتطوير عصبية طائفية مشتركة. حدث ذلك نتيجة تعرضهم المتزايد للمجتمع السوري الأوسع، مما أدى إلى زيادة وعيهم بهويتهم ومصالحهم المشتركة.

لمْ يكن العَلَويون أول مَنْ أظهر عصبية قوية في الدولة السورية الناشئة، فبعد الفشل العسكري ضد إسرائيل في 1948، عانَت القيادة السياسية المدنية مِنْ غضب الجماهير، وفي 1949 قام الزعيم الكردي **حسنيّ الزعيم** بانقلاب عسكري وأصبح رئيساً للجمهورية[1]. وحسب **غوردي تيجيل** حاول **الزعيم** تحريك وتوظيف العصبية القومية الكردية بالإضافة إلى الوطنية القومية السورية في دعم حكمه[2]، لأن مصالح الأكراد غير العرب يمكن أنْ تتحقق بشكل أفضل على يد حاكم سوري غير عربي، ولأن أكثريتهم مِنَ المسلمين السنّة، لمْ يكن لدى الأكراد مشكلة في ربط أنفسهم بالأكثرية الطائفية السنيّة في سورية. إلا أنّ انتصار القومية العربية أدى إلى تهميشهم.

كان الحزب القومي السوري الاجتماعي الوسيلة السياسية الرئيسية بالنسبة للأكراد، فقد توافقتْ سياسته القومية السورية مع مصالحهم الخاصة. كما انجذب العَلَويون والمسيحيون إلى ذلك الحزب بسبب أهدافه العلمانية والاجتماعية، ورغبته باندماج الفئات والطوائف المتعددة في ظِلّ راية سورية واحدة[3]. كما أنّ العَلَويين أدركوا أنهم لن يكونوا أقلية هامشية ضمن هوية قومية تحدها أرض سورية، بينما ضمَّت القومية العربية منطقة جغرافية واسعة بأكثرية ساحقة مِنَ السنّة، الأعداء التقليديون للعَلَويين. وجّه انهيار الحزب القومي السوري بعد سنة 1955 وانتصار

(1) كيث واتنباو Keith Watenpaugh أن تكون معاصراً في الشرق الأوسط: الثورة والقومية والاستعمار والطبقة الوسطى العربية (New Jersey: Princeton University Press, 2006) صفحة 299. مارتن سيمور Martin Seymore ديناميكيات السلطة في سورية منذ الانفصال عن مصر. مجلة Middle Eastern Studies, Vol. 6, No. 1 (Jan., 1970) صفحة 43

(2) تيجيل Tejel 2009 صفحة 46-49

(3) فان دوسن Van Dusen 1972 صفحة 132

القومية العربية ضربةً قاصمة إلى آمال الأكراد على المدى البعيد[1]، في حين احتفظ العَلَويون بمساحة أكبر للحركة السياسية، فبسبب أصولهم العربية، كان مِنَ الممكن أنْ يحتويهم حزب البعث ضمن الأكثرية العرقية السورية وفق نظرته العلمانية للقومية العربية. وهكذا منذ انهيار الحزب القومي السوري انضمّتْ أعداد متزايدة مِنَ العَلَويين إلى حزب البعث. تركّزت الأفكار الأساسية للبعث في العلمانية المتشددة والاشتراكية. كانت المقدمة الأساسية للحزب هي أنّ اللغة العربية تُحدد هوية الأمة، مما منحها صبغة مقدسة. وبينما التزم الحزب بالعلمانية، فقد اعترفَ بالإسلام خاصة لأنه احتوى في القرآن وفي تراثه العربي جَمالَ اللغة العربية. وكانت القومية العربية هي التعريف الهام الآخر في أيديولوجية البعث، وهدفه الأمثل هو التوحيد السياسي لجميع الناطقين باللغة العربية[2].

رغم اتجاهات البعث العلمانية الأساسية إلا أنّ العَلَويين لمْ يقتصروا في اختيارهم على العلمانية للوصول إلى الأمن في المجتمع السوري، فقد استمروا في استراتيجية موازية بتقديم أنفسهم كمسلمين تقليديين في خمسينيات القرن العشرين. في سنة 1952 نجح بعض زعماء مشايخ العَلَويين في طلبهم مِنْ مفتي الجمهورية

(1) في أغسطس 1962 أعلنت سورية اسم "الجمهورية العربية السورية" وحَرَمَ الإحصاء السكاني التالي 120,000 كردي من جنسيتهم السورية. تيجيل Tejel 2009 صفحة 50. انظر: دانييل بايبس Daniel Pipes السياسات المتطرفة وحزب البعث العربي الاشتراكي. مجلة International Journal of Middle East Studies, Vol. 20, No. 3 (Aug., 1988) صفحة 303-324

(2) غوردون توري Gordon Torrey البعث: النظرية والتطبيق. مجلة Middle East Journal, Vol. 23, No. 4 (Autumn, 1969) صفحة 445-470. أولريكه فرايتاج Ulrike Freitag الحقيقة التاريخية: حزب البعث في سورية. مجلة Middle Eastern Studies, Vol. 35, No. 1 (Jan, 1999) صفحة 1-16. نبيل كيلاني: نشأة حزب البعث السوري 1940-1958: النجاح السياسي والفشل الحزبي. مجلة International Journal of Middle East Studies, Vol. 3, Issue. 1 (January 1972) صفحة 3-23. مالكولم كير Malcolm Kerr حافظ الأسد وتغير أنماط السياسة السورية. مجلة International Journal, Vol. 28, No. 3 (Summer 1973) صفحة 689-706. عاموس بيرلموتر Amos Perlmutter من الغياب إلى الحكم: الجيش السوري وحزب البعث. مجلة The Western Political Quarterly, Vol.22, No.4, (Dec, 1969) صفحة 827-845

السورية لكي يعترف بهم كجزء مِنَ الطائفة الشيعية الإثني عشرية[1]. ثم في سنة 1958 صدرتْ فتوى تاريخية مِنَ الجامع الأزهر في القاهرة تعترفُ بالشيعة الإثني عشرية كفئة دينية صحيحة. وَضعتْ هذه القرارات، بالإضافة إلى فتوى **الحسيني** سنة 1936، العَلَويين إسمياً تحت جناح الإسلام، وجعلتهم في وضع سياسي أفضل في الدولة السورية ذات الأغلبية السنيّة، كما كانت هذه الأمور بالإضافة إلى صعود حزب البعث في السياسة السورية، خطوة هامة نحو تقليل خوف الطائفة العَلَوية.

كانت خمسينيات القرن العشرين فترة مضطربة في السياسة السورية حين كانت الفئات والطوائف والأفراد يسعون لتحقيق مصالحهم. وبعد الانقلاب العسكري سنة 1949، حاول العرب السنّة استعادة دورهم في الجيش بعد أنْ ظَهر واضحاً أنّ الجيش هو الطريق الوحيد الناجح للوصول إلى السلطة السياسية. ولكن ضعف العصبية لدى العرب السنّة قيّد حركتهم نحو تشكيل جبهة موحدة. وأدّت التسريحات القاتلة المتكررة لكبار الضباط السنيّين إلى استنزاف وجودهم في الرتب العسكرية العليا، وبدأ أفراد مِنَ الأقليات بالدخول إلى الرتب المتوسطة في الجيش. وفي 1963 شكّل العَلَويون 65% مِنْ ضباط الصف، ونسبة أكبر مِنَ الجنود[2]. كان ذلك أقصى ما يمكن أنْ يصل إليه أفراد مِنْ غَير السنّة في الظروف الاجتماعية السائدة. في أواخر الخمسينيات بدأ بعض ضباط الأقليات مِنَ الرتب المتوسطة بالشك في الوضع السياسي السوري الراكد، وأخذوا يتعاونون معاً في السر وراء الكواليس.

انضمّتْ سورية إلى مصر في الجمهورية العربية المتحدة سنة 1958، وكانت تلك خطوة أولى نحو تحقيق هدف البعث الرسمي في الأمة العربية الواحدة، ولكنها كانت بالنسبة إلى العَلَويين الذين انضموا إلى حزب البعث تحقيقٌ للجانب السيئ مِنْ سياسة الحزب نحو مصالحهم، فقد أصبحوا الآن جزءاً مِنْ جسمٍ سياسي أكبر مع أغلبية سنيّة

(1) إيفيت تلحمي Yvette Talhamy الفتاوى والنُصيرية/العَلَوية في سورية، مجلة دراسات الشرق الأوسط، الجزء 46، العدد الثاني 2010 صفحة 187

(2) حنا بطاطو، ملاحظات حول الجذور الاجتماعية للفئة العسكرية في سورية وأسباب سيطرتها. مجلة الشرق الأوسط. الجزء 35 العدد 3 (صيف 1981) صفحة 341

ساحقة. كانوا يُشكّلون في سورية أقلية مِنْ 11%، ولكن في الجمهورية العربية المتحدة أصبحوا فجأة أقلية ضئيلة في بحر مِنَ المسلمين السنّة[1]. كما أنّ المسؤولين المصريين أخذوا بالتدخل في استقلالية العَلَويين في مناطقهم الجبلية وفيما جاوَرَهم مِنْ منطقة الغاب، مثلما فعلوا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر[2]. أدى تأسيس الجمهورية العربية المتحدة إلى حَلّ حزب البعث، مما حرم العَلَويين مِنْ وسيلتهم الرئيسية لتحقيق مصالحهم السياسية[3]. وباختصار كان العَلَويون سعداء بالسير مع نظريات البعث، ولكنْ لَمْ يكنْ تحقيقها بشكل كامل مِنْ مصلحتهم. ورغم أنّ العَلَويين كعرب كانوا ضمن الأكثرية العربية في الجمهورية العربية المتحدة، إلا أنّ شبح تاريخهم الطويل مِنَ الاضطهاد على يد السنّة حالَ دون شعورهم بالحماس الحقيقي للقومية العربية[4]. كانت سورية بالنسبة لهم ساحة سياسية كبيرة لدرجة كافية لكي يتمكنوا مِنْ إنجاز مصالحهم.

خلال فترة الجمهورية العربية المتحدة انتقل عدد كبير مِنَ العسكريين السوريين إلى مصر. بدأتْ مجموعةٌ مِنْ هؤلاء الضباط، وكان جميعهم مِنَ الأقليات السورية، بعقد اجتماعات لبحث السياسة السورية، ومزايا الجمهورية العربية المتحدة، واحتمالات مسارات العمل. عُرفتْ هذه المجموعة فيما بَعد باسم اللجنة العسكرية، وستلعب دوراً هاماً في أحداث السنين التالية. كان أغلب أعضاء اللجنة مِنَ العَلَويين، بمَنْ فيهم أكثر الأعضاء نفوذاً **صلاح جديد** و**حافظ الأسد** و**محمد عمران**، بينما كان العضوان الآخران مِنَ الاسماعيليين[5]. حاول بعض الباحثين

(1) مارتن سيمور Martin Seymour: ديناميكيات السلطة في سورية منذ الانفصال عن مصر. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 6, No. 1 (Jan., 1970) صفحة 39

(2) أمثلة على المخططات الزراعية المصرية في المناطق العَلَوية موجودة في: نيفيل بربور Neville Barbour انطباعات حول الجمهورية العربية المتحدة. مجلة *International Affairs*, Vol. 36, No. 1 (Jan., 1960) صفحة 28

(3) غوردون توري Gordon Torrey البعث: النظرية والتطبيق. مجلة *Middle East Journal*, Vol.23, No.4 (Autumn 1969) صفحة 457-458

(4) إيتامار رابينوفيتش Itamar Rabinovitch سورية تحت حكم البعث، 1963-1966: تعايش الجيش والحزب (Israel Universities Press, 1972)، صفحة 24-25

(5) مارتن سيمور Martin Seymore ديناميكيات السلطة في سورية منذ الانفصال عن مصر. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 6, No. 1 (Jan., 1970) صفحة 39

إثبات أنّ اللجنة العسكرية كانت بداية لتنفيذ مؤامرة عَلَوية مقصودة للاستيلاء على السلطة في سورية[1]. واقترح آخرون أنّ مَنطق أعضاء اللجنة العسكرية كان بسيطاً وهو الانتقام لطوائف الأقليات[2]. واقترحَ مؤلفُ هذا البحث سابقاً أنّ أهدافها استندتْ إلى الطموح الشخصي لأعضائها[3]، وعلى كل حال ربما تقع الحقيقة في مكان ما بين كل ذلك.

تُشير حقيقة أنّ أعضاء اللجنة العسكرية المؤسسين كانوا جميعاً مِنَ الأقليات إلى أنه كان لديهم أهداف مشتركة تتعلق بأوضاع طوائفهم[4]. في الظروف السياسية في أواخر الخمسينيات كان الطموح الفردي محدوداً بحسب الحالة الاجتماعية، وكانت السلطة السياسية الحقيقية بيد العائلات السنيّة الأرستقراطية مِنْ سكان المدن وضباط الجيش السنيّين[5]. بالنسبة لأعضاء اللجنة العسكرية فإنّ انقلاب المراتب السياسية يمكن أنْ يزيل العقبات عن طريق سيرهم نحو تحقيق طموحاتهم السياسية[6]. كانت الأقليات الدينية بشكل عام ضمن أكثر الفئات فقراً في المجتمع، ولذا كانت أهداف اللجنة العسكرية تشمل سعيهم نحو تحقيق ثورة اجتماعية في سورية يمكن أنْ يستفيدوا منها هم وطوائفهم[7]. يدعم هذا الاستنتاج

(1) آني لوران Annie Laurent سورية ولبنان: الأخوّة الكاذبة. مجلة *Politique Ètrangère*, Vol. 48 (1983) صفحة 598. موسى Moosa 1988 صفحة 301-302

(2) مارتن سيمور Martin Seymore ديناميكيات السلطة في سورية منذ الانفصال عن مصر. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 6, No. 1 (Jan., 1970) صفحة 39

(3) ليون غولدسميث Leon Goldsmith البحث عن العَلَويين الجغرافيا السياسية للطائفة العَلَوية في سورية. Honours Dissertation, (unpublished) University of Otago, Dunedin, New Zealand, 2007 صفحة 43

(4) يجب ملاحظة أنه عندما تم توسيع عضوية اللجنة العسكرية إلى خمس عشرة عضواً ضمت ستة من السنّة من خلفية ريفية فقيرة. انظر فان دام Van Dam 1996 صفحة 175

(5) مارتن سيمور Martin Seymore ديناميكيات السلطة في سورية منذ الانفصال عن مصر، صفحة 39. حنا بطاطو ملاحظات عن الجذور الاجتماعية للحكم السوري، الفئة العسكرية وأسباب هيمنتها، مجلة الشرق الأوسط، الجزء 35، (صيف 1981) صفحة 341 Middle East Institute

(6) سيل Seale 1988 صفحة 64

(7) مالكولم كير Malcolm Kerr حافظ الأسد وتغير أنماط السياسة السورية. مجلة *International Journal*, Vol.28, No.3, Summer 1973 صفحة 693. تيجيل Tejel 2009 صفحة 134

حقيقة أنه خلال أول عقدين بعد استقلال سورية بدا أنّ العَلَويين (وطوائف الأقليات الأخرى) لَمْ يصبحوا في وضع أفضل مما كانوا عليه قبل ذلك. أظهر إحصاء السكان سنة 1960 أنّ عدد العَلَويين كان 495,000 نَسَمَة، أو 10.6% مِنْ عدد السكان الكلي، مقارنةً بنسبة 11.2% سنة 1947[1]. كان عدد العَلَويين يتناقص بالنسبة إلى الفئات الأخرى في سورية، مما يدل على نسبة وفيات أكثر ارتفاعاً بسبب انخفاض مستوى معيشتهم. وهكذا لَمْ تُقدِّم فترة الاستقلال والسياسات الوطنية السورية حتى ذلك الوقت أي فائدة هامة للعَلَويين.

في 28 سبتمبر 1961 انفصَلَتِ الجمهورية العربية المتحدة بعد انقلاب عسكري قام به ضباط سوريون بدمشق[2]. كانت تلك صدمة قوية لإيديولوجية القومية العربية، وتحطمت المِهَنية السياسية لكثير مِنَ الزعماء. فمثلاً كان تأثيرُ **أكرم الحوراني** في طبقة الفلاحين كبيراً جداً بحيث كان بإمكانه الوصول إلى سدة الحكم بنفسه لولا أنّ ارتباطه كان وثيقاً بالضباط الذين رتّبوا انفصال الجمهورية العربية المتحدة[3]. كما أنّ **ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار** دفعوا ثمن التداعيات الفكرية لانفصال الجمهورية العربية المتحدة. ولكن اللجنة العسكرية تجنّبت كل علاقة بالذين تآمروا على الانفصال، الذي أدى أيضاً إلى مزيد مِنْ تسريح الضباط السنيّين[4]. أصبحتِ الطريق مفتوحة الآن أمام اللجنة العسكرية للَعب دور رئيسي في السياسة السورية بوضع أنفسهم في مواقع مؤثرة في الجيش وفي حزب البعث.

حدَثَ انقلابُ حزب البعث في 8 مارس 1963، وفتح المجال لتحقيق الثورة الاجتماعية التي ستحسن وضع العَلَويين. عُزِلَتِ العائلات الأرستقراطية السنيّة المدنية عن السلطة، وأصبحتْ طبقة الفلاحين، بما فيهم العَلَويين، مدعومة سياسياً. في البداية وُضِع في واجهة الثورة البعثية بعضُ المفكرين البعثيين السنّة وضابط سنّيّ هو **أمين الحافظ**. ولكنّ الضباط العَلَويين، مثل **صلاح جديد وحافظ الأسد**،

(1) وينكلر Winckler 2009 صفحة 34

(2) أورون إسحق Oron Yitzhak مجلة *Middle East Record*, Vol.2 (Jerusalem: Tel Aviv University, 1961) صفحة 160-161

(3) سيل Seale 1988 صفحة 68

(4) سيمور Seymour 1970 صفحة 35-36

تمكنوا مِنَ السيطرة على زمام الأمور تدريجياً[1] مِنْ خلال سيطرتهم على الوحدات العسكرية التي ضَمَّتْ أكثرية عَلَوية[2]. كان لدى كلٍ مِنْ هذين القائدين إمكانية ترسيخ سيطرته على الطائفة العَلَوية، ولكنْ، هل كانت عصبية الطائفة العَلَوية جاهزة للتفعيل أم لا؟ ذلك سؤال آخر.

ما كان يريده العَلَويون هو الاندماج والمساواة كمواطنين في الدولة السورية. ولكنّ طرق الوصول إلى هذا الهدف لمْ تساعد على تحقيق ذلك. الأهداف المشتركة والوضع الاجتماعي دفعا بالعَلَويين إلى العمل معاً كطائفة. وفي هذا المجال لاحظَ **حنا بطاطو** التعاون الوثيق بين الفئات الريفية والأقليات الدينية في الستينيات قائلاً:



"في سورية... كانت الفئات الفقيرة أو التي كانت سابقاً فئات ريفية فقيرة... تشغل مستوى مِنَ التطور الاجتماعي يختلف عن ذلك الذي شغلته الفئات التي عاشت في المدن فترة طويلة، وتميل إلى التعاون في نشاطاتها السياسية بشكل أوضح مع أفراد مِنْ فئاتها، أو مِنْ طائفتها، أو منطقتها. ولا يرجع ذلك إلى ضيق أفقها، رغم أنّ سلوكها يتسم ببعض ذلك، إنما يرجع إلى أنهم يسلكون السلوك الريفي الطبيعي، أي أنهم يطبّقون منطق وضْعهم الجوهري وتركيبتهم الأساسية"[3].

حسب تفسيرات **بطاطو** لمْ يعمل العَلَويون على التوصل إلى السيطرة الطائفية، بل كانوا يتصرفون كما يتصرف أفراد الريف والمنتمون إلى الفئات "غير المتطورة"، ويتعاونون مع بعضهم أكثر مما يفعل أبناء المدن والفئات "الأكثر تطوراً"[4]. ربما يعود هذا السلوك إلى طبيعة حياة القرية المختلفة، أو ربما يرجع ذلك إلى عدم

(1) كير Kerr 1973 صفحة 694. مارتن سيمور Martin Seymour 1970 صفحة 37

(2) أظهرت دراسة لتركيب وحدات الجيش السوري سنة 1964 أن نسبة العَلَويين في الكتائب المنفصلة تراوحت بين 20% إلى 100%. مارتن سيمور Martin Seymour 1970 صفحة 40

(3) حنا بطاطو، ملاحظات حول الجذور الاجتماعية للفئة العسكرية الحاكمة وأسباب سيطرتها. مجلة *Middle East Journal*, Vol. 35, No. 3 (1981) صفحة 344

(4) يمكن ضم الريفيين السنّة في تعريفات بطاطو، ولكن الأقليات الدينية الريفية كانوا أكثر اعتماداً على بعضهم بسبب خوفهم الطائفي.

معرفتهم بالمدينة، وعدم اختلاطهم بفئات أخرى أثناء عزلتهم السابقة[1]. أو ربما أنّ الشعور بالخوف وعدم الأمان بسبب كونهم أقلية دينية قد دفع العَلَويين إلى التعاون مع بعضهم. وعلى كل حال كانت النتيجة النهائية واحدة مِنَ الناحية السياسية: تعاون وتكاتف أفرادٍ مِنْ فئة اجتماعية معينة مع بعضهم. نظَرت الطوائف والفئات الأخرى إلى ذلك كتصرفٍ مُتعمَّد ومتضافر ومتناسق، فردَّتْ على ذلك بالمثل.

عدم الثقة المتبادل والتردي نحو الطائفية ظهَر واضحاً في تحليل **نيقولاوس فان دام** Nikolaos van Dam لوثائق حزب البعث أثناء أزمة الحزب سنة 1966 التي ضمّتْ بعض المحادثات بين سنّيين مِنْ حماة:

*"عُقِد اجتماع مسائي في منزل النقيب **عبد الجواد**. طُرحتْ وجهات نظر مختلفة تضمنت: تحدَّثتْ زوجة الملازم **غسان حموي** عن تشكيل كتلة عَلَوية. قالتْ إنها تعرفُ امرأة عَلَوية تُشكل جماعات نسائية عَلَوية في منزلها وتضم مُدرِّسات عَلَويات خلال دراستهن... وربما ذكر عبد **الجواد** أو **غسان حموي** أنّ العَلَويين يحاولون السيطرة على الجيش، وأنّ ذلك يجعل تشكيل جماعة مضادة ضرورياً"*[2].

*"قال النقيب **عبد الجواد**: قلتُ له (للرقيب **محمد حسون**) أنْ ينتبه إلى اجتماعات العَلَويين، وبدأتُ حواراً معه حول تَشكّل كتلة عَلَوية. وفعلتُ ذلك أيضاً مع الملازم **غسان حموي** وغيره، وقد ذكر لي أنه قد بدأ بتعيين عناصر أمن مِنَ السنّة..."*.

توضح هذه التقارير ارتياب السنّة بنشاط العَلَويين، ليس فقط في المجال العسكري، كما يَظهر في التعليقات عن نشاط المُدرِّسات العَلَويات. ومِنَ الممكن

(1) أولسون Olsson أوزدالغا Ozdalga ورودفير Raudvere: الهوية العَلَوية: وجهات النظر الثقافية والدينية والاجتماعية. بحث ألفي في مؤتمر عقد في المعهد لسويدي في اسطنبول، نوفمبر 1996. Swedish Research Institute in Istanbul, Trans. Vol.8, 1998، صفحة 181

(2) مقتطفات من ترجمة "التقرير الوثائقي لأزمة الحزب" صفحة 88-93. ملحق B نيقولاوس فان دام Nikolaos van Dam الصراع على السلطة في سورية. New York, St Martin's Press, 1979 صفحة 110-113

أنّ الطالبات العَلَويات قد تجمعن مع بعضهن لأهداف بريئة مثل تلك التي تحـدَّثَ عنها **بطاطو** سابقاً، إلا أنّ قصصاً مثل تلك ظهَرتْ وكأنها تؤكد شكوك السنّة بأنّ العَلَويين يسعون للاستيلاء على السُلطة مِنْ خلال الجيش حيث يعمل كثير منـهم. وعلى العكس مِنْ شكوك السنّة، فربما شعَر العَلَويون بالنفور الذي يُمارَس ضدهم، فلجؤوا إلى الاعتماد على بعضهم والتكاتف أكثر فأكثر. رغم أنّ الطائفية لَمْ يكن لها دور كبير في تمثيل العَلَويين خلال التشنجات السياسية في الستينيات، إلا أنه مِنَ الواضح أنّ السنّة قد تصَوروا غير ذلك، واتَّهموا نظام البعث بالطائفيـة العَلَويـة. وكما بيَّنَ **فان دام**، فإنّ ذلك لَمْ يؤدي إلا إلى زيادة سيطرة العَلَويين على مراكـز السلطة[1].

ملاحظات **بطاطو** عن اختلاف التماسك النسبـي بين الفئات الريفية والمدنية تُقدِّمُ وجهة نظر جديدة لفرضية **ابن خلدون** عن الجماعات الريفية والبدوية الـتي تمتلك العصبية اللازمة لتأسيس دولة أو مملكة. إذ يَرسم المنهج الموصوف هنا بعض الفروق الهامة عن الوصف الأصلي الذي قدَّمَه **ابن خلدون** لمبدأ العصبية. فلمْ يكنْ صعود العَلَويين السياسي نتيجة تحريك مقصود واضح لقدرة الطائفة على الإمساك بالسلطة، بل كان نتيجة لسلسلةٍ مِنَ الأحداث التي بدَتْ عَرَضية ومصادفة، وربما لَمْ يمكن تجنبها بسبب تركيبة الدولة والعلاقات التاريخية للطوائف والفئـات فيهـا، خاصة فيما يتعلق بالخوف والشك وعدم الثقة المتبادَل. وإذا أُخذَ تفسـير **بطـاطو** بعين الاعتبار عن كيفية تعاون وتكاتف الأقليات الريفية مع بعضها، فإنّ تصـوير **فان دام** كيف تؤدي الشكوك الطائفية إلى الطائفية الحقيقية يَرسم صورة تبدو أكثر وضوحاً للطريقة التي نَشأَتْ فيها العصبية الطائفية العَلَوية المتماسكة.

ظهور قائد عَلَوي مسيطر

في سنة 1966 تمّ التخلص مِنْ سيطرة السنّة والمدنيين على حـزب البعـث بانقلاب آخر. عُزِلَ **أمين الحافظ**، وهرب **ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار** مِنَ

(1) نقولاوس فان دام Nikolaos van Dam الصراع على السلطة في سورية. الطبعة الثانية. (London: I.B Taurus, 1996) صفحة 139

البلد[1]. بقي الضابطان العَلَويان **صلاح جديد** و**حافظ الأسد** وحدَهما على قمـة هرم السياسة السورية، ودَعَم موقفهما عناصر العَلَـويين الموجـودين في الرتـب العسكرية في أكثر الوحدات الاستراتيجية[2]. في البداية استلم **صلاح جديد** الدور القيادي، بينما استمر **حافظ الأسد** الأكثر حذراً بنشاطه في الأمـور العسـكرية والأمنية[3]. لَمْ يتسلم **صلاح جديد** الرئاسة المباشرة للدولة، بل استمر في الـتحكم بخيوط القوة والسيطرة مِنْ وراء الأحداث، بينما نُصِّبَ طبيبٌ اسمه **نـور الـدين الأتاسي** رئيساً رسمياً للدولة.

كان **صلاح جديد** (1929–1993) ينتسب إلى عائلة رفيعـة مِـنْ عشـائر الحدادين مِنَ القرية الجبلية دوير بعبدة، على بُعد 20 كم جنوب القرداحة حيـث وُلد **حافظ الأسد**[4]. حسب **باتريك سيل**، كان **صلاح جديد** "*ذكياً واسع الأفق وميوله اليسارية قوية*"[5]. كانتْ ميوله السياسية الأولى نحو الحزب القومي السوري الاجتماعي، ولكن بعد أنْ ساعدَه **أكرم الحوراني** في مسيرته العسكرية تَحـوَّلَ إلى حزب البعث. كان **صلاح جديد** أفضل تأهيلاً مِنْ **حافظ الأسد** كـزعيم وقائـد عَلَوي، فقد كانت عائلته أرفع قدراً[6]، وكان تحالف الحدادين أكبر وأقوى نفـوذاً مِنَ الكلبية. وكَوَّنَ تحالفات خارجية قوية لَمْ يستطع أي قائد عَلَوي تشكيلها قبله.

في سنة 1966 تشجَّع الاتحاد السوفييتي وألمانيـا الشـرقية بفضـل الميـول الاشتراكية الجديدة في النظام السوري، ولعبوا بحماس الدورَ الذي رفضته الولايات

(1) غوردون توري Gordon Torrey، البعث: النظريـة والتطبيـق. مجلـة Middle *East Journal*, Vol. 23, No. 4 (Autumn, 1969) صفحة 468. جاءت الإهانـة الأخـيرة لمؤسسي حزب البعث عندما تحول النصب التذكاري لميشيل عفلق في بغداد إلى سـوق تجاري للجنود الأمريكان، رويترز، بغداد، 20 سبتمبر 2009. وكان عفلق رمزاً للماضي المشترك بين سورية والعراق.

(2) سيمور Seymour 1970 صفحة 40

(3) فان دام Van Dam 1996 صفحة 62–74

(4) المصدر نفسه صفحة 175

(5) سيل Seale 1988 صفحة 63–64

(6) كان والده مفوضاً في منطقة بانياس، وكان جده أحد زعماء تحالف عشائر الحـدادين. فان دام Van dam 1996 صفحة 175

المتحدة الأمريكية سنة 1946. بدؤوا بتمويل مشاريع البنية التحتية الرئيسية، مثل سد الفرات، واستمروا بتسليح الجيش السوري[1]. سيساعد دعم قوة عظمى خارجية في تثبيت المشهد السياسي السوري ويقوي وضع مَنْ يمسك بالسلطة أياً كان.

يتضح في الدراسات والأبحاث المنشورة في ذلك الوقت أنّ وصول العَلَويين إلى السلطة جاء مفاجئاً لمراقبي السياسة السورية[2]. ظلّ اللاعبون المهمون في تحقيق ذلك بعيدين عن الأضواء حتى جاءت اللحظة والظروف المناسبة للظهور. فَضَّل **صلاح جديد** أنْ يظلّ بعيداً عن الظهور، بينما استمر في تطبيق إصلاحاته الاشتراكية المتشددة[3]، وتوجيه قرارات السياسة الخارجية بين 1966 – 1970[4]. أدّتْ هذه السياسات إلى استعداء شرائح كبيرة مِنَ السوريين، خاصة البرجوازيين السنّة مِنْ سكان المدن، إلا أنها قدّمتْ فوائد حقيقية هامة للعَلَويين الذين كانوا أكثر الفئات فقراً وتخلفاً في المجتمع. ولكنّ سياسات **صلاح جديد** شَكَّلتْ على المدى البعيد تهديداً للامتيازات التي حَصَلَ عليها العَلَويون، لأنها أثارتْ ردود فعل قوية لدى جيران سورية ولدى شرائح كبيرة مِنَ السوريين. وفي سنة 1968 انشقّ **حافظ الأسد** عن **صلاح جديد** بعد أنْ لاحظ عملياً أخطار سياسته. سعى **الأسد** لضمان تأييد ودعم الوحدات العسكرية الهامة. وفي فبراير 1969 نجح **الأسد** في ذلك، وأصبح في وضعٍ يسمح له بالتحرك ضد منافسه في قيادة العصبية العَلَوية[5].

(1) مارتن سيمور Martin Seymour 1970 صفحة 41-42. ماسيميليانو ترينتين Massimiliano Trentin التحديث في بناء الدولة: الألمانيتين في سورية 1963-1972. مجلة *Diplomatic History*, Vol. 33, No. 3, June 2009 صفحة 493

(2) انظر مثلاً إليعازر بيري Eliezer Be'eri ضباط الجيش في السياسة العربية والمجتمع. (New York, Praeger, 1969) صفحة 160

(3) كير Kerr1973 صفحة 696

(4) ترينتين Trentin 2009 صفحة 492-493. سيمور Seymour 1970 صفحة 39

(5) حنا بطاطو: الإخوان المسلمون في سورية. *MERIP Reports*, No. 110, Syria's Troubles (Nov. - Dec. 1982) صفحة 19. ترنتين Trentin 2009 صفحة 494. غوردون توري Gordon Torrey: البعث: النظرية والتطبيق. مجلة *Middle East Journal*, Vol. 23, No. 4 (Autumn, 1969) صفحة 445-470، صفحة 469

في سبتمبر 1970 تمّت الإطاحة **بصلاح جديد** بعد تحركه العسكري غير الناجح في الأردن لمساعدة الفلسطينيين[1]. أصبح **حافظ الأسد** الآن القائد الأوحد للعصبية العَلَوية، واستمتع بالدعم الكامل مِنَ الجيش السوري الذي سيطر العَلَويون على أغلب مراتبه الهامة في ذلك الوقت، وأصبحت الأمور جاهزة لتأسيس سلالة حاكمة عَلَوية.

الخلاصة

شَهدت الفترة 1830 – 1970 انقسامات وتغيرات جذرية في الجغرافيا السياسية لمنطقة المشرق العربي. فتح انهيار الامبراطورية العثمانية المجال أمام زعماء وعائلات عَلَوية لكي تبدأ في استغلال العصبية القبلية والطائفية لتحقيق أهداف سياسية. وأظهرتْ تصرفات **اسماعيل خير بك وسلمان المُرشِد** بوادر لما يمكن أنْ يحصل في ظروف مناسبة. بعد زوال الامبراطورية العثمانية، وثمان وعشرين سنة مِنَ الانتداب الفرنسي، حَلّتْ ظروف يمكن أنْ تتمكن فيها مجموعة تتمتع بعصبية قوية، بوجود قائد يستطيع فرض سيطرته، مِنْ قيادة مسار سياسة الدولة. في عشرينيات القرن العشرين بدأ العَلَويون بالنزول مِنَ الجبال والسعي لتحسين أوضاعهم الاجتماعية إما مِنْ خلال التعليم، أو الأحزاب السياسية مثل الحزب القومي السوري الاجتماعي وحزب البعث، أو الانخراط في الجيش. بواسطة هذا المنهج، ونتيجةً لاستمرار التعصب السنّيّ، تطورتْ هويتهم المشتركة ومصالحهم تجاه الأغلبية السنيّة. خفّف ذلك مِنْ أهمية انتماءاتهم القبلية المحدودة، وزاد مِنْ قوة وأهمية الهوية العَلَوية الطائفية المشتركة، أو العصبية.

يَطرح كل ذلك نقطةً تُثير الاهتمام، فقد شهد دخول سورية المستقلة مرحلة نظام الدولة الحديثة انحداراً نحو الخوف الطائفي وعدم الثقة بين الطوائف، مما أدى إلى عودة السياسة **الخلدونية** حيث يستطيع زعيمٌ فَرْضَ سيطرته وقيادته، مع مجموعةٍ تتمتع بعصبية قوية، أنْ يحصل على ميزة سياسية واضحة. وإذا كان الخوف الطائفي هو العامل الرئيسي لظهور مستويات مرتفعة وقوية مِنَ العصبية بين

(1) كير Kerr 1973 صفحة 698-699

العَلَويين، أليس مِنَ المنطقي افتراض أنّ المحافظة على جماعة في حالة تخوف وعدم اطمئنان سيؤدي إلى المحافظة على عصبيتها؟ ربما يَظهر أنّ ذلك سيُشكّل دعماً ثميناً للحاكم أو الملك، وربما يؤدي إلى الالتفاف على الانهيار الحتمي الذي يصوّره **ابن خلدون** في عصبية الجماعة بعد تأسيس المملكة أو السلالة الحاكمة[1]. وإنّ التساؤل عن كيف ولماذا يستمر الخوف الطائفي لدى مجموعة يمكن أنْ يسلط الضوء على دور سياسة الخوف الطائفي في توطيد الاستبداد.

ظَهَرَ واضحاً في سورية المستقلة أنّ العصبية الطائفية عند العَلَويين كانت أقوى مما كانت عند العرب السنّة، وثبت أنّ ذلك كان حاسماً. ورغم أنّ القومية العربية والسورية قد فتحَت المجال لاندماج العَلَويين مع الأغلبية في العقد الأول بعد الاستقلال، إلا أنّ وقائع الاندماج السياسي مع الأمة العربية ذات الأغلبية السنّية كانت مخيفةً للعَلَويين الذين تعرضوا للاضطهاد فترة طويلة. وعلى المستوى القومي السوري أدى عدم اطمئنان العَلَويين، وتعصب السنّة، وعدم الثقة المتبادلة، إلى الانزلاق نحو الطائفية، حتى عندما كانت أغلب الأحزاب تسعى للوصول إلى نظام حكم علماني.

وهكذا، في بداية السبعينيات، وبعد مرور حوالي 900 سنة منذ أنْ لجأ آخر العَلَويين إلى الجبال هرباً مِنَ السلاجقة الأتراك، وَصَلَ أحد العَلَويين إلى قمة الدولة السورية الجديدة. ولكنْ هل وصل العَلَويون أخيراً إلى وضعٍ يستطيعون فيه توجيه المسار السياسي للدولة لتحقيق أمنهم ومصالحهم؟ هل سيستطيع النظام الذي أسسه **حافظ الأسد** أنْ يُحَسّن الوضع الاجتماعي والسّياسي للعَلَويين على المدى البعيد؟ وكيف ستتمكن عائلة **الأسد** في مرحلتها الأولى مِنَ الاحتفاظ بدعم العَلَويين؟

(1) آشوورث Ashworth 2007 صفحة 47

الفصل الخامس

استمرار العصبية العَلَوية لحكم عائلة الأسد

2000-1970

حسب **ابن خلدون**، عندما يكون لجماعة ما زعيمٌ قوي وسوية مرتفعة مِنَ العصبية مقابل الجماعات الأخرى، تكون الظروف السياسية مواتية لتأسيس دولة أو مملكة أو سلالة حاكمة تظهر في تلك الجماعة. وما أنْ تتشكل الدولة حتى تبدأ العصبية التي أَسّستِ الحكم بالتناقص والضعف تدريجياً تحت تأثير عوامل مثل التمدن والترف والانحلال والفساد، مما يؤدي بالتالي لظهور سلالة قوية جديدة تتمتع بعصبية أقوى، تُزيل السلالة المسنّة السابقة. وهكذا إذا غاب الترف والانحلال، وكان التمَدين جزئياً، والفساد خفياً، وكانت العصبية شاملة للطائفة وليست محدودة بقبيلة صغيرة، فهل تستطيع العائلةُ الحاكمةُ المحافظةَ على قوة العصبية اللازمة لاستمرار بقائها وسلطتها؟

يبدو أنّ نظرية **ابن خلدون** تُقدّم تفسيراً جيداً لتاريخ العَلَويين السياسي، وتَطور عصبيتهم الطائفية، وما نتج عنها مِنْ استيلاء **حافظ الأسد** على السلطة، ولكنْ هل بدأت العصبية العَلَوية بالضعف والسير نحو المصير المحتوم وانهيار حكم عائلة **الأسد**؟ ما هي العوامل التي يمكن أنْ تحافظ على مستويات مرتفعة مِنَ العصبية العَلَوية؟ ثم حَسْبَ آراء **ابن خلدون** في نجاح الممالك والدول، فإنّ قلّة عدد الطائفة العَلَوية بالنسبة للأغلبية العربية السنّية، والتنوع السكاني في سورية، تُشكّل تحديات في ضمان الدعم والتأييد لحكم **حافظ الأسد**. فهو يحتاج إلى تأييد واسع مِنَ الطائفة العَلَوية التي كانت منقسمة ومتفرقة، وقد أدرك **الأسد** أهمية ذلك. وفي النهاية، ظلّ الخوف الطائفي هو العامل الرئيسي في المحافظة على العصبية العَلَوية

حتى بعد أنْ أصبحوا الأقلية المسيطرة في سورية[1].

كانت فترة الثلاثين سنة التي حَكَم فيها **حافظ الأسد** فترةً لا مثيل لها في تاريخ العَلَويين، فقد قفزوا مِنَ الجَهالة إلى واسطة عقد السياسة في سورية والشرق الأوسط[2]. ومِنَ المُفارقة أنّ الطائفة العَلَوية قد أصبحتْ أكثر غموضاً بالنسبة للمراقبين الخارجيين خلال حكْم **حافظ الأسد**، وربما يرجع ذلك جزئياً إلى سياسة النظام الذي كان لا يشجع على الأطروحات والأحاديث الطائفية[3]، وكذلك لأنّ **حافظ الأسد** بشخصه أصبح هدفاً وموضوعاً للبحث والتدقيق العالَمي فيما يتعلق بسورية. ولكنّ الطائفة العَلَوية ظلّت العمود الأساسي الذي ارتكز عليه مصير حكم عائلة **الأسد** والدولة السورية.

يرجع استقرار سورية بعد تثبيت حكم **الأسد**، حسب رأي **ريموند هينبوش** Raymond Hinnebusch الباحث في دراسة سورية، إلى الإجراءات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي وَسَّعتْ قاعدة قوة النظام خارج نطاق الطائفة العَلَوية[4]. يمكن اعتبار هذا التقييم صحيحاً فيما يتعلق بنجاح **حافظ الأسد** في ضم عناصر غير عَلَوية إلى نظام توزيع السلطة، مثل بعض الفلاحين السنّيين وطوائف الأقليات الأخرى[5]، وشرائح مِنْ طبقة التجار السنّة (خاصة في دمشق)[6]. ولكن لا يمكن تجاهل أنّ الطائفة العَلَوية ظلّتْ حجر الأساس في نظام سلطته[7]. حسب **ابن خلدون**:

(1) انظر محمود فقش: الطائفة العَلَوية في سورية: قوة سياسية مسيطرة جديدة. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol.20, No.2 (April 1984) صفحة 133–153

(2) إيتامار رابينوفيتش Itamar Rabinovitch: المشهد من دمشق، الدولة والمجتمع السياسي والعلاقات الدولية في سورية القرن العشرين (Edgware: Valentine Mitchell, 2008) صفحة 227

(3) تيجيل Tejel 2009 صفحة 64

(4) ريموند هينبوش Raymond Hinnebusch السلطة الاستبدادية وتشكل الدولة في سورية البعثية: الجيش والحزب والفلاحين. (Boulder: Westview, 1990)

(5) واتينباو Watenpaugh 2006 صفحة 300

(6) تيجيل Tejel 2009 صفحة 58

(7) استخدم أندرو راثنيل Andrew Rathnell اصطلاح "حجر الأساس" لكي يصف أهمية أجهزة المخابرات السورية في نظام الأسد. انظر راثنيل: أجهزة المخابرات السورية: نشأتها وتطورها. مجلة *The Journal of Conflict Studies*, Vol. 16, No.2, (1996)

"لايستطيع حاكمٌ أنْ يصل إلى السلطة إلا بمساعدة قومه، فهم جماعته ومساعدوه في هذا الأمر، وهو يستخدمهم في قتال مَنْ يثور ضد مملكته ودولته. كما يستعملهم في مراكز إدارة الدولة، ويعيّنهم وزراء ومحصّلي ضرائب، وهم يساعدوه في توكيد سلطته وحكمه..." [إعلمْ أنّ صاحب الدولة إنما يتم أمره كما قلناه بقومه، فهم عصابته وظهراؤه على شأنه، وبهم يُقارع الخوارج على دولته، ومنهم يقلد أعمال مملكته ووزارة دولته وجباية أمواله، لأنهم أعوانه على الغَلَب، وشركاؤه في الأمر، ومساهموه في سائر مهماته].

حشَد **حافظ الأسد** العَلَويين على هذا المسار ووظّفهم في المراكز الهامة في الحكومة وفي قوى الأمن، فقد كان لهم الفضل في وصوله إلى قمة السلطة. ولو فَقَدَ نظام **الأسد** دعم العَلَويين فمِنَ المؤكد أنه لَمْ يكنْ ليستمر خلال فترة المعارَضة التي نشطتْ في 1976 – 1982. كما أنّ استقرار سورية بعد 1982 كان نتيجة استخدام القوة المُفرطة التي قامتْ بها وَحَداتٌ عَلَوية ضد أعداء النظام، ومراقبة الشعب اللصيقة الدائمة التي قام بها العَلَويونَ في أجهزة المخابرات. ولكنْ، رغم أنّ العَلَويين كانوا دعائم استقرار نظام **الأسد**، إلا أنّ ذلك لَمْ يجعله نظاماً عَلَوياً.

رغم أنّ عَلَويين مِنْ امثال **صلاح جديد** قد أمسكوا بالسلطة السياسية مِنْ وراء الأحداث، إلا أنّ نظام حكم البعث في سورية لَمْ يُنظَر إليه كنظام عَلَوي إلا بعد 1970. أثار تنصيب **حافظ الأسد** رئيساً للجمهورية شكوكَ السنّة بأنّ العَلَويين قد استولوا على السلطة. ثلاثة عوامل أقنعتْ كثيراً مِنَ السوريين أنّ نظام **الأسد** ينحاز إلى العَلَويين: طَرْحُ دستور سوري جديد في 1973 لَمْ يُذكر فيه أنّ رئيس الدولة يجب أنْ يكون مِنَ المسلمين، ووَضْعُ عَلَويين في مراكز هامة في الجيش والحكومة، ومحاباةُ الأقارب مثل **رفعت الأسد** (أخو **حافظ الأسد**) الذي أثارتْ أفعاله استياءً عاماً ضد النظام. وعلى العكس مِنْ ذلك، كانت وجهة نظر العَلَويين أنّ رد فعل السنّة تجاه الدستور الجديد والعنف الطائفي في الفترة 1976 – 1982 قد أثار مشاعر الخوف عندهم وعدم اطمئنانهم بشأن استمرار التعصب الديني عند المسلمين السنّة.

في الواقع لَمْ يكن النظام عَلَوياً ذا أهداف طائفية واضحة. احتاج نظام **الأسد** إلى العَلَويين لأنهم الدعم الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه، وشعر العَلَويون أنهم

يحتاجون إلى بقاء نظام **الأسد** لئلا يعودوا إلى وضعهم الاجتماعي الرديء، أو خوفاً مِنْ تعرضهم لانتقام سنيّ عنيف. وكما سيتم توضيحه لاحقاً، أصبح مصير الطائفة مرتبطاً بنظام **الأسد** وكأنما بعلاقة **فاوستية** شيطانية إثر أحداث حماة في فبراير 1982. وكانت النتيجة أنّ آمال العَلَويين في التحرر والاندماج التام في المجتمع السوري لمْ تتحقق.

نظرياً كان حُكم **الأسد** يمثل الفرصة التي طال انتظارها لتوجيه الهوية السورية نحو الوطنية السورية، أو القومية العربية، أو نحو إسلام شامل وواسع يضم الجميع. وكل تلك التوجُّهات يمكنُ أنْ تُحسّن وضع العَلَويين السياسي[1]. ولكن وضعَ الأقلية للطائفة العَلَوية ازداد ترسّخاً في تلك الفترة، ويتضح ذلك باستمرار قلقهم وخوفهم مِنَ الأكثرية العربية السنيّة، وترددهم في التخلي عن دعم وتأييد نظام **الأسد**، مما أدى إلى شدّ قبضة عائلة **الأسد** على السلطة. هل أدى وجود أفراد مِنْ طائفتهم في السلطة إلى تحسن أمْ إلى سوء الوضع السياسي والأمني للعَلَويين؟ كما تبيّنَ في الفصل السابق مِنْ هذا البحث، عندما استلم العَلَويون السلطة وتجاوزوا حدود تحمل المسلمين السنّة، كانت ردود الفعل عنيفة وشديدة على الطائفة بشكل عام. وعلى مدى تاريخ العَلَويين، فقد تجاوزوا خلال الفترة 1970 – 2000 كل ما حققوه مِنْ قبل في صعودهم السياسي.

عَلَوي يَحكم فيَ دمشق 1971 – 1976

في بداية سبعينيات القرن العشرين كان وضع العَلَويين يبدو أفضل مِنَ أي فترة سبقتْها في تاريخ الطائفة، حتى في الفترة الحمدانية، لأنّ السياسة العلمانية والاشتراكية التي تبنّاها نظام البعث في الستينيات كانت مفيدة لهم اجتماعياً وسياسياً. كما تَعزّزَ أمنهم باستلامهم مراكز قيادية في الجيش، وفي وصول أحد أفراد طائفتهم إلى القصر الجمهوري بدمشق. دَعَمَ تأييدُ الاتحاد السوفييتي لسورية

(1) تيجيل Tejel 2009 صفحة 83. يقترح أن النظام السوري امتلك القدرة على صنع مستقبل المجتمع السوري. وقال شيفولو Chiffoleau 2006 صفحة 10 أنه قد حان الوقت لكي يتحد المجتمع السوري ويتخلص من عيوبه الطائفية وتكتلاته الاجتماعية.

استقرارَ النظام. وحتى البرجوازية المَدنية السنيّة تعاونتْ إيجابياً مع الوضع السياسي، ورَحبّتْ في البداية بتخفيف **حافظ الأسد** للإصلاحات الاقتصادية المتشددة التي فرَضَها **صلاح جديد**[1]. في ذلك الجو السياسي لا بد أنّ العَلَويين قد شعروا ببعض التفاؤل نحو آفاق مستقبلهم.

كان تعداد العَلَويين في سورية سنة 1970 حوالي 690000 نَسَمَة[2]، أي 11% مِنْ سكان سورية 6,305,000 آنذاك، وهي أكثر مِنْ نسبة 10.6% سنة 1960[3]. يدل هذا التغير الإيجابي في تعداد العَلَويين على انعكاس نقصانهم التدريجي في العقود الأولى مِنْ استقلال سورية، وربما يرجع ذلك إلى تحسن الأحوال المعيشية لسكان الريف تحت حكم البعث. عاملٌ آخر يمكن أنْ يفسر ذلك وهي الزيادة الكبيرة في هجرة السنّة مِنْ سكان المدن المتعلمين ورجال الأعمال بدءاً مِنْ أواخر الخمسينيات بسبب الإصلاحات الاشتراكية. ظلّ العَلَويون قرويين حتى سنة 1970، وكانوا أكثريةً في اللاذقية وطرطوس[4]. ازدادتْ هجرة العَلَويين إلى المدن خلال حكم **الأسد**[5]، وتغيّرت التركيبة السكانية لمدينة اللاذقية بشكل خاص في السبعينيات بسبب هجرة العَلَويين إليها بحثاً عن فرص حياة أفضل، وأصبح سكان اللاذقية مِنَ السنّة والمسيحيين أقلية بعد أنْ كانوا أكثرية.

(1) باتريك سيل Patrick Seale، أسد سورية: الصراع على الشرق الأوسط. (London: I.B. Taurus, 1988) صفحة 317

(2) غوبسر Gubser الأقليات في السلطة: العَلَويون في سورية، تحرير ماك لورين R. D. McLaurin: الدور السياسي للأقليات في الشرق الأوسط. (New York: Greenwood, 1979) صفحة 17–18

(3) أون وينكلر Onn Winckler الديموغرافية السياسية للعرب: نمو السكان وهجرة العمال والسياسة القومية. الطبعة الثانية. (Eastbourne: Sussex Academic Press, 2009) صفحة 33–34

(4) تورد أولسون Tord Olsson الباطنية في سكان الجبال والمدن: ديانة العَلَويين السوريين أو النُصيريين. في بحث أولسون عن: الهوية العَلَوية: وجهة نظر ثقافية ودينية واجتماعية. ألقي البحث في مؤتمر عقد في المعهد السويدي في اسطنبول، نوفمبر 1996. ترجمة Swedish Research Institute in Istanbul Trans. Vol. 8, 1998 صفحة 168

(5) وينكلر Winckler 2009 صفحة 62

استمر تدفق العَلَويين إلى دمشق أيضاً، إلا أنّ السنّة والمسيحيين الذين سكنوا دمشق منذ زمن طويل احتفظوا بموقعهم المسيطر في السوق. وضعَ **حافظ الأسد** أكثرية عَلَوية يمكنه الاعتماد عليها في المراكز الحكومية وأجهزة الأمن الضرورية للمحافظة على النظام[1]. بالنسبة للعَلَويين كانت أفضل المصادر للحصول على دخل ثابت هي الجيش والمخابرات والوظائف الحكومية، ولذلك كان هنالك أساسٌ طائفي لتوزع العمل بحيث شَغل السنّة قطاع الاقتصاد التقليدي الخاص، وشَغل العَلَويون أغلب مراكز القطاع العام. ظهرت الأمور وكأن العَلَويين قد تحرروا أخيراً في مجتمع الدولة السورية، إلا أنّ تلك كانت في الحقيقة حالة مفتعلة ظاهرية.

استمر استعداءُ العَلَويين مِنْ جهةِ أغلبية المجتمع السوري، وبدلاً مِنْ اعتبارهم منبوذين ومحتقَرين وزنادقة ورجال جبال أفظاظ، أصبحتِ النظرة إليهم كجنود خطرين أو رجال مخابرات في زوايا الطرق، أو بيروقراطيين مكروهين في دوائر الحكومة. كما أنّ السكان الأصليين في دمشق وحلب واللاذقية لَمْ يُرحّبوا بدخول الفقراء المتخلفين مِنَ العَلَويين (والأقليات الأخرى) إلى مُدنهم المسلمة الأبيّة[2]. رغم كل ذلك فإنّ استمرار الطائفية في السياسة السورية في السبعينيات لَمْ تكن حالة تريدها أغلب الطوائف والفئات، ولا شك بأنّ العَلَويين كانوا يفضّلون تراجع الطائفية في السياسة، فقد كان ذلك أساس انجذابهم لحزب البعث وإلى العلمانية بشكل عام.

إذا كانت أهداف العَلَويين الأساسية تستند إلى تحررهم واندماجهم في الدولة السورية اجتماعياً وسياسياً، فهل كان زعماؤهم يشاركونهم هذه الأهداف، ويساعدون طائفتهم على تحقيقها؟ كيف يمكن تعريف **حافظ الأسد**؟ كان **حافظ**

(1) حنا بطاطو، ملاحظات عن الجذور الاجتماعية للحكم السوري، الفئة العسكرية وأسباب هيمنتها، مجلة الشرق الأوسط، الجزء 35، (صيف 1981) صفحة 332

(2) كريستا سالاماندرا Christa Salamandra: استهلاك دمشق: الثقافة العامة وتشكل الهوية الاجتماعية. في أرمبراست W. Armbrust إصلاح الجماهير: أساليب جديدة في الثقافة العامة في الشرق الأوسط وما بعده. (Berkeley: University of California Press, 2000) صفحة 329-336

الأسد في رأي **هنري كيسنغر** سياسياً ماهراً جداً، واقعياً وعملياً في استراتيجيته السياسية[1]. يمكن الاستنتاج أنه لَمْ يكنْ واقعياً إلى درجة التخلي التام عن المثالية. اشترك **الأسد وصلاح جديد** بحَمل مثاليات الإصلاح السياسي العلماني الاجتماعي - السياسي الذي يَصبُّ في مصلحة الفئات الفقيرة والمحرومة مثل العَلَويين[2]. رغم أنّ أسلوب **الأسد** العملي الواقعي قاده إلى الانتصار في صراعه مع **جديد**، إلا أنّ ذلك لا يعني أنه تخلى عن آرائه المثالية، بل أنه فَضَّلَ اتباع طريق مختلفة مِنْ أجل تحقيقها.

طرح **دانييل بايبس** الباحث في شؤون الشرق الأوسط السؤالَ فيما إذا كان الدافع الرئيسي لعَلَويين مِنْ أمثال **حافظ الأسد** هو الإيديولوجية، أم الطموح، أم الطائفية؟ ولكنّ ذلك التساؤل يَفترض خطأً أنّ هذه العوامل يمكن فصلها عن بعضها[3]. وجهة نظر أفضل تنظر إلى هذه العوامل على أنها عوامل متضافرة. قدَّمَ **عبد الحليم خدام**، وهو سنيّ مِنْ بانياس وصديقٌ وزميل للأسد في البعث بمدينة اللاذقية منذ سنة 1946، رؤيةً متوازنةً للعوامل المختلفة التي تؤثر في عقلية **حافظ الأسد** بقوله:

"*كان **حافظ الأسد** مثل شكل مركّب له وجوه عدة، أحد جوانبه كان الجانب العملي الواقعي، فإذا نظرتَ إليه مِنْ تلك الزاوية رأيته عمليّ وواقعيّ. ومِنْ ناحية أخرى يمكنكَ رؤيته كشخص مثالي، ويمكنك القول عن أحد جوانب شخصيته أنه كان رجلاً لطيفاً. ولكن مِنْ ناحية أخرى، الجانب الرابع مِنَ الشكل، أنه كان كثير... مِنْ ناحية محاباة عائلته في تسلم السلطة... لقد بدأ الفساد... في أسرته... وهذا يُخالف جانب مثاليته وواقعيته. وهكذا كان لديه كل هذه الجوانب. كان يستطيع التحدث عن الشعب ومصالح الشعب والأفكار التي يؤمن*

(1) إدوارد شيهان Edward Sheehan كيف فعلها كيسنغر: خطوة خطوة في الشرق الأوسط. مجلة Foreign Policy, No. 22 (Spring, 1976) صفحة 42

(2) نيقولاوس فان دام Nikolaos van Dam الصراع على السلطة في سورية. (London: I.B Taurus, 1996) صفحة 137-138

(3) طرح دانييل بايبس Daniel Pipes هذا السؤال واقترح أن الطائفة هي أهم العناصر في السياسة السورية. انظر بايبس Pipes استيلاء العَلَويين على السلطة في سورية. Middle Eastern Studies, Vol. 25, No. 4 (Oct., 1989) صفحة 446

بها، وكيف أنه سيعمل على مساعدة الشعب. وفي الوقت نفسه كان يَسمح للمقربين أنْ يُصبحوا أكثر قوة، وأنْ يُسيِّروا البلد بالفساد والسيطرة على الجيش. ومِنْ ناحية أخرى كان وطنياً وقومياً، ولم يكترث بكونه مِنْ فئة الأقليات، بل كان يؤمن بتساوي الجميع. ولكنْ كان هناك دائماً ما يدفعه لدعم ومحاباة طائفته[1].

حسب رأي **خدام** فقد كان **لحافظ الأسد** جوانب متناقضة في شخصيته تتداخل فيها الواقعية والمثالية والفساد والطائفية. يدعم هذا الوصف فكرة أنّ نوايا وأهداف **حافظ الأسد** لا يمكن تفسيرها بأي عامل واحد. كان **الأسد** مؤمناً بالعلمانية التي حاول أنْ يُطبِّقها في السياسة السورية مِنْ خلال أسلوبه العملي، ولكنْ لا يمكن تجاهُل حقيقة أنه دعَمَ طائفتَه بطريقة لا يمكن وصفها إلا بأنها نوع مِنَ الطائفية. ورغم أنّ أفكاره العلمانية تتناقض مع الطائفية، إلا أنه لمْ يتمكن مِنْ تثبيت سلطته السياسية في خضم اضطرابات السياسة السورية إلا بالاعتماد على طائفته، أو حسب قول **ابن خلدون**: "*بمساعدة أفراد مِنْ قومه*" [إعلم أنّ صاحب الدولة إنما يتم أمره كما قلناه بقومه، فهم عصابته وظهراؤه].

يَطرح **عبد الحليم خدام** نقطة هامة أخرى عن دور الفساد في عائلة **حافظ الأسد**، فقد كان **لخدام** سبب قوي للشعور بخيبة الأمل، فقد منحَ **حافظ الأسد** سلطات سياسية لأفراد مِنْ عائلته، بينما هو كنائب لرئيس الجمهورية، وأكثر مَنْ لديه الخبرة والتجربة السياسية بعد **الأسد**، فقد كان يتوقع أنْ يصبح رئيساً للجمهورية[2]. ولكنّ ما حدث هو أنّ أفراداً مِنْ عائلة **حافظ الأسد** لعبوا أدواراً متزايدة الأهمية في النظام، خاصة خلال السنين الصعبة في الفترة 1976 – 1982[3]، وكان ذلك يتعلق بشكل خاص بأخيه **رفعت الأسد** الذي أُطلِق له العنان لكي ينقذ النظام في أحلك لحظاته في فبراير 1982[4]. أدّتْ تجاوزات أفراد عائلة **حافظ**

(1) عبد الحليم خدام. مقابلة مع المؤلف. باريس سبتمبر 2009

(2) علّق القاضي ديتليف ميليس Detlev Mehlis على ميزات عبد الحليم خدام كرجل دولة في مقابلة له مع المؤلف في دبلن. ديسمبر 2009

(3) سيل Seale 1988 صفحة 286

(4) حنا بطاطو، الفلاحون في سورية، أحفاد أعيان الريف البسطاء وسياساتهم، (New Jersey: Princeton University Press, 1999) صفحة 237

الأسد إلى توريط الطائفة العَلَوية بشكل عام لأنهم أصبحوا مُتعلّقين بالانطباع العام عن طبيعة حكم العَلَويين.

قدَّمَ الشيخ العَلَوي **نصير إيزكيوكاك** صورة مختلفة عن **حافظ الأسد** بقوله:

"*أذكر أنه في سورية قبل **حافظ الأسد** كان هناك انقلاب عسكري كل ستة أشهر*[1]*. كانوا يؤذون أنفسهم ويتقاتلون ويَسجنون بعضهم بعضا. عندما استلم **حافظ الأسد** السلطة، ضبط سورية في حالة مستقرة لمدة ثلاثين سنة، وكان يعتني بسورية وبمصالحها. ومِنْ ناحية فقد حكَمَ بطريقة ديكتاتورية شديدة ولكن عادلة، كانت لديه سلطة ديكتاتورية ولكنه كان عادلاً... لم يستخدم **حافظ الأسد** الطغيان، بل طَبَّق المساواة والحقوق، وكان الشعب السوري راضياً عنه حتى أنهم استبدلوه بابنه **بشار الأسد**. كان حاكماً تصالحياً ساعد على تحقيق التوازن بين... الحق والمساواة*[2]".

أهم عنصر يمكن أخذه مِنْ هذا التعريف **بحافظ الأسد** هو التأكيد على المساواة والعدل والتصالُح. يبدو ذلك غير متوافق مع الانطباعات العامة عن قبضة **الأسد** الحديدية وحكمه الاستبدادي، ولكنْ مِنْ وجهة نظر عَلَوية، بعد مئات السنين مِنْ عدم المساواة السياسية والتمييز الطائفي مِنْ طرف الأسياد المسلمين السنّة، فإنّ حُكم **حافظ الأسد** يبدو لهم قمة المساواة، وهو موقف يمكن أنْ يحارب العَلَويون دفاعاً عنه.

في المراحل الأولى مِنْ حُكم **حافظ الأسد** ظهرَ وكأن سورية قد رَضيتْ برئاسته. وربما فَهِم العَلَويون ذلك أنه تعبير عن تجاوز وطنية البرجوازية السورية للطائفية. كانت شعبية **الأسد** في بداية حكمه أفضل بكثير مِنْ المثال السابق عن حكم العَلَويين لأغلبيةٍ سنيّةٍ أيام **اسماعيل خير بك** الذي لمْ يتقبله العرب السنّة أبداً. كما أنّ **محمود باشا** اغتيل بسرعة، وتمّتْ إعاقة مجلس نواب الدولة العَلَوية بالمعارَضة السنيّة. ولكنْ ساعدَ **حافظ الأسد** ما أنفقه مِنْ أموال كثيرة لكي يكسَب

(1) لا شك بأن هذه مبالغة لتوضيح وجهة نظره عن عدم الاستقرار السياسي الذي كان سائداً قبل استلام حافظ الأسد للسلطة سنة 1970

(2) الشيخ نصير إيزكيوكاك Nasir Eskiocak مقابلة مع المؤلف في أنطاكية 29 مارس 2011

الهيئات الدينية، خاصة في دمشق، إلى جانبه بإعطائهم التبرعات والهبات السخية[1]. ولكنْ في الغالب، بعد عقدين مِنَ الاضطرابات السياسية الشديدة، رغِبَ أكثر السوريين بالاستقرار، وهو ما يبدو أنّ **حافظ الأسد** كان قادراً على تقديمه.

في سنة 1973 نُشر أول دستور دائم لسورية منذ 1961، وكان ذلك اختبار لوضع العَلَويين في العهد الجديد[2]. قبْلَ وصول **الأسد** إلى الرئاسة، كان المُتعارف عليه في أغلب الأرجاء أنْ يكون الرئيس مسلماً سنيّاً حتى لو كان واجهةً ظاهرية وألعوبة[3]. تحدى وصول **الأسد** إلى رئاسة الجمهورية في 22 فبراير 1971 هذه القاعدة العامة. بل إنّ النسخة الأولية مِنْ هذا الدستور الجديد التي نُشرتْ في يناير 1973، أهملتْ ذِكر أنّ رئيس الدولة يجب أنْ يكون مسلماً[4]. مِنَ الصعب الاعتقاد أنّ ذلك كان قد سقط سهواً عن **الأسد**، الذي كان يسعى بهدوء لتقليل دور الدين في سورية العلمانية الجديدة. بالنسبة للعَلَويين وللمسيحين والأقليات الدينية الأخرى فإنّ قبول الأكثرية للدستور الجديد يعني أنّ العوائق الدينية لاندماجهم الكامل في الحياة السياسية أصبحتْ جزءاً مِنَ الماضي، وأنّ العلمانية قد ترسّختْ في سورية. ولكنّ المظاهرات الجماهيرية الكبيرة التي حدثتْ في أنحاء سورية أثبتتْ أنّ ذلك التقدير لَمْ يكن صحيحاً[5]. قامَت المظاهرات في حلب وحمص وحماة، ونَشَرَ مشايخ دمشق عريضة تُطالب إعلانَ أنّ الإسلام هو دين الدولة. اصطدمت القوات الحكومية بالمتظاهرين في حماة، مما أدى إلى قتل وجرح ستين شخصاً[6]. أثبتتْ هذه الأحداث أنّ الدِّين

(1) رضوان زيادة. السلطة والسياسة في سورية. (New York: I.B. Taurus) صفحة 139–140

(2) سورية توافق على الدستور بنسبة 97.6%. نيويورك تايمز. 14 مارس 1973

(3) الرئيس السوري العسكري: نور الدين الأتاسي. نيويورك تايمز. 23 سبتمبر 1970

(4) إيفيت تلحمي Yvette Talhamy: الفتاوى والنُّصيريون العَلَويون في سورية. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 46, No. 2, 2010 صفحة 189

(5) آلاسدير دريسديل Alasdair Drysdale. نظام الأسد ومتاعبه. *MERIP Reports*, No. 110, Syria's Troubles (Nov. - Dec., 1982) صفحة 8

(6) جوان دى أونيس Juan de Onis الحرية الدينية في الدستور سببت اضطرابات في سورية. نيويورك تايمز. 25 فبراير 1973.

مازال مهماً جداً في سورية البعثية، كما أصبح واضحاً أنّ الأغلبية السنيّة كانت مُتنبهة تماماً بشأن الحالة الدينية المُشتبهة للرئيس **الأسد**. تراجَع **حافظ الأسد** فوراً، وأضاف تصحيحاً إلى النسخة الأولية مِنَ الدستور تَضَمَّنَ أنّ: "*دين رئيس الجمهورية العربية السورية يجب أنْ يكون الإسلام*"[1]. تلك كانت نقطة تحول بالنسبة للعَلَويين. بينما بدأت تيارات العلمانية تتقدم وتَظْهَر في الستينيات، كان المسار العام للطائفة نحو المساواة والاندماج في سورية. ولكنّ رفضَ السنّة للدستور الجديد، الذي يقضي بإنشاء دولة علمانية دون تمييز ديني، ظَهَرَ وكأنه رفض عميق للعَلَويين، مما استثار خوفهم وعدم اطمئنانهم.

أدى رفضُ السنّة إلى تقوية التفاف العَلَويين حول **حافظ الأسد** واعتمادهم عليه في الانتصار للأقليات بقوله: "*الإسلام الحقيقي يجب ألا يَتّسم بضيق الأفق ولا بالتعصب البغيض. الإسلام هو دين المحبة والتقدم والعدالة الاجتماعية والمساواة*"[2]. لَمَسَتْ هذه اللغة جوهر مخاوف العَلَويين بشأن موضعهم في سورية. كان ذلك واضحاً في آراء الشيخ العَلَوي **نصير إيزكيوكاك** الذي وصف **الأسد** بأنه "*كان حاكماً تصالحياً ساعد على تحقيق التوازن بين... الحق والمساواة*".

أصبح التساؤل فيما إذا كان العَلَويون مسلمين أم لا تساؤلاً هاماً، ليس فقط بسبب شرعية رئاسة **الأسد**، ولكن مِنْ أجل اطمئنان العَلَويين أيضاً. اقترحَ حليفُ **حافظ الأسد** المقرَّب منه **عبد الحليم خدام**، وهو سنيّ مسلم، أنه: "*في الدستور السوري يجب أنْ يكون رئيس الجمهورية مسلماً، ليس مسلماً سنّيّاً أو مسلماً عَلَوياً*". يعني أنه لا يوجد تساؤل عن الهوية الإسلامية للعَلَويين. ولكنْ لسوء الحظ بالنسبة للعَلَويين وللشرعية الشعبية لنظام **الأسد**، لَمْ يحمل أغلب السوريين نظرة **خدام** المستقبلية في أوائل السبعينيات. وكان المطلوب هو إثباتات إضافية عن الأصول الإسلامية للديانة العَلَوية. وهنا استلَمَ العَلَويون مساعدةً جاءتهم مِنْ مصدر

(1) نيويورك تايمز: 14 مارس 1973: دستور الجمهورية العربية السورية الذي اعتمد في 13 مارس 1973: الفصل الأول، المادة الثالثة (1) "دين رئيس الجمهورية يجب أن يكون الإسلام".

(2) رضوان زيادة. السلطة والسياسة في سورية. New York: I.B. Taurus صفحة 140

كانوا قد انقطعوا عنه منذ عدة قرون، وهو الشيعة الأثني عشرية.

كان آية الله **حسن مهدي الشيرازي** (توفي 1980) رجل دِين بارز بين شيوخ الشيعة في العراق، وقد نُفيَ منها في 1969–1970[1] واستقر في بيروت، وقضى وقتاً طويلاً في مناطق العَلَويين في سورية ولبنان، وكانت له علاقات وثيقة مع **حافظ الأسد**. في ديسمبر 1972 أصدر **الشيرازي** فتوى صرّح فيها: "*لقد وجدتُ العَلَويين كما توقعتُ شيعةً مِنْ أهل البيت، وهم مخلصون وملتزمون تماماً بالحقيقة*"[2]. يبدو ذلك مخالفاً لما ذكرته الباحثة الإسرائيلية **إيفيت تلحمي** Talhamy بأنّ **الشيرازي** قضى وقتاً طويلاً في جهوده لتحويل العَلَويين إلى الشيعة الإمامية. يَظهر أنّ فتوى **الشيرازي** كان لها علاقة بالتحالف والفوائد السياسية المتبادلة مع **حافظ الأسد**، فهي تُحقق ما يحتاج إليه الرئيس الجديد مِنَ الدعم الإسلامي مقابل الحماية السورية لرجل الدِين المَنفي. وعلى كلٍ فقد اغتيل **الشيرازي** في بيروت سنة 1980 غالباً بيد عميلٍ بعثي عراقي[3].

رغم إقرار مفتي القدس **أمين الحسيني**، وآية الله **الشيرازي** بانتماء العَلَويين إلى الإسلام، إلا أنّ غالبية السوريين السنّة ظلوا متشككين. عمِلَ الإخوان المسلمين في المعارضة بجد على إثارة هذه الشكوك في بداية السبعينيات. ولكنْ بعد مظاهرات واضطرابات الدستور تلقّى العَلَويون دعماً مِنْ إمام شيعي آخر هو الإمام **موسى الصدر** الذي أعلَنَ الاتحاد المذهبي بين العَلَويين والشيعة[4]. فقال في يوليو 1973: "اليوم، أولئك المسلمون الذين يُطلق عليهم اسم العَلَويين هم إخوة للشيعة... ولن نَسمح لأحد أنْ يَمَسَّ هذه العقيدة الكريمة"[5].

(1) سيفان E. Sivan وفريدمان M. Friedman التطرف الديني والسياسة في الشرق الأوسط. (Albany: State University of New York Press, 1990) صفحة 97. إيفيت تلحمي Yvette Talhamy الفتاوى والنصيريون العَلَويون في سورية. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 46, No. 2, 2010 صفحة 188

(2) تلحمي Talhamy 2010 صفحة 188

(3) سيفان وفريدمان 1990 صفحة 97

(4) بطاطو 1999 صفحة 20

(5) تلحمي Talhamy 2010 صفحة 190

جاءت عودة الشيعة لدعم العَلَويين في السبعينيات بعد فترة طال انتظارها، ويرجع ذلك جزئياً إلى التهميش السياسي للشيعة أنفسهم. فحتى السبعينيات كان للشيعة وزن سياسي وديني غير مهم في العالَم العربي. كان شيعة العراق والخليج مضطَّهَدين سياسياً في أنظمةٍ سنّية مستبدة. وكان أهم تجمع شيعي موجود في لبنان. في الفترة بين اضطهادهم زمن المماليك، وحتى 1305–1307، وصحوتهم السياسية في السبعينيات[1]، واجَهَ الشيعة اللبنانيون مصاعب اجتماعية وسياسية واقتصادية تشبه تلك التي واجَهها العَلَويون[2]. وفي السبعينيات أدى تغير التجمعات والتحالفات السياسية في لبنان لأنْ يبدأ الشيعة في استثمار أهميتهم السياسية[3]. لعِبَ الإمام **موسى الصدر** دوراً هاماً في تحريك اللبنانيين الشيعة، الذين سيصبحون حلفاء موثوقين لنظام **الأسد** وللعَلَويين. ومِنَ المفارقة أنه لو تمّ قبول العَلَويين فعلاً كمسلمين شيعة فلربما عمل ذلك على تخفيف عصبيتهم الطائفية، لأنّهم بذلك سيصبحون مقبولين دينياً وأقلّ اعتماداً على حكم عائلة **الأسد**.

بالإضافة إلى دفاعه عن العَلَويين، قدَّم الإمام **موسى الصدر** دعماً سياسياً مبكراً لنظام **حافظ الأسد** الذي كان مُنعزلاً في العالَم العربي[4]. لَمْ يُقصِّر الإمام **موسى الصدر** في دعم مواقف **الأسد** بين 1972 – 1978، فمثلاً كان أكثر المناصرين تحمساً لاتفاقية دمشق المثيرة للجدل بشأن لبنان في 1976[5]. كما أيَّد **موسى الصدر** نظامَ **الأسد** في صراعه مع السياسي اللبناني الدّرزي **كمال جنبلاط**، وفي القضايا التي تتعلق بالفلسطينيين، والأهم مِنْ ذلك كله في التدخل العسكري السوري بلبنان مع 12000 جندي في يونيو 1978. اختفى الإمام **موسى الصدر** أثناء رحلة إلى ليبيا في أغسطس 1978، ويُفترَض أنّه قد قُتِلَ في اليوم الذي كان

(1) نعومي واينبرغر Naomi Weinberger التدخل السوري في لبنان. (New York: Oxford University Press, 1986) صفحة 104

(2) كمال ديب. أمراء الحرب والتجار. (Reading: Ithaca, 2004) صفحة 251

(3) واينبرغر 1986 صفحة 102–103

(4) رغم أن الأسد قد بدأ في تحسين هذا الوضع بتطوير السياسة الخارجية السورية. انظر: الرئيس السوري الجديد يعيد ترتيب الحزب. نيويورك تايمز. 17 نوفمبر 1970

(5) واينبرغر 1986 صفحة 188–209

عليه أنْ يقابل فيه العقيد **القذافي**[1].

لَمْ يكن **حافظ الأسد** متديناً[2]، لذا يمكن القول أنّ تبنّي العَلَويين لهوية دينية شيعية كان جزءاً مِنْ محاولاته الواقعية العملية لتدعيم شرعيته. لَمْ يكنْ كثيرٌ مِنَ العَلَويين في البداية متحمسين لفقد هويتهم المتميزة، واستاؤوا مِنْ ضمِّهم إلى الشيعة. كان ذلك واضحاً بشكل خاص بينَ العَلَويين اللبنانيين، وكذلك بعض شيوخ العَلَويين السوريين[3]. أدَّتْ معارضة دمج الهوية العَلَوية في لبنان إلى تشكيل حركة الشباب العَلَويين بقيادة **علي عيد** (ولد 1940).

كان **علي عيد** طالباً ممتازاً حسب رأي أستاذه السابق في الجامعة الأمريكية في بيروت **إيلي سالم**، كما كان دمثاً ومثقفاً، ولَمْ يكن متطرفاً[4]. كان يمثل الجيل الجديد مِنَ العَلَويين المثقفين الذين يسعون إلى تحرير أوسع، وتمثيل أكثر انفتاحاً للعَلَويين في السياسة اللبنانية. في سنة 1975 مع بداية الحرب الأهلية اللبنانية ودخول القوات السورية، تَحوَّلتْ حركة شباب العَلَويين إلى الحزب الديموقراطي العربي، وكان اسم الجناح العسكري لذلك الحزب هو الفرسان العرب الحمر، وكانوا حلفاء مقربين مِنْ **رفعت الأسد**، الأخ الأصغر **لحافظ الأسد**.

في سنة 1973 أصدرتْ مجموعةٌ مِنْ شيوخ العَلَويين في سورية تصريحاً رسمياً ينفي صفة الهرطقة الدينية عن العَلَويين، ويدَّعي أنّ العَلَويين: "*يتبعون أغلبية الشيعة،*

(1) روفان آفيران Reuvan Avi-Ran التدخل السوري في لبنان منذ 1975. (Boulder: Westview Press, 1991) صفحة 184. اقترح طوني بدران أنّ علاقة الصدر بالسوريين وتدهور علاقته بالفلسطينيين أودَتْ بحياته. انظر: حرب الميليشيات في لبنان. تحرير روبن B. Rubin الصراع والتمرد في الشرق الأوسط المعاصر. (Oxon: Routledge, 2009) صفحة 172

(2) ذكر عبد الحليم خدام أنّ ابن حافظ الأسد بشار قد نشأ في بيئة غير متدينة. مقابلة مع المؤلف. كما ذكر الشيخ علي يبرال أنّ حافظ الأسد لم يكن عارفاً بالديانة العَلَوية. مقابلة مع المؤلف في أنطاكية 28 مارس 2011.

(3) رياض يزبك: عودة الفهود القرمزية؟ مجلة *Mideast Monitor*, Vol.3, No.2 (August, 2008) في تلحمي 2010 صفحة 189-190

(4) مقابلة إيلي سالم مع المؤلف في بالمند 16 مارس 2011. وسالم هو وزير خارجية لبنان سابقاً وأكاديمي يشغل حالياً منصب رئيس جامعة بالامند في لبنان.

وأنّ كلّ ما نُسب إليهم إنما هو أكاذيب اخترعها أعداؤهم وأعداء الإسلام"[1]. إذا تذكّرنا رد فعل بعض العَلَويين على محاولات المماليك في القرن الرابع عشر لضمهم إلى الدين القويم، فمِنَ المستغرب أنْ يَرضَخَ العَلَويون لمحو هويتهم الخاصة علناً وبهذه السهولة. وعلى العكس مِنْ عداوتهم المتأصلة للسنّة الأصولية، فقد تحالف العَلَويون مراراً مع التقاليد الشيعية، كما يظهر واضحاً في بدايات تاريخهم. ربما دفَعَ خوفُ العَلَويين الطائفي وعدم اطمئنانهم بسبب رد الفعل السنّيّ القوي على الدستور السوري الجديد إلى تطبيقهم للتقية، التي منَعَت المناقشة العلنية للخصوصية العَلَوية. وعلى كل حال فمنذ ذلك الحين اختفتْ معارضة العَلَويين العلنية لضمهم إلى الشيعة[2].

في الفترة 1970 – 1972 رسَّخ **حافظ الأسد** موقفه المسيطِر في الطائفة العَلَوية، وتخلّص مِنَ البعثيين العَلَويين الذين لَمْ يتحالفوا معه[3]. أصبح واضحاً التزامُ العَلَويين خلف سياسة نظام **الأسد** وحلفائه مثل الإمام **موسى الصدر**. باختصار، كان هنالك ميل متزايد لدى العَلَويين لكي يتركوا **حافظ الأسد** يتحدث ويتصرف بالنيابة عنهم، ووضعوا أمْنَ وسلامة الطائفة بين يديه.

مثالٌ مبكر عن ذلك الوضع حدَثَ في أبريل 1976، عندما دخَلَت القوات السورية إلى لبنان[4]. ذَكَرتْ تفسيراتٌ أوردَها **نورفيل دي أتكين** Norvelle De Atkine عن دخول سورية إلى الساحة اللبنانية أنّ **حافظ الأسد**: "*اعتَبر ذلك في مصلحة نظامه ذي الأقلية العَلَوية*"[5]. ولكنْ هل كان ذلك فعلاً في مصلحة العَلَويين؟ وإذا تذكّرنا التوترات الطائفية التي كانت تشتد في سورية بعد استيلائهم على السلطة، فلا بد أنّ العَلَويين قد نظروا إلى العنف الطائفي في لبنان بشيء مِنَ الخوف.

(1) أولسون 1988 Olsson صفحة 180. بطاطو 1999 صفحة 20

(2) رياض يزبك. 2008 تلحمي 2010 صفحة 189-190

(3) تيجيل 2009 Tejel صفحة 58

(4) بطاطو 1999 صفحة 299

(5) نورفيل دى أتكين Norvelle De Atkine العرب كثوار ومعارضين. في روبين Rubin الصراع والتمرد في الشرق الأوسط المعاصر. (Oxon: Routledge, 2009) صفحة 32

لا شك بأنّ الصراع الطائفي الذي كان يدور في لبنان قد أثارَ مخاوف العَلَويين مِنْ تفاعلات مماثلة في سورية[1]. وربما كان هدف نظام **الأسد** مِنْ تدخله في لبنان هو احتواء الأزمة ومنع امتدادها إلى سورية. عوامل أخرى ربما أثّرتْ في قرار **حافظ الأسد** التدخلَ في لبنان هي التهديدات السياسية التي شكّلها لبنان كملجأ للمعارضين السياسيين، وكنموذجٍ للديموقراطية التعددية. كانت لبنان بنظامها السياسي التعددي تتيح الفرصة دائماً لكي يتابع المعارضون والمنفيون السوريون نشاطَهم في النضال السياسي السوري[2]، وقد أتاحت الاضطرابات اللبنانية الفرصة للأسد لكي يُخرِس الانتقادات ضد حكمه، فمثلاً خُطِفَ **خليل بريز**، وهو ضابط سوري سابق ومعارض **لحافظ الأسد** منذ حرب 1967، ونُقِل مِنْ لبنان إلى سورية[3]. كما لَمْ يحبذ نظام **الأسد** فكرةَ حصول الفلسطينيين على استقلال سياسي، وتخوّفَ مِنْ احتمال تبنّي المسيحيين اللبنانيين لفكرة الحماية الإسرائيلية. بشكل عام، احتاج **الأسد** إلى السيطرة على لبنان لكي يُثبّتَ أركان حكمه في سورية.

بالنسبة للعَلَويين كانت نتيجة التحالف السوري مع المسيحيين الموارنة اللبنانيين ضد الفلسطينيين المسلمين السنّة[4] هي بروز الصراعات الطائفية الكامنة إلى السطح في سورية[5]. فقد أثبتتْ لكثير مِنْ سنّة سورية أنّ نظام **الأسد** هو متناقض بالفعل مع القضايا الإسلامية، وأثارت الشك حول انتماء العَلَويين الديني بشكل عام[6].

(1) واينبرغر Weinberger 1986 صفحة 81

(2) آفي ران Avi-Ran 1991 صفحة 7

(3) التايمز. لندن. 23 يونيو 1980

(4) المسيحيون اللبنانيون يستنجدون بسورية. التايمز. 31 مايو 1976. سالزبرغر C. L. Sulzberger: تغير الأنماط في شرق المتوسط. نيويورك تايمز. 26 يونيو 1976

(5) آلاسدير دريسديل Alasdair Drysdale. نظام الأسد ومتاعبه. *MERIP Reports*, No. 110, Syria's Troubles (Nov. - Dec., 1982) صفحة 4-5. يواجه الرئيس الأسد في سورية اضطرابات في بلده بينما تنتشر القوات على بعد 300 ميل. التايمز. لندن. 16 يونيو 1976. باتريك سيل Patrick Seale 1988 صفحة 283-286

(6) بطاطو 1999 صفحة 297-300

جانب آخر للصراع الطائفي في لبنان ونظامها الديموقراطي المتعدد هو إعطاء النظام السوري حجة قوية لفوائد الحكم الاستبدادي. ذكرَ **حنا بطاطو** كيف سعى السياسي **كمال جنبلاط** إلى "الحرية والديموقراطية لكل اللبنانيين" بمَنْ فيهم طائفته الدرزية، مما سبّب قلقاً لنظام **الأسد**. أدى الصراع الطائفي في لبنان إلى زيادة الخوف الطائفي عند العَلَويين، ومنعَ أي تناقص أو ضعف في عصبيتهم. ومِنَ المُفارقة أنّ ما أراده العَلَويون السوريون أولاً هو نظام مشابه لنظام سياسي لبناني يعمل بشكل جيد، نظام يستطيعون فيه الاحتفاظ بهويتهم مع مساواتهم بالآخرين كمواطنين، مما كان سيؤدي إلى إضعاف عصبيتهم الطائفية في تأييد حكم **الأسد**.

مِنْ جهة الحسابات الاستراتيجية البحتة، كان أوضحُ تهديد للنظام السوري هو إسرائيل. فإذا استغلّ الإسرائيليون ضعف لبنان، سيُمكنهم الالتفاف حول مرتفعات الجولان عبر سهل البقاع، مما يضعُهم مباشرة قرب دمشق والمراكز الصناعية في حمص وحماة[1]، ويصبحُ قلب منطقة العَلَويين في مرمى نيرانهم. بشكل عام فإنّ طبيعة المسرح السياسي في لبنان بضعفه وقابليته للتلاعب الخارجي تعني أنه إذا لم تضمن سورية مصالحها فيه، فإنّ قوة أخرى ستفعل ذلك.

نتيجة أخرى للتدخل السوري في لبنان ودعم الجناح المسيحي ظهرت في التحسن المؤقت في علاقات الولايات المتحدة وفرنسا مع نظام **الأسد** البعثي الراديكالي في سورية. وربما يَشهد على ذلك ذهابُ **حافظ الأسد** إلى باريس سنة 1976 في أول زيارة يقوم بها لدولة غربية، وتأجيل رحلاته إلى أوروبا الشرقية[2]. كان ذلك نموذجاً مبكراً على المناورات السياسية التي انتقل بها **حافظ الأسد** بالعَلَويين، الداعم الرئيسي لحكمه، مِنْ خمول ذكرهم محلياً، إلى الأهمية السياسية عالمياً. مع منتصف السبعينيات ظَهَر **حافظ الأسد** عالمياً كقوة إيجابية لحفظ التوازنْ والتقدم في منطقة الشرق الأوسط[3]. ولكنْ مثلما كانت هي الحال في عهود

(1) آفي ران Avi-Ran 1991 صفحة 7

(2) نيويورك تايمز 26 يونيو 1976

(3) إيريك بايس Eric Pace الرئيس السوري اليميني حافظ الأسد. نيويورك تايمز 10 مايو 1977

سابقة، جاءت المعارَضة السياسية الحقيقية للعَلَويين مِنْ جهة السكان العرب السنّة المحليين، وليس مِنْ أية قوة دولية عظمى.

هجوم الإخوان المسلمين على حكْم الأسد

شهدت السنوات الست الأولى مِنْ حُكْم **حافظ الأسد** تآكل الآمال الجديدة للعَلَويين في الاندماج الاجتماعي والسياسي الحقيقي في سورية تدريجياً بفعل استعدائهم الاجتماعي المستمر، وأحداث الدستور، والصراع الطائفي في لبنان. وأدّتِ الأحداث التي تلتْ ذلك إلى زيادة اعتماد العَلَويين على نظام **الأسد**.

أطلقَ الإخوان المسلمون السوريون، وهم جزء مِنْ منظمة إسلامية سنيّة أكبر تأسستْ في مصر سنة 1928[1]، هجوماً شاملاً ضد نظام **حافظ الأسد** في فبراير 1976[2]. كان السبب المباشر لثورتهم ضد النظام هو القمعُ الوحشي الذي قامَتْ به سرايا الدفاع بقيادة **رفعت الأسد** لإخماد ثورة حماة في فبراير 1976. أما الأسباب العميقة لتلك المعارضة المسلحة لنظام **الأسد** فقد كانت تتراكم منذ زمن، فقد ثار الغضب بسبب الدستور العلماني، والاستياء الاقتصادي بين التجار السنّة، وتدخّل النظام السوري في لبنان، والامتعاض العام بسبب اغتصاب العَلَويين لدور مُسيطر في سورية. وضّح الدكتور **عمر عبد الله** الذي يؤيد الإخوان المسلمين، الميلَ والتعاطف الذي كان خَلْفَ الثورة في "بيان حزبي" عنوانه: "النضال الإسلامي في سورية" نُشِرَ سنة 1983[3] فقال:

"كان إجماع علماء الأمة الإسلامية السنّة والشيعة دائماً هو أنّ النُصَيريين كفار... كما أنّ تسعة أو عشرة بالمئة مِنَ السكان لا يجب أنْ يُسمَح لهم بالتسلط على الأكثرية، لأنّ ذلك ضد منطق الأمور، ونحن متأكدون تماماً مِنْ أنّ حكماء

(1) لمناقشة نشأة وإيديولوجية الإخوان المسلمين السوريين انظر: اسحق وايزمان Itzchak Weismann . سعيد حوا: نشأة مفكر إسلامي راديكالي في سورية الحديثة. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 29, No. 4 (Oct., 1993) صفحة 601-623. انظر أيضاً سيل Seale 1988 صفحة 322

(2) واينبرغر Weinberger 1986 صفحة 79

(3) مراجعة كتاب. مجلة *Journal of Church and State*, Vol.26, No. 3, 1984 صفحة 548

الطائفة يوافقون معنا على أنه لا نحن ولا هم مضطرون لتأييد امبراطورية ***حافظ ورفعت الأسد****. ومِنْ جهتنا لَمْ تَشن الحرب أغلبية تسعى لحماية نفسها ضد الأقلية، بل المؤكد هو أنّ الأقلية قد نَسِيَتْ نفسها"* [1].

يبين هذا النص خمس نقاط أساسية في عقلية المتمردين، فأولاً: ظلّتْ شهادات إسلام العَلَويين في نطاق الشبهات، ويبدو أنّ فتاوى **الحسيني** في 1936، **والشيرازي** في 1972، **والصدر** في 1973، لَمْ تؤخذ بعين الاعتبار. وثانياً: ظلَّ العَلَويون مرتبطين بقوة مع نظام **الأسد** في نظر الإخوان المسلمين، كما ظهَرَ في قوله أنّ تسعة أو عشرة بالمئة مِنَ السكان يجب ألا تُسيطِر على الأكثرية. وثالثاً: اعتبار **الأسد** كسلالة حاكمة أو امبراطورية يدل على أنّ الإيديولوجية الرسمية للبعث لَمْ تُقدِّم أيّ شرعية للحكام. ورابعاً: الإقرار بأنها حرب طائفية يشير إلى أنها كانت في ذهن الإخوان المسلمين حرَباً بين السنّة والعَلَويين. وأخيراً: مِنَ المهم ملاحظة أنّ جملة "الأقلية قد نَسِيَتْ نفسها" تدل على موقفٍ متعصب تجاه العَلَويين الذين تجاوزوا حدود تَحَمُّل السنّة. رغم أنّ **عبد الله** نصحَ العَلَويين بأنهم "غير مضطرين لتأييد **الأسد**"، فمِنَ المؤكد أنّ ملاحظات لاذعة كهذه ستؤدي حتماً إلى زيادة دعم العَلَويين للنظام. وإنّ تسمية العَلَويين "بالأقلية المهرطقة التي نَسِيَتْ نفسها" ستفشل في طمأنة العَلَويين العاديين أنّ سورية بعد **الأسد** ستكون مواتية لمصالحهم وآمالهم.

في قلب منطقة العَلَويين كان تأييد النظام أقوى ما يكون في نهاية سنة 1976، وفي القرداحة، مسقط رأس **حافظ الأسد** التي تقع على بُعد 20 كم جنوب شرق اللاذقية، شاهَدَ السكان "العم **حافظ**" في التليفزيون وهو يتلقى التحية في الاستعراضات العسكرية: "بالروح، بالدم، نفديك يا **حافظ**"[2]. كان نَشر المعلومات بالطبع تحت السيطرة التامة للحكومة، بينما كان التوتر السياسي يزداد في أرجاء الوطن. كانت أبنية الحكومة محروسة جيداً في دمشق، وحدَثتْ إعدامات

(1) عمر عبد الله: النضال الإسلامي في سورية. (Berkeley: Mizan Press, 1983) صفحة 48، 211. انظر أيضاً رابينوفيتش Rabinovitch 2008 صفحة 229-230

(2) جيمس كلاريتي James Clarity ملاحظات مراسل: تقديم الأخبار بشكل مربك للسوريين، وكثير من الإشاعات. نيويورك تايمز. 10 أكتوبر 1976

علنية بشنق الإرهابيين، وفي حلب حدثتْ تفجيرات واضطرابات مدنية[1]

قام الإخوان المسلمون في 1977 بسلسلةِ اغتيالات لعَلَويين يشغلون مراكز هامــة ومُقرّبين مِنَ النظام. ولَمْ تقتصر الاغتيالات على العسكريين، مثل اللواء **حامــد رزوق** والعقيد **علي حيدر**، بل شَمَلَتْ مِهَنيين، مثل الدكتور **محمد الفاضل** رئيس جامعة دمشق[2]. رغم أنّ الصفة العامة للضحايا كانت أنّهم عَلَويون، إلا أنّ المصادر الحكومية حرصتْ على ألا تُركّز على ذلك، واختارتْ بدلاً عنه توجيه تهمة الاغتيالات إلى نظام حزب البعث العراقي المنافس[3]. لا شك بأنّ **صدام حسين** لَمْ يكن منزعجاً مِنْ رؤية منافسه البعثي السوري يتلقى هذه الضربات، ولكنْ ليس هناك أدلة تشير إلى أنه كان متورطاً مع هذه الهجمات بشكل مباشر. سببُ توجيه نظام **الأسد** اللوم إلى العراق هو تَجنّب وضع الصراع في صيغة طائفية يمكن أنْ تشوه الأعمدة العلمانية في شرعية النظام[4]. وحرص **حافظ الأسد** على حضور صلاة الجمعة في الجامع الأموي لكي يُثْبِتَ ميوله الدينية. مِنَ المهم ذِكر أنّ الهجمات لَمْ تكن جميعها موجهة ضد العَلَويين فقط، بل أصابت "المتواطئين" مِنَ السنّة المُقربين مِنَ النظام، فمثلاً جُرِح **عبد الحليم خدام** وزير خارجية **الأسد** في محاولة لاغتياله في 1977[5].

بينما كان الإخوان المسلمون منهمكين في عمليات الاغتيال التعسفية، آملين في توضيح الدور السياسي للعَلَويين، بدأ النظام السوري تنفيذ عمليات اغتيال سياسية لتحقيق هدف معاكس وهو إخفاء دور العَلَويين السياسي. اغتيل **كمال جنبلاط** السياسي اللبناني الدرزي قُرب قريته "المختارة" في 16 مارس 1977، في الغالب على يد عملاء المخابرات السورية[6]. أصبح **جنبلاط** عائقاً هاماً أمام تحقيق

(1) نيويورك تايمز. 10 أكتوبر 1976

(2) توتر في سورية بسبب اغتيال جامعي. التايمز. لندن. 3 مارس 1977. نيويورك تايمز. 10 يوليو 1977. انظر أيضاً سيل 1988 صفحة 317 لائحة مفصّلة للضحايا.

(3) نيويورك تايمز. 10 يوليو 1977. انظر أيضاً سيل 1988 صفحة 321

(4) روفان آفي ران Reuvan Avi-Ran 1991 صفحة 198

(5) التايمز. لندن. 3 مارس 1977

(6) نيويورك تايمز. 17 مارس 1977. فريد الخازن: كمال جنبلاط: الدرزي أمير اليسار غير المتوج. مجلة Middle Eastern Studies, Vol. 24, No. 2 (Apr., 1988) صفحة 183

أهداف **حافظ الأسد** في لبنان بمعارضته دخول سورية إلى المسرح اللبناني[1]. إلا أنّ تعليقات **جنبلاط** على الصفة العَلَوية للنظام السوري هي التي كلّفته حياته. ذكــر **كريم بقرادوني** وهو عضو في حزب الكتائب اللبنانية في السبعينيات:

"*عندما بدأ **كمال جنبلاط** طَرْحَ الموضوع الممنوع، وهو الحديث عن الصراع العَلَوي- السنّي أو التحالف العَلَوي- الماروني، كان يرتكب في رأيي خطيئة كبيرة*"[2].

يعتقد **وليد بن كمال جنبلاط** الذي استلم قيادة الدروز في لبنان أنّ والده قد تورط في "*محادثة غير مناسبة ضد الطائفة العَلَوية*"[3]. يبدو أنّ دور العَلَويين السياسي كان موضوعاً حساساً بالنسبة لنظام **الأسد** الذي شعر أنه مضطر لاتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لإخماد هذه الأحاديث كلياً. استعداد نظام **الأسد** لقتل شخصيات سياسية بارزة تهدد مصالحه الأساسية ظَهَرَ واضحاً في اغتيال **جنبلاط**. حسب **بسام أبو شريف** مِنْ منظمة التحرير الفلسطينية، كان **جنبلاط** "رجلاً عظيماً وعملاقاً، *وقد اغتيل لأنه كان رجلاً عظيماً وعملاقاً*"، وقال **ياسر عرفات** رئيس منظمة التحرير آنذاك "*لقد بدأتْ فترة الاغتيالات*"[4].

في سورية، رغم جهود النظام لنزع فتيل التوتر الداخلي، وتجنُّب اتهام وجود عصبة عَلَوية سياسية، إلا أنّ الخطورة على النظام وعلى العَلَويين العاديين استمرتْ في التصاعد. حَدَثَ عاملٌ رئيسي أدى لتصاعد خطر الصدام في 16 يونيو 1979 عندما قُتِلَ عدد كبير مِنْ طلاب الضباط في مذبحة مدرسة المدفعية بحلب[5]. كانت المذبحة التي ساعد فيها ضابط بعثي سنيّ علامةً أثارتْ قلقاً عظيماً بشأن زيادة

(1) الخازن 1988 صفحة 183

(2) حرب لبنان. فيلم وثائقي. قناة الجزيرة. 2001

(3) المصدر نفسه. انظر أيضاً سيل 1988 صفحة 288–289

(4) النيويورك تايمز 17 مارس 1977

(5) نيكولاوس فان دام Nikolaos Van Dam يعتقد أن العدد كان 32 في فان دام 1966 صفحة 91. بينما تذكر مصادر أخرى أن عدد القتلى كان 60، انظر مجلة Journal of Church and State, No.21, 1979 صفحة 602، نيويورك تايمز 4 سبتمبر 1979، سيل 1988 صفحة 316. تذكر المصادر العَلَوية أن عدد الضحايا بلغ المئة.

الانقسام الطائفي والكراهية في عمودين أساسيين مِنْ أعمدة النظام: الجيش وحزب البعث. بعدها بشهرين اغتيل جرّاح أعصاب عَلَوي ذو مرتبة عالية خارج عيادته[1]. وفي أواخر سبتمبر تمّ اغتيال ضابطين عَلَويين هما العقيد **محمد جميل نداح** والمُقدّم **ابراهيم علي**[2]. لا شك بأنّ غالبية السوريين السنّة لَمْ يوافقوا على هذه الأساليب التي اتّبعها الإخوان المسلمون، ولكنهم ربما تفهموا دوافع المتمردين لأنهم شعروا بالإبعاد تدريجياً عن السلطة الاقتصادية والسياسية.

تفجّرتِ الانفعالات حول **حافظ الأسد** مما اضطره لاتباع سياسة توازن حرج لكي يحافظ على دعم وتأييد العَلَويين الضروري، دون إثارة عداء وتعصب الأكثرية السنيّة. وإنّ تبلور حدودٍ طائفية مثلما كان يحدث في لبنان سيؤدي إلى وضع محفوف بالمخاطر بالنسبة للعَلَويين. أدى الضغط المُطبَّق على النظام إلى حدوث تشققات في تحالفات **الأسد**، أحد القلائل مِنَ الريفيين السنّة المقربين في أعلى مراكز الأمن، وهو اللواء **ناجي جميل** وهو صديق قديم **لحافظ الأسد**، أُجبر على التقاعد في مارس 1978 بعد أنْ "عبّر عن عدم احترامه للأسد" وسياسته. تمّ استبداله بضابط عَلَوي هو اللواء **محمد الخولي** ليزيد مِنَ الصِّفة العَلَوية للنظام[3]. إلا أنّ **حافظ الأسد** استمر بالمسار البعثي القومي، بينما اتّهَمَ المتمردين بالتطرف، وبأنّهم يعملون لصالح عدو أجنبي. فمثلاً صَرَّح وزير الإعلام **أحمد اسكندر أحمد** أنّ: *"لدينا أدلة تثبت أنّ العصابات المتطرفة التي قامتْ بالاغتيالات لديها اتصالات مع حلف كامب ديفيد"*[4]. وبكلمة أخرى ادّعى النظام أنّ الولايات المتحدة الأمريكية كانت خلف الاضطرابات في سورية وذلك لمعاقبة النظام بسبب معارضته اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل[5].

(1) مارفين هوي Marvine Howe المسلمون المتطرفون في سورية يحاولون زعزعة استقرار الحكومة بهجمات إرهابية. مجلة نيويورك تايمز 20 أغسطس 1979

(2) اغتيال ثلاثة عَلَويين آخرين في سورية. نيويورك تايمز 3 سبتمبر 1979

(3) سيل 1988 صفحة 323-324

(4) نيويورك تايمز 20 أغسطس 1979

(5) اتهام المخابرات الأمريكية بإثارة الاضطرابات في سورية. التايمز. لندن. 14 مارس 1980. حفوت نجم الأسد في مدينة كان فيها بطلاً. نيويورك تايمز 3 أبريل 1980

مع تصاعد عمليات الاغتيال إلى مرتين أو ثلاث كل أسبوع في أكتوبر 1979[1]، كان هناك خطر حقيقي بحدوث انتقام عَلَوي، وسيُصبح مِنَ المستحيل على **حافظ الأسد** أنْ يُقدِّم الموقف بدون اصطلاحات طائفية. في أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر ثار العَلَويون في اللاذقية وتقاتلوا مع السنّة بعد اغتيال **يوسف صارم** الزعيم العَلَوي الديني[2]. رغم وجود دلائل متباينة عن عدد الإصابات التي حدثتْ في تلك الاضطرابات، إلا أنها كانت قليلة نسبياً[3]. وعلى كل فقد انتشر ألف جندي بسرعة في المدينة تحت قيادة **رفعت الأسد** لضبط المشاغبين العَلَويين، وذُكر أنّ خمسة قد قتلوا[4]. يدل نمط وسرعة رد فعل **الأسد** على شدة الخطر الذي استشعره مِنْ تصاعد العنف الطائفي بين السنّة والعَلَويين. نُشرتْ تقارير أنّ طرطوس على بعد 90 كم جنوب اللاذقية قد أُغلقتْ فيها حركة المدنيين أيضاً، مما يشير إلى انتشار التوتر الطائفي[5]. يبدو أنّ أهداف الإخوان المسلمين في إثارة النعرات الطائفية قد بدأت تعطي نتائجها، وتجمّع العَلَويون في دمشق للتآزر مع بعضهم، وأرسل بعض العسكريين عائلاتهم إلى منطقة اللاذقية هرباً مِنَ التهديد بالقتل[6].

ظهرتْ بعض الخلافات بين العَلَويين ونظام **الأسد**، فبعض رؤساء أجهزة الأمن مِنَ العَلَويين، الذين يمثلون وجهة نظر غالبية العَلَويين، بدؤوا يطالبون برد فعل أقوى على هجمات الإخوان المسلمين، بينما مِنْ ناحية أخرى أخذَ العَلَويون المتحررون القلقون على النتائج بعيدة المدى بالنسبة للطائفة يطرحون التساؤل فيما إذا كان على الرئيس *"إدخال عدد أكبر مِنَ السنّة في نظامه"* لإرضاء الأغلبية

(1) كريستوفر رين Christopher Wren القتلة السياسيين في سورية يغتالون 2 إلى 3 كل أسبوع. نيويورك تايمز 28 أكتوبر 1979

(2) نيويورك تايمز 14 أكتوبر 1979

(3) ذكر تقرير في نيويورك تايمز 4 سبتمبر 1979 عدم وجود أي قتلى في الاضطرابات، في حين ذكر تقرير آخر في نيويورك تايمز 14 أكتوبر 1979 قتل 40 شخص.

(4) سورية ترسل جنوداً إلى اللاذقية لإخماد مشاغبين. نيويورك تايمز 4 سبتمبر 1979. مجلة *Journal of Church and State*, No. 22, 1980 صفحة 183-184

(5) نيويورك تايمز 4 سبتمبر 1979

(6) نيويورك تايمز 28 أكتوبر 1979

السنيّة[1]. وشجبَ الشاعر العَلَوي **ممدوح عدوان** (توفي 2004) الوجهَ الطائفي للنظام خلال اجتماع لاتحاد الكتاب والصحفيين في 9 أكتوبر 1979، وعلّق قائلاً: "*لماذا يكذبُ النظام؟ يَصدر الكذب عن الخوف، والنظامُ الذي يكذب يخافُ مِنْ شعبه، الخوفُ مِنْ أنْ يَرى الشعبُ الأمورَ كما هي بالفعل*[2]". كما كان هنالك بعض التذمر بين العَلَويين بأنّ أولئك المقربون قَبَلياً مِنْ **حافظ الأسد** قد حصلوا على امتيازات أكثر مِنَ بقية العَلَويين[3]. كانت خيارات **الأسد** محصورة بين النهج التصالحي مع المعتدِلين مِنَ السنّة، مع تهميش وعزل الإخوان المسلمين كأقلية متطرفة. أو بتصعيد الحل الأمني لقمع كل معارضة للنظام. ظَهَرَ أولاً أنّ **حافظ الأسد** قد مالَ للخيار الأول[4].

على العكس مِنْ خمسينيات القرن التاسع عشر يبدو أنّ عداوة السنّة لَمْ تُفرِّق تآزر العَلَويين وتضامنهم هذه المرة، بل أدّتْ إلى تأثير معاكس، فلمْ تُظهِر القوات المسلحة ذات الأكثرية العَلَوية أي علامة تدل على السخط، وتجمّعت الطائفة العَلَوية حول الرئيس[5]. تَغيّرت الظروف السياسية بشكل جذري منذ أيام **اسماعيل خير بك**، فأولاً: لَمْ يَعد للسنيّين سُلطة قوية ونظام سياسي متماسك، بل على العكس وقفَ العَلَويون إلى جانب السلطة السياسية المهيمِنة. وثانياً: لَمْ يعد العَلَويون محصورين في منطقتهم الجبلية الوعرة المترامية الأرجاء، بل تَطوّرتْ لديهم هوية أوسع اعتماداً على تجربتهم المشتركة مع الأكثرية السورية. ورغم أنّ **اسماعيل خير بك** تمتّع دون شك بميزات قيادية إلا أنه لا يُقارَن **بحافظ الأسد** المُتعلّم والأكثر دهاء في السياسة في 1979. ولكنّ أكثر العوامل تأثيراً كان الدرجةَ العالية التي وَصَل إليها

---

(1) مارفن هوي Marvine Howe نيويورك تايمز 20 أغسطس 1979 كما ورد على لسان مصادر سياسية سورية.

(2) بطاطو 1999 صفحة 271

(3) نيويورك تايمز 14 أكتوبر 1979

(4) بدأ الأسد بتغيير ستة محافظين، انظر: السيطرة على الأزمة بالقوة. نيويورك تايمز 13 أبريل 1980. وجود الفنيين والخبراء في الوزارة السورية الجديدة. التايمز. لندن. 17 يناير 1980

(5) جون كيفنر John F. Kifner الضغوط في دمشق تختبر حكم الأسد. نيويورك تايمز 28 لأكتوبر 1979

العَلَويون في سلّم السياسة. فقد كانت المخاطر السياسية كبيرة جداً لو خَسرَت العشائر العَلَوية وحَدثَتْ خلافات داخلية بينها قد تؤدي إلى تفرق الطائفة. كان **حافظ الأسد** قد حَكَمَ سورية عقداً مِنَ الزمن، أي أكثر بمرتين مِنْ حُكم **اسماعيل خير بك** القَصير في الجبال الساحلية، يبدو أنّ التاريخ قد بدأ يَلحَق بركب العَلَويين.

كانت أمارات الحرب الأهلية الطائفية بين السنّة والعَلَويين قد بدأتْ تَظهَر في سورية[1]. أدّت هذه العوامل الثلاث إلى زيادة التوتر. تصاعَدَ السخط والغضب لدى طبقة التجار بسبب المصاعب الاقتصادية والسياسة الاجتماعية وارتفاع التضخم (30%)، وأدى إلى حدوث الاضرابات والمظاهرات[2]. كان مراسل النيويورك تايمز **مارفن هوي** Marvine Howe موجوداً في حلب عندما تصاعَدَت المشاعر المعادية للنظام، وقابل كثيراً مِنَ الناس الذين رغبوا في التحدث بصراحة. تحدّثَ أحد التجار الحلبيين عن خيبة أمله بسياسة الحكومة قائلاً: "*لا نُحب الاشتراكية ولا نُحب الروس... لا نَستطيع العمل وكسب المال في ظل الاشتراكية*". كما مَنَحت الثورة الإسلامية الإيرانية دفعة قوية للمعارضة السورية حتى بين السوريين العلمانيين، وكان ذلك غريباً بالنظر إلى العلاقة التي تشكلت بين الجمهورية الإسلامية ونظام **الأسد**. أظهر تقرير نشر مِنْ حلب في 31 مارس 1980 تزايُدُ الغضب ضد النظام، فقال موظف حكومي: "*لا يوجد شاه ولا خميني هنا، بل إنّ الحالة مثل إيران – عصابة حاكمة بالشرطة السرية، وإنفاق عسكري كبير، وثروة غير مشروعة، وآلاف مِنَ السجناء السياسيين*"[3]. وقال مهندس: "*مثل إيران فالناس ضد الفساد والفجور، وهم مع الإخوان المسلمين، نحن مسلمون... ولكننا*

---

(1) روبرت فيسك: التوتر الطائفي بسبب سيطرة العَلَويين يمكن أن يؤدي إلى حرب أهلية في سورية. التايمز. لندن. 2 أبريل 1980. ستانلي ريد Stanley F. Reed خط التاريخ في سورية: نهاية النظام؟ مجلة *Foreign Policy*, No.39 (Summer, 1980) صفحة 176–190

(2) التضخم والفساد يهدد النظام البعثي في سورية. التايمز. لندن. 28 مارس 1980

(3) مارفن هوي Marvine Howe خفوت نجم الأسد في مدينة كان فيها بطلاً. نيويورك تايمز. 3 أبريل 1980

لا نريد جمهورية إسلامية" (1). تدل مثل هذه التصريحات على أنّ الإخوان المسلمين كانوا يربحون في مستوى أخلاقي مرتفع في صراعهم مع نظام **الأسد**.

أخذ السخط والغضب يزداد بسبب فساد **رفعت الأسد**، أخو الرئيس، وقوّض كثيراً مِنَ الثقة **بحافظ الأسد** في أوائل الثمانينات. تساءل ناقدون: *"كيف يَسمح رجلٌ شريف للفساد بالانتشار في عائلته نفسها؟"* (2). بدأتْ مصادر السخط ضد النظام هذه في التعبير عن نفسها بشكل مشاعر عداء ضد العَلَويين. عبَّر أحد المهنيين الذي طَلب عدم التصريح باسمه عن العلاقة بين العَلَويين والسخط المتزايد بين السنّة، فقال أنّ أهم مشكلة في سورية هي استيلاء العَلَويين على السلطة مِنْ خلال إمساكهم بالمراكز الرئيسية في القوات المسلحة وأجهزة المخابرات المدنية والعسكرية... وفي التعليم كان أغلب الطلاب الذين يُرسَلون في بعثات إلى الخارج هم مِنَ العَلَويين الذين يعودون لاستلام المراكز الهامة. *"نحن عائلة علمانية ولكننا نؤيد الإخوان المسلمين – مثل 90% مِنْ سكان هذه المدينة* [حلب]" (3).

لا شك بأنّ نظام **الأسد** قد جزع بسبب زيادة التعاطف مع الإخوان المسلمين بين المعتدلين مِنَ السنّة، وقرر التصرف بقوة. في السادس والسابع مِنْ أبريل سنة 1980 دخلت الفرقة الثالثة والقوات الخاصة بقيادة **رفعت الأسد** (سرايا الدفاع) مدينتا حلب وحماة عنوة، وتمّ تفتيش هاتين المدينتين على مدى أسبوعين بحثاً عن الأسلحة وأعضاء تنظيم الإخوان المسلمين والمتعاطفين معهم(4). كان القمع وحشياً، وتمّ القبض على حوالي 6000 شخص، وأُعدم ثلاثون. لعِبت المخابرات دوراً كبيراً في ذلك بكثير مِنَ العنف لقمع التمرد. فمثلاً كان مِنَ العادي أنْ يُقبضَ

(1) نيويورك تايمز 3 أبريل 1980

(2) روبرت فيسك تغيرات مقلقة في الأسلوب السوري. التايمز. لندن. 2 أبريل 1980

(3) مارفن هوي Marvine Howe نيويورك تايمز. 3 أبريل 1980

(4) ستانلي ريد Stanley F. Reed خط التاريخ في سورية: نهاية النظام؟ مجلة *Foreign Policy,* No.39 (Summer, 1980) صفحة 176. الرئيس السوري يخمد التمرد ويضرب. نيويورك تايمز. 13 أبريل 1980. انظر أيضاً ستانلي ريد: الأخ الأصغر والإخوان. *The Nation,* May 16, 1980 صفحة 592

على الرجال بسبب وجود اللحية(1). اتُخِذ العنفُ مَثلاً للآخرين، فأخذ طبيبان في حماة مِنْ منزلهما، وأُطلقتْ عليهما النار وتم التمثيل بجثتيهما(2).

ساعد تسلط العَلَويين في الجيش والمخابرات أثناء عمليات القمع على إذكاء نار التوتر الطائفي، ولمْ يقتصر ذلك على التوتر بين العَلَويين والإسلاميين السنّة، بل أظهرتْ وثيقةٌ للحزب الشيوعي السوري انتقادهم للنظام في 1980: *"عندما حَكم الفرنسيون البلد لَمْ يتمكنوا مِنْ تقسيمها مثلما فعل هذا النظام... يعتمد هذا النظام على قاعدتين: الطائفية والطغيان."* (3). بالنسبة للعَلَويين الذين سعوا للاندماج في سورية مِنْ خلال العلمانية والثورة الاجتماعية فإنّ وَصْفَهم مع نظام **الأسد** بالطائفية والطغيان يدل على عدم تحقق هذه الآمال. ولَمْ تؤد زيادة الخوف وعدم الاطمئنان بين العَلَويين سوى إلى زيادة اعتمادهم وتأييدهم لنظام **حافظ الأسد**.

تجنّبَ النظام كارثة في 27 (أو 26)(4) يونيو 1980 عندما كاد الإخوان المسلمون أنْ ينجحوا باغتيال **حافظ الأسد** في هجوم بقنبلة يدوية. يبدو أنه نجا بفضل حارس شخصي ألقي بنفسه عليها(5). ليس هناكَ معلومات واضحة عن هوية الحارس الشخصي، ولكن المُفترض هو أنه عَلَوي مِنْ عشيرة **الأسد** كما كانت العادة(6). ويُظهر ذلك مدى عمق الإخلاص والتفاني في خدمة **الأسد**(7). حسب الباحث في الشؤون السورية والسياسي **نيقولاوس فان دام** فإنّ المحاولة الفاشلة لاغتيال **حافظ الأسد** وَلّدتْ موجةً عارمة مِنَ الغضب في الطائفة العَلَوية.

(1) ستانلي ريد 1980 صفحة 177

(2) ميشو G. Michaud وبول J. Paul. أهمية الحراس الشخصيين. في *MERIP Reports*, No. 110, Syria's Troubles (Nov. - Dec., 1982) صفحة 30. ستانلي ريد 1981 صفحة 592

(3) ستانلي ريد: نهاية النظام؟ 1980 صفحة 179

(4) بطاطو 1999 صفحة 269

(5) ستانلي ريد Stanley Reed الأخ الأصغر والإخوان. *The Nation*, May 16, 1981 صفحة 592

(6) ميشو وبول 1982 صفحة 29

(7) يقترح فؤاد خوري أن حافظ الأسد ربما رُفع في التراث العَلَوي ووُضع إلى جانب شخصياتهم التاريخية العظمى. انظر فؤاد خوري: الأئمة والأمراء، الدولة والدين والطوائف في الإسلام. (لندن. دار الساقي، 1990) صفحة 201

أمَرَ **رفعت الأسد** ثمانين رجلاً مِنْ كتائب الدفاع بالطيران في طائرة هليكوبتر إلى سجن تدمر حيث قتَلوا 550 إلى 1181[1] سجيناً مِنَ الإخوان المسلمين. يصعب تصور وفهم همجية هذا الحَدَث الذي يدل على درجة العداء الذي كان مستحكَماً بين العَلَويين والإخوان المسلمين السنّيين.

استمر **حافظ الأسد** في محاولاته لتخفيف التوتر بإظهار القوة، وبالسعي لإرضاء قيادات المعارضة عن طريق إصلاحات حكومية[2]. كما تابعَ سياسة ضعضعة الإخوان المسلمين بتوجيه الاتهام بالتحريض على التمرد مِنْ جهات خارجية. في خطاب بمناسبة ثورة الثامن مِنْ مارس قال **الأسد** أنه كان ملتزماً بالإسلام طوال حياته، وسَخِرَ مِنَ الإخوان المسلمين قائلاً: "ولكنهم لا يريدون قبول إسلامي... ربما أحتاجُ إلى شهادة حسن سلوك مِنْ رؤسائهم في واشنطن، ولكي أحصل عليها يجب أنْ أذهب إلى القدس وأستسلم للإسرائيليين مثلما فعل السادات"[3]. ربما يمكن القول أنّ **الأسد** كان يعني "بإسلامه" الإسلامَ العَلَوي، في إشارة نادرة لاعترافه بأصوله العَلَوية. إلا أنه كان يَستخدم استراتيجية ذكية أصبحت سِمَة مميزة لنظام **الأسد** وهي تشويه سمعة المعارضين بربط نشاطهم مع مؤامرات أمريكا وإسرائيل، في هذه الحالة أشار إلى اتفاق السلام الذي وقّعه الرئيس المصري **أنور السادات** مع الإسرائيليين.

لجأ النظام إلى مؤيديه الريفيين في صراعه مع الإخوان المسلمين، وأكثرهم مِنْ سكان المدن. في 10 مارس 1980 أعلن **الأسد** أمام الاتحاد العام للفلاحين السوريين خطته لضمّ نصف مليون فلاح إلى الجيش قائلاً: "سيمارس الفلاحون دورهم في القضاء على عصابات الرجعية والقتلة والمخربين"[4]. يشمل "الفلاحون" هنا العَلَويين والريفيين السنّة الذين استفادوا مِنْ سياسة البعث. حاول **الأسد** تجييش دعم وتأييد الفئات الاجتماعية-الاقتصادية، والالتفاف على خطوط انكسار التوتر

(1) ميشو وبول 1982 صفحة 30. فان دام Van Dam 1996 صفحة 105-106
(2) نيويورك تايمز 13 أبريل 1980. التايمز. لندن. 17 يناير 1980
(3) سورية تتهم أمريكا بالتآمر لإسقاط النظام. نيويورك تايمز 9 مارس 1980
(4) سورية تسلح الفلاحين في الصراع ضد القتلة. التايمز. لندن. 11 مارس 1980

الطائفي التي يمكن أنْ تعزل العَلَويين وحدهم. بل حاول النظام أنْ يعزل الإخوان المسلمين. في السابع مِنْ يوليو سنة 1980 بُعيد فشل محاولة اغتيال **الأسد**، مرَّر مجلس الشعب السوري تشريعاً جعل عقوبة الانضمام إلى الإخوان المسلمين هي الإعدام. ضمّ القرار عفواً مدته شهراً واحداً للأعضاء الموجودين داخل سورية، وشهرين للموجودين خارجها، مقابل الانسحاب مِنَ العضوية والتخلي عن أهداف الإخوان المسلمين[1]. تمّ تنفيذ هذه السياسة المتشددة فوراً بإعدام قائدين مِنَ الإخوان المسلمين في 17 أغسطس[2].

رغم أنّ الموقف كان رهيباً بالنسبة للنظام في مواجهة معارضة صلبة متزايدة، إلا أنه إذا ظلّ العَلَويون متحدين وراء النظام فقد كانت فرصة إسقاطه ضئيلة. عرف ذلك بعض الزعماء المعارضين للنظام، مثل **صلاح الدين البيطار** أحد مؤسسي حزب البعث الذي كان منفياً، عندما تنبأ أنّ القاعدتين اللتين يستند إليهما النظام هما "الديكتاتورية والطائفية"[3]. ولذلك حاول **البيطار** أنْ يفرّق بين العَلَويين ونظام **الأسد** قائلاً:

"يجب التمييز بين النظام وغالبية العَلَويين الذين لم يكنْ لهم دور في تأسيسه، بل هم جزء مِنَ الأغلبية الصامتة مِنَ الناس الذين قاوموا جرائمه، في قلوبهم على الأقل"[4].

حاولَ **البيطارُ** الفصلَ بين الطائفة العَلَوية ونظام **الأسد** لتقليل خوفهم وعدم اطمئنانهم الطائفي، مما كان سيؤدي لإضعاف قبضة **حافظ الأسد** على السلطة، وبذلك وَسَم **البيطار** نفسه بأنه يهدد حكم **حافظ الأسد**. ثبتتْ خطورة تصريحات **البيطار** عندما تمّ اغتياله، مثل **كمال جنبلاط**، بعد ذلك بأسابيع قليلة في 21 يوليو 1980 في باريس[5].

(1) سورية تجعل الإخوان المسلمين خارجين على القانون. التايمز. لندن. 9 يوليو 1980
(2) زعيم الإسلاميين المتمردين يُقتَل رمياً بالرصاص في سورية. التايمز. لندن. 18 أغسطس 1980
(3) نص مقابلة مع صلاح الدين البيطار، MERIP Reports, No. 110, Syria's Troubles, 1982 صفحة 21-23
(4) وردتْ في كتاب بطاطو 1999 صفحة 229
(5) اغتيال رئيس وزراء سورية السابق في مكتبه بباريس على يد قاتل مجهول. نيويورك تايمز. 22 يوليو 1980. التايمز. لندن. 22 يوليو 1980

تابَع النظام محاولاته لتحسين شرعيته وشعبيته. في سبتمبر 1980 سارَع **الأسد** بالموافقة على الاتحاد السياسي مع ليبيا لإثبات اتجاهاته القومية العربية[1]. كانت الوحدة شكلية وظاهرية فقط، ولَمْ تطبَّق فعلياً بشكل جدّي. في أكتوبر 1980 قام نظام **الأسد** بخطواتِ تقارب مع الاتحاد السوفييتي[2]، وتمّ تجديد صفقات استيراد السلاح التي كان الاتحاد السوفييتي متردداً في تسليمها في السنوات الأخيرة[3]. كانت الحجة الرسمية لصفقات السلاح هي "الكفاح ضد إسرائيل"، إلا أنّ الاضطرابات الداخلية هي التي دفعت النظام إلى تحسين قدراته العسكرية.

في أواخر أكتوبر 1980 أعلن النظام انتصاره في النضال ضد الإخوان. صرّح وزير الإعلام **أحمد اسكندر أحمد** أنّ: "*الإخوان المسلمون أصبحوا إما وراء القضبان أو في قبورهم، والباقون غير مهمين ومازالت مطاردتهم مستمرة*"[4]. إلا أنّ استمرار ضغط أجهزة الأمن على خلايا الإخوان ساهمَ في توضيح مدى انتشار التمرد خاصة في حلب وحماة، بل وفي دمشق. فمثلاً قُتِل سبعة مِنَ الإخوان المسلمين، وتمّ اكتشاف كميات كبيرة مِنَ الأسلحة والمتفجرات في منطقة القَدَم في 29 سبتمبر 1980. كما وردَتْ تقارير عن إعدامات جماعية في ساحة رئيسية في حلب لمئتين مِنَ المتمردين في أواخر ديسمبر[5]. بالنظر إلى التصريح السابق للنظام أنّ تمرد الإخوان المسلمين قد قُضِيَ عليه، فقد جدّد النظام ادعاءاته بوجود تآمر إسرائيلي أمريكي وتدخل في شؤون سورية الداخلية[6].

في بداية 1981 ظهر أنّ النظام قد بدأ أخيراً بالسيطرة على الوضع، فقد انخفض مستوى العنف، وجدّد وزير الإعلام تصريحاته بالنصر قائلاً: "*تمّ القضاء*

(1) سورية توافق على الاتحاد مع ليبيا. التايمز. لندن. 3 سبتمبر 1980
(2) تم شجب غزو الاتحاد السوفييتي لأفغانستان في العالَم الإسلامي وسبب حرجاً للأسد لأنه لم يستطع انتقاد حليفه الرئيسي. انظر نيويورك تايمز 9 مارس 1980
(3) سورية توقّع معاهدات تسليح واتفاقيات سياسية مع موسكو. التايمز. لندن. 9 أكتوبر 1980
(4) مطاردةُ الإخوان المسلمين تُظهر قوتَهم. التايمز. لندن. 25 أكتوبر 1980
(5) عمان تنشر تقارير عن إعدامات جماعية نفتها سورية. التايمز. لندن. 3 يناير 1981
(6) مقتل سبعة من الإخوان المسلمين الممنوعين في سورية. التايمز. لندن. 30 سبتمبر 1980

على الإخوان المسلمين داخل سورية. فالذين كانوا نشيطين داخل سورية قد هربوا... وأغلبهم تجمّعوا في ألمانيا الغربية وبريطانيا"[1]. حدث انفجار ضخم في دمشق في أواخر نوفمبر 1981 هدم 4 بنايات وقتل 200 شخص، مما أثبت أنّ الإخوان المسلمين مازالوا مستمرين في الهجوم[2].

مأساة حماة وفشل اندماج العَلَويين

في بداية 1982 وصل الصراع بين النظام والإخوان المسلمين إلى مرحلة حرجة، والمذبحة التي ارتكبت في مدينة حماة في الأسابيع الأولى مِنْ فبراير 1982 موثّقة جيداً[3]. أهمية حماة بالنسبة لتأثيراتها على العصبية العَلَوية تحتاج إلى تركيز خاص، فقد قَضَت العمليات العسكرية ضد حماة على الإخوان المسلمين كقوة في سورية، ولكنها أدّتْ أيضاً إلى فقدان العَلَويين لأي أمل في الاندماج الحقيقي في المجتمع السوري، وأشارتْ إلى تصاعد محتم للخوف الطائفي كعامل رئيسي في السياسة السورية.

في يناير 1982 اكتشفت المخابرات خطةَ انقلاب يقوم به بعض صغار الضباط في القوات الجوية[4]، وأَوصلت التحقيقات التي أُجريتْ مع المتآمرين إلى القيام بمداهمة مخبأ للإخوان المسلمين في حماة ليلة الثاني مِنْ فبراير 1982. إلا أنّ حوالي 300 جندي مِنَ الكتيبة 21 للمشاة المحمولة مِنَ الفرقة الثالثة[5]، وأغلبهم مِنَ العَلَويين، وربما مع عملاء مخابرات عَلَويين أيضاً، وقعوا في كمين ليلي وقُتِلوا جميعاً[6]. يبدو أنّ الوحدة قد اكتشفَتْ مخزناً لكمية كبيرة مِنَ الأسلحة المُحَضَّرة

(1) التايمز. لندن. 28 فبراير 1981
(2) جون كيفنر John Kifner: مبعوث يفاجئ سورية في وقت سيئ جداً. نيويورك تايمز. 6 ديسمبر 1981. التايمز. لندن. 1 ديسمبر 1981. نيويورك تايمز. 29 مايو 1982
(3) عمر إيلسلي Omar Ilsley سورية: مذبحة حماة. الأصوات المكبوتة، الأعمال الوحشية غير المعترف بها في القرن العشرين. تحرير آدامز H. Adam (Berkshire Academic Press, 2011).
(4) نيويورك تايمز. 29 مايو 1982
(5) قامت سورية بقصف أجزاء من مدينة متمردة. نيويورك تايمز. 21 فبراير 1982
(6) نيويورك تايمز. 29 مايو 1982

للقيام بهجوم كبير ضد النظام[1]. اضطر الإخوان لبدء هجومهم بشكل مبكر مع إطلاق نداءات للثورة عبر المآذن[2]. في اليوم التالي كان أغلب مدينة حماة "محـرَّراً" مِنْ سلطة الحكومة، وتمّ القبض على أغلب المسؤولين البعثيين أو تمّ قَتلهم. هنـاك أدلة تشير إلى أنّ ثورات مماثلة كانت ستَحدث في الوقت نفسه في اللاذقية وطرطوس وحلب[3]. ولو نجح ذلك فستُحاصَر الجبال الساحلية. يوضح ذلك التخطيط الدقيق الذي قام به المتمردون نيَّتهم قطعَ رأس النظام وفصله عن قاعدة قوته العَلَوية. لَمْ يحدث شيئ مِنْ تلك الثورات الأخرى[4]، رغم أنّ الجيش السوري قد قصف بعض أحياء مدينة طرابلس في لبنان بعد أنْ تعرَّضَت القوات السورية لإطلاق نار هناك[5].

أَجبرَت الثورةُ **الأسد** على التصرف، وقطَعتْ كل فرصة للسير في طريق التصالح الذي حاولَه بعض العَلَويين المتحررين. وَضَّحَت الثورة أهمية المعارضة العنيدة ضد الصفة العَلَوية للنظام رغم كل جهود **حافظ الأسد** في إخفاء ذلك. أصبحَت الآن قضية مصير بالنسبة للنظام. عَلّقَ دبلوماسي غربي كان في سورية آنذاك أنه: "*مِنَ المبكر جداً الحديث عن نهاية هذه الحكومة، ولكنْ بعد سنة أو سنتين ستكون القصة مختلفة*"[6]. بالنسبة للعَلَويين كان الانتصار النهائي على المعارضة لنظام **الأسد** في حماة والمدن الأخرى عملاً ضرورياً لمنع القمع الوحشي الذي قد يَمنع ويَعكس مسار صعودهم الاجتماعي والسياسي كما يدل عليه التاريخ.

حسب الشيخ **نصير إيزكيوكاك** فإنّ قرار القضاء على الإخوان المسلمين نهائياً قد صدَرَ عن **رفعت الأسد** الذي قال لأخيه: "*كنتُ أنفذ أوامرك دائماً، ولكني لا*

(1) نيويورك تايمز. 14 فبراير 1982
(2) سورية تشد ذيل النمر. نيويورك تايمز. 14 فبراير 1982
(3) القوات المسلحة السورية تزعم أنها تحارب متمردين محاصرين في مدينة مركزية. التايمز. لندن. 16 فبراير 1982. نيويورك تايمز. 12 فبراير 1982
(4) نيويورك تايمز. 14 فبراير 1982
(5) نيويورك تايمز. 21 يونيو 1983
(6) الأسد يقول إنه مسيطر على الوضع رغم تمرد المعارضة. نيويورك تايمز. 14 فبراير 1982

أريد إطاعتك بعد الآن. طلبتَ مني الصبر دائماً، ولكنني الآن سأقوم بضربهم". وصَفَ الشيخ كيف عاش الإخوان المسلمون تحت الأرض، ولذلك عندما ضربهم **رفعت الأسد** "*تمّ تدمير المدينة*". دافع الشيخ **إيزكيوكاك** عن تصرفات النظام في فبراير 1982 قائلاً: "*لماذا كانت هناك مشكلة في حماة؟ لقد كان الإخوان المسلمون هم الذين قَتلوا طلاب الضباط في المدرسة العسكرية، عَلَويون وسنّيون، نعم أطلَقوا عليهم النار، ولَمْ يستطع* ***حافظ الأسد*** *أنْ يتحمل أكثر مِنْ ذلك، وتركَ أخاه يقصف حماة*"[1].

هذه التبريرات للأعمال العسكرية التي جرَتْ في حماة تفسر لماذا ظلّت القوات المسلحة وقوات الأمن التي سيطر عليها العَلَويون موالية للنظام دائماً. لو تكرر في سورية ما حدث في الثورة الإيرانية قبل ذلك بثلاث سنوات، عندما رفض جنود الحكومة إطلاق النار على المتظاهرين، لكان في ذلك نهاية نظام **الأسد**. هناك تقارير مبكرة عن حدوث انشقاقات في الجيش[2]، إلا أنها كانت كاذبة، وربما صدَرَتْ بسبب ارتداء بعض المتمردين اللباس العسكري للجنود الذين قُتلوا في المعركة[3]. ادّعتْ تقارير أخرى أنّ بعض الجنود رفضوا تنفيذ أوامر إطلاق النار على المدنيين[4]، إلا أنّ الانضباط العسكري ظلّ متماسكاً بشكل عام[5].

حسب مصادر معاصرة فقد نَشَر النظام 12000 جندي[6]، مِنَ الكتيبة 21 مشاة محمولة، والفرقة الثالثة المدرعة، والكتيبة 47 المدرعة المستقلة، وسرايا الدفاع التي يقودها **رفعت الأسد** الذي أشرفَ بنفسه على العملية[7]. رغم أنّ جميع الوحدات كانت تحت قيادة عَلَويين مخلصين، إلا أنه على غير التصور السائد، لَمْ تكن القوة بكاملها مِنَ العَلَويين، فقد شارك فيها عدد كبير مِنَ الأكراد أيضاً،

(1) الشيخ نصير إيزكيوكاك Nasir Eskiocak. مقابلة مع المؤلف. أنطاكية. 28 مارس 2011
(2) المتمردون يتمسكون بجزيرة في حماة. التايمز. لندن. 15 فبراير 1982
(3) السوريون يقولون إن التمرد قد انتهى. التايمز. لندن. 16 فبراير 1982
(4) نيويورك تايمز. 24 مارس 1982
(5) التمرد السوري يهدأ ولكن التوتر يستمر. نيويورك تايمز. 24 مارس 1982
(6) سيل 1988 صفحة 333
(7) نيويورك تايمز. 14 فبراير 1982

ولذلك ذُكر الأكراد في الكتابات التي ظَهَرتْ على الجدران بعد عملية حماة كأهداف "للانتقام المباشر"[1]. باستخدام قوات كردية نجح **حافظ الأسد** في توزيع اللوم قليلاً، وتجنَّبَ وصفَ القتال بأنه مواجهة سنّية - عَلَوية[2].

تَمَّتِ المعركة بكل الوحشية التي يمكن أنْ ترتكبها طائفتان لديهما تاريخ طويل مِنَ الكراهية الاجتماعية والدينية. حارب المتمردون الإسلاميون لاسترجاع النظام السياسي "الطبيعي" في سورية ضد العَلَويين "الزنادقة الذين اغتصبوا السلطة". وحارب العَلَويون مِنْ أجل استمرار نظام **الأسد** الذي آمنوا أنه أملهم الوحيد في تحقيق الأمن والمساواة في المجتمع السوري[3]. صبَّتْ وحدات النظام قصفاً هائلاً على المدينة بالمدفعية والطيران على مر ثلاثة أسابيع مِنَ القتال. بلغ عدد الضحايا حوالي عشرين ألف قتيل، بالإضافة إلى تخريب أجزاء كبيرة مِنْ حماة[4].

بقي جزء صغير مِنَ المدينة القديمة غير مهدم ولكنه مثقَّب بالرصاص ربما لتذكير سكان حماة بنتائج مواجهة نظام **الأسد** (الشكل 7). تظلّ هذه الآثار نموذجاً للاختيار **الفاوستي** [الشيطاني] الذي سلكه العَلَويون مع نظام **الأسد** خلال تلك الأسابيع العنيفة في فبراير 1982. ضَمِنَ هذا الاختيار سلامةَ العَلَويين باستمرار حكم **الأسد**، ولكنّ الثمن كان ارتباطهم المباشر بالمذبحة، وفقدان كل فرص التصالح الطائفي الحقيقي بين السنّة والعَلَويين.

---

(1) تيجيل Tejel 2009 صفحة 67

(2) اقترح تيجيل أن حافظ الأسد أبقى على تحالف مع الأكراد واستخدمه بتزايد خلال الصراع الداخلي في الفترة 1976-1982. انظر المصدر نفسه صفحة 62

(3) يتضح ذلك في تعريف حافظ الأسد الذي قدمه الشيخ نصير إيزكيوكاك عندما قال إنه حكَمَ بالمساواة.

(4) تم الحصول على هذا الرقم من سجلات السكان لمدينة حماة بين 1979-1983. انظر أون وينكلر Onn Winckler التغيرات السكانية والسياسة السكانية في سورية البعثية. (Brighton & Portland: Sussex Academic Press, 1999) صفحة 72

الشكل 7: بقايا الدمار في مدينة حماة القديمة:



المصدر: المؤلف. أغسطس 2009

مِنْ أهم نتائج التمرد كان فشل الثورة في الانتشار خارج حماة. لا شك بأنّ ذلك كان أكبر مخاوف النظام، وأعظم آمال المتمردين. توضح دراسة المصادر المعاصرة كيف حاول النظام بشكل محموم إخفاء نطاق وطبيعة القتال. نُشرتْ اتهامات التآمر مع الأمريكان والإسرائيليين وتصاعدتْ إلى سويات أعلى مِنْ ذي قبل[1]. أُغلِقتِ المدينة تماماً، ووصِفَتِ التقارير القادمة منها بأنها أكاذيب صريحة[2].

لا شك بأنّ خوف العَلَويين مِنْ رد فعل العالَم السنّيّ ضد نظام **الأسد** قد ازداد بسبب التورط الفعلي للنظامين الأردني والعراقي في دعم تمرد الإخوان المسلمين[3]. رغبةُ النظام السوري في نفي ما توارد في العالَم العربي عن وجود

---

(1) سورية تقول إن أمريكا ضَخَّمت من التمرد في حماة. التايمز. لندن. 12 فبراير 1982

(2) سورية تقول إن التايمز تكذب. التايمز. لندن. 14 فبراير 1982

(3) جوبين غودارزي Jubin Goodarzi سورية وإيران، التحالف السياسي وسياسة القوة في الشرق الأوسط. (London: Taurus, 2006) صفحة 54، 61. نيويورك تايمز. 12 نوفمبر 1985

تمرد داخلي كانت واضحةً خلال مؤتمر عربي عُقد في تونس، حيث قال وزير الخارجية **عبد الحليم خدام** أنه لا توجد أحداث في سورية، وإنما "*بحثٌ أمني عن مخازن سلاح*" [1]. في تصريح واضح آخر عن مخاوف النظام ذَكَرت الجريدة الرسمية "Syria Times" أنّ أهل حلب قد "*استنكروا الجرائم التي ارتكبتها عصابات الإخوان المسلمين في حماة، والتي أضافوا بها صفحة سوداء جديدة لسجلّهم في التآمر ضد الوحدة الوطنية ومنجزات الجماهير السورية*" [2]. وما حدَثَ هو أنّ بقية أرجاء الدولة ظلّتْ صامتة بشكل مُريب خلال أحداث حماة، فيما عدا اضرابات صغيرة في حلب.

مِنَ الخطأ اعتبار أنّ حماة تمثل الأغلبية السنيّة السورية، فقد كانت حماة دائماً معقلاً قوياً للإسلام المحافظ بما يشبه الحالة في المدينتين المقدَّسَة مكة والمدينة[3]. هذا الفارق الديني بينها وبين بقية المدن السورية يظل واضحاً حتى هذه الأيام. أغلب السوريين هم عمليون بطبيعتهم، وقد ركّز **عبد الحليم خدام** على ذلك للمؤلف بقوله: "*المواطن السوري ليس متطرفاً ولا عدوانياً. وهم يعرفون مَنْ يحكم البلد، ويفهمون ما يجري*". حسب هذا التقييم فقد فَهم السوريون جيداً بشكل عام حقيقة الوضع السياسي في بلدهم، ولكنهم اختاروا القيام بما تقتضيه الضرورة مِنْ تنازلات لضمان سلامتهم. وفي هذا المجال يمكن رسم مسار مشابه بين ما حدث في ثورة العَلَويين في جبلة سنة 1318، وثورة حماة في 1982. فقد قامَتْ بكلٍ مِنْ هاتين الثورتين فئات مسلحة مِنْ طائفتهم، وواجهتا سلطة قاهرة، وكانت فرصتهما في النجاح ضئيلة، ولَمْ تحصل أي منهما على الدعم والتأييد الكافي مِنْ بقية الطائفة. توضح هذه المقارنة سمة مشتركة لسكان المشرق العربي تختلف عن بعض التصورات الخاطئة. فمثلاً تُخالف نظرية **فيليب سالزمان** في "توازن المعارضة" لأنه لَمْ يكن هنالك لجوء ثقافي عفوي للتماسك الطائفي عند السنّة عندما اندلع

(1) التايمز. لندن. 15 فبراير 1982

(2) الصحافة السورية تُدين الإخوان. التايمز. لندن. 17 فبراير 1982

(3) اسحق وايزمان Itzchak Weismann سعيد حوا: نشأة مفكر إسلامي راديكالي في سورية الحديثة. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 29, No. 4 (Oct., 1993) صفحة 603-602

الصراع[1]. وعلى العكس مِنْ ثورة جبلة في 1318 فإنّ العصبية العَلَوية في 1982 دفعت الطائفة إلى التضامن والتكاتف بسبب شعور عام بالخوف وعدم الأمان عندما أحسّوا برفض الطائفة السنيّة.

تَركَتْ أحداث فبراير 1982 إرثاً مِنْ ندبات المشاعر الدفينة لدى سكان حماة. يفسر ذلك الحقد المتجهم الصموت في سلوك السكان الذي لاحظه **دى أتكين** سنة 1996[2]، وظلّ ذلك واضحاً للمؤلف سنة 2009، على العكس مِنْ بقية أرجاء سورية. ربما يرجع ذلك لما فَعله النظام بهم، وربما يصدر أيضاً عن شعورهم بالخيانة الظالمة التي قبِلَ بها ضمنياً أهلهم مِنَ المسلمين السنّة، فلمْ يهرعوا لمساعدتهم. لن تزول كراهية عائلة **الأسد** والطائفة العَلَوية لدى الناجين مِنْ مأساة حماة على مر الزمن. فمثلاً في 2011 تذَكّرت إحدى الأمهات مقتل ابنها الذي كان في السادسة عشرة مِنْ عمره بقولها: "*بدأتُ بالصراخ، فأمسك بي أحد الضباط العَلَويين وقال: إبنك مجرم، وقد قتل نفسه. لا أستطيع أنْ أنسى وجهه أبداً، أبداً، أبداً*". توضح كلمات ناجٍ آخر ارتباط كامل الطائفة العَلَوية بمجزرة حماة: "*كانت حماة مدينة محافظة وأهلها عنيدون ويرفضون الخضوع، ولكنّ العَلَويين لقّنوا بقية البلد درساً في حماة. كانت جريمة أنْ تكون حَمْوياً*" [3].

في التحليل الأخير كانت ثورة حماة لحظة تاريخية في تاريخ العَلَويين، فإنّ مشاركة العَلَويين في قمع تمرد حماة قد أثبتت التزامهم بنظام **الأسد**. مِنَ المثير افتراض ما يمكن أنْ يحدث لو أنّ الضباط والجنود العَلَويين تمردوا واختاروا عدم التعاون في تدمير حماة. ربما أدى ذلك إلى إزالة الربط المباشر بين الطائفة العَلَوية مع تلك العلامة السوداء في تاريخ سورية، وتُحسّن فرص المصالحة الطائفة الحقيقية. إلا أنه كان سيؤدي إلى عدم استقرار نظام **الأسد** الذي سيقود أيضاً إلى نتائج سلبية

(1) فيليب سالزمان Philip Salzman الثقافة والصراع في الشرق الأوسط. (New York: Humanity Books, 2008) صفحة 11

(2) نورفيل دى أتكين Norvelle De Atkine العرب كثوار ومعارضين. في روبين Rubin الصراع والتمرد في الشرق الأوسط المعاصر. (Oxon: Routledge, 2009)

(3) سليمان الخالدي: الناجون من مذبحة حماة يراقبون ويأملون. رويتر 7 يوليو 2011.
http://www.reuters.com/article/2011/07/07/us-syria-hama-idUSTRE7665R620110707

للعَلَويين. ولذا فمِنَ الممكن تفهّم شعور العَلَويين أنه لمْ يكنْ أمامهم خيار آخر فيما حدث بمدينة حماة.

كما لا يمكن وضع اللوم كله على **حافظ الأسد** في الطريق التي اتبعها. لأنه حتى فبراير 1982 كان قد حاولَ تطبيق الطرق التصالحية التي اقترحها العَلَويون المتحررون، ممزوجةً بشكل حذر مع إجراءات انتقامية ضد مَنْ يعتقد أنهم "متطرفون هامشيون" و"عملاء أجانب"، وشمل ذلك أهل حماة. بشكل عام فقد حاوَلَ الاحتفاظ بالتأييد الشعبي وتجنُّبَ القمع الصارم للأغلبية. ولكنّ استفزازات الإخوان المسلمين المستمرة لمْ تترك له المجال إلا لاتخاذ قرارات حاسمة، أو أنْ يتنحى، وهو خيار لا يؤيده هو ولا الزعامات العَلَوية. فرَضَ **حافظ الأسد** حَلَّهُ بالقمع العنيد للمعارضة المسلحة، مما أكسبه ثقةَ كثيرٍ مِنَ العَلَويين دون شك، وأقنعَ معارضيه السنّة بعدم جدوى المقاومة المفتوحة. ظهرتْ أعصاب **الأسد** الفولاذية للجميع بعد ثورة حماة عندما اختلط بالجماهير بعد خطاب ألقاه في دمشق، ومشى عدة أميال في مركز المدينة بمجازفةٍ أمنية جريئة(1). في تلك الفترة ظهر تباين واضح في العصبية العَلَوية بين العصبية الطائفية لدى عامة جماهير العَلَويين، التي استندت بشكل متزايد إلى الخوف الطائفي، وبين العصبية القبلية لعائلة **الأسد** ومؤيديه المقربين. كانت عصبية هؤلاء المقربين تشبه كثيراً فكرة **ابن خلدون** عن تأثيرات الفساد والانحلال على تماسك الجماعة. مثالٌ واضح على ذلك هو **رفعت الأسد** الذي شعر بقوته إثر "النجاح" الذي حققه قمعه الوحشي في حماة.

في النهاية أدّتْ محاولات الإخوان المسلمين ومؤيديهم لزعزعة استقرار نظام **الأسد** وإسقاطه إلى نتائج عكسية، فقد كانت نتيجتها النهائية هي القضاء على كل معارَضة فعلية في سورية، وتقوية عصبية العَلَويين مع **الأسد**. وبالنسبة للعَلَويين لمْ يكن في ذلك نصر بالضرورة، فقد انهارت في حماة جميع محاولاتهم للاندماج في المجتمع السوري وتغيير هويتهم السياسية إلى كونهم جزء مِنَ الأكثرية العربية والإسلام القويم. اضطر العَلَويون الآن لاتخاذ موقف لا يستطيعون فيه المحافظة على

(1) نيويورك تايمز 24 مارس 1982

وضعهم المتميز في سورية إلا بالإكراه. وبالتعاون مع عائلة **الأسد** أصبح مِنَ الضروري مراقبة الشعب بدقة، وقمْعهم بقوة عند الحاجة، لتجنب أي رد فعل عنيف. رغم أنّ أفراداً مِنَ الطائفة العَلَوية سيطروا على الدولة، فقد تَصَور أغلب السوريون أنّ العَلَويين هم أقلية طائفية قد "نَسيتْ نفسها". في هذا السياق السياسي السلبي اختفتْ أصوات العَلَويين المتحررين. شذَّ عن تلك القاعدة عضو عَلَوي في حزب العمل الشيوعي هو الكاتب **لؤي حسين** الذي سُجن سبع سنوات بدون محاكمة في 1984، ثم مُنع مِنَ السفر وتعرَّضَ لمضايقات المخابرات(1).

النظام السوري القمعي في سورية الذي يَخترق كل جوانب المجتمع نشأ بشكل أساسي بسبب خوف العَلَويين مِنْ احتمال انتقام الأغلبية السنيّة لمجزرة حماة. منذ أنْ سَكَنَ الغبار بعد آخر طلقة مدفع على حماة في فبراير 1982 وحتى مارس 2011، كانت سورية بكاملها سجناً سياسياً.

تطوّر العَلَويين الاجتماعي والاقتصادي تحت حكم حافظ الأسد، "غنائم القوة"

حتى شهر مارس 1982 لمْ يكنْ بقاء نظام **حافظ الأسد** على المدى الطويل مضموناً. رغم استمراره اثنتي عشرة سنة، وخاصة بعد تمرد الإخوان المسلمين، أصبحتْ قبضة النظام على السلطة مضمونة بفضل دعم العَلَويين الشامل له. هل استفاد العَلَويون مِنْ دعمهم للنظام؟ هل ستوزَّع غنائم السلطة بالتساوي؟ وما الذي سيكون تأثير ذلك على عصبية العَلَويين؟

رغم تَبرؤ **حافظ الأسد** مِنَ العَلَويين في العَلَن(2)، إلا أنه كان في أعماقه واعياً تماماً لأصوله العَلَوية، وعارفاً بالأهمية الحاسمة لدعم العَلَويين غير المشروط لحكمه. ذَكَر سوري مُغْفل الإسم للمؤلف كيف أنه خلال حُكْم **حافظ الأسد** كان هناك

(1) رولا أمين. الجزيرة. 11 يوليو 2011. معارض سوري يُثير التساؤل.

(2) سادوفسكي Y. Sadowski تطور الهوية السياسية في سورية. في: الهوية والسياسة الخارجية في الشرق الأوسط. تحرير: تلحمي Talhamy وبارنيت Barnett (Ithaca & London: Cornell University Press, 2002) صفحة 138

انطباع عام بأنّ: *"أي عَلَويّ مِنْ منطقة اللاذقية يمكن أنْ يقتل شخصاً وينجو بفعلته دون عقاب"*، هكذا كانت حماية هذه الطائفة. حِرْصُ **الأسد** على علاقاتٍ متينةٍ مع أفراد جماعته يتفقُ مع نظرية **ابن خلدون** في حالة المملكة أثناء مرحلتها الأولى. مثالٌ توضيحي على ذلك هو ما حدث في أواسط سنة 1976 عندما وقف **الأسد** أربع ساعات في شارع ترابي رئيسي في بلدته القرداحة وهو يتحدث إلى القرويين عن همومهم[1].

اهتمَّ **حافظ الأسد** في البدء بتطوير حالة العَلَويين الاجتماعية والاقتصادية بشكل جيد، وعند تَذكُّر أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية التاريخية حين كانوا يضطرون أحياناً إلى بيع بناهم لكي يستطيعوا العيش[2]، فإنّ الفوائد المادية التي حَصلتْ عليها الطائفة العَلَوية بشكل عام في العقود الأولى مِنْ حُكم **الأسد** كانت كبيرة. وتطورَت الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والبُنية التحتية، وتَحسّنتْ ظروف ونوعية حياة أغلب العَلَويين في الأرياف.

في سنة 1992 وصلَت الكهرباء إلى 95% مِنَ القرى السورية بفضل سد الفرات[3]. رغم أنّ أغلب مناطق سورية كانت مرتبطة بالشبكة الكهربائية الرئيسية بما فيها منطقة العَلَويين، إلا أنّ وصول التيار الكهربائي بشكل دائم كان محفوفاً بالمصاعب، فالانقطاع اليومي في التيار الكهربائي لمدة أربع إلى ست ساعات كان أمراً معتاداً في الحياة السورية منذ 1985[4]. ترجع أسباب ذلك إلى الجفاف، وارتفاع الاستهلاك، وزيادة استخدام تركيا لمياه الفرات. كانت انقطاعات الكهرباء عقبة كبيرة في تطور سورية الاقتصادي بإعاقتها للتجارة الداخلية والاستثمارات الخارجية، ولكن بالنظر إلى أنّ معظم القرى العَلَوية قبل سنة 1970 لمْ تصل إليها الكهرباء إطلاقاً، وكانوا "ينامون ويصبحون مع الشمس"، فقد أتتْ إليهم فترة حكم **حافظ الأسد** بتطورات هامة. ثم لأنّ معظم نشاط العَلَويين

(1) نيويورك تايمز. 10 أكتوبر 1976

(2) بطاطو 1999 صفحة 41

(3) زافييه دي بلانهول Xavier de Planhol صفحة 89-91

(4) المصدر نفسه صفحة 63-66

التجاري في قراهم ظلّ محصوراً ضمن الزراعة البدائية، والحمضيات، وزراعة التبغ، فقد كان اعتمادهم على الكهرباء بسيطاً. وهكذا رغم أنّ البنية التحتية للكهرباء التي لا يمكن الاعتماد عليها كانت مصدراً رئيسياً لعدم الرضا بين سكان المدن، فقد نُظِر إليها في القرى العَلَوية كتطور وتحسّن هام يجب توجيه الشكر بشأنه للرئيس **الأسد**. تَحَسُّنٌ وطني آخر كان توفير مياه الشرب النقية لدى 54% مِن سكان الأرياف بما فيها منطقة العَلَويين في 1980. وكانت تلك رفاهية لمْ توجد في منطقة العَلَويين قبل ثلاثين سنة.

ربما كانت أهم التحسينات الجذرية في الثمانينيات هي إنشاء شبكة الطرق التي وصَلتْ أكثر مِنْ 500 قرية في منطقة العَلَويين[1]. لمْ يكن ذلك إنجازاً بسيطاً بالنظر إلى وعورة المنطقة، ورغم أنّ قلةً مِنَ العَلَويين العاديين امتلكوا سيارات، إلا أنّ باصات صغيرة أخذتْ تجوب الطرق، وتصل العَلَويين ببعضهم، وتؤمّن النقل لسكان منطقة العَلَويين بكلفة زهيدة جداً. كانت النتائج هامة لأنها أنْهَت فعلياً الانقطاع والتفرق التاريخي بين مناطق وعشائر الجبال الساحلية. مقارنة مفيدة يمكن إجراؤها هنا مع ما فعله الرئيس اللبناني الماروني **فؤاد شهاب** في الخمسينيات، فقد روَّجَ **شهاب** لإنشاء شبكة طرق جديدة تصل بين مناطق الموارنة الجبلية لترسيخ التكاتف المسيحي. كان هدف **شهاب** هو خطة بديلة فيما إذا فشل المشروع السياسي المتعدد الطوائف في لبنان[2]. أما بالنسبة للأسد فإنّ زيادة التواصل بين العَلَويين سيؤدي إلى توسيع قاعدة قوته، كما أنها جزء مِنْ إيديولوجية البعث في تحسين أوضاع طبقة الفلاحين.

فَتْحُ فرص التعليم للعَلَويين كان أيضاً مِنْ إنجازات فترة حكم **حافظ الأسد**. حسب **بطاطو** فقد تضاعَفَ عدد المدارس الابتدائية الريفية في سورية مِنْ 3000

(1) بطاطو 1999 صفحة 69. لاحظ نيفيل بربور سنة 1960 أن الطرق في الجبال الساحلية لم تكن أكثر من طرق ترابية وعرة. انظر: انطباعات في الجمهورية العربية المتحدة. مجلة *International Affairs*, Vol. 36, No. 1, (Jan., 1960) صفحة 28

(2) ويليام هاريس William Harris تاريخ لبنان 600–2011 الفصل الخامس (New York: Oxford University Press, forthcoming in 2012)

مَدرسة سنة 1963 إلى 6302 مَدرسة في 1980، كما ارتفعت نسبة خريجي المدارس الابتدائية مِنْ 3.7% سنة 1963 إلى 27.9% سنة 1991[1]. توضح هذه الإحصائيات أنّ نظام **حافظ الأسد** كان عاملاً مساعداً في تحسين تعليم العَلَويين أكبر مِنَ البند الثامن في صك الانتداب الفرنسي ومِنَ المدارس التبشيرية الأمريكية.

إحدى الطرق الهامة في تطوير العَلَويين التي حدَثَتْ تحت حكم **حافظ الأسد** هي تأسيس شبكات الرعاية غير الرسمية[2]، ففي السبعينيات كان زعماء العَلَويين المرتبطين بالنظام، وغالباً ما كانوا يقومون بالتهريب، يوزعون الغنائم على الفقراء مِنْ أفراد عشائرهم الذين لا يحظون بطريقة للحصول على مصادر مالية[3]. رَبطتْ شبكاتُ الرعاية العَلَويين براعِيهم المباشر، وبالتالي بعائلة **الأسد**. فمثلاً كان **غازي كنعان** مِنْ عشيرة الكلبية يتصرف "كزعيم اقطاعي" في قريته بْحَمْرَة وما حولها، ويوزع العطايا مقابل الولاء. تقدَّم **كنعان** بمنحةٍ شخصية لإنشاء مكتبة ومركز اجتماعي في المنطقة[4]، وكانت تلك مِنْ أوائل التحسينات في البنية التحتية في قرى مثل بْحَمْرَة منذ بناء المدارس التبشيرية الأمريكية في 1850 – 1860.

رغم أنّ التحسينات العامة في ظروف معيشة العَلَويين يجب ألا يُقلَّل مِنْ أهميتها، إلا أنّ تحسّن مستوى المعيشة لغالبية الطائفة العَلَوية لمْ يكن متساوياً. فقد كانت هناك فروق في الازدهار والتطور بين التحالفات القبلية في منطقة العَلَويين، وإنّ تطور القرداحة، مسقط رأس **حافظ الأسد**، بشكل خاص مقارنة ببقية البلدات والقرى العَلَوية، أمرٌ يستحق الدراسة.

تقع القرداحة على سفوح الجبال الساحلية على بُعد 20 كم تقريباً جنوب شرق اللاذقية. في سنة 1986، بعد مرور عشر سنوات على وقوف **حافظ الأسد**

(1) بطاطو 1999 صفحة 71

(2) ستيفن هيدمان Steven Heydemann شبكات الامتيازات في الشرق الأوسط: إعادة تقييم لسياسة الاصلاحات الاقتصادية. (Basingstoke, New York: Palgrave-Macmillan, 2004)

(3) تيجيل Tejel 2009 صفحة 68

(4) أنتوني شديد: موت وزير سوري يترك طائفته هائمة في وقت الشدة. واشنطن بوست. 31 أكتوبر 2005

في "الشارع الترابي الرئيسي" لبلدته الفقيرة، زار مراسلُ صحيفة نيويورك تايمز القرداحة، ولاحَظ وجود طريق عام سريع مِنْ أربعة مسارب يؤدي إلى البلدة، "*وتدفق البناء والثروة*"[1]. وظَهرَ قصر **الأسد** في البلدة خلف جدران صفراء عالية محروساً بقوات النخبة.

بناءُ مطار دولي جديد على بعد عشرة كيلومترات مِنَ القرداحة يشكل نقطة هامة أخرى. رغم أنّ المطار الدولي في حلب يستطيع بكل سهولة أنْ يخدم الجزء الشمالي الغربي مِنَ الدولة، ولكنّ وجود مطار يؤَمِّن للأسد والمقربين منه خدمةً مفيدة للتنقل بين دمشق والقرداحة (أو اللاذقية)، وربما يَضمن طريق هروب هام لأفراد النظام إلى خارج الدولة إذا حدَثَ طارئ أمني خطير. بالإضافة إلى ميناء اللاذقية الرئيسي، طَوَّرتْ منطقة العَلَويين مستوى جيداً مِنَ البنية التحتية يمكن أنْ تتحمل دعم دولة مستقلة إذا احتاج الأمر. هل كان ذلك هدفاً رئيسياً بالنسبة **لحافظ الأسد**؟ تلك مسألة قابلة للنقاش، ولكنْ مِنَ المؤكد أنها قد أُخِذتْ بعين الاعتبار لمواجهة أسوأ الاحتمالات. يشبه ذلك ما فعله المارونيون في تطوير خدمات ميناء جونية في لبنان لضمان موقع مستقل للعلاقات مع الخارج دون أنْ يخططوا فعلياً للإنفصال[2].

ربما كان أفضل وصفٍ للقرداحة في 1986 هو ما ذكره مراسل صحيفة نيويورك تايمز عن المقارنة بين "*رجل مسن منحني الظهر وعديم الأسنان، يرتدي ثياب فلاح رثة*" والرجال الشبان الأصحاء الذين يرتدون البدلة العسكرية الرسمية المنمقة. كان ذلك بالنسبة له دليل محسوس على سرعة التغير السياسي لدى العَلَويين، أو كما قال دبلوماسي غربي آنذاك: "*مِنْ طبقة مدحورة إلى طبقة حاكمة في جيل واحد*"[3]. مِنَ الخطأ فهم أنّ التطور والازدهار الذي حدَثَ في القرداحة قد شمَلَ الطائفة العَلَوية بكاملها، إذ لمْ توزَّع الثروة بشكل متساو، وظلَّتْ

(1) جون كيفنر John Kifner قصة نجاح سورية: أقلية طائفية مكروهة تصبح الطبقة الحاكمة. نيويورك تايمز. 26 ديسمبر 1986

(2) ويليام هاريس William Harris. لبنان: التاريخ 600–2011. مقالة تحت الطبع (New York: Oxford University Press)

(3) نيويورك تايمز. 26 ديسمبر 1982

هنالك فوارق هامة بين العَلَويين المقربين مِنْ عائلة **الأسد** وبين غير المقربين.

بقيَتْ أمارات الفقر والمشقة ظاهرةً على سكان كثير مِنَ القرى العَلَوية، واستمرتْ كبقايا عقدين سابقين مِنَ الزمن. زار المؤلفُ قريةً عَلَوية نائية بعيدة جغرافياً وقَبَلياً عن عشيرة **الأسد** الكلبية، كانت ظروف المعيشة فيها متواضعة، فالكهرباء متوفرة إنما ليس في كل البيوت، وتُنزَحُ الماء مِنَ الآبار في كثير مِن المنازل، ومازالتْ وسائل للتنقل الرئيسية هي الحمير والبغال والباصات الصغيرة التي تصلها مِنَ اللاذقية[1]. ومع ذلك فقد شاركَ أبناءُ هذه القرية في المحافظة على حكْم عائلة **الأسد**. ذَكَرت امرأة مسنة، تنطبق عليها أوصاف الفقر والمصاعب، بكل فخر واعتزاز أنّ زوجها المتوفى كان في الجيش سنوات عديدة تحت إمرة **حافظ الأسد**. كما سارع رجال يعملون في اللاذقية وفي القرية إلى المشاركة بوقار في التمرين على توقيع الرئيس (**بشار الأسد** آنذاك) بينما كان أكثر مواضيع حديثهم عن قلة النقود!

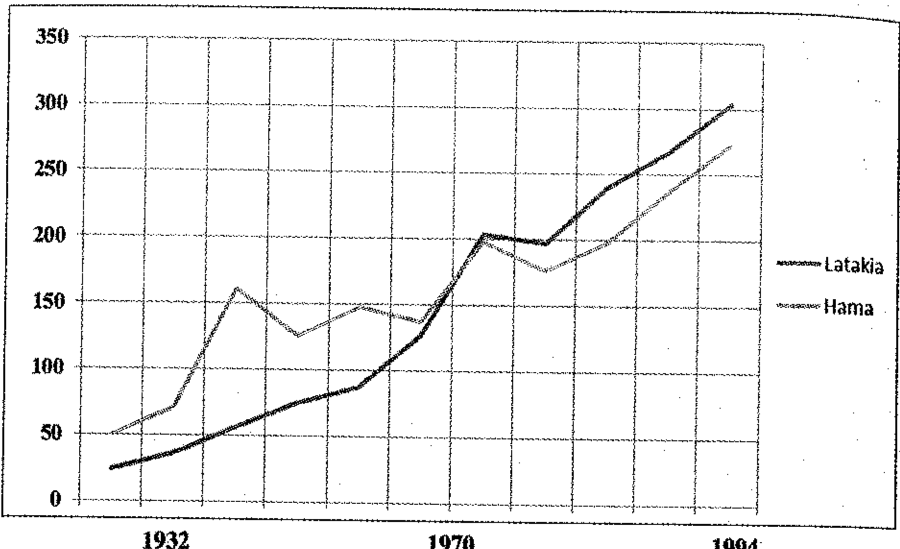
اللاذقية مدينة عَلَوية

يدل التطور السكاني في اللاذقية أثناء العقود المتوسطة مِنَ القرن العشرين على عِظَم تأثير حكْم عائلة **الأسد**. بمقارنة المدن الرئيسية في محافظتي اللاذقية وحماة منذ فترة الانتداب حتى التسعينيات، يتضح أنّ زيادة هجرة العَلَويين إلى المدن تتوافق مع حكم عائلة **الأسد** (الشكل 8)[2]. في فترة الانتداب كان عدد سكان اللاذقية نصفَ عددهم في حماة، كمنطقة منعزلة في سورية عدد سكانها 24000 نَسَمة فقط في 1932، بينما كانت حماة رابع أكبر مدينة في سورية وتعدادها 50000 نَسَمة، ومركزها التجاري نشيط وتسيطر عليه عائلات سنيّة غنية مِنْ مُلاّك الأراضي.

(1) كما شُرح في منهج البحث فقد تم الانتباه في هذه الدراسة إلى عدم التصريح بالأسماء. ولذلك لم تُذكر أسماء قرى بعينها لعدم كشف هوية الذين تقدموا بالمعلومات.

(2) أولسون Olsson 1998 صفحة 182

الشكل 8: مقارنة عدد السكان بين اللاذقية وحماة 1932–1994 (بالآلاف):



المصدر: وينكلر Winkler (1999) صفحة 72

في تلك الفترة كانت أغلبية سكان اللاذقية مِنَ المسلمين السنّة[1]، تغَير ذلك خلال العقود التالية مع هجرة العَلَويين مِنَ الجبال بحثاً عن الفرص. في السنوات الأولى بعد استقلال سورية اتجه المهاجرون مِنَ الأرياف شرقاً نحو المدن الأكبر مثل حماة وحمص. كان **أكرم الحوراني** وحزبه العربي الاشتراكي (الذي ذُكر في الفصل الثالث هنا) عاملاً هاماً في تلك الهجرة. ارتفع عدد سكان حماة في الفترة بين 1943 – 1957 إلى أكثر مِنْ ثلاثة أضعاف، وبلغ 161,000 نَسَمة[2]، في حين ازداد عدد سكان اللاذقية خلال الفترة نفسها بشكل عادي بسبب الزيادة الطبيعية والهجرات البسيطة. ورغم أنّ العَلَويين كان لهم دولة حكم ذاتي وعاصمتها اللاذقية

(1) سيل 1988 صفحة 11

(2) أون وينكلر Onn Winckler التغيرات السكانية والسياسة السكانية في سورية البعثية. (Brighton & Portland: Sussex Academic Press, 1999) صفحة 62، 72، الجدول 3.4 المصادر الأساسية تشمل: فرقة المخابرات البحرية البريطانية في سورية 1943. الشرق الأوسط وشمال أفريقيا 1953–1965/1966. كتاب الأمم المتحدة السنوي للسكان 1963–1994

خلال الانتداب الفرنسي، إلا أنّ ذلك لمْ يشجعهم على الهجرة إلى تلك المدينة.

منتصف الستينيات كانت نقطة انعطاف في مسار عدد سكان اللاذقية، فقد زاد انقلاب 1966 نفوذ عَلَويين مثل **صلاح جديد** و**حافظ الأسد** في حزب البعث، وبالتالي زاد نفوذ العَلَويين وتواجدهم في مراتب البعث، وأدى إلى زيادة هجرتهم إلى اللاذقية. تسارعتْ معدلات الهجرة إلى اللاذقية مرة أخرى بعد وصول **حافظ الأسد** إلى السلطة في 1970 إلى درجة كبيرة بحيث أصبح عدد السكان في اللاذقية أكثر مِنْ حماة في سنة 1979. ومنذ ذلك الوقت أصبحت اللاذقية رابع مدينة في سورية بأغلبية عَلَوية واضحة. حتى مع افتراض معدل مرتفع في الزيادة الطبيعية لسكان اللاذقية الذي بلغ 24000 سنة 1932[1] (ويتضمن أقلية معقولة مِنَ المسيحيين والعَلَويين)، فلا يمكن الوصول إلى الانفجار السكاني الذي حدث. العامل الرئيسي في نمو تعداد سكان اللاذقية إلى 204,000 نَسَمة سنة 1979 لا بد أنْ يكون الهجرة. لا توجد دلائل على هجرة أعداد كبيرة مِنَ السنيّين أو مِنَ الطوائف الأخرى إلى اللاذقية، ولذا فمِنَ المنطق استنتاج أنّ العَلَويين هم الذين أصبحوا الطائفة الرئيسية في اللاذقية سنة 1979 بسبب هجرتهم إليها مِنَ الجبال الساحلية.

تصادف التناقص العابر في سكان اللاذقية وحماة بين 1979 – 1982 مع فترة ارتفاع التوتر الداخلي في سورية. بلَغَ التناقص في اللاذقية حوالي 7000، وربما كان ذلك بسبب عودة العَلَويين (أو إرسال عائلاتهم) إلى قراهم لأسباب أمنية كما ذُكر سابقاً. في حين أنّ التناقص المفاجئ في عدد سكان حماة مِنْ 198,000 سنة 1979، إلى 177,000 سنة 1982[2] يمكنُ أنْ يُفسَّر بتمرد حماة، ويتضمن تقديرات بحوالي 20,000 قتيل[3].

هناك نتائج سياسية هامة لتغيُّر اللاذقية مِنْ مدينة متوسطة الحجم بأغلبية سنيّة، إلى مدينة كبيرة بأغلبية عَلَوية (الشكل 9). فلأول مرة في تاريخ العَلَويين، وبتغير

(1) وينكلر 1999 صفحة 72

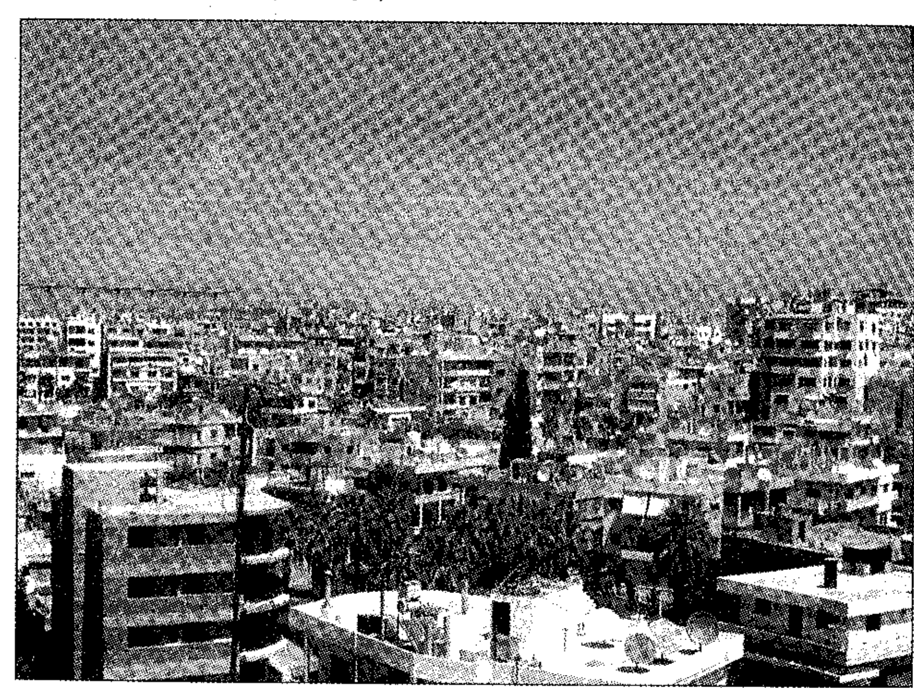
(2) المصدر نفسه. يذكر وينكلر أن مصدر هذه الإحصائيات هي تقديرات كتب الأمم المتحدة للسكان (1981, p.279; 1984, p. 272)

(3) حرب الخلافة. نيويورك تايمز. 17 مايو 1984

هام في تفرقهم وتوزعهم الجغرافي، أصبح للطائفة نواتها المدنية، ومحورٌ يمنح الطائفة العَلَوية مركز جذب اجتماعي وسياسي. جانب هام آخر هو أنّ اللاذقية لا تنتمي إلى عشيرة معينة، ويمكن أنْ تصبح وعاءً تمتزج فيه العشائر العَلَوية التي كانت متفرقة، مما يزيد تماسكهم الطائفي.

تتمتع اللاذقية بمناخ اجتماعي يختلف عن المدن السورية الأخرى، ربما ما عدا طرطوس (التي تضم عدداً كبيراً مِنَ العَلَويين والمسيحيين). كان ذلك واضح خلال البحث الميداني الذي قام به المؤلف خلال شهر رمضان سنة 2009. كانت هنالك دلالات قليلة مما يُشاهد عادةً في مدينة مسلِمة، فالنساء لا يرتدين الحجاب بشكل عام، والمقاهي عامرة خلال النهار في شهر الصوم، والمحلات في شارع أمريكا يُتَشبَّهُ فيها دون حياء بالنماذج والأذواق الغربية.

الشكل 9: مركز مدينة اللاذقية (إلى الشمال)



المصدر: المؤلف. 2009

السكان الأصليون مِنَ المسلمين السنّة (الأكثرية منذ جلاء الصليبيين في القرن الثالث عشر) يمكن تمييزهم بثيابهم المختلفة، ووجودهم في الجزء المركزي القديم مِنَ المدينة. باستثناء المدن الإسرائيلية، ربما تكون مدينة اللاذقية فريدة في الشرق الأوسط كمدينة كبيرة لا تضم أكثرية مسلمة (سنيّة أو شيعية)، وهو وضعٌ غير معتاد منذ دمار الطوائف المسيحية في آسيا الصغرى في القرن الرابع عشر[1]. ربما كانت الاستثناءات هي المدن الصغيرة مثل طرطوس التي تقع حوالي 90 كم جنوب اللاذقية، والسويداء في جنوب غرب سورية والتي تضم أكثرية درزية، وزحلة المدينة المسيحية في لبنان، والسويدية قرب انطاكية في تركيا[2].

دمشق هي مركز التَمَدين الرئيسي الآخر للعَلَويين. لمْ تساعد المدن الإسلامية المحافِظة مثل حلب وحماة وحمص على توطين العَلَويين، رغم أنّ بعض الأحياء العَلَوية قد أُنشئتْ في ضواحيها[3]. كانت دمشق مركز الإدارة البيروقراطية والعسكرية الذي وَظّفَ كثيراً مِنَ العَلَويين، وهكذا أصبح للعَلَويين الجدد القادمين مِنَ الريف تواجدٌ كبير في دمشق منذ بداية السبعينيات. نَشر النظامُ في سبتمبر 1980 خططاً لتطوير مناطق سكنية في جبل قاسيون في الشمال الغربي مِنْ دمشق[4]. وبالطبع لمْ تُذكَر أية معلومات عن أنّ هذه المناطق السكنية الجديدة سيتم حجزها للعَلَويين. ولكن مِنَ الواضح أنّ المنطقة التي تسمى الآن "عش الوروار" يسكنها عَلَويون بشكل رئيسي، وأكثرهم مِنْ متقاعدي الجيش[5]. ويبدو أنّ سكان عش الوروار يتمتعون بحصانة ضد قوانين البناء الحكومية وتدخلاتها، مما يدل على العلاقة الخاصة بين نظام **الأسد** وقاعدة دعمه الرئيسية. موقع الأحياء

(1) فيليب جنكينز Philip Jenkins تاريخ المسيحية الضائع (New York: Harper Collins, 2008) صفحة 132–138

(2) عدد سكان طرطوس 52,589 (تعداد 1981) وأكثرهم عَلَويون ومسيحيون. السويداء 43,414 (تعداد 1981). زحلة 54,129 (تعداد 2010). المصدر: مجلة *World Gazetteer*, 'Syria'. حسب السكان المحليين 90% من سكان السويدية هم عَلَويون.

(3) مثل حي النزهة في حمص وفيه أكثرية عَلَوية منذ 1980.

(4) قاسيون سورية. التايمز. لندن. 5 سبتمبر 1980

(5) ديفيد رين David Rain دمشق: ملاحظة جغرافية ميدانية. مجلة *Geographical Review;* January 2009, Vol. 99, No. 1, New York، صفحة 102

العَلَوية مهم لسببين: وجودها على منحدر شديد يمنحها امتيازات استراتيجية ضد الهجوم إذا حدثت اضطرابات مدنية، كما أنّ موقعها في الشمال الغربي يفتح المجال للانسحاب نحو منطقة العَلَويين، أو إلى لبنان إذا دعَتِ الحاجة لذلك. وبشكل عام يبدو أنّ انتقال العَلَويين إلى دمشق هو إجراء مرحلي لأنهم لمْ يكونوا مرتاحين في "المدن الإسلامية" الداخلية، واحتفظوا باستراتيجيات الخروج.

هناك جانبٌ آخر مهم في نمط هجرة العَلَويين إلى المدن، فرغم أنهم قد أصبحوا أكثرية في اللاذقية، إلا أنهم احتفظوا بعلاقات وثيقة مع قراهم وعشائرهم. قُرْبُ الجبال الساحلية وتوفُّر مواصلات كثيرة ورخيصة جعل مِنَ الممكن للعَلَويين أنْ يعيشوا في قراهم ويعملوا في اللاذقية. احتفظتْ كثير مِنَ العائلات بمساكن في القرية والمدينة، ولذا فقد احتفظ أكثر العَلَويين بنمط حياة القرية ومظاهرها[1]. ارتباطهم بالظروف الطبيعية، الذي نتج عن قرونٍ طويلة مِنَ العزلة، كان واضحاً للمؤلف خلال زياراته إلى الجبال الساحلية. كان مرافقوه العَلَويون أكثر ارتياحاً في قراهم مِنَ المدينة.

كيف أثَّرت التغيرات الاجتماعية التي عاشها العَلَويون على علاقاتهم بنظام **الأسد**؟ عامل هام في نظرية **ابن خلدون** عن تناقص العصبية هو أنّ تَمَدين الجماعة يؤدي إلى انحلالها وفسادها بسبب الثروة والترف، ويُنقِص تماسكها وتضامنها[2]. وهكذا "*يضعف شعورهم الجماعي وشجاعتهم في الأجيال التالية*" [فكلما نزلوا الأرياف وتفنقوا النعيم وأَلِفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم، نقص مِنْ شجاعتهم بمقدار ما نقص مِنْ توحشهم وبداوتهم] ربما كان ذلك صحيحاً في هذه الحالة بالنسبة للعصبية القَبَلية ضمن الدائرة المقرَّبة مِنَ النظام، كما ستتم مناقشته فيما بعد، أما بالنسبة لعامة العَلَويين فلمْ يكن ذلك صحيحاً. فأولاً: أغلبُ العَلَويين لمْ يُصبحوا مِنْ سكان المدن بشكل كامل، مما يوضح أيضاً استمرار الخوف وعدم الاطمئنان لدى الطائفة، كما يعني أيضاً أنّ الطائفة قد احتفظتْ بصفاتها الريفية، ولذلك فإنّ ضعف العصبية بسبب التمدين لمْ يكن حدوثه مؤكداً عند أغلب

(1) أولسون Olsson 1998 صفحة 168

(2) لاكوست Lacoste 1984 صفحة 100

العَلَويين. خلال العمل الميداني سنة 2009 لخَّصَ تعليقٌ ذكرهُ صديقٌ عَلَوي، يعيش ويعمل بين حي فقير في اللاذقية وقريته في الجبال الساحلية، حالةَ عدمِ وجود الترف والرفاهية عندما قال للمؤلف مُحبَطاً: "*أنا فقير يا ليون*". ورغم ذلك فقد كان ذلك الرجل مؤيداً بقوة لعائلة **الأسد**.

في الثمانينيات أدَّت التحسينات الاجتماعية والاقتصادية، الاصلاح الزراعي البعثي، والإعانات الحكومية، إلى تحسن نسبي في أحوال العَلَويين إلا أنهم ظلوا ريفيين. ولذلك لا يوجد سبب للشك بأنّ العصبية أصبحت مُعرَّضَةً للضعف بشكل جاد عند عامة العَلَويين خلال العقود الأولى مِنْ حُكْم **الأسد** وفق نظرية **ابن خلدون**. فقد تَحَسنت معيشتهم بشكل كبير دون أنْ يتعرضوا فعلاً للترف المُفسد.

التوجهات الاجتماعية – الاقتصادية الوطنية خلال حُكْم حافظ الأسد

ارتفع عدد سكان سورية في السبعينيات بشكل غير مسبوق حتى بالنسبة لمعايير الشرق الأوسط، ففي الفترة بين 1970 – 1990 تَضاعف عدد سكان سورية مِنْ 4.6 إلى 12.8 مليون نَسَمة[1]. في البداية لَمْ يكنْ **حافظ الأسد** منزعجاً جداً من هذه الزيادة السكانية، بل اَعتبر أنها تَمنح الدولةَ ميزةً عدديةً ضد عدوها الإسرائيلي في سعيها لتحقيق "التوازن الاستراتيجي"[2]. ساعدتْ عائدات طفرة النفط في السبعينيات على تخفيف الآثار السلبية لزيادة السكان[3]، ولكنْ في نهاية الثمانينيات كان الاقتصاد السوري والبنية التحتية في حالة سيئة، وبدأتْ زيادة السكان الكبيرة تُلقي بثقلها وتُصبح مشكلة جادة أمام النظام. ولكنّ **حافظ الأسد** فشل في تطبيق سياسة تحديد النسل للتقليل مِنْ زيادة السكان. في دراسة مستفيضة للسكان في الشرق الأوسط لَمْ يستطع **أون وينكلر** أنْ: "*يجد تصريحاً واحداً* ***لحافظ***

(1) ريفلين Rivlin 2009 صفحة 240

(2) للبحث في طموح حافظ الأسد لتحقيق التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل انظر: إيال زيسر Eyal Zisser ميراث الأسد. (London: C. Hurst, 2001) صفحة 13

(3) وينكلر Winckler 2009 صفحة 407

الأسد... *أو أي مِنَ القيادات العليا يدعو علناً إلى برنامج لتنظيم الأسرة*". ربما كان يُنظر إلى مثل هذه البرامج على أنها "غير إسلامية"، مما قد يثير موجة جديدة مِنْ عدم التعاطف الديني مع النظام ذي الطابع العَلَوي. وبدلاً عن ذلك تبنى **حافظ الأسد** طريقاً غير مباشر بإنشاء عيادات طوعية لتنظيم الأسرة، مع بقائه على مسافة آمنة بعيداً عن كل ما يُعتبر سياسة غير مقبولة جماهيرياً تتعلق بذلك[1]. غياب أي محاولة جادة لمنع زيادة السكان أدى إلى حدوث تحديات اجتماعية واقتصادية وبيئية قاسية تُعتبَر أهم ما يواجه سورية في القرن الحادي والعشرين.

رَوَّجَ النظام في التعليم والدين لمنهجٍ استند إلى الوطنية البعثية السورية، والقومية العربية، ونمط متجانس مِنَ الإسلام. لاحظَتْ **مونيك كاردينال** أنّ الصفوف الدراسية في سورية خلال التسعينيات لَمْ يُدَرَّس فيها الفرعان الرئيسيان للإسلام: السنيّ والشيعي، ولا العَلَوي ولا أي طائفة أخرى[2]. عدم السماح بمناقشة التكوين الديني المتنوع في سورية قُصِدَ منه خلقُ جيلٍ سوري جديد مِنَ السوريين غير الطائفيين في أفكارهم الاجتماعية والسياسية. اقترَحَ الباحث النرويجي **تورستاين وورن** Torstein Worre أنّ نقص المعلومات في المؤسسات عن الطوائف المختلفة يزيد مِنْ عدم الثقة، ويُثير الشكوك بالآخرين في المجتمع السوري. لتجاوز هذا التيار الخفي مِنْ انعدام الثقة، طوَّرَ السوريون طرقاً غير مباشرة لاكتشاف الانتماء الطائفي وذلك بالسؤال عن اسم العائلة وموطنها الأصلي[3]. يمكن اكتشاف العَلَويين مِنْ لهجتهم وطريقة لفظهم لحرف القاف الذي يُلفظ بطريقة خاصة لدى أغلب الناطقين بالعربية في شرق المتوسط[4].

(1) في 1974 أنشأ حافظ الأسد "المنظمة السورية لتنظيم الأسرة" كمؤسسة طوعية غير حكومية. وينكلر winckler 2009 صفحة 191

(2) مونيك كارينال Monique Cardinal التعليم الديني في سورية: الوحدة والاختلاف. مجلة *British Journal of Religious Education*, Vol.31, No.2, 2009 صفحة 97–98

(3) تورستاين وورن Torstein Worren الخوف والمقاومة: تشكيل هوية عَلَوية في سورية. إطروحة ماجستير في قسم علم الاجتماع والجغرافيا الإنسانية. جامعة أوسلو. فبراير 2007

(4) يشترك معهم الدروز بهذه الطريقة في اللفظ.

بدلاً مِنْ تعزيز اندماج العَلَويين في المجتمع السوري أدَّتْ سياسة **حافظ الأسد** التعليمية في الواقع إلى استمرار غربة العَلَويين. تاريخياً كان المسلمون السنّة يخشون العَلَويين ولا يثقون بهم بسبب هويتهم الدينية الغامضة، ولذلك فإنّ منْع مناقشة الاختلاف (والتشابه) بين الطوائف في الفترة المعاصرة لمْ يساعد إلا على استمرار التصورات المبنية على سوء الفهم. عبّرَ عن ذلك تصريحُ زعماء عَلَويين دينيين في بدايات حكم **الأسد** سنة 1973 بقولهم:

"العامل الرئيسي الذي يؤدي إلى الانقسام والفرقة بين الناس... هو نقص معلوماتهم الحقيقية عن الآخرين... لا يوجد مجتمع بدون اختلافات واحتمالات قتال وصراع... النفوس المريضة تظلّ تبحث في الماضي وتُكرر ما يقوله أعداء العروبة والإسلام"[1]. يبدو هذا التصريح الذي قدَّمَه زعماء عَلَويون لتحسين الحوار بين الطوائف وكأنه يعارِض السياسة التي اتَّبَعَها **حافظ الأسد** في غَمْر ودَمْج هوية العَلَويين. أحد نتائج استمرار غربة العَلَويين وعدم اطمئنانهم كانت استمرار العصبية العَلَوية في دعم نظام **الأسد**.

الصراع على حكم عائلة الأسد

لا يوجد ما يشير إلى ضعف العصبية الطائفية العَلَوية في الثمانينيات، إلا أنه في 1983–1984 حدَثَ انقسامٌ خطير في عصبية جماعة **الأسد**. ففي نوفمبر 1983 أُصيبَ **حافظ الأسد** بمرضٍ في القلب، بعد مروره شخصياً بفترة عصيبة[2]. استغلَّ الموقف **رفعت الأسد**، الأخ الأصغر **لحافظ**، وقام بإجراء ترتيباتٍ لكي يتأكد مِنْ استلامه السلطة إذا مات أخوه. عندما ذهَبَ أركان النظام إلى المستشفى لزيارة الرئيس، أخبرَهم **رفعت**: *"لماذا لا نستغل اجتماعنا معاً هنا لنتداول فيمَنْ سيخلف الرئيس؟... لا أعتقد أنكم ستفضّلون شخصاً آخر غيري"*[3].

(1) ورد في بطاطو 1999 صفحة 20

(2) آلاسدير دريسديل Alasdair Drysdale مسألة التوريث في سورية. Middle East Journal, Vol. 39, No. 2 (Spring, 1985) صفحة 246–257

(3) بطاطو 1999 صفحة 232–233

ليس مِنَ المؤكد ماذا كان **حافظ الأسد** يخطط لمستقبل أخيه في خلافته، وحسب وزير الخارجية آنذاك والمستشار الخاص **عبد الحليم خدام**:

*"عندما مَرِضَ **حافظ** كان همه الرئيسي هو أنْ يُصبح أخوه رئيساً بعده. وعندما شاهد **رفعت** أنّ أخاه **حافظ** قد مرِضَ، أسرَعَ إلى السيطرة على البلد قبل أنْ يموت أخوه... عندها بدأت المشاكل. وقَفَ الجميع كلهم لمعارضة **رفعت** وحماية **حافظ**"*.

مِنَ الواضح أنّ كثيراً مِنَ العَلَويين كانوا ينظرون إلى **رفعت الأسد** بسلبية. كان دوره رئيسياً في تثبيت حُكْم **الأسد** بمطاردته الإخوان المسلمين والإشراف على القضاء النهائي عليهم في حماة، لدرجة أنّ العَلَويين يدينون **لرفعت** بالوصول إلى مكانتهم بعد سنة 1982[1]، إلا أنّ أساليبه القاسية تلك، وفساده الواضح، أصبحا عبئاً ومشكلة في ضمان أمْنِ الطائفة العَلَوية. الصورةُ العامة السيئة **لرفعت** كانت مؤذية لاستمرار النظام على المدى البعيد. انتبَهَ كبار العَلَويين المؤيدين للنظام إلى تلك الحقيقة، وعارَضوا بشدة مطالبة **رفعت** بالرئاسة.

كان الصراعُ العَلَوي الداخلي الذي اندلع في الشهور التالية أولَ علامة واضحة لوجود انقسام هام في تماسك العَلَويين، وربما كان أخطر على نظام **الأسد** مِنْ هجوم الإخوان المسلمين. كانت أول مظاهر الصراع هو ظهور صُوَر **رفعت الأسد** في أرجاء دمشق في فبراير 1984[2]. أُزيلَتِ الصُوَر بسرعة أو تَمَّتْ تغطيتها بصور **حافظ الأسد** على يد الحرس الجمهوري والأمن الداخلي. في 27 فبراير بلغَتِ الأزمة أشُدها لدرجة أنّ استنفاراً عسكرياً ومواجهة حدَثَتْ في دمشق بين سرايا الدفاع التابعة **لرفعت** والوحدات التابعة للألوية العَلَوية **علي حيدر وشفيق فياض وعدنان مخلوف**، وسُمعَتْ طلقات الرصاص قرب القصر الجمهوري[3].

(1) سيل 1988 صفحة 425

(2) نيويورك تايمز. 6 مارس 1984. دريسديل 1985 Drysdale صفحة 247. سيل 1988 صفحة 427 بطاطو 1999 صفحة 234

(3) نيويورك تايمز. 6 مارس 1984. دريسديل 1985 Drysdale صفحة 249. بطاطو 1999 صفحة 234

هدَّد الصراع بين **حافظ الأسد** وأخيه بفتح سورية للتدخل الخارجي عندما حاوَلَ **رفعت** الحصولَ على دعم حلفاء خارجيين للاستيلاء على السلطة. ومِنَ الجدير بالذكر أنّ ولي عهد السعودية الأمير **عبد الله** الذي كان حليفاً **لرفعت الأسد** قد زار دمشق في أواخر فبراير 1984[1]. علاقةُ **رفعت الأسد** بالمملكة السعودية كانت تثير القلق في الجبال الساحلية، فالمدرسة الوهابية في الإسلام التي يُمارسها السعوديون تُعتَبر معاديةً للعَلَويين لأنها تَستَند أساساً إلى آراء **ابن تيمية**. فَسَّر الشيخ **علي بيرال** عدم ارتياح العَلَويين لتعصب الوهابيين في حديثه مع المؤلف قائلاً:

"لا يحب الوهابيون أحداً، وندعو الله أنّ أفكارهم الخاطئة والمنافقة... ستتغير وتختفي... هم يكرهون إيران والشيعة وسورية وحزب الله والعَلَويين. إنهم لا يحبون أحداً".

في محاولته استدعاء حلفاء خارجيين مع السعودية ساعياً لكي يخلف أخاه في الثمانينيات، هدَّدَ سلوك **رفعت الأسد** بتقويض العصبية العَلَوية. تحرَّكَ **حافظ الأسد** في فترة نقاهته مِنَ المرض لنزع فتيل هذا الوضع المتفجر الذي قد يهدم نظامه. في 11 مارس عيَّنَ **الأسد** ثلاثة نواب للرئيس: **رفعت الأسد**، ووزير الخارجية السنيّ **عبد الحليم خدام**، وسنيّ آخر هو **زهير مشارقة** الأمينُ العام المُساعِد في القيادة القطرية لحزب البعث[2]. كانت تلك طريقة لترضية أخيه **رفعت**، وربما لتخفيف مظاهر الصراع العَلَوي الداخلي على السلطة[3]. أو ربما حاول **الأسد** شراء بعض الوقت حتى يهدأ الوضع.

(1) غودارزي Goodarzi 2006 صفحة 110–111. من المفارقة أنه في تلك اللحظة من ضعف حكم عائلة الأسد سافر الرئيس اللبناني أمين الجميل إلى دمشق في أوائل مارس لاستعادة العلاقات الطبيعية مع سورية. نيويورك تايمز. 6 مارس 1984. المصدر الرئيسي لسوء العلاقات بين لبنان وسورية كان اغتيال رئيس لبنان المنتخب بشير الجميل في بيروت في 14 سبتمبر 1982، في الغالب على يد عملاء سوريين. سيل 1988 صفحة 420. غودارزي 2006 صفحة 75

(2) دريسديل Drysdale 1985 صفحة 249–250. حرب الخلافة. نيويورك تايمز. 17 مارس 1984

(3) ربما فكر حافظ الأسد بصحته السيئة آنذاك أن يحضر للعودة إلى الترتيبات السابقة حين كانت الدولة برئاسة شخصية سنيّة بينما يمسك الضباط العَلَويون بالسلطة الحقيقية من وراء ستار.

كانت هذه الإجراءات غير مفيدة، ففي 30 مارس 1984 وَصلَتِ الأزمة إلى ذروتها، وبَدا أنّ **رفعت** قد صَمَّم على الاستيلاء على السلطة، وأمَرَ قواته بِسَدِّ مداخل دمشق والتحرك نحو العاصمة بالقوة. اصطدمت قوات **شفيق فياض وعلي حيدر** مرة أخرى في مواجهة مسلحة ضد سرايا الدفاع، ولَمْ يمكن تجنب سفك الدماء[1]. قرر الرئيس **الأسد** التعامل مع أخيه شخصياً بشكل نهائي. حسب **حنا بطاطو** أخبر **حافظ الأسد** أخاه بوضوح: *"لقد نفد صبري معك... إذا لم توافق على ما أقوله لك، ولم تنفذ أوامري، سأقتلك، وسآمر بعزف الموسيقى في جنازتك"*[2]. وفي رواية **باتريك سيل** أنّ **حافظ الأسد** واجه أخاه **رفعت** في منزله دون حماية بحضور أمهما وتحداه أنْ يتصرف قائلاً: *"هأنذا، أنا النظام"*[3]. وعلى كل حال فقد عرفَ **رفعت** حينها أنّ مراكز القوى العَلَوية التي كان يحاول جلبها إلى طرفه قد اصطفوا ضده، فاستسلم لطلبات أخيه واستقال مِنْ سرايا الدفاع[4].

عندما اندلعتْ أحداثُ عنف بعد ذلك بين العَلَويين في اللاذقية في مارس 1984، اقتنع **حافظ الأسد** أنّ الطريقة الوحيدة لحفظ نظامه وحفظ التكاتف بين العَلَويين هي نَفي أخيه. في البداية أُرسل الخصوم العَلَويون الرئيسيون الثلاثة: **رفعت الأسد وعلي حيدر وشفيق فياض** إلى الاتحاد السوفييتي في أواخر مايو[5]. ربما كان ذلك لتذكير العَلَويين أنّ **حافظ الأسد** مازال مسيطراً بقوة على الأمور كرئيس لعائلة **الأسد**، وأنه لن يتحمل أي مراكز أخرى للقوة بغَضِّ النظر عن تحالفاتهم. سُمِح **لحيدر وفياض** بالعودة فيما بعد، بينما تمّ نَفي **رفعت** نهائياً في سبتمبر 1984. انتهى الصراع في عائلة **الأسد** وظلّت العصبية في النُخبة العَلَوية متماسكة.

حَصل **رفعت الأسد** على تأييد سرايا الدفاع، ودَعم الحزب العربي الديموقراطي العَلَوي في لبنان، والدعم السياسي مِنَ المملكة العربية السعودية، وربما

(1) نيويورك تايمز. 17 مارس 1984. دريسديل صفحة 250. سيل صفحة 432

(2) ورد في بطاطو 1999 صفحة 236

(3) سيل 1988 صفحة 433

(4) بطاطو 1999 صفحة 236. إيال زيسر Eyal Zisser الجيش السوري: بين الجبهات الداخلية والخارجية. *MERIA*, Vol.5, No.1, March 2001 صفحة 5

(5) سورية تصرّح أنّ أخو الرئيس قد تم نفيه نهائياً. نيويورك تايمز. 12 سبتمبر 1984

الدعم الأمريكي. ولكنْ لَم يكن لديه التأثيرُ الكافي لقيادة العصبية العَلَوية نحو مصلحته السياسية. في إشارة نادرة إلى دور الزعامات العَلَوية التقليدية في السياسة السورية لاحظَ **حنا بطاطو** مِنْ شائعات دارتْ في دمشق سنة 1984 أنّ: "*حافظ الأسد قد تمّ تحريضه مِنْ طرف حكماء الطائفة العَلَوية الذين... اعتقدوا أنّ رفعت كان خَطَراً على بقاء النظام بكامله*"(1). كان ذلك الدعم واضحاً في الأمر الذي أصدَرَه شيوخ العَلَويين المُرشِدين لأتباعِهم بالانسحاب مِنْ سرايا الدفاع التابعة **لرفعت الأسد**(2). في ذلك الوقت كانت الطريقة الوحيدة للسيطرة على الدولة هي في قيادة العصبية العَلَوية، وأصبح واضحاً أنّ **حافظ الأسد** قد استعاد ثقة أغلبية الطائفة العَلَوية.

يُثْبِتُ ولاءَ العَلَويين **لحافظ الأسد** أثناء الأزمة عامِلين رئيسيين في عصبية العَلَويين معه خلال أواسط الثمانينيات: العامل الأول هو ربط زعماء عشائر العَلَويين والقيادات العسكرية مصالحَ الطائفة بقوة مع بقاء واستمرار نظام **حافظ الأسد** الذي شعروا أنّ **رفعت** قد هدَّدَه. والثاني هو أنّ الطائفة قد مَنَحتْ ولاءها بناءً على رؤيتها لقرارات سياسة النظام في تحقيق مصالح العَلَويين. لَمْ يكن الأمر ببساطة مجرد منح الولاء والدعم لنظام **الأسد** دون سؤال، بل مَنْ الذي يستطيع أنْ يُقدِّم أفضل خدمة لمصالح الطائفة. لا شك بأنّ الاتجاهات السياسية التي طرَحَها **رفعت** لَمْ تكن مقبولة. دراسةُ الآمال السياسية **لرفعت الأسد** ربما تسلط الأضواء على فهم الرؤية السياسية العامة للعَلَويين في منتصف الثمانينيات.

في السياسة الداخلية، أيَّدَ **رفعت الأسد** سياسةً يمينية، وكان يُفضِّلُ اقتصاداً أكثر رأسمالية(3). ومَنَحَهُ ذلك تأييدَ الذين يُحبِّذون تحرير الاقتصاد(4). ومِنَ المُفارقة أنّ بعض هؤلاء كانوا مِنَ التجار السنِّيين، الطبقة التي خرَجَ منها الإخوان المسلمون

(1) بطاطو 1999 صفحة 236

(2) جيمس كوينليفان James Quinlivan تخطيط الانقلاب: الممارسة والنتائج في الشرق الأوسط. مجلة International Security, Vol. 24, No. 2 (Autumn, 1999) صفحة 148

(3) مثلاً في حديث لمؤيديه في غداء بفندق الشيراتون بدمشق قال رفعت الأسد أنه يفضل سياسة اقتصادية أكثر تحرراً. نيويورك تايمز. 17 مايو 1984

(4) دريسديل 1982 صفحة 252–255

الذين قضى عليهم **رفعت**، في حين أنّ أغلب العَلَويين العاديين كانوا يفضلون الاحتفاظ بالسياسة اليسارية التي اتبعها **حافظ الأسد**.

يمكن متابعة الرؤية السياسية **لرفعت الأسد** في تأسيسه لرابطة الخريجيين الجامعيين. حصل **رفعت الأسد** على شهادة دكتوراة مِنْ جامعة موسكو، إلا أنّ الرابطة اتخذتْ شكلاً يشبه حزباً سياسياً ذا منهجٍ نخبوي في السياسة. كان ذلك متناقضاً تماماً مع منهج البعث الذي يعتمد على مزايا الفلاحين والجماهير. رغم أنّ نخبة العَلَويين قد استفادت مِنْ فرص التعليم، إلا أنّ غالبية العَلَويين كانت مِنَ الفلاحين الذين آمنوا بسياسة البعث التي قادها **حافظ الأسد**. تلك كانت مثالاً جيداً لما وصفه **ابن خلدون**: "*تمنحُ الدعاية المَمالكَ في بدايتها قوة أخرى بالإضافة إلى قوة العصبية*". [اعلمْ أنه قد تقرر لكَ فيما سلف أنّ الدولة في أول أمرها لابد لها مِنَ الرفق في ملكتها والاعتدال في إيالتها... وإذا كانت الملكة رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفر ويكثر التناسل].

في السياسة الخارجية دعى **رفعت الأسد** علناً إلى الاتجاه نحو الغرب، وقام بانفتاح نحو الولايات المتحدة الأمريكية، وعلاقاتٍ وثيقة مع المملكة العربية السعودية. كما كان له "اعتراضات جدية على التحالف مع إيران"(1)، واعترضَ علناً على محادثات الوحدة مع العراق. مرة أخرى كانت سياسة **رفعت** تخالف مباشرة ما يُعتقَد أنها مصالح العَلَويين الجوهرية. دينياً كانت إيران الشيعية حليفاً طبيعياً للعَلَويين، بينما كانت المملكة العربية السعودية تمثل قَلْبَ الوهابية السنيّة(2). التقاربُ مع الولايات المتحدة الأمريكية يهدِّد تأييد الاتحاد السوفييتي وإيران لحكم عائلة **الأسد**. كما أنّ المحادثات مع العراق عزَّزَتْ ظهورَ التزام النظام بمثاليات البعثية والقومية العربية التي ظلَّتْ أفضل الأسس التي اعتمد عليها نظام **الأسد** في دعم شرعيته داخلياً.

أسلوب **رفعت الأسد** الفظّ والمباشر في تأكيد الخصوصية العَلَوية كان ينطوي على مخاطر، ويتناقض مع تاريخ الطائفة الطويل في اتباع التقية. وشعبيته بين

(1) غودارزي Goodarzi 2006 صفحة 6

(2) هذه الأولويات العَلَوية تم تأكيدها من الشيخين العَلَويين علي يبرال ونصير إيزكيوكاك في 2011

اللبنانيين العَلَويين المسلحين تعكس هذا الجانب مِنْ أسلوبه. فالوضع السياسي في لبنان كان مختلفاً جداً بالنسبة للعَلَويين، ففي لبنان كانت الطائفة واحدة مِنْ طوائف عديدة مختلفة، بينما هي في سورية طرف سياسي يواجه أكثرية عدوانية، وهو موقفٌ بدا واضحاً بشكل خاص في أعقاب مشكلة حماة. لذلك اتَّجَهتِ الطائفة العَلَوية نحو التقية والهوية العربية المتجانسة.

وأخيراً فإنّ **رفعت الأسد**، مثل **اسماعيل خير بك** في 1850، استغلّ كافة إمكانيات وَضْعه لكي يزيد ثروته الخاصة وثروة أتباعه، فقد جمَع ثروة طائلة باحتكار تجارة التهريب، والشراكة العسكرية-التجارية التي أسسها بين النخبة العسكرية وتجار دمشق[1]. وبذلك أصبح مثالاً واضحاً للمحاباة والفساد والبحث عن المتعة المحرمة، وأصبح هدفاً لانتقادات معارضي النظام. يمكن تصنيف **رفعت** ضمن تعريف **ابن خلدون** للفساد الذي ينشأ عن الرفاهية والترف الذي توفره السلطة. يصِفُ **باتريك سيل** كيف أنّ **رفعت**: "*سافر إلى الخارج، واكتشف العواصم الأجنبية، واكتسب تذوقاً للرفاهية الغربية*"[2]. بينما عاش **حافظ الأسد** نمط حياة متوسطة، وتمسَّكَ بجذوره في واقع السياسة السورية والعَلَوية.

بالاستناد إلى الاستجابة السلبية مِنْ أغلب العسكريين العَلَويين وزعمائهم الدينيين لسعي **رفعت الأسد** إلى السلطة في الثمانينيات، يبدو أنّ العَلَويين قد مالوا نحو الاقتصاد الاشتراكي، والتحالف مع إيران والاتحاد السوفييتي، وهوية عَلَوية وطنية مبهمة، والتواضع في زخارف السلطة[3]. وكان مفتاح الاحتفاظ بالعصبية العَلَوية هو الالتزام بهذه المبادئ، وذلك ما فعله **حافظ الأسد**. أمسك **حافظ الأسد** بكافة سلطات المُلك، إلا أنه كان يحرص دائماً على عدم الظهور بذلك المظهر، بل

(1) دريسديل Drysdale 1985 صفحة 247–248
(2) سيل 1988 صفحة 319
(3) استثناء خاص لهذه الصفات العامة للعَلَويين هو مؤسسة المُرتَضَى التي أسسها جميل الأسد (أخو حافظ الأسد) سنة 1981. اعتنقوا سياسة يمينية عَلَوية وطنية، بل وحاولوا تحويل بدو الأرياف إلى الديانة العَلَوية. وأغلقها حافظ الأسد في 1983. انظر نيكولاوس فان دام Nikolaos Van Dam، الصراع على السلطة في سورية: السياسة والمجتمع تحت حكم الأسد وحزب البعث، الطبعة الرابعة (New York: IB Taurus, 2011) صفحة 122

كان يرتدي الثياب المدنية العادية ويحرص على استخدام ألقابه البعثية ودوره الرسمي في الجمهورية العربية السورية.

التأكيد على الأخطار الخارجية

حسب **ابن خلدون**: "للمحافظة على مظاهر التكاتف والتماسك، تُستدرَجُ القبيلة إلى الصراع والاقتتال مع العشائر الأخرى... مما يدعم الشعور الجماعي بالانتماء والوحدة"[1]. عندما يهدِّدُ الأعداءُ حدودَ الدولة، تظلُّ جماعة الأسرة الحاكمة متماسكة ومتكاتفة في دعم زعيمها. حققتْ إسرائيل **لحافظ الأسد** هذا الهدف بشكل جيد. رغم أنّ النظام السوري قد شعر دون شك بخطر إسرائيل أحياناً، إلا أنّ حالة تفاهم الأمر الواقع نشأتْ بين الدولتين عن مزايا تَجنُّب الصراع المباشر. مثلما كتب **جورج أورويل** في قصته 1984[2]، فقد فَسَّرَ **حافظ الأسد** ضَعف سورية الاقتصادي، وسوء البنية التحتية، والمراقبةَ المستمرة لشعبه، والشرعيةَ الضيقة بحجة الاستعداد المستمر للحرب[3]. وحصلتْ سورية بسبب موقعها كدولة مواجهة لإسرائيل على مساعدات استراتيجية مِنَ العالَم العربي، وأضافتْ إلى شرعية نظام **الأسد**[4]. ومِنَ الناحية الأخرى فقد فضَّلَ الإسرائيليون، خطأ أو صواباً، حُكْمَ العَلَويين العلمانيين على الاحتمال الآخر الإسلامي الأصولي. ربما لمْ يكن الإسرائيليون مستائين مِنْ رؤية النظام السوري وهو يَقتل جزءاً مِنْ حركة المسلمين السنّيين في 1982.

مِنْ أجل التأكيد على خطر إسرائيل، قرر **الأسد** عدم إعادة بناء القنيطرة في مرتفعات الجولان التي دُمِّرَتْ في حرب 1973 مع إسرائيل، بَل فضَّلَ بناء مدينة جديدة[5]. تُركَتْ أطلالُ القنيطرة دون أنْ تُمَسّ لكي تظلّ ذات قيمة دعائية هامة

(1) لاكوست Lacoste 1984 صفحة 108
(2) جورج أورويل: 1984. (London: Secker & Warburg, 1949)
(3) موشيه موآز Moshe Moaz سورية وإسرائيل، من الحرب إلى عملية السلام. (New York: Oxford University Press) صفحة 88
(4) ناعومي شيبرد Naomi Shepherd طلبات الأسد أكثر مما يمكن أن يحصل عليه. نيويورك تايمز. 7 سبتمبر 1975
(5) البلدة الجديدة التي تبنى على الجبهة في سورية. التايمز. لندن. 6 نوفمبر 1981

في التذكير بالعدوان الإسرائيلي، ويتمّ تشجيع الزوار للذهاب إليها. التهديد الإسرائيلي المستمر يشتت الانتباه بعيداً عن شرعية نظام **الأسد** الضيقة. نَشَرتِ الصحف الرسمية تقريباً كل يوم قصصاً عن الأعمال الوحشية التي يقوم بها المحتلون الإسرائيليون ضد السوريين الوطنيين في الجولان[1].

في منتصف التسعينيات كان هناك تفاؤل في الغرب بقُرب التوصل إلى حل للصراع العربي الإسرائيلي. ناقشَ **حافظ الأسد** مع **عبد الحليم خدام** القضايا التي تتعلق بعملية السلام. ذكَرَ **خدام** للمؤلف ثلاث نقاط طُرِحَتْ في تلك المناقشات تنفي كل احتمال لتوقيع النظام السوري معاهدة سلام مع إسرائيل وهي:

1- يتطلّب ذلك إلغاء حالة الطوارئ، مما قد يسبب خطراً على النظام.
2- بسبب كون الرئيس مِنَ الأقلية، يمكن أنْ يُنظَرَ إلى الاتفاقية "كاتفاقية عَلَوية".
3- عدم رغبة **حافظ الأسد** في الجلوس مع الإسرائيليين تستندُ إلى آرائه التي تمسّكَ بها منذ طفولته.

بسبب هذه الأمور كما قال **خدام**، كانت سياسة **حافظ الأسد** الاحتفاظ بسياسة اللا حرب واللا سلم. بكلمة أخرى تَجنُّب توقيع معاهدة سلام مع تَجنّب أي مواجهة مباشرة مع الإسرائيليين. تُبين النقاط المذكورة سابقاً النتائج الهامة لعلاقة عصبية العَلَويين مع **الأسد** بالقضايا العربية الإسرائيلية.

قوانين الطوارئ السورية التي وُضِعَتْ بعد ثورة البعث سنة 1963، أصبحَتْ أكثر أهمية بعد تمرد حماة. اعتمدت المخابرات على هذه القوانين لقمع كل احتمال لتكرار مشاكل الفترة 1976–1982. كان التبرير الرسمي لقانون الطوارئ هو الصراع المستمر مع العدو الإسرائيلي. ولذلك، كما قال **حافظ الأسد لعبد الحليم خدام**: إذا تمّ توقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل يجب رفع حالة الطوارئ، لأنها إذا ظلت سارية سيصبح مِنَ الواضح جلياً أنّ السبب الرئيسي لوضعها هو تأمين نظام

(1) أمثلة ومناقشة عن ذلك في موردخاي كيدر Mordechai Kedar الأسد يبحث عن الشرعية: الرسالة والدعاية في الصحف السورية تحت حافظ وبشار. (UK: Sussex Academic Press, 2005) صفحة 27

الأسد والطائفة العَلَوية ضد التهديدات الداخلية وليس الخارجية[1]. في نظرة مستقبلية سريعة نجد أنّ الرفع السريع لقوانين الطوارئ استجابةً للمعارضة السورية في 2011 يشكك في الأهمية الفعلية لهذه القوانين[2]. وعلى كل عندما استمرتْ قوات الأمن في استخدام القوة العشوائية في 2011 بعد رفع حالة الطوارئ، تدهورت الثقة في شرعية النظام أكثر لدى الشعب السوري.

السبب الثاني الذي منَع **حافظ الأسد** مِنْ توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل، وهو أنّ "الاتفاقية ستظهَر وكأنها اتفاقية عَلَوية" يُبين كمْ كان حساساً لعلاقة حكمه بطائفته الأصلية. صرَفَ **الأسد** جهداً سياسياً كبيراً لتحسين وضع العَلَويين في الدائرة العربية الإسلامية مِنْ خلال صمود سورية في كفاحها ضد الاحتلال الإسرائيلي الصهيوني للأراضي العربية. مثلما وُجِّهَتْ في الماضي إلى العَلَويين الاتهامات بالخيانة مِنَ السلطات المملوكية والعثمانية والقوميين العرب، فإنّ توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل سيُفَسَّرُ أنه خيانة عَلَوية للقضايا الإسلامية والعربية، مما كان سيضر كثيراً بمحاولات العَلَويين الاتجاه نحو مزيد مِنَ الأمن السياسي ضمن الأكثرية العربية، ويمكن أنْ يسبب بالفعل ردة فعل أقوى وأوسع، خاصة إذا ترافق ذلك مع موجة جديدة مِنَ التعصب الديني.

تعاونُ المسيحيين اللبنانيين السياسي مع الإسرائيليين في بداية الثمانينيات بقيادة **بشير الجميِّل** أعطى درساً عن النتائج المحتملة للحوار مع إسرائيل. فقد وَجد المسيحيون أنفسهم بسرعة منعزلين سياسياً في العالَم العربي[3]، ودَفَع **الجميِّل** الثمن النهائي لذلك عندما اغتيل بتفجير في بيروت. ومِنَ المفارقة أنّ اغتياله قد تم غالباً بتخطيط النظام السوري[4]. وفي السياق نفسه، لا شك بأنّ اتفاقية السلام

(1) خمن وزير الخارجية اللبناني السابق إيلي سالم أن قانون الطوارئ لم يكن أولوية هامة. في مقابلة مع المؤلف. يؤيد وجهة النظر هذه سرعة التخلي عن قوانين الطوارئ من نظام عائلة الأسد في 2011 دون أن يحدث ذلك أي تغيير في السياسة الأمنية. انظر فايننشيال تايمز. 27 مارس 2011
(2) الأسد يرفع حالة الطوارئ. أخبار BBC 20 أبريل 2011
(3) نيويورك تايمز. 12 سبتمبر 1984
(4) غودارزي Goodarzi 2006 صفحة 75

المصرية مع إسرائيل قد دَفَع ثمنها الرئيس **أنور السادات** بحياته، ولكنه كان فرداً مِنْ طائفة الأكثرية السنيّة العربية، ولَمْ تمتد خيانته إلى أقلية معينة.

آخر ملاحظة **لابن خلدون** تمّ ذُكرها سابقاً تتعلق بعقلية **حـافظ الأسـد،** وتتعارض مع الطبيعة العملية الواقعية للنقطتين الأوليتين. فمثل بقية العَلَويين في تلك الفترة لَمْ يكن **الأسد** بعيداً عن الساحة السياسية في زمنه. كراهيـة الإسـرائيليين بسبب احتلالهم الأراضي الفلسطينية لَمْ تكن حِكراً على الأكثرية السنيّة العربية، بل شملتْ تلك مشاعر العَلَويين أيضاً. كان ذلك واضحاً في المحادثة التي أجراها المؤلف مع العَلَويين في الجبال الساحلية.

واجهَ العَلَويون معضلة، لأنّ نجاحهم في متابعة القضايا العربية الإسلامية، مثل تحقيق العدالة للفلسطينيين والتوصل إلى سلام عادل في الشرق الأوسط، ربما يؤدي إلى عودة التحالف **الفاوستي** (التحالف مع الشيطان) مع نظام **الأسد** (كما حدَثَ في مذبحة حماة) لكي ينتابهم كرة أخرى. كما أنّ التوصـل إلى سـلام شـامل في الشرق الأوسط ربما يُطلِق سراح الأكثرية السنيّة التي ستطالِب بعـودة حقوقهـا السياسية والمدنية، وتُطلِق موجة أخرى مِنَ الانتقام، وربما يؤدي إلى تطبيق عقوبات لأحداث حماة والعقود الأربعة مِنَ اضطهاد التسلط العَلَوي. ولـذا كـان أفضـل الاحتمالات لتحقيق مصالح العَلَويين هو ما سماه **عبد الحليم خدام** المحافظـة علـى الوضع الراهن مِنْ "حالة اللا سلم واللا حرب".

رغم الامتيازات الاستراتيجية فإنّ سياسة المقاومة ضد إسرائيل قـد كَلَّفـتْ سورية اقتصادياً. خفّفتْ دول المواجهة الأخرى، مثل مصـر والأردن، الضـغوطَ الاقتصادية الخطيرة على الأنظمة القائمة بتوقيع اتفاقيات مع إسرائيل[1]. إذ وقّعتْ مصر اتفاقية مع إسرائيل في 1979، والأردن في 1994. وسـاعدَت الامتيـازات الاقتصادية مِنَ الدول الغربية المانحة على دعم الاقتصاد ومستويات المعيشة في هاتين الدولتين[2]. أما في حالة سورية، بسبب النقاط التي ذُكرتْ سـابقاً عـن قـانون

(1) وينكلر Winckler 1999 صفحة 157

(2) إلياهو كانوفسكي Eliyahu Kanovsky هل سيجلب السـلام العـربي-الإسـرائيلي الازدهار؟ مجلة *The Middle East Quarterly*, Vol. 1, No. 2 (June 1994)

الطوارئ ومنع ارتباط العَلَويين باتفاقية سلام مع إسرائيل، فلَمْ يستطع نظام **الأسد** اتباع هذا المسار حتى لو أراد ذلك. وعانَت الدولة مِنْ تحديات اقتصادية صـعبة، خاصة بعد انهيار حليفها الاتحاد السوفييتي سنة 1991.

قد يؤدي الانحدار الاقتصادي إلى إرهاق العصبية العَلَوية، وزيـادة اسـتياء الشعب السوري، خاصة إذا ترافق بازدياد ترف ورفاهية نُخبة النظام. كان **حافظ الأسد** حذِراً لتجنب هذا الوضع، وكانت أفضل ضماناته في ذلك هي السـيطرة القوية على لبنان واقتصادها المتفوق، مما ساعد على تخفيـف مصـاعب سـورية الاقتصادية. كما كان **الأسد** حريصاً على تقييد المظاهر العلنية والواضحة لثـروة النُخبة في النظام.

الاستعانة بالدعم الخارجي

حسب **ابن خلدون** عندما يَطلب حاكمٌ العونَ مِنْ عملاء وأتباع خـارجين عن جماعته فذلك مِنْ أعراضِ ضعف المملكة، [ويكون استظهارهم حينئـذ علـى سلطانهم ودولتهم المخصوصة إما بالموالي والمصطنعين الذين نشأوا في ظل العصـبية وغيرها، وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها]. بهـذا المنطـق أصبحت جمهورية إيران الإسلامية أقوى الحلفاء الخارجيين تأثيراً على نظام **الأسد.** مَثّلَتْ إيران تجديداً للدعم الشيعي السياسي والديني للعَلَويين. بعد الثورة الإيرانية في 1979 غيَّر نظام **الأسد** مباشرةً سياسته الخارجية المعادية لإيـران، وسـعى نحـو علاقات وثيقة مع النظام الثوري في طهران[1]. بدتْ هذه خطوة غير عادية يقـوم بها نظامٌ بعثي يرفع شعارات العلمانية ويخوض حرباً ضروساً ضد الإسـلاميين في بلده! بالإضافة إلى أنّ كثيراً مِنَ المسلمين السوريين، كما ذُكر سابقاً، اسـتلهَمُوا ثورةَ الشعب الإيراني ونجاحَه في تغيير نظام الشاه القمعي الفاسد. ولذلك فقد كان مِنَ المُفارقة الغريبة أنّ التحالف السوري الإيراني الذي تطـور بسـرعة في أوائـل الثمانينيات قد ساعد في دعم وتأييد نظام **الأسد** القمعي الفاسد!

(1) غودارزي Goodarzi 2006 صفحة 16-25

حاولَ **الأسد** بسرعة دَعمَ الشرعية الدينية للعَلَويين مِنْ خلال علاقاته الجديدة. المفتي العام في سورية الشيخ **أحمد كفتارو** (توفي سنة 2004)، وهو سنّيّ كرديّ عَيَّنَهُ النظام، "امتدح الثورة الإيرانية" وصرّح أنه "لا يوجد فرق بين السنّة والشيعة". بدأتْ سياسة مساواة الديانة العَلَوية بالشيعية السليمة في أوائل السبعينيات، وأعطتْ ثمارها السياسية الآن. أغلب الإيرانيين هم مِنَ الشيعة، وفي تاريخ العَلَويين كانت القوى الشيعية السياسية مناسِبة ومؤيدةِ لمصالح العَلَويين، فيما عدا فترة المرداسيين (1024–1080). وكان مشايخ الشيعة قد تقدموا لمساعدة نظام **الأسد** في بداية السبعينيات باعتماد العَلَويين دينياً، وأصبح الآن للعَلَويين، ولأول مرة منذ أيام الدولة الحمدانية، دولةٌ شيعية هامة كحليفٍ سياسي.

لدى تذكُّر قلق العثمانيين بشأن قيام العَلَويين بدور رأس الجسر للمخططات الفارسية الصفوية في شرق المتوسط، مِنَ المثير أنّ هذا الطريق كان بالضبط هو ما اتبعته إيران لتوكيد نفوذها في المنطقة في أوائل الثمانينيات. أصبح نظام **الأسد** قناةً حيوية لاتصال الإيرانيين بالطائفة الشيعية الكبيرة في شرق المتوسط خاصة في جنوب لبنان. وكسبَ النظام السوري مِنْ ناحيته حليفاً سياسياً ثميناً في لبنان بالإضافة إلى حركة أمل الشيعية التي بدأها الإمام **موسى الصدر**، والحزب القومي الديموقراطي في طرابلس، وهو حزب الله: الحركة الإسلامية الشيعية المسلحة التي دعمتها إيران.

ازدادتْ قوة النفوذ السياسي لحزب الله بين اللبنانيين الشيعة نتيجة احتلال إسرائيل لجنوب لبنان سنة 1982. مَنَح نشاطهم العسكري النشيط ضد القوات الإسرائيلية مادةً جيدة "للخطر الخارجي" الذي وصَفه **ابن خلدون**، دون أنْ يتطلب مِنْ سورية أي مواجهة عسكرية مباشرة. وهكذا قدَّم حزب الله خدمةً لنظام **الأسد** للمحافظة على وضعه الداخلي. كما أنّ اللبنانيين الشيعة أضافوا عمقاً استراتيجياً في صراع **الأسد**–العَلَويين ضد الإسلاميين السنّة الذين كانوا يَنشطون في طرابلس.

كان **الأسد** حذراً في تعامله مع إيران وحزب الله، وحرص دائماً للسيطرة على ما اعتبره المجال اللبناني لسلطته. كان التطرف الديني خطراً على مصالح العَلَويين، ولَمْ

يكن مقبولاً مِنَ السنّة ولا مِنَ الشيعة. فمثلاً عندما اندلع القتال مرة أخرى بين الإسلاميين السنّة (تحت اسم جماعة التوحيد) والشيعة مِنَ الحزب العربي الديموقراطي[1]، قَصَفَ **الأسد** طرابلس بالمدفعية مثلما فعل في حماة قبلها بسنوات. وفي سنة 1987 أرسَلَ الضباطَ العَلَويين **هشام المعلق وعلي ديب وعبد الحليم سلطان**، وجميعهم ممَّنْ شارك في حملة حماة سنة 1982، مِنْ وحداتهم لكبح جماح حزب الله. وتطلَّبَ ذلك الإعدامَ السريع لثلاثة وعشرين مسلحاً مِنْ حزب الله في بيروت[2]. وأرسلَ ذلك رسالة قوية لإيران لعدم تحدي سلطة سورية في لبنان.

وعلى كل فقد أصبح التعاون السوري الإيراني منذ 1988 تحالفاً متيناً في المنطقة. لَمْ تتفهم كثير مِنَ الدول طبيعة هذا التحالف. إذ يبدو ظاهرياً أنّ سورية "العربية العلمانية" يجب أنْ يكون مِنَ السهل إقناعها بالتخلي عن التحالف مع إيران "الفارسية الإسلامية" وحزب الله المتطرف، ولكنّ محاولات متكررة في ذلك لَمْ تنجح. كان وزير خارجية سورية السابق **عبد الحليم خدام** متأكداً في حديثه مع المؤلف سنة 2009 أنّ "**بشار** *لن يتخلى عن تحالفه مع إيران*".

يمكن فهم التحالف المَتين المستمر بين سورية وإيران في سياق العصبية العَلَوية. فأولاً: رغم أنّ آراء **حافظ الأسد** العلمانية الأصلية كانت حقيقية، إلا أنها كانت تُخفي الهوية الدينية الخاصة بقاعدة حكمه العَلَوية. وثانياً: استفاد العَلَويون دائماً مِنَ العلاقات السياسية مع القوى الشيعية، واعتبروا أنفسهم بالفعل قريبين جداً مِنَ الشيعة. ولذلك يمكن تفهم ثقتهم بهذا التحالف أكثر مِنَ التحالف مع العرب السنّة أو الدول الغربية. شرَحَ الشيخ **علي بيرال** وجهة نظر العَلَويين في التحالف السوري الإيراني قائلاً:

"العلاقة ضرورية دينياً وسياسياً. فهي تَخلق تعاطفاً مشتركاً... فالعَلَويون والشيعة هم طائفة واحدة يجمعهم الولاء لآل البيت. أثناء الحرب الإيرانية العراقية وقفتْ سورية إلى جانب إيران. لماذا؟ لأنّ إيران كانت المُعتدى عليها. وإيران

(1) غودارزي Goodarzi 2006 صفحة 149–156
(2) المصدر نفسه صفحة 201–271. ربما تم ذلك انتقاماً لخطفهم سياسي مسيحي مؤيد لسورية هو ميشيل سماحة.

ستكون إلى جانب [العَلَويين في] سورية إذا حدثت اضطرابات سياسية أو اقتصادية أو دينية".

ظَهَرَ جانبٌ آخر مِنَ التحالف السوري الإيراني بعد انتهاء الحرب الباردة. فقد أدى انهيار الاتحاد السوفييتي إلى أنّ نظام عائلة **الأسد** احتاج إلى حلفاء لن يضغطوا عليه لإجراء إصلاحات يمكن أنْ تؤدي إلى إضعاف العصبية العَلَوية. إصلاحات اقتصادية جذرية، مثل تلك التي فُرِضتْ على الأردن مِنْ صندوق النقد الدولي، يمكن أنْ تؤثر سلباً على العاملين في القطاع العام، وهذا يعني العَلَويين بالطبع. ولذا فقد كانت إيران الحليف المثالي اقتصادياً وسياسياً ودينياً للمحافظة على معادلة توازن السياسة الداخلية في سورية. مِنَ المهم ملاحظة أنّ **حافظ الأسد** لَمْ يَسمح لأي مِنْ حلفائه الخارجيين، بمِنْ فيهم الاتحاد السوفييتي وحزب الله وإيران، أنْ يتجاوز قاعدة سلطته العَلَوية وأهميتها الاستراتيجية في توكيد حكمه. كان ذلك عنصراً حيوياً في المحافظة على استقلاله ونفوذه في الداخل وفي المنطقة.

بشكل عام استطاع **حافظ الأسد** أنْ يتلاعب في الظروف الإقليمية، ويشدّد التركيز على الخطر الخارجي، لكي يحافظ على عصبية العَلَويين السوريين. قَدَّمَ الصراعُ مع إسرائيل الحجةَ الكاملة لحكم عائلة **الأسد** في الخطر الخارجي **الخلدوني**. فالوجود المستمر لتهديدٍ خطرٍ وراء الأفق صَرَفَ انتباهَ السوريين عن الأحوال الاقتصادية السيئة وقَمع الحريات في بلدهم. بالنسبة للعَلَويين شَكَّلَ هذا الخطر طَبَقَةً أخرى مِنَ الخوف والقلق، بالإضافة إلى خشيتهم مِنْ رغبة العرب السنّة في الانتقام لأحداث حماة سنة 1982.

حسب **ابن خلدون** فإنّ استدعاء حلفاء مِنْ خارج جماعة الحاكم هو أحد أعراض ضعف الدولة، ولكن التحالف مع إيران وحزب الله ضَخَّمَ النفوذ الاستراتيجي لحكم عائلة **الأسد**، ومكنّها مِنَ التلاعب بالأحداث الإقليمية لتحقيق مصالحها الداخلية. كما أنّ الصفة الشيعية لهذين اللاعبَين المحليَين كانت محبَّذةً بالنسبة للعَلَويين الذين كان لديهم علاقات وثيقة بالتراث الشيعي في تاريخهم وديانتهم. كان **حافظ الأسد** متنبهاً لإبقاء هؤلاء الحلفاء على بعد ذراع لكي يحافظ على استقلال نظامه، ويحافظ على قاعدة حكمه الرئيسية في الطائفة العَلَوية.

التحضير لتوريث الحكم

كان الهمّ الرئيسي **لحافظ الأسد** في التسعينيات هو ضمان استمرار حُكْم عائلة **الأسد**. **عبد الحليم خدام**، الذي كان مراقِباً قريباً مِنْ أحداثِ التوريث، أخبرَ مؤلف هذا البحث أنّ محاولة الإنقلاب التي قام بها **رفعت الأسد** في 1984 لَمْ تُضعِف إصرار **حافظ الأسد** على بقاء السلطة السياسية السورية في يد عائلته:

"رغم محاولة الإنقلاب التي حدثتْ مع أخيه فقد ظلّ راغباً بأنْ يخلفه أحد أفراد عائلته. ركّز على أبنائه. وبدأ بترتيب قوات الأمن والجيش حول فكرة أنه يريد أنْ يرثه ابنه. وبدأ في التسعينيات يُعيد ترتيب الأمن والجيش لجعل هذا التوريث ممكناً".

تمّ تحضير **باسل**، الابن الأكبر **لحافظ الأسد**، للتوريث في بداية الأمر. ولكنْ مع وفاته بحادث سيارة سنة 1994، تمّ استدعاء ابنه الثاني **بشار** مِنْ تدريبه الطبي في اختصاص أمراض العيون لتولّي دور الوريث. كانت هنالك شكوك فيما إذا كان **بشار** الشاب الفتي الغرّ قليل التجربة والذي "يبدو ضعيفاً" لديه القدرة على إدارة التوازن السياسي اللازم للمحافظة على الوضع الراهن في سورية، والمحافظة على العصبية العَلَوية[1]. شكّك بعضهم بأنّ "رجال الحرس القديم"، وأكثرهم مِنَ الضباط العَلَويين القادة في الجيش وقوات الأمن، سيَقبَلون تغيير ولائهم إلى **بشار الأسد** غير المؤهل وعديم الخبرة[2].

للتأكد مِنْ ذلك تمّ بحث حالة سورية بعد **الأسد** بين كثير مِنَ العَلَويين في أواخر التسعينيات عندما تدهورت صحة الرئيس. خيَّمَ شبح انتقام السنّة مِنْ مذبحة حماة على العَلَويين بينما كانوا ينتظرون مَن الذي سيتولى أمر حماية الطائفة. فقد كان الانتقال الناجح لسلطة العَلَويين السياسية أمراً جديداً عليهم. فمثلاً أنهى

(1) ريزا بروكس Risa Brooks العلاقات السياسية العسكرية واستقرار الأنظمة العربية. Adelphi Paper No. 324 (New York: Oxford University Press, 1998) صفحة 57. لقراءة تعليقات عن شخصية بشار الأسد وظروف استلامه حكم عائلة الأسد، انظر دون بيلت Don Belt أرض الظلال. مجلة *National Geographic*, November, 2009

(2) فولكر بيرثيس Volker الاقتصاد السياسي السوري تحت حكم الأسد. (London: I.B. Taurus, 1995) صفحة 269

سقوط **اسماعيل خير بك** المستقبلَ السياسي لأسرته، وجاء باضطهادٍ شديدٍ شَــمَلَ الطائفةَ العَلَوية بكاملها، كما أنّ ابن **سلمان المُرشد** لقي مصيراً مشابهاً لمصير والده عندما حاول أنْ يتابع تطلعاته نحو الاستقلال.

لو كانت هناك ثقة حقيقية وإيمان منتشر بين العَلَويين أنّ **بشار** يســتطيع أنْ يَملأَ المكان الذي أسسه والده، فلربما ضعفت عصبية العَلَويين لعائلة **الأسد**. كــان في صالح **بشار** أنّ جزءاً كبيراً مِنْ رأس المال السياسي كان قد استُثمر في إضــفاء الشرعية على اسم **الأسد** كمرادفٍ لآمال وتطلعات الوطنية الســورية والقوميــة العربية. كما أنّ انتقال السلطة السياسية إلى عُصبة أو عائلة عَلَوية جديدة يمكن أنْ يثير الأغلبية السنيّة كمَظهر فاضح للسيطرة العَلَوية على السياسة السورية.

أهم ما في الأمر هو أنّ **حافظ الأسد** قد ضمن فعلاً خلال العقــود الثلاثــة السابقة عدم وجود مراكز قوى أخرى في الطائفة العَلَوية. مثال واضح على ذلــك هو الرجل العَلَوي القوي **صلاح جديد** الذي بقي في السجن مدة 23 سنة حــتى وفاته سنة 1993[1]. ولكي يزداد تأكداً أجرى **حافظ الأســد** في الفتــرة 1998-1999 تطهيراً قاسياً لأي منافس محتمل في السلطة، بمَن فيهم أقرب أصدقائه، لكي يضمن احتفاظ عائلته بالسلطة لابنه **بشار**. كما تمّتْ إقالة عدة سنيّين مؤثرين مِــنْ مراكزهم تمهيداً للتوريث، وظاهرياً انتحر رئيس الوزراء **محمود الزعبــي**، وفي سنة 1998 هَرَبَ رئيس الأركــان **حكمــت الشهابــي** إلى الولايــات المتحــدة الأمريكية[2]. كان كلاهما مِنَ الشخصيات المهمة في نظام **حافظ الأسد**، ولكــن يبدو أنه لمْ يثق ببقائهما على الهامش خلال انتقال السلطة في الحكم. ظهَرَ حــرص **حافظ الأسد** على التخلص مِنْ جميع المنافسين **لبشار** في الجُملة التي تكــررتْ في دمشق بعد وفاته في يونيو 2000 قائلين: "ما في غيرو"[3].

(1) صلاح جديد 63، زعيم سورية الذي خلعه وسجنه الأسد. نيويورك تايمز. 24 أغسطس 1993

(2) بول كينغستون Paul Kingston وهاكالي O. Hakalai وهاسيمي N. Hasemi الدخول في القرن الحادي والعشرين- الشرق الأوسط. مجلة *International Journal*, Vol.55, 1999-2000 صفحة 652

(3) شمويل بار Shmuel Bar سورية بشار: النظام ونظرتــه العالميــة الاســتراتيجية. مجلــة *Comparative Strategy*, Vol.25, 2006, Taylor & Francis صفحة 369

قلقُ الطائفةِ العَلَوية بشأن أمنها بعد وفاة **حافظ الأسد** أدى إلى عودة الجهود لتزكية إسلامها. ففي التسعينيات نُشرتْ كتبٌ عديدة توضح العلاقة القريبة لديانة العَلَويين مع المدرسة الجعفرية في الإسلام الشيعي[1]. ومِنَ الممكن أنّ **حافظ الأسد** بعد أنْ شعَرَ بتدهور صحته، وفشله في دمج العَلَويين في المجتمع السوري مِنْ خلال القومية العربية والهوية الإسلامية الموسَّعة، فقد لجأ إلى تجديد انتمــاء العَلَــويين إلى الإسلام مِنْ خلال الشيعية. سهلت هذه السياسة قبول علماء الشيعة المقرّبين مِــنْ إيران بإصدار وثائق تُثْبتُ الوحدة العَلَوية-الشيعية. اتضح قبول العَلَــويين تقــديمَ أنفسهم كشيعة تقليدية خلال مقابلة المؤلف مع الشيخ **محمد بوز** سنة 2011. طَرَحَ منشأ العَلَويين في سياق انقسام الطوائف السنّية والشيعية، فبعد دفن الرسول **محمد** (صلعم) ومبايعة **أبــي بكر** خليفة للمسلمين، قال **بوز**: *"الذين قبلوا وصية الرسول أُطلِق عليهم اسم العَلَويين، والذين قبلوا اختيار **أبو بكر** أصبحوا السنّة"*.

في 1999 أصبحت الظروف جاهزة لتوريث **بشار الأسد**[2]. تمّ الترويج **لبشــار** بأنه الاختيار العملي الوحيد الذي يمكن أنْ يحمي مصالح العَلَويين. وفي الوقت نفسه تمّ التأكيد على الهوية الإسلامية للطائفة استعداداً لحدوث اضــطرابات خــلال انتقــال السلطة. أهمُّ إرثٍ انتقل إلى الجيل الثاني مِنْ عائلة **الأسد** كان الوضــع الاقتصــادي المتداعي بشكل حاد، والذي كان يتدهور تدريجياً منذ سنة 1996. ألقى **حافظ الأسد** سنة 1999 باللوم في سوء الحالة الاقتصادية على رئيس الوزراء **محمود الزعبــي**، الذي ظلّ في هذا المنصب فترة طويلة. ومِنَ المفارقة في ضوء أحداث 2011، فقد قال **حافظ الأسد** مرة أنه مستعد "للنزول إلى الشارع والتظاهر" ضد الفساد وعجز الحكومة الــتي وصفها بأنها "أسوأ حكومة شهدتها الدولة". تلك كانت سمة مميزة **لحافظ الأسد** وهــي موهبته الخاصة في التلاعب بالدعاية والإعلام لتثبيت حكمه رغم كل الصعاب.

(1) انظر مثلاً الشيخ علي عزيز الإبراهيم: العَلَويون والشيعة (بيروت، 1992). انظر أيضــاً ثلاثة كتب نشرها ابن الشيخ العَلَوي عبد الرحمن الخير. وأيضاً أولريك فرايتاغ Ulrike Freitag البحث عن الصواب التاريخي: حزب البعث في سورية. مجلة *Middle Eastern Studies*, Vol. 35, No. 1 (Jan., 1999), Frank Cass, London صفحة 12-13

(2) رضوان زيادة: السلطة والسياسة في سورية. (London: I.B. Taurus, 2011) صــفحة 37-43

الخلاصة

ظلّت العصبية العَلَوية قوية تحت حكم **حافظ الأسد**، وتماسَكَتْ قوة النظام بعد فترة البداية المضطربة. لعبتْ واقعية **حافظ الأسد** الحذِرَة، ومهارته الفائقة في التلاعب والمناورة في الجبهات الداخلية والإقليمية، دوراً هاماً في المحافظة على قوة دعم العَلَويين وتأييدهم لحكمه. ظهَرَ ولاءُ العَلَويين واضحاً خلال الصراع مع الإخوان المسلمين الذي وصل إلى ذروته في التحطيم العنيف للإخوان المسلمين في حماة سنة 1982. ظلّ الخوف مِنْ احتمالات ردود الفعل على هذا التعاقد الشيطاني يخيِّم بظلّهِ على الطائفة العَلَوية عندما اقترب الجيل الثاني مِنْ عائلة **الأسد** لاستلام الحكم في سورية.

ذكَرَ **ابن خلدون** أنّ المجاعات وزيادة السكان والأوبئة تحدُثُ في نهاية الممالك، كما ذكَرَ أنّ الحكام الذين يولَدون في السلطة لا يَتمتّعون في الغالب بالمؤهلات اللازمة للحكم. [والجيل الثاني تحوَّل حالهم بالملك والترفه مِنَ البداوة إلى الحضارة، ومِنْ الشظف إلى الترف والخصب، ومِنَ الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه، ومِنْ عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع، ويبقى لهم الكثير مِنْ ذلك بما أدركوا الجيل الأول، وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم وسعيهم إلى المجد وراميهم في المدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وإنْ ذهب منه ما ذهب، ويكونون على رجاء مِنْ مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول، أو على ظن مِنْ وجودها فيهم]. في بداية الجيل الثاني مِنْ حُكْم عائلة **الأسد** كان الركود الاقتصادي والنمو السكاني يهددان بحدوث الاكتظاظ السكاني والمجاعة (أو على الأقل الفقر الشديد). هل سيمتلك **بشار الأسد** صفات الحاكم القوي الذي يستطيع إدارة التعقيدات السياسية في سورية الحديثة؟ حسب **ابن خلدون**: "*في المرحلة الثانية يتسلط الحاكم على شعبه ويحتفظ بكافة صفات المُلك لنفسه... ويمنعهم مِنْ مشاركته بها*". [فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بالمراح... ما يختص به لنفسه وتكون خالصة له دون قومه مِنْ ألقاب المملكة] تضعف العصبية وتصبح الدولة مُعَرَّضَة لمنافسيها على السلطة. يبحث الفصل السادس فيما إذا كان ذلك ما حدَثَ في سورية أم لا.

الفصل السادس

العصبية العَلَوية مع بشار الأسد: تَغيُّر أم استمرار؟

توفي **حافظ الأسد** في يوم السبت 10 يونيو 2000 إثر إصابته بنوبة قلبية وعمره 69 سنة[1]. كان **عبد الحليم خدام** في طريقه عائداً إلى دمشق للقاء **الأسد** في ذلك اليوم. وعندما وصل إلى بيت الرئيس وجد النواة الداخلية للنظام السوري مجتمعين هناك. أُخبر **خدام** أنّ الرئيس قد مات، وقالوا: "*بما أنك لَم تكن موجوداً، فقد اتفقنا أنّ بشار سيخلفه*". كان **خدام** أحد نائبي الرئيس آنذاك وسياسياً قديماً في الدولة، وقد نشأ مع الأمل بسورية ديموقراطية، ولَمْ يوافق على توريث السلطة، ولكنه لَمْ يستطع معارضة القرار كما تذكَّر فيما بعد قائلاً: "*عندما أخبروني أنني لا أستطيع الرفض، أولاً لأنّ الرئيس قد توفي للتو، ولن يكون مناسباً مناقشة ذلك الآن. وثانياً شاهدتُ أنّ قادة الحزب قد أجمعوا على أنهم يريدون* ***بشار*** *للخلافة، وأنّ رفضي سيخلق اضطراباً في البلد*".

رغم هذه التحفظات فقد أدار **عبد الحليم خدام** الدولةَ ظاهرياً، وقدَّم التصريحات الرسمية للترقية السريعة **لبشار** ابن **حافظ الأسد** الذي كان عمره آنذاك 34 سنة[2]. لَمْ يكن **لبشار الأسد** خبرة هامة في السياسة ولا في الجيش. كان مؤهله الوحيد للرئاسة هو أنه أكبر أبناء **حافظ الأسد** الباقين على قيد الحياة. أكدّ

---

(1) نيويورك تايمز. 12 يونيو 2000

(2) في اليوم التالي لوفاة والده تم تنصيب بشار قائداً عاماً للجيش والقوات المسلحة، وترفيعه من رتبة عقيد إلى لواء. ورشحته القيادة القطرية لحزب البعث لمنصب رئاسة الجمهورية. نيويورك تايمز. 12 يونيو 2000

ذلك ضعف المسؤولين السنّة مِنْ أمثال **خدام** الذين كانوا مجرد واجهة للقوة السياسية الحقيقية في سورية. أكدّ توريث **بشار الأسد** أنّ سورية تحكُمها سلالة وراثية. بعد النجاح في المحافظة على عصبية عَلَوية قوية خلال ثلاثين سنة مضتْ، ظلّتْ الطائفةُ العَلَوية الداعم الرئيسي لحكم عائلة **الأسد**.

مِنَ السهل تفهّم دعم العَلَويين القوي بين المقَربين مِنْ عائلة **الأسد**، وضّحتْ ذلك سيدة عَلَوية مِنَ القرداحة عمرها 44 سنة بقولها بعد وفاة **حافظ الأسد** بقليل: "*بالنسبة لنا فإنّ أهم شيء هو أنّ الرئيس يجب أنْ يكون مِنْ عائلة **الأسد***"[1]. مِنَ الصعب تقدير عمق شعور العَلَويين البعيدين عن مركز النظام في تأييد زعامة **حافظ الأسد**، ومِنَ الممكن افتراض أنّ **بشار الأسد** قد بدأ حكمه بتأييدٍ عام مِنَ العَلَويين. حسب **ابن خلدون** فإنّ المرحلة الثانية للدولة تترافق بتراجع سريع في العصبية بينما يبتعد الحاكم بنفسه عن جماعته: "*مع بداية المرحلة الثانية، يُظهِر الحاكم أنه مستقل عن جماعته، وَينسب المجد لنفسه وحده، ويُبعد شعبه عن السلطة بيديه. فتصبح جماعته عدوة له*" [الطور الثاني طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة... حتى يقر الأمر في نصابه، ويفرد أهل بيته بما يبني من مجده، فيعاني مِنْ مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد].

يبحث هذا الفصل في مدى انطباق أفكار **ابن خلدون** على حالة العَلَويين. أو باختصار، هل بدأت عصبية العَلَويين لدعم عائلة **الأسد** في الضعف خلال العقد الأول مِنْ حُكْم **بشار الأسد**؟ وإذا كان الأمر كذلك، ما هي العوامل التي أدتْ إلى ضعف دعم العَلَويين؟ وما هي العوامل التي يمكن أنْ تمنع تَخَلّي العَلَويين عن عائلة **الأسد**؟

توجّهات بشار الأسد الأولية: إصلاحي مجدِّد؟

لَقِيَ انتقال السلطة السياسية في سورية إلى الجيل الثاني مِنْ عائلة **الأسد** ترحيباً وتأييداً واضحاً في سورية. هتَفَتِ الجماهير في شوارع دمشق "الله، سورية، **بشار** وبس". ولكنْ مِنَ المهم ملاحظة وجودٍ مكثفٍ لعناصر الأمن الرسميين لمراقبة

(1) سوزان ساكس Susan Sachs رعاية الأسد تضع طائفة صغيرة في القمة في سورية. نيويورك تايمز. 22 يونيو 2000

المظاهرات[1]، مما يشير إلى الطبيعة المنظّمة لهذه التظاهرات. إلا أنّ حماسَ كثير مِنَ السوريين ربما كان حقيقياً. فبعد ثلاثة عقود مِنْ حُكْم القبضة الحديدية، بَشَّرتْ وفاة **حافظ الأسد** بتغير حالة الوضع الراهن، وأي تغيير كان مُرَحّباً به. ظهر التعبير الحقيقي عن مشاعر السنّة تجاه حكم عائلة **الأسد** في نسبة الحضور إلى خيام التعزية التي نُصِبتْ في كافة أرجاء الدولة. ففي قرى العَلَويين الجبلية كانت تلك الخيام مزدحمة، بينما كادتْ أنْ تكون خالية في مناطق السنّة[2].

في القرداحة، مسقط رأس **الأسد**، وصَفَ مراسل جريدة وول ستريت الجوّ العام بالتوتر والقلق. بعد غياب راعيهم وحاميهم الرئيسي شعَرَ العَلَويون بالخوف والقلق بشأن مستقبلهم ومدى قدرة **بشار الأسد** على حماية مصالحهم. وبينما رحَّبَ السنّة بأي تغيير في الوضع السياسي الراهن، كان كثير مِنَ العَلَويين قلقين بسبب نتائج التغيير. شعَرَ بعض العَلَويين بشيء مِنَ الراحة آملين أنه خلال فترة حكم **حافظ الأسد** ربما حدَثَتْ تغيرات إيجابية في تقارب الاختلافات الطائفية في سورية.

أثناء جنازة **حافظ الأسد** قال مهندس مَدَني عَلَوي: "*نحن والسنّة أكثر تقارباً الآن مما كنا في الماضي، بسبب الحضارة والإعلام*". بكلمة أخرى أمِلَ بعضُ العَلَويين أنّ التحضُّر ووسائل الإعلام الحكومية قد نجحتْ بتغيير مفاهيم الجماهير بعيداً عن الطائفية. توضح إجابةٌ أخرى ذكَرَتها سيدة عَلَوية ميولاً طائفية صريحة، وموقفاً نخبوياً يبدو غريباً بالنظر إلى تاريخ العَلَويين: "*نحن لا نحصل على الوظائف الجيدة بسبب معاملة خاصة، نحن أكثر ثقافة وذكاء وانفتاحاً*". ثلاثون سنة مِنْ حُكْم **الأسد** أنتجتْ عقلية جديدة لدى العَلَويين البرجوازيين الشباب، اختفَتْ فيها أصولهم المتواضعة، وشعروا أنهم متفوقون على السنّة. يجدر بالملاحظة أنّ هذه التعليقات صدرَتْ عن سكان القرداحة، وهم أقرب العَلَويين لمركز رعاية وامتياز حكم عائلة **الأسد**، ولا يمَثلون عامة الطائفة العَلَوية.

(1) قادة سورية يجمعون التأييد لابن حافظ الأسد. نيويورك تايمز. 12 يونيو 2000. الإيكونوميست 15 يونيو 2000

(2) هيو بوب Hugh Pope وفاة الأسد تقلق الطائفة المفضلة. وول ستريت جورنال. 14 يونيو 2000

انتظَر المراقبون الدوليون ليروا فيما إذا كانت تركيبة النظام السوري ستظل ثابتة. شكّك دبلوماسي في واشنطن في استمرار دعم العَلَويين لعائلة **الأسد** قائلاً: "*هل ستواصل جميع القوى التي أيّدت الأب دعمها للابن؟*" (1). في بداية حكْم **بشار الأسد** كان حوالي 90% مِنَ جنرالات الجيش السوري عَلَويين(2). إلا أنّ كثيراً منهم عُزلوا في عمليات "تطهير ضد الفساد" لإزالة أي معارض محتمل ضد توريث **بشار**(3)، فمثلاً في فبراير 2000 خَلَفَ **حسن خليل** اللواء **علي دوبا** الذي كان رئيساً للمخابرات العسكرية منذ 1974، وأُقيل **عدنان مخلوف** رئيس الحرس الجمهوري، وتمّ استبداله بصديق مقرب مِنْ **بشار** هو **علي حسن**(4). لَمْ يُستكمل هذا الأمر في يونيو 2000، مما ترك فرصة لاحتمال حدوث انقسامات في صفوف العَلَويين. قال المستشار العسكري الإسرائيلي **يوري لوبراني** آنذاك: "*توّج السوريون رئيساً عمره 34 سنة، وجعلوه قائداً عاماً للقوات المسلحة في يوم واحد.* [ليس مِنَ الصعب تقدير] *ما الذي يفكر فيه جنرالات الجيش السوري. أعتقد أنّ فرصته في البقاء لا تتجاوز 50%*". إلا أنّ جميع مَنْ تبقى مِنْ جنرالات العَلَويين أعلنوا ولاءهم للرئيس الجديد(5).

تجمّع تحالفٌ مِنْ كبار العشائر العَلَوية مع قادة مِنْ ضباط الجيش و**بشرى** أختُ **بشار الأسد**، وزوجها **آصف شوكت** (ولد 1951/1952) في دعم **بشار**(6).

(1) حاجز جديد أمام السلام. نيويورك تايمز 11 يونيو 2000
(2) إيال زيسر Eyal Zisser الجيش السوري: بين الجبهات الداخلية والخارجية. في: القوات المسلحة في الشرق الأوسط، السياسة والاستراتيجية. تحرير روبين وكيني B. Rubin and T. Keaney, (Oxon: Frank Cass, 2002). ذكر عبد الحليم خدام في مقابلة مع المؤلف أن النسبة كانت 95%.
(3) بول كينغستون Paul Kingston وهاكالي O. Hakalai وهاسيمي N. Hasemi الدخول في القرن الحادي والعشرين- الشرق الأوسط. مجلة *International Journal*, Vol.55, 1999-2000 صفحة 652. زيادة. 2011 صفحة 41
(4) زيسر 2002 صفحة 115–120
(5) عالَم بشار. الإيكونوميست. 15 يونيو 2000
(6) ورد في توماس فريدمان Thomas Friedman ثلاثة أفلام وجنازة. نيويورك تايمز 16 يونيو 2000. عن الدور الهام لبشرى الأسد في عائلة الأسد انظر: محمد داوود: ملف بشرى الأسد. مجلة *Mid-East Monitor*, Vol.1, No.3, September-October, 2006

كان **لشوكت** أهم الأدوار تأثيراً في المخابرات العسكرية رغم أنه لَمْ يكن مكلّفاً بشكل رسمي، وكان فعالاً في دعم وتثبيت التأييد **لبشار** في مؤسسات الأمن العسكري ذات الأغلبية العَلَوية(1). المعارضةُ العَلَوية المعلَنة الوحيدة جاءت مِنْ طرف المَنْفي **رفعت الأسد**، الذي هَدّد مِنْ بيته في اسبانيا بالعودة إلى سورية، وأَخْذِ "*مركزه الطبيعي*" كرئيس(2). أثار ذلك بعض الشك مؤقتاً حول تماسك العَلَويين، بينما ادعى بعض الدبلوماسيين أنّ **رفعت الأسد** مازال يتمتع بدعم في بعض وحدات الجيش السوري(3). لَمْ تتبلور تحديات **رفعت** أبداً، ولَمْ تظهر دلائل انقسامات عَلَوية في الجيش.

في 10 يوليو 2000 انتُخب **بشار الأسد** رسمياً للرئاسة في تصويت شعبي رُتّبَ بعناية، وحَصَل على نسبة 97.3% مِنَ الأصوات، وهكذا تمّ انتقال السلطة(4). كان السؤال المطروح على جانبي خط التماس الطائفي الرئيسي في سورية: ما هو الاتجاه الذي سيتبعه الجيل الجديد مِنْ عائلة **الأسد**؟ كان أملُ أغلب العَلَويين هو استمرار الوضع الراهن الذي حقّق حتى ذلك الوقت مصالحهم في بعض المنافع المادية، وضَمِنَ لهم الأمن ضد الأغلبية السنيّة. في حين كان أملُ السنة هو تحقيق انفراج سياسي على يد الرئيس الشاب الجديد ذي العقل المنفتح التقدمي(5). كان الشعار العام **لبشار الأسد** في بداية رئاسته هو: "التغيير مِنْ خلال الاستمرار"، ورغم أنّ هذا الشعار يبدو متناقضاً إلا أنه كان منسجماً مع الآمال السياسية لكلتا الطائفتين(6).

(1) جين بيرليز Jane Perlez ألبرايت تجد رئيس سورية الجديد جاهزاً لمتابعة الحوار. نيويورك تايمز. 14 يونيو 2000
(2) الإيكونوميست 15 يونيو 2000. نيويورك تايمز 22 يونيو 2000. بول كينغستون Paul Kingston وهاكالي O. Hakalai وهاسيمي N. Hasemi الدخول في القرن الحادي والعشرين- الشرق الأوسط. مجلة *International Journal*, Vol.55, 1999-2000 صفحة 652
(3) سوزان ساكس Susan Sachs قضايا قريب منفي تتحدى وريث السلطة في سورية. نيويورك تايمز. 13 يونيو 2000
(4) آرييل أهرام Ariel I. Ahram العراق وسورية: مشاكل حكم السلالة. مجلة *Middle East Quarterly*, Vol.9, No.2, 2002، صفحة 42
(5) سوزان ساكس: يأمل السوريون احتمالات التقدم في الوريث. نيويورك تايمز 11 يونيو 2000
(6) غاري غامبيل Gary Gambill الأسد في الشتاء: بشار الأسد يدمر نفسه. مجلة *Mideast Monitor*, Vol.1, No.1, February 2006

في البداية ظَهَر **بشار الأسد** وكأنه يسير ضد مصالح العَلَويين بتقديمه مساراً إصلاحياً. حَمَلَتْ صور **بشار الأسد** في دمشق شعار: "القائد يفتح مرحلة جديدة"[1]. مع نهاية سنة 2000 امتد تغير المناخ السياسي فيما وراء الشعارات عندما بدأ النشطاء السياسيون والمثقفون ومؤسسات المجتمع المدني بالاجتماع علناً، ومطالبة الحكومة بإصلاحات سياسية واقتصادية، ورفع حالة الطوارئ التي كانت مَفروضة منذ سنة 1963. أُطلق اصطلاح "ربيع دمشق" على انفراج الساحة السياسية في أواخر سنة 2000 وأوائل 2001[2]. مِنَ الشخصيات الرئيسية التي استغلّتْ ذلك الانفتاح: عضو مجلس الشعب ورَجل الأعمال السنيّ **رياض سيف**، والكاتب المعارض المسيحي **ميشيل كيلو**.

مِنَ العناصر المهمة في النشاط السياسي الجديد في سورية كان ظهور أصوات عَلَوية متحررة ظلّتْ صامتة منذ الثمانينيات. فمثلاً ظَهَر الاقتصادي العَلَوي **عارف دليلة** الذي دَعى الجماهير للخروج إلى الشارع بمظاهرات تُطالب بإصلاحات سياسية واقتصادية. ومِنَ المدهش أنه بدلاً مِنْ قمعهم بشدة، استجابتْ صحيفة الثورة التابعة للحكومة، ونَشَرتْ تفاصيل انتقادات **دليلة** للسياسة الاقتصادية أيام **حافظ الأسد**[3]. ربما أظهَر ذلك رغبةَ **بشار الأسد** في تصحيح سياسة والده الاقتصادية.

هناك طرق عديدة لدراسة وفهم ربيع دمشق. يَعتقد بعضهم أنه كان دليلاً على رغبة **بشار الأسد** الحقيقية لفتح الدولة سياسياً، إلا أنّ "الحرس القديم" أعاق تلك المحاولة[4]. أو أنه طريقة لكشف العناصر المعارضة في الدولة لمساعدة **بشار الأسد** في تثبيت حكْمه. أو ربما كانت خطة لتجنب انفجار معارضة مكبوتة وغضب كامن في الطائفة السنيّة إذا خابتْ آمالهم للتغيير في سورية. تفسير آخر ممكن هو أنّ **بشار الأسد** والجيل الجديد في حكْم عائلة **الأسد** مِنَ الدائرة المُقرَّبة سعَتْ إلى تخفيف أهمية الطائفة

(1) هل تتغير سورية فعلاً؟ الإيكونوميست 16 نوفمبر 2000

(2) رضوان زيادة 2011 صفحة 61-75

(3) الإيكونوميست 16 نوفمبر 2000

(4) انظر مثلاً كارستن ويلاند Carsten Wieland سورية في معتقل العلمانية والإسلامية الأمريكية (London: Hurst, 2006).

العَلَوية كحجر الأساس في هيكل السلطة في سورية. وحسب تحليل معاصر: "*بدأ العَلَويون بالقلق لأنّ النظام قد يتخلى عنهم*"[1]. أو بكلمة أخرى شَعَرَ العَلَويون أنّ عائلة **الأسد** تسعى لإبعادهم عن السلطة السياسية في سورية. فربما أنّ أبناء وبنات النُخبة، الذين وجدوا أنفسهم في موضع القوة، لَمْ يتذكروا الصراعات الطائفية في السبعينيات والثمانينيات، وخلال نَشْأتهم المُترَفة فقدوا الإحساس بالتيارات الطائفية الخفية في الدولة. أو ربما أدى المَنع الطويل لمناقشة الانقسامات الطائفية إلى انطباع خاطئ بالانسجام لدى النُخبة العَلَوية، كما بدا واضحاً في كلمات المهندس المَدَني التي ذُكرتْ سابقاً عن تحسّن العلاقات بين السنة والعَلَويين.

جَسَّدَ **بشار الأسد** الجيلَ الجديد مِنَ العَلَويين المتعلمين الأثرياء، ولَمْ يَظهر أنه يعتذر عن الظروف التي أدّتْ لاستلامه السلطة، وكأنما كان مِنَ الطبيعي تماماً أنْ يقود الدولة وعمره 34 سنة. لَمْ يكن لديه ذكريات شخصية عن الكفاح الطويل للطائفة العَلَوية ضد الفقر والتمييز الديني، وكان عمره 16 سنة عندما تمرد الإخوان المسلمون وتمّت إبادتهم في حماة. فقد أُبعد عن طريق الأذى ولَمْ يَعرف الأحداث تماماً. بمراعاة ذلك، ربما لَمْ يُقدِّر **بشار** أهمية دعم العلويين في تثبيت نظام حكمه مثلما قدَّرَها والده، ولذلك فقد تجرأ على السير في اتجاهات قد تكون غير مُحبَّذة لكثير مِنَ العَلَويين[2]. يمكن رسم مسار مماثل لعقلية **بشار الأسد** مع تعريف **ابن خلدون** للحاكم الذي يولَد في السلطة والترف. إذ لا يكون الحاكم الجديد متفهماً لضرورة مشاركة السلطة مع جماعته مثلما فَعَل سابقه، فيدَّعي كلَّ المجد لنفسه، ويُبعد جماعته عن السلطة. وضح ذلك **رياض نعسان آغا**، رئيس المكتب السياسي للرئاسة، (عن غير قصد) في مقابلة له مع قناة الجزيرة في يونيو 2000 بقوله:

"*لا يوجد شيء اسمه الطائفةُ العَلَوية في سورية... إذا أحاط الدكتور* ***الأسد*** *نفسه بأولاد عمومته، وأعمامه وأخواله وآخرين مِنْ أسرته فهذا شيء طبيعي تماماً.*"

(1) نيل فاركوهار Neil Farquhar سورية مضطرة للتأقلم مع قوة جديدة بجوارها. نيويورك تايمز 22 أبريل 2003

(2) تم التوصل إلى هذا الاستنتاج من نص مقابلة لبشار الأسد مع دون بلت Don Belt. انظر: أرض الظلال. مجلة *National Geographic*, November, 2009

هل تتصور أنه سيحيط نفسه بأعدائه كي يساعدوه؟" [1].

إنكار الخصوصية العَلَوية كان السلوك المعتاد لرجال النظام أيام **حافظ الأسد**، ولكن إنكار وجود الطائفة العَلَوية، مع التأكيد على أهمية عائلة **بشار الأسد** وأصدقائه يتجاوب مع تنبؤات **ابن خلدون** بابتعاد السلالة الحاكمة عن جماعتها في المرحلة الثانية مِنْ عمر الدولة.

شعَرَ بعض العلويين أنّ **بشار الأسد** أقرب إلى السنّة مما كان والده[2]. زواجه في عام 2001 مِنْ **أسماء الأخرس**، وهي سيدة سنيّة عالية الثقافة ولِدَتْ سنة 1975 في لندن لعائلة ثرية مِنْ حمص[3]، أعطى إشارةً لبعض العَلَويين أنّ **بشار** قد تخلى عن جذوره، ويُقال أنّ والدته **أنيسة مخلوف**، قد اعترضتْ على ذلك الارتباط. وربما اعتَبر بعض أفراد النخبة العَلَوية أنّ زواجه علامةٌ على أنّ **بشار** سيتخلى عنهم كقاعدة دعمه رئيسية، مما قد يُهدد أوضاعهم المتميزة[4]. مِنْ وجهة نظر أخرى اعتَبر بعض عامة العَلَويين أنّ زواج **بشار** مِنْ سنيّة هو تطور جيد في اندماج العَلَويين الاجتماعي في سورية. فمثلاً اقترح الشيخ العَلَوي **علي يبرال** أنّ الزواج *"يعتبر علاقة تقارب قوية بين العَلَويين والسنّة"*. لا شك بأنّ التقارب العَلَوي السنيّ سيخفف مِنْ خوف طائفة العَلَويين، ويحررهم مِنْ عاملٍ رئيسي يحافظ على عصبية العَلَويين حول عائلة **الأسد**.

ظهَرَ اختلاف هام بين مصالح عامة العَلَويين والرئيس الجديد في ناحية السياسة الاقتصادية. وبرَزَ مؤشرٌ على الاتجاه الاقتصادي الذي أراده الرئيس الجديد في تشكيلة الوزارة الجديدة في مارس 2000، والتي تمّ انتقاء أعضائها بإشراف **بشار** شخصياً، وتضمنتْ "عدداً مِنَ الشخصيات التي تؤيد فكرة اقتصاد السوق الحر". بين هؤلاء المستشارين الرئيسيين شبابٌ متعلمون مِنْ أبناء النخبة العَلَوية، ورجال

(1) نيويورك تايمز 22 يونيو 2000. كما وردت في الجزيرة.

(2) الشيخ علي يبرال في مقابلة مع المؤلف في أنطاكية. 28 مارس 2011

(3) شمويل بار Shmuel Bar سورية بشار: النظام ونظرته العالمية الاستراتيجية. مجلة *Comparative Strategy*, Vol.25, 2006، صفحة 353–445، صفحة 380

(4) نيل فاركوهار Neil Farquhar سورية مضطرة للتأقلم مع قوة جديدة بجوارها. نيويورك تايمز. 22 أبريل 2003

أعمال شباب مِنْ عائلات دمشق السنيّة[1]. وهكذا يبدو أنّ الخطوات الاقتصادية الأولى **لبشار** كانت تشبه طريق عمه **رفعت الأسد** أكثر مِنْ طريق والده. وبالنسبة للعَلَويين الذين رَفَضوا طريق **رفعت** سنة 1984، لا بد أنّ اتجاه **بشار** أثار قلقهم، إذ ظَهَرَ وكأنّ عائلة **الأسد** قد أخذتْ تبتعد عن مصالح العَلَويين الأساسية في الاشتراكية التي مَنَحَت العَلَويين فرص العمل والسيطرة القوية على الأكثرية السنيّة.

توقّعَ بعضُ المحللين الدوليين أنّ الرئيس السوري الجديد سيكون فعلاً "مُصلِحاً تقدمياً" مع ميول غربية[2]. تفاءلَت الولايات المتحدة بذلك الاتجاه، وشجّعتها تصريحات **بشار** فيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي بقوله: *"سأتابع السلام مثلما فعل والدي"*. كان على الولايات المتحدة أنْ تقرأ ذلك كعلامة سلبية في عملية السلام بالنظر إلى الصعوبات التي حدثتْ مع **حافظ الأسد** في استكمال محادثات السلام مع إسرائيل.

في أواخر 2001 تمّ إغلاق الانفتاح السياسي في الدولة الذي أُطلق عليه اسم "ربيع دمشق" تماماً، وتمّ القبض على عشرة مِنْ أقوى منتقدي الحكومة، بمَنْ فيهم **رياض سيف وعارف دليلة** في سبتمبر 2001[3]. حُكِمَ على **دليلة** بالسجن سبع سنوات، بينما حُكِمَ على زملائه السنة بالسجن خمس سنوات[4]. تشبه العقوبة القاسية التي تلقاها **عارف دليلة** عقوبة السجن لسبع سنوات التي تلقاها الناشط العَلَوي **لؤي حسين** سنة 1984، وتدلّ على استمرار سياسة الردع ضد المعارضة العَلَوية. توضح ظروف اعتقال **رياض سيف** الصفات الجديدة لحكم عائلة **الأسد**، فقد كان السبب الرسمي لاعتقاله هو أنه افتتح صالونه السياسي بدون إذن سابق، إلا أنّ شركاء

(1) سوزان ساكس Susan Sachs السوريون يرون في الوريث إمكانية التقدم. نيويورك تايمز. 11 يونيو 2000

(2) جين بيرليز Jane Perlez ألبرايت تجد رئيس سورية الجديد جاهزاً لمتابعة الحوار. نيويورك تايمز. 14 يونيو 2000

(3) جين بيرليز Jane Perlez الحقائق القديمة تغطي الوزارة السورية الجديدة. نيويورك تايمز. 21 يناير 2002

(4) أندرو إنغلاند Andrew England ربيع دمشق يغيب عن الذاكرة. فاينانشيال تايمز. 13 سبتمبر 2008

سيف ذكروا أنّ السبب الحقيقي لاعتقاله كان انتقاده لعقد استثمار الهاتف الخليوي الذي مُنح **لرامي مخلوف**، ابن خالة **بشار الأسد**[1]. كانت تلك إشارة مبكرة للفوائد غير المتناسبة التي ستحققها الإصلاحات الاقتصادية لصالح المقربين مِنْ عائلة **الأسد**، وقد وصفَ **عبد الحليم خدام** ذلك السلوك للمؤلف بأنه "خصخصة الفساد".

حدَثَت الآثارُ المترتبة على العصبية العَلَوية في السنة الثانية مِنْ حُكْم **بشار الأسد** في اتجاهين: مِنَ الجهة الأولى، ربما أدى قمع الإصلاحات السياسية إلى طمأنة بعض العَلَويين أنّ النظام لن يَسمح بخطوات قد تكون خطيرة بعودة السنة إلى النشاط السياسي. ومِنْ جهة ثانية، فإنّ التغيير بعيداً عن الاقتصاد الاشتراكي المركزيّ التخطيط يُهدد الأمنَ المالي لكثير مِنَ العَلَويين. كما أنّ ازدهار الثروة الخيالية للمقربين مِنَ النظام، مثل **رامي مخلوف**، كان مصدر استياء عامة العَلَويين. اعتنى **حافظ الأسد** دائماً بالطائفة العَلَوية كلها، بينما يبدو **بشار** أنه يتخلى عن الجميع فيما عدا أقربائه وخلصائه.

باختصار، فقد حقق الجيل الجديد مِنْ عائلة **الأسد** التغيير والاستمرار، ولكن ليس بالطريقة التي أرادها العَلَويون والسنّة. ظهر تغيير سياسي لفترة وجيزة، ولكنه سرعان ما سُحِب. كما ظهر تغيير اقتصادي، إنما بطريقة "خصخصة الفساد" التي مَنَحَت الدائرةَ المقربةَ فرصة جني فوائد الإصلاحات. استمرار حكم **الأسد** لَمْ يُعادِل استمرارَ السياسات الرئيسية ونمط حكم **حافظ الأسد** الذي كان بشكل عام مفيداً للعَلَويين، إنما كما توقع **ابن خلدون** فقد ظهر أنّ **بشار الأسد** "كان يدفع جماعته بعيداً".

عالَم متغير وتحديات جديدة

كانت الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة الأمريكية في 11 سبتمبر 2001 نقطة انعطاف في تاريخ العالَم. وبالنسبة لسياسة العَلَويين فقد جَلَبَتْ مرحلة

(1) صرح رياض سيف علناً أن العقد سيحرم السوريين من دخل بلايين الدولارات. جين بيرليز Jane Perlez الحقائق القديمة تغطي الوزارة السورية الجديدة. نيويورك تايمز. 21 يناير 2002

صعبة. اشتَملت الظروف الدولية بعد هجمات 11 سبتمبر على تطورات يمكن أنْ تُشكل خطورة على مصالح العَلَويين. فمِنْ ناحية أُولى تطلَّعَت الولايات المتحدة إلى فرض نفسها عسكرياً وسياسياً، وتغيير الوضع السياسي الراهن في الشرق الأوسط. وعلى النقيض مِنْ ذلك كانت هناك الأصولية الإسلامية المتزايدة. تزايدتْ قوة الإسلام السياسي تدريجياً في الشرق الأوسط خلال القرن العشرين، دفَعَته عوامل مثل الاستعمار الغربي وتأسيس إسرائيل والاستبداد القمعي. إلا أنّ التدخل القوي للولايات المتحدة في الشرق الأوسط في 2003 مَنَح الإسلام السياسي دفعة جديدة. طرحتْ هذه التغيرات تحديات لاستقرار حُكْم عائلة **الأسد** وأَمْن العَلَويين.

في ذلك الوقت حاولتْ دولة **الأسد** المحافظة على مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة. ظلَّت السيطرة على لبنان، التي رسَّخها **حافظ الأسد** بكثير مِنَ العناء، عاملاً أساسياً في المحافظة على حُكْم **الأسد**. ولكن الانسحاب الإسرائيلي مِنْ جنوب لبنان سنة 2000 قلّل مِنْ شرعية استمرار الوجود العسكري السوري في لبنان[1]. شجّع ذلك بعض السياسيين اللبنانيين لإثارة تساؤلات عن ضرورة السيطرة السورية على لبنان. كان السنيّ **رفيق الحريري** أبرز هؤلاء السياسيين، وكان رئيس وزراء لبنان مرتين في 1992–1998 وفي 2000–2004. تمتع **الحريري** بشعبية واسعة في لبنان، وكان له تحالفات دولية قوية، وسطوة اقتصادية بسبب كونه بليونيراً غنياً وله مصالح تجارية هامة في المنطقة[2]. رغم أنّ **الحريري** كان علمانياً في سياسته، إلا أنه كان يمَثّل نقطة تركيز للعودة السياسية السنيّة في شرق المتوسط. باختصار شكّل **الحريري** تهديداً لأمْن العَلَويين وصدارة **الأسد** في الساحة السياسية لسورية ولبنان.

في بداية 2003 تراكَمت التحديات أمام حكْم عائلة **الأسد** والعَلَويين مِنَ الشرق أيضاً، فإنّ الإنهيار السريع لنظام البعث في بغداد أمام جيش الولايات

(1) البيان الصحفي لمجلس الأمن UNSC/6878 مجلس الأمن يؤيد ملخص السكرتير العام عن نتائج الانسحاب الإسرائيلي من لبنان اعتباراً من 16 يونيو. في 18 يونيو 2000

(2) مروان اسكندر، رفيق الحريري ومصير لبنان. (لندن. دار الساقي، 2006)

المتحدة أرسلَ موجات صدمة في النظام السوري، وأصبح ضعف موقفهم واضحاً[1]. وضّح العميد المتقاعد والدبلوماسي السوري **هيثم كيلاني** هذا القلق قائلاً: *"لا ندري ما الذي يمكن أنْ يَحدث لنا بعد حرب العراق، ولكن مِنَ المؤكد حدوث تغيير"*[2]. بالنسبة لأغلبية السوريين فإنّ التغيير السياسي كان حتمياً وبشكل رمزي، بعد سقوط تمثال **صدام حسين** الذي عُرِضَ على شاشات التليفزيون في 9 أبريل 2003[3]، لاحَظَ مراسل جريدة نيويورك تايمز جماعةً مِنَ الشباب السوريين بدمشق يتناقشون فيما بينهم فيما إذا كان تمثال **حافظ الأسد** سيسقط أيضاً إذا تمّ دَفعه[4]. الإحساس بالخطر على النظام السوري مِنَ القوى الخارجية، واحتمال حدوث انقلاب سياسي في سورية، دفع العَلَويين للتماسك أكثر حول عائلة **الأسد**.

مثلما حَرَّكَ الغزو الصليبي والغزو المغولي النشاطَ العسكري الإسلامي السنّيّ منذ قرون، فإنّ التدخل الغربي في الشرق الأوسط أدى إلى ذلك أيضاً، ولم يكن هذا في صالح العَلَويين. أقنعَ **ابن تيمية** القوى المملوكية في القرن الرابع عشر لمواجهة التهديد الخارجي بضرورة قمع الفئات الضالة مثل العَلَويين. وقد حاول حكْمُ عائلة **الأسد** السيطرةَ على الوضع، وتحويل ذلك النشاط الأخير في الحميّة الدينية لصالحه دون أنْ يفكر جيداً بالآثار بعيدة المدى على العَلَويين.

يبدو أنّ الإسلام قد شَهد بالفعل صحوة قوية في المجتمع السوري أواخر عام 2003، فبعد فترة طويلة مِنَ العلمانية التي فُرِضَتْ بالقوة، أصبحت الأزياء والعادات الإسلامية واضحة. علّقَ رجلُ أعمال مِنْ عائلة حلبية عريقة قائلاً: "كثير مِنْ

(1) نيل فاركوهار Neil Farquhar سورية، العلمانية العنيفة تشهد بعثاً إسلامياً قوياً. نيويورك تايمز. 24 أكتوبر 2003

(2) نيل فاركوهار Neil Farquhar سورية مضطرة للتأقلم مع قوة جديدة بجوارها. نيويورك تايمز 22 أبريل 2003

(3) عرض التليفزيون السوري فيلماً وثائقياً عن العمارة الإسلامية خلال ذلك الحدث. إلا أن القنوات الفضائية المتوفرة بكثرة في سورية في 2003 منحت كثيراً من السوريين الفرصة لمشاهدة صور الأحداث الدرامية في العراق خلال مارس وأبريل 2003. انظر فولكر بيرثيس Volker Perthes 2004 صفحة 50

(4) نيويورك تايمز 22 أبريل 2003

أصدقائي المتحَررين تَحَوَّلوا فجأة إلى الإسلام"[1]. وحسب **عبد الرزاق عيد**، وهو كاتب سياسي مِنْ حلب، كانت تلك محاولة مِنْ نظام **الأسد** *"لحشد وإثارة المشاعر القوية ضد الأمريكان"*. توقّع **عيد** مخاطرةً في استراتيجية إطلاق العنان للقوى الإسلامية التي قد تَخرج عن السيطرة: *"لا يوجد إسلام سياسي صريح، إلا أنهم يبنون قاعدة، وعندما ستتاح لهم الفرصة سيُصبحون حركةً متعصبة ومتطرفة"*[2].

مثال على ذلك التَطرُّف الصاعد هو الشيخ الحلبي **محمود آغاسي** المعروف باسم **أبو القعقاع**، الذي ألقى خُطَباً نارية ضد الأمريكان "الكفار"، ولكنه تردد في الإجابة عندما سُئل هل يريد دولة إسلامية في سورية، ثم قال: *"يصبح حُكْم الإسلام أمراً عضوياً عندما يدرك الجميع أنّ الإيمان يمكن أنْ يَحِل مشاكل البلد"*، وبذلك وَسَمَ **آغاسي** نفسه كعدوٍ مُحتَمل لمصالح العَلَويين. ورغم ذلك فقد كان أداةً مفيدة لنظام **الأسد** ضد التهديد الأمريكي على المدى القصير[3]. يمكن تقدير مدى نجاح النظام في ربط شرعيته الداخلية مع المشاعر الإسلامية المتزايدة بما حدَثَ في ختام خطبة **لآغاسي** حين طالَبَ بتحرير الأسرى في غوانتانامو، فارتفعتْ أصوات الحاضرين بكلمة "يا الله"، ولكن عندما دَعى إلى الله ليحفَظَ حكام سورية كانت استجابة الحاضرين خافتة[4].

مِنْ بين كل طوائف سورية، حَمَلَ صعودُ الإسلام الجهادي أكبرَ الأخطار بالنسبة للعَلَويين، وذلك بالنظر إلى العلاقات التاريخية بين الطائفتين، وثأر الدم في حماة 1982. ولذا فقد أثَّرتْ سياسة نظام **الأسد** على عصبية العَلَويين بطريقة معاكسة. فربما أثَارَ تحمّل النظام الظاهري للمشاعر الإسلامية الصاعدة استنكارَ كثير مِنَ العَلَويين، وعلى العكس فإنّ زيادة المخاوف مِنَ الأصولية السنّيّة قد تدفع

(1) لوسي أشتون Lucy Ashton انسحاب سورية من لبنان شجع المعارضة الإسلامية. فاينانشيال تايمز 6 مايو 2005

(2) نيويورك تايمز 24 أكتوبر 2003

(3) كانت فوائد الآغاسي خطابية وعملية، فمثلاً في 2003 قدم مستعدة مالية للمقاومة في العراق. انظر الاعترافات التي بثت على قناة تليفزيون الفيحاء، العراق/الإمارات العربية المتحدة 14 يناير 2005، ترجمة *Memri*, Special Dispatch No. 849

(4) نيويورك تايمز 24 أكتوبر 2003

العَلَويين إلى الاعتماد أكثر على حكم عائلة **الأسد** في ضمان أمنهم. وكما وَصف الموقف أحد المثقفين السوريين بأنّ نظام **الأسد** طرَحَ الاختيار: "*إما نحن أو حكومة طالبان*" (1).

أصبح استمرار حكم عائلة **الأسد** أهم أولويات **بشار الأسد** ودائرته المُقرَبة، وأصبح أمن الطائفة العَلَوية على المدى البعيد ثانوياً في مواجهة الأخطار الآنية المحدقة. في استجابته للتهديدات الأمريكية، لجأ النظام السوري إلى سياسة تمرير المجاهدين السنّة عبر سورية إلى العراق لمواجهة القوات الأمريكية[2]. خَدمَتْ هذه الاستراتيجية ثلاثة أهداف: أولاً: كانت طريقة مناسبة للتخلص مِنَ المتطرفين الإسلاميين الذين "رموا بأنفسهم إلى التهلكة" على يد القوات الأمريكية في العراق[3]. وثانياً: أضافتْ مزيداً مِنَ المتاعب على الأمريكيين الذين كانوا يتعثرون في العراق، مما قلّل قدرة أمريكا على القيام بتوسيع عملياتها في المنطقة[4]. وأخيراً فقد غطّتْ أيضاً على الهوية العَلَوية لنظام **الأسد**. تعاونُ النظام مع الأمريكان سيثير غضباً شديداً لدى المسلمين السنّة، الذين قد يلجؤوا إلى سلوك يُشبه ما فعله **ابن تيمية**، وهو إعلان أنّ نظام **الأسد** هو عَلَوي زنديق يُحرِّض على العدوان الخارجي، وخائنٌ لقضايا الإسلام.

التهديد الكبير الذي شعَرَ به العَلَويون في أجهزة الأمن السورية تجاه الوضع العراقي ظَهَرَ جلياً في الوسائل العنيفة التي اتبعوها للتسلل إلى العراق وجمع المعلومات. يُبيِّن أحد الأمثلة على ذلك العميد **علاء الصالح**، وهو ضابط مخابرات عَلَوي، اعترَفَ على قناة تليفزيون العراقية أنه خَطَفَ ابنة سيدة مسيحية مِنَ اللاذقية

(1) نيل فاركوهار Neil Farquhar سورية، العلمانية العنيفة تشهد بعثاً إسلامياً قوياً. نيويورك تايمز. 24 أكتوبر 2003

(2) الشرق الأوسط تتحدث إلى بول بريمر (الجزء الثاني). الشرق الأوسط. لندن. 15 مايو 2009

(3) مايكل توتن Michael Totten قتل التمساح. مجلة *Commentary Magazine*, November 4, 2008

(4) رغم أن مايكل يونغ Michael Young طرح أن أمريكا لم تنوي أصلاً التدخل عسكرياً في سورية، في Michael Young إشاعة تغيير النظام في سورية. الديلي ستار. بيروت. 16 ديسمبر 2010

عمرها 28 سنة. وتحت التهديد بقتل الفتاة قُبِضَ على الأم بتهمة سياسية، وتم تدريبها على الأساليب الاستخبارية، ثم أُرسِلَتْ إلى العراق لجمع المعلومات[1]. يوضح اللجوء إلى هذا النوع مِنَ الأساليب مدى قلق النظام السوري، كما يؤكد فكرة **ابن خلدون** أنّ زيادة عنف الدولة تسبق انهيارها. [فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقّباً عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات، ففسدت الحماية بفساد النيات، وربما أجمعوا على قتله لذلك، فتفسد الدولة].

رغم الجهود اليائسة التي قامتْ بها عائلة **الأسد** لدرء التهديدات الداخلية والخارجية على استمرار حُكْمِها، إلا أنّ الخطر في 2004 لَمْ يمكن تبديده. فقد جدّد انهيار نظام **صدام حسين** والبعث العراقي آمال المعارضة الطائفية في سورية. فمثلاً قام **عمر أميرلاي** (توفي 2011)، المخرج السينمائي السوري والناشط الهام في المجتمع المدني، بإخراج فيلم للمشاهِدين الأوروبيين تحت عنوان: "فيضان في دولة البعث" يُصَوِّرُ موضوعه كيف "انهارت أسطورة أنّ علينا العيش في ظلّ الطغاة إلى الأبد"[2]. في مقابلةٍ بدمشق مع **نيل فاركوهار** Neil Farquhar مراسل النيويورك تايمز في مارس 2004 ذكَرَ **أميرلاي** انتقادات غير عادية ضد الحكومة قائلاً: "*اعتقد أنّ الصورة، والشعور بالخوف قد تبخر... عندما تشاهد أحد حزبيّ البعث... ينهار، لا يمكنك إلا أنْ تأمل أنّ دور البعث السوري سيأتي*"[3]. مثال آخر هام على الاستعداد المتزايد للتعبير عن السخط حدَثَ في 8 مارس 2004 عندما تَظاهَر

(1) عميل استخبارات سوري يقبض عليه في العراق. تليفزيون العراقية. العراق. 30 مارس 2005. ترجمة Memri

(2) كان عمر أميرلاي نشيطاً في رَبيع دمشق، ووقع على بيان 99 الذي طالب برفع قانون الطوارئ، وتحرير السجناء السياسيين، والسماح بالأحزاب السياسية المستقلة والمجتمع المدني في سورية. انظر: بيان 99 مثقف سوري. الحياة. لندن. 7 سبتمبر 2000

(3) نيل فاركوهار Neil Farquhar سقوط صدام يدفع السوريين لاختبار صبر الحكومة. نيويورك تايمز. 20 مارس 2004. انظر وفاة المخرج السينمائي السوري المؤثر أميرلاي. رويترز دمشق. 5 فبراير 2011

معارضون أمام البرلمان بدمشق مطالبين بإلغاء الأحكام العرفية وقانون الطوارئ الذي يُطبَّق منذ 1963. رغم أنّ قوى الأمن فرّقت المظاهرة بسرعة، إلا أنها أظهرتْ وجود اعتقاد حقيقي متزايد أنه يمكن تحدي النظام. هذا التناقص في الخوف بين السوريين لإظهار استيائهم كان أول شرخ في بناء حكم سلالة **الأسد**. تجرأتْ شخصيات معارِضة خارج سورية بجو الاستياء العام الذي يشمل سورية، فأسَّس **فريد غادري**، رجل الأعمال المَنفي السوري، حزب الإصلاح السوري في واشنطن. عَقَد **الغادري** آمالاً على ثورة داخلية في سورية بالاستناد على "أصدقاء الغضب" التي تَصوَّرَ وجودها في الجيش السوري والطلبة[1].

إنّ ظهور قوى نابذة أخرى طال قَمعُها في سورية البعثية يمكن أنْ يهدئ أصوات الإصلاح والمعارضين المنشقين. ففي 12 مارس 2004 نَشَبَ القتال بين الأكراد والعرب السنّة خلال مباراة لكرة القدم في مدينة القامشلي، قُتل فيها ستة أكراد. تلى ذلك 13 يوماً مِنَ الشغب، هاجم فيها مشاغبون أكراد مراكز الأمن العسكري وأمن الدولة في مدينة ديريك (المالكية). كان رد فعل الأمن عنيفاً، قُتل فيه 43 شخصاً، وجُرح المئات، وقُبض على 2500[2]. وفي دمشق تلقّى محامي حقوق الإنسان **أنور البني** مكالمات عديدة مِنَ الأكراد وَصَفوا فيها وحشية حملة قوى الأمن[3].

كانت أغلب مؤسسات المخابرات في 2004 عَلَوية، وكان مِنَ المعتاد أنْ يتحدث مَنْ يَقبض عليهم رجالُ المخابرات باللهجة العَلَوية أملاً بالتساهل معهم. وكان العنف الذي حدَثَ في القامشلي وديريك في حقيقته مواجهةً بين العَلَويين والأكراد، مما يشير إلى تدهور العلاقات التي بناها **حافظ الأسد** عندما قاتَلَ الأكرادُ إلى جانب العَلَويين في حماة. إلا أنّ النظام السوري سرعان ما أوقفَ العنفَ العرقي–الديني، واستخدمَه وسيلةً للدعاية لدعم موقفه الداخلي المهتز. ادَّعَتْ وسائل إعلام الدولة السورية وجود علاقة بين العنف الطائفي في العراق والشغَب

(1) منفي يبحث عن قيادة المعارضة ضد النظام السوري. فاينانشيال تايمز. 28 سبتمبر 2004
(2) تيجيل Tejel 2009 صفحة 115–116
(3) نيويورك تايمز 20 مارس 2004

في القامشلي كدليل على ضرورة تجنب أي احتجاجات سياسية داخلية أو مدعومة مِنَ الخارج[1]. وهكذا فقد صَوَّرتْ عائلة **الأسد** نفسها بمثابة الاختيار الآمن الوحيد في بحر مِنَ الفوضى. وبالنسبة للعَلَويين فقد قَبلوا هذا المنطق فوراً لأنّ هذه الطائفة يمكن أنْ تكون أكبر الخاسرين إذا اشتعلت نيران الصراع العرقي–الطائفي في سورية.

يمكن طرح تفسير آخر لتفهم دور شغب الأكراد في مارس 2004 في تعزيز حكْم عائلة **الأسد**، فحَسْبَ بعض المصادر الكردية أنّ أحداث مارس 2004 كانت نتيجة خلاف بين جهازَي مخابرات[2]. يَقترح هذا التفسير أنّ الشغَب قد حَرَّضَ عليه قصداً عناصرُ ساخطة في أجهزة الأمن لكي يُظهروا "سيطرتهم على استقرار البلد". لا يمكن التأكد أي أجهزة الأمن كانت متورطة، إلا أنّ الباحث **غوردي تيجيل** Jordi Tejel يدّعي أنها شَمِلَتْ *"قطاعات مِنْ قوى الأمن التي كانت مُقرّبة مِنْ* ***بشار الأسد****"*. ربما يُشير بذلك إلى تدخل **آصف شوكت**، صهر **بشار الأسد** ورئيس المخابرات العسكرية، الذي كان متورطاً بشكل كبير في أحداث القامشلي. جهاز المخابرات الثاني الذي ذُكِر تدخله أيضاً هو أمن الدولة الذي يَرأسه منافسٌ **لشوكت** هو اللواء العَلَوي المتقاعد **بهجت سليمان** (ولِد 1945/1946)[3].

تصعب معرفة ما جرى في القامشلي بدقة، إلا أنّ احتمال وجود شرخ في العصبية العَلَوية في قمة هرم السلطة هو أمر لا يمكن تجاهله. كانت القيادة السورية تحت ضغوطٍ هائلة منذ 2003، كما تثير التساؤل فيما إذا كان **بشار الأسد** مسيطراً تماماً على تنافس أفراد النخبة العَلَوية. كما يمكن تقدير مدى اختلاف طرق عمل أجهزة المخابرات في التجربة التي خاضَها محامي حقوق الإنسان **أيمن البني** الذي استَجوبته أجهزة المخابرات مرات عديدة خلال سنة 2004. وصَفَ **البني** زيارته إلى فرع أمن الدولة بأنها كانت قصيرة و"ودية" بشكل مدهش، إلا أنه

(1) تيجيل Tejel 2009 صفحة 130–131
(2) المصدر نفسه صفحة 117. انظر أيضاً جولي غوثير Julie Gauthier أحداث 2004 في القامشلي: هل طرحت المسألة الكردية في سورية. في: إزالة الغموض عن سورية. تحرير فريد لاوسن Fred Lawson (لندن: دار الساقي، 2009) صفحة 105–119
(3) شمويل بار 2006 صفحة 444

عندما استُدعي إلى المخابرات العسكرية، احتُفِظَ به مدة يومين في غرفة انتظار دون أنْ يُعطَى ولا حتى شربة ماء، ثم في اليوم الثالث هدّده عقيدٌ بالسَجن أو "اللجوء إلى وسائل أخرى" إذا لَمْ يتوقف عن نشاطه المدني[1].

ربما توضح الأساليب المختلفة التي اتبعتها أجهزة المخابرات خلال 2004 تَطورَ العصبية العَلَوية في المرحلة الثانية مِنْ حكْم عائلة **الأسد**. فقد اتضح وجود تباعد بين المُقرَّبين مِنَ النظام وبين نخبة العَلَويين الذين كانوا أكثر بعداً عن دوائره الداخلية. شَمَلَت الفئة الأولى أشخاصاً مثل **آصف شوكت**، الذي كان هدفه الرئيسي هو المحافظة على النظام، وتطبيق أساليب راديكالية لضمان تحقيق هدفه على المدى القصير. أما الفئة الثانية التي شملتْ أشخاصاً مثل **غازي كنعان وبهجت سليمان** فقد كانوا يُفضِّلون أسلوباً محافِظاً في صياغة سياسةٍ تُحقِق أمْنَ الطائفة العَلَوية على المدى البعيد في ظروف سياسية متغيرة ومضطربة. تُبيِّن طبيعة سياسة النظام السوري في الفترة اللاحقة انتصارَ الفئة الأولى على طريقة **آصف شوكت** الذي يبدو أنه قد احتفظ بثقة **بشار الأسد**.

بيَّنَتْ شدة تمرد الأكراد احتمالَ انتشار الحرب الأهلية في سورية وحدوث عواقب وخيمة للعَلَويين. فحتى لو كانت مظاهرات الأكراد غير عفوية تماماً، إلا أنّ الغضب الذي أَظهرَه الأكراد كان حقيقياً. علَّقَ صاحب حانوت كردي شاب في الثلاثين قائلاً: "*ما حدث لَمْ يأتِ مِنْ فراغ، فقد تزايد التوتر على مدى خمسين عاماً*"[2]. خَسرَ الأكراد مِنْ انتصار أفكار القومية العربية في الستينيات، وفي 2004 كانوا قد تَحمَّلوا ربع قرن مِنَ التهميش، كما كان أغلب العرب السنّة قد تَحمَّلوا 34 سنة مِنَ التهميش السياسي، وغَمَرَهم مشاعر مماثلة مِنَ الإحباط، زاد في شدتها تدميرُ حماة في 1984. ولا يمكن إهمال أنّ بعض العَلَويين البارزين ربما بحثوا عن خيارات بديلة لعائلة **الأسد**، التي ظَهَرتْ وكأنها تقود الطائفة إلى الكارثة. وقد مَنَحتهم أحداث 2005 – 2006 هذه الفرصة.

(1) نيويورك تايمز 20 مارس 2004

(2) نيل فاركوهار Neil Farquhar مكاسب أقرانهم في العراق تثير الأكراد، غضب في سورية. نيويورك تايمز 24 مارس 2004

اغتيال رفيق الحريري وخسارة لبنان

خلال سنة 2004 ظَهَر تأثير أمرين في السياسة الخارجية نتَجَ عنهما خَلْقُ أزمة حادة لحكم عائلة **الأسد** قَرَّبتْها مِنْ حافة الانهيار. فأولاً: إصرار النظام السوري على إثارة القلاقل والفوضى في العراق أثارَ غضبَ حكومة الولايات المتحدة، التي قامَتْ بخطوات جدية لإسقاط النظام في دمشق. وثانياً: أسلوب قطاع الطرق وابتزاز المؤسسات المالية اللبنانية الذي قام به الجيل الجديد مِنْ "أسياد" الأمن السوري مثل اللواء **رستم غزالة** قد وصلَ إلى مستويات لَمْ تعد تُحتَمل، مما أدى إلى إصرار اللبنانيين على تحرير بلدهم مِنَ الاحتلال السوري[1].

كان التصرف الحَرِج الذي قامَتْ به عائلة **الأسد** هو إصرار **بشار الأسد** على التمديد لحليفه الرئيس اللبناني **إميل لحود**. كانت تلك الخطوة تَدَخلاً غير مسبوق في الشؤون اللبنانية حتى بالنسبة للمقاييس السورية. واتَّضَحَ دور **آصف شوكت** في اتخاذ ذلك القرار في تصريح أحد الجامعيين السوريين الذي قال: "*مِنَ الناحية السياسية، كان تمديد رئاسة **لحود** خطأً... أُتخِذَ القرار بمساعدة المخابرات والجيش*"[2]. عندما اعتَرَض رئيس الوزراء اللبناني **رفيق الحريري** على قرار التمديد، ذَكَرَ **بشار الأسد** أنّ **الحريري** قد جازَفَ بمستقبل استقرار لبنان وبسلامته الشخصية. في اجتماع عُقِد بدمشق في 26 أغسطس 2004 ذُكِر أنّ **بشار الأسد** قد هدّد "*بتدمير لبنان على رأس **الحريري***" إذا لَمْ يؤيِّد تمديد رئاسة **إميل لحود**[3]. ومع الوجود القوي لعملاء الجيش والأمن السوري المتخفين في لبنان، لَمْ يكن أمام **الحريري** إلا أنْ يوافق على طلبات **الأسد**.

أساليب النظام السوري، التي تشبه أساليب عصابات المافيا، في السيطرة على وجوده في لبنان، وسياسته في خلق الاضطرابات في العراق، أدَّتْ إلى قَلبِ الموازين

(1) في 2004 قام رستم غزالة الرئيس الجديد للأمن السوري في لبنان بتهديد رفيق الحريري وأولاده. انظر مروان اسكندر. رفيق الحريري ومصير لبنان (لندن، دار الساقي، 2006) صفحة 56. وعن تزايد استياء اللبنانيين بسبب الابتزاز الاقتصادي السوري انظر صفحة 89–90

(2) فاينانشيال تايمز 24 مارس 2005

(3) تقرير لجنة التحقيق الدولية المستقلة، UNIIIC ديتليف ميليس Detlev Mehlis بيروت 19 أكتوبر 2005. http://www.un.org/news/dh/docs/mehlisreport.pdf

ضده في الرأي الدولي. فبعد تسعة أيام مِنْ لقاء **الأسد بالحريري** في دمشق، أصدرَ مجلس الأمن الدولي في الأمم المتحدة القرار 1559، وفيه طَلَبَ خروج القوات العسكرية وأجهزة الأمن السورية مِنْ لبنان[1]. ارتبطَ ذلك بكل وضوح بما طلبته سورية لتمديد فترة رئاسة **لحود** كما ظَهَرَ في نص القرار 1559:

"*مجلس الأمن متنبه إلى الانتخابات الرئاسية اللبنانية القادمة ويؤكد على أهمية إجراء انتخابات حرة ونزيهة حسب الدستور اللبناني دون تدخل أو تأثير خارجي*".

كان طلب انسحاب القوات السورية مِنْ لبنان خطوة كبيرة بالنظر إلى أنها قد وُجدتْ في لبنان منذ عام 1976، وأنّ الولايات المتحدة الأمريكية قد أعادتْ تأييد دور سورية في "الاعتناء" بلبنان مقابل تأييد **حافظ الأسد** للولايات المتحدة في حرب الخليج سنة 1991. احتمال خسارة سيطرتها على لبنان كان خسارة كبيرة لحكْم عائلة **الأسد**، فبالإضافة إلى الخسائر الاقتصادية، سيرفع الانسحاب المهين مِنْ لبنان معنويات قوى المعارضة مثل الإخوان المسلمين والناشطين العلمانيين، وقد يزيد ذلك ضَعفَ النظام داخلياً. لو نجح **رفيق الحريري** في ترتيب إخراج سورية مِنْ لبنان فسيرفع ذلك مِنْ قدره وأهميته كنموذج لنهضة القوة السياسية السنّية في لبنان، وقد تمتد هذه التطورات الخطيرة إلى سورية. يسهل التصور أنّ عائلة **الأسد** قد اعتبرتْ **رفيق الحريري** مسؤولاً إلى حد كبير عن انحسار قوتها وثروتها.

في 14 فبراير 2005 بعد خمسة أشهر مِنْ صدور قرار الأمم المتحدة رقم 1559 قُتِلَ **رفيق الحريري** في انفجار هائل مع 22 آخرين بينما كان موكب سياراته يَمرُّ في بيروت. ادَّعَتْ جماعة إسلامية مجهولة مسؤوليتها عن التفجير، إلا أنّ الشكوك اللبنانية والدولية اتجهتْ بقوة نحو القيادة السورية. استَنتَجت التحقيقات الأولية أنّ تخطيط العملية قد بدأ قبلها بعدة أشهر، وأنّ عملية على هذه الدرجة العالية مِنَ التعقيد لا يمكن أنْ تتم دون عِلم أجهزة المخابرات السورية واللبنانية[2].

(1) مجلس الأمن (2004) S/RES/1559 اتخذه المجلس في 2 سبتمبر 2004

(2) تقرير لجنة التحقيق الدولية المستقلة، UNIIIC ديتليف ميليس Detlev Mehlis بيروت 19 أكتوبر 2005. http://www.un.org/news/dh/docs/mehlisreport.pdf

فَجَّرَ اغتيال **رفيق الحريري** شعوراً وطنياً غير مسبوق في لبنان شمل أغلب طوائف السنّة والمسيحيين والدروز. أصبح الغضب لمقتل **الحريري** قضيةً عامة في مظاهرات حاشدة طالبتْ بإنهاء التسلط السوري على لبنان. ومِنَ المهم أنّ الطائفة الشيعية التي يُمثلها حزب الله بشكل رئيسي قد وَقَفتْ ضد ذلك الاتجاه[1].

قدَّمَ **ويليام هاريس**، الباحث المختص في الشؤون اللبنانية، وجهةَ نظرٍ هامة عن التشابه بين نتائج اغتيال **رفيق الحريري** سنة 2005 والمؤامرة ضد عائلة **الميديتشي** في إيطاليا سنة 1478[2]. وصَفَ **برتراند رسل** أنّ "*الفوضى الأخلاقية والسياسية في إيطاليا القرن الخامس عشر كانت مروعة*"[3]. في بداية القرن الحادي والعشرين أصبح العَلَويون مِنْ خلال علاقتهم بحكْم عائلة **الأسد** متورطين بصراعات **مكيافيلية** مُفلِسة أخلاقياً. كما أنّ نتائج اغتيال **رفيق الحريري** على السياسة في شرق المتوسط تشبه نتائج محاولة **بازي** Pazzi اغتيال **لورنزو ميديتشي** في شمال إيطاليا. ففي كلتا الحالتين اهتزَّتْ حالة الوضع الراهن التي كانت سائدة، إلا أنّ أياً منهما لَمْ تؤد إلى النتيجة المقصودة. لأن فشل محاولة اغتيال **لورنزو ميديتشي** وإنهاء استبداد عائلة **الميديتشي** في فلورنسا أدَّتْ إلى عكس ذلك، فقد رَسَّخَتْ سلطة **الميديتشي** السياسية في فلورنسا، وأنْهَت الوجود السياسي والاقتصادي لعائلة **بازي**[4]. وفي الحالة الثانية يبدو مِنَ المؤكد تقريباً أنّ عائلة **الأسد** قد خَطَّطت اغتيالَ **رفيق الحريري** لكي تحافظ على "استبدادها" في لبنان، إلا أنّ الاغتيال قد أدى بالفعل إلى الانسحاب المهين مِنَ الدولة وزاد الخطر على استمرار حكم عائلة **الأسد** في سورية. أهم فرق بين هاتين الحالتين هو أنّ أفراد عائلة **بازي** والأفراد الذين كانت لهم علاقة بهم فقط هم الذين تضرروا مِنْ نتائج

(1) رولا خلف. الضغط الدولي يجبر دمشق على التفكير بانسحاب مهين. فاينانشيال تايمز. 24 مارس 2005

(2) ويليام هاريس William Harris أزمة في شرق المتوسط: لبنان في خطر. مجلة *Mediterranean Quarterly*, Vol.18, No.2, 2007 صفحة 39

(3) رسل Russell 1946 صفحة 481

(4) لاورو مارتينيز Lauro Martines دم أبريل: فلورنسا والمؤامرة ضد الميديتشي (London: Pimlico, 2004)

محاولة اغتيال **الميديتشي**، في حين أنّ نتائج الحالة الثانية هدّدتْ بتغيير جذري في وضع الطائفة العَلَوية السورية بكاملها.

قاوَم النظام السوري بقوة محاولات إخراجه مِنْ لبنان، وحدَثَتْ أحوال تاريخية متناظرة في محاولاتهم الأولى لإنقاذ وضعهم. فبعد 29 سنة مِنْ دخول سورية إلى لبنان للتدخل في الصراع الإسلامي-المسيحي، حَاولَتْ عائلة **الأسد** إشعال العنف بين المسلمين والمسيحيين[1]. انفجرتْ ثلاث قنابل في المناطق المسيحية، في الجديدة 19 مارس 2005، وفي مركز للتسوق في الكسليك 23 مارس 2005[2]. ربما كانت تلك محاولات لكسر التحالف السنّي – المسيحي ضد سورية، وإظهار أنّ سورية مازالت ضرورية لتحقيق الأمن والاستقرار في لبنان. كما تمّ استهداف سياسيين لبنانيين وصحفيين معارِضين لسورية في حملة اغتيالات عنيفة لإسكات المعارضة اللبنانية[3].

ظلّت المعارضة اللبنانية، التي أصبح اسمها الآن فريق 14 مارس، متماسكة[4] بفضل الدور الرئيسي الذي لَعِبه الزعيم الدرزي **وليد جنبلاط** الذي صرَّحَ: "*كان **الحريري** عمود المعارضة، وعليّ الآن أنْ أُحافظ على المعارضة مُتحدة*". كان دور **جنبلاط** الأساسي في المحافظة على التحالف بين الطوائف المختلفة بلبنان يُعارِض مباشرة جهودَ نظام **الأسد** في تشجيع الانقسامات الطائفية. حاول **كمال جنبلاط** في السبعينيات دَمْج الدروز في تحالف لبناني غير طائفي، ولكنه اصطدم بمصالح عائلة **الأسد**. إلا أنّ الطائفة الدرزية تشبه العَلَويين كثيراً مِنْ حيث غموض ديانتها وتهميشها التاريخي في سياسة شرق المتوسط. ولذا فمِنَ المستغرب أنّ الوطنية غير الطائفية التي كانت تتصاعد في لبنان هي بالضبط نوع التطور الذي أراده أغلبُ

(1) لبنان وسورية: من سيغمض جفنه أولاً؟ الايكونوميست 31 مارس 2005

(2) فاينانشيال تايمز 24 مارس 2005. نهارنت بيروت. 23 مارس 2005. الايكونوميست 31 مارس 2005

(3) ويليام هاريس William Harris يوم لبنان في المحكمة. مجلة *Foreign Affairs*, June 30, 2011

(4) 14 مارس كان اليوم الذي خرجت فيه مظاهرات حاشدة ضمت أكثر من مليون شخص في بيروت وطالبت بإنهاء دور سورية في لبنان.

العَلَويين في سورية. يمكن أنْ يؤدي هذا التطور إلى إضعاف اعتماد العَلَويين على عائلة **الأسد** في ضمان أمن طائفتهم. وهكذا ربما أثارَت الثورة الاجتماعية التي كانت تَحدث في لبنان في فبراير 2005 الغيرةَ والحسد وربما الأمل لدى العَلَويين السوريين، إنما سيُنظر إليها بعين القلق الشديد في القصر الرئاسي بدمشق. ساعَدَت الصراعات الطائفية التي كانت تدور في لبنان والعراق نظامَ **الأسد** كثيراً على تثبيت حكمه الاستبدادي في سورية ومتابعة تنفيذ أحكام الطوارئ. ظَهَر ذلك واضحاً في حديث تاجر دمشقي في يونيو 2005 حين قال: "*بالطبع كلنا يريد التغيير، ولكن عندما تَسأل بأي ثمن؟ نَخرس جميعاً*"[1].

انضمَّ **وليد جنبلاط** إلى المعارضة اللبنانية، ليس بسبب قناعات فكرية شخصية، بل لِما تَصوَّر أنه في مصلحة طائفته. منذ اغتيال والده **كمال**، قاد **وليد جنبلاط** دروز لبنان بطريقة عملية وواقعية جداً وفق توازن القوى المسيطِرة، مما يعني ضرورة التعاون مع المصالح السورية. وبالنسبة **لجنبلاط**، الذي كان يوصَف بأنه "دليل اتجاه الريح في السياسة اللبنانية"[2]، فإنّ الدورانَ ضد عائلة **الأسد** في 2005 كان علامةً مبكرة على بداية ضعف سيطرة النظام السوري في المنطقة.

لمْ يَترك الضغط الدولي واللبناني المتزايد خيارات واسعة أمام النظام السوري سوى الاستجابة لقرار الأمم المتحدة رقم 1559 وسحب قواته مِنْ لبنان. في 26 أبريل 2005 خرج آخر جندي سوري مِنْ لبنان بعد 29 سنة مِنَ الاحتلال. في مظهر رمزي، كَسَرَتْ جماعة مِنَ اللبنانيين جرة كبيرة مِنَ الفخار بعدما عَبَرتْ آخر قافلة عسكرية الحدود، في إشارةٍ إلى خرافةٍ عربية تدل على عدم الرغبة بعودة المغادرين[3]. في تلك اللحظة كان احتمال عودة السيطرة السورية على لبنان معدوماً. يبدو أنّ عائلة **الأسد** قد خَسِرت الامتيازات السياسية والاقتصادية والاستراتيجية التي اكتسبتها أثناء سيطرتها على خاصرتها الضعيفة في لبنان. وتضافَرَ

(1) سورية تحت بشار الأسد، واحد من آخر الأحياء من نسل بائد. الإيكونوميست. 16 يونيو 2005

(2) أندرو لي بترز Andrew Lee Butters الاستسلام لحزب الله. مجلة التايمز 12 مايو 2008

(3) آخر الجنود السوريين يخرج من لبنان. واشنطن بوست 27 أبريل 2005

وجود لبنان عدواني مستقل، مع عدائية أمريكية صريحة في العراق، وجماهير مضطربة في الداخل، لتؤدي كلها معاً إلى إضعاف نظام **بشار الأسد**.

بالإضافة إلى الخسائر الجغرافية الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، واجهت عائلة **الأسد** عاملاً جديداً لمْ تعرفه السياسة في الشرق الأوسط مِنْ قبل، وهو النظام القضائي الدولي الجديد. فعلى العكس مِنَ الاغتيالات السياسية السابقة، مثل اغتيالات **كمال جنبلاط وبشير الجميّل وصلاح الدين البيطار** التي مَرَّتْ دون تحقيق أو محاكمة، فإنّ الجهات الفاعلة الدولية تَعهّدتْ بصرامة على معاقبة المتورطين في اغتيال **رفيق الحريري**. كان غضب حلفاء **الحريري** شديداً، مثل العائلة المالكة في العربية السعودية، والرئيس الفرنسي **جاك شيراك**. وانضمَّتْ إليهم الولايات المتحدة الأمريكية برغبة شديدة في معاقبة النظام السوري بسبب دوره في عدم استقرار العراق، مما دفع إلى تمرير قرار الأمم المتحدة رقم 1595. اُتخِذَ هذا القرار في 7 أبريل 2005 لتأسيس اللجنة الدولية المستقلة للتحقيق في اغتيال **الحريري** وأي اغتيالات أخرى تتعلق به[1]. كان المُحقّق الأول الذي كُلِّف برئاسة اللجنة هو القاضي الألماني **ديتليف ميليس** Detlev Mehlis الذي تمتع بسجل حافل في حل قضايا الإرهاب الدولي، وأهمها قضية الإرهابي الدولي **كارلوس** "ابن آوي"[2].

خلال التحقيقات التي قام بها **ديتليف ميليس** سمع إشاعات مِنْ سورية أنّ الطائفة العَلَوية كانت قلقة جداً بشأن تحقيقات الأمم المتحدة وما يمكن أنْ تؤدي إليه مِنْ خطر على سلامتها. وكانت هناك إشاعات عن وجود اقتتال بين العَلَويين والاسماعيليين في القدموس واللاذقية، وأنّ العَلَويين قد تظاهروا ضد الموقف الخطير الذي وَضَعَهم فيه النظام[3]. شَعَرَ العَلَويون أنه إذا سقط حكْم عائلة **الأسد** فربما سيواجهون انتقامَ الأكثرية السورية السنيّة التي قد تُطلق العنان عليهم لثأر 35 سنة مِنَ الإحباط، وتسوية

(1) مجلس الأمن الأمم المتحدة. 7 S/RES/1595 (2005), 05-29998(E) أبريل 2005

(2) ملف: محقق الأمم المتحدة في اغتيال الحريري شخص عنيد. *Lebanon Wire,* October 21, 2005

(3) ديتليف ميليس. مقابلة مع المؤلف في دندين Dunedin 12 مايو 2009

حساب أحداث حماة. في أكتوبر 2005 قال شاب مُرشِديّ للصحفي الأمريكي **أنتوني شديد** Anthony Shadid أنّ: "*العلويون قلقون على النظام والاتهامات الموجهة إليه... ماذا سيفعلون لو سقط النظام؟*". قال عَلَوي آخر **لشديد** أنه إذا سقط النظام: "*سيعود ساكنو دمشق إلى القرى وسيجدون ملجأ لهم بين أهلهم*"[1]. يبدو أنّ التهور السياسي وخطأ حسابات نظام **الأسد**، بمَنْ فيهم **بشار الأسد** وكبار مستشاريه مثل **آصف شوكت**، قد أدى إلى تصفية حسابات المجتمع الدولي مع النظام، وعرَّضَ الطائفة العَلَوية السورية بكاملها لمخاوفهم مِنْ نهضةٍ سنيّة بعد انهيار النظام.

تحالف جديد في المعارضة

ازداد قلق العَلَويين في 2005 بعد أنْ شَجَّعَ الضعف الظاهر للنظام الإخوان المسلمون في سورية لاستعادة نشاطهم المعارض للنظام السوري، ففي اليوم التالي لإعلان قرار سورية الانسحاب مِنْ لبنان، طالَبَ الدكتور **حسن هويدي** قائدُ جماعةٍ إسلامية في الأردن بانتخابات ديموقراطية ودستور جديد في سورية، مهدِّداً بقوله: "*إذا استمر الوضع فهناك توتر داخلي عظيم لَمْ يَظهر بعد، سيؤدي إلى اضطرابات عنيفة مثلما حدث في الماضي*"[2]. كانت تلك إنذارات مبكرة لاحتمال عودة الصراع السنيّ العَلَوي، وإشارة إلى اضطرابات 1976–1982. لَمْ يستند التوتر الاجتماعي في سورية إلى قاعدة دينية فقط، إنما نَشأ أيضاً مِنَ الإحباطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في قطاعات واسعة لدى جميع الطوائف السورية. ولكن الذاكرة الجماعية العامة لدى العَلَويين، كما يقول **الهويدي**، ربما تركزتْ على القمع العنيف المتكرر الذي قام به المسلمون السنّة ضد طائفتهم في الماضي. ورغم أنّ معظم العَلَويين كانوا مُبعَدين عن الاستفادة مِنَ النظام السياسي السوري فقد جمع **الهويدي** العَلَويين كلهم في فئة مُسَيطِرة واحدة عندما أضاف:

(1) أنتوني شديد Anthony Shadid وفاة وزير سوري يترك طائفة في ضياع في زمن الشدة. واشنطن بوست. 31 أكتوبر 2005

(2) لوسي أشتون Lucy Ashton انسحاب سورية من لبنان شجع المعارضة الإسلامية. فاينانشيال تايمز 6 مايو 2005

"كل المشاكل في سورية هي بسبب أنّ السلطة ليست للأحزاب وإنما مع العَلَويين... وأكثر المسلمين يكرهون الخضوع لحكم العَلَويين"[1].

مِنَ المؤكد أنّ الاستقرار الداخلي لحكم عائلة **الأسد** ظلّ يَعتمد بشكل أساسي على العَلَويين في الجيش وأجهزة الأمن. خلال حكْم **حافظ الأسد** أدتْ تصريحاتٌ صَدرَتْ عن الإخوان المسلمين تحدَّثتْ حصرياً عن الطائفة العَلَوية، وهدَّدتْ بانتقام طائفي، إلى تكاتف العَلَويين والتفافهم حول حكم **الأسد** ودعم عصبيتهم. إلا أنه بالنظر لظهور علامات خلاف في النخبة العَلَوية الأمنية في 2004-2005 فإنّ بعض العَلَويين أخَذَ يَشُكّ بقدرة عائلة **الأسد** تحت حكم **بشار** على حماية طائفتهم مِنْ هذه التهديدات. وفي هذا السياق طُرِحَتْ فكرة انقلاب يقوم به ضباط قادة مِنَ العَلَويين. طَرَح هذا الاحتمال محلّل سياسي سوري لم يُذكَر اسمه قائلاً للنيويورك تايمز: *"إما أنْ يقوم **بشار** بهذا الانقلاب، أو أنّ أحداً سيقوم به ضده"*[2].

بالنسبة لكثير مِنَ العَلَويين كان **بشار الأسد** الذي وِلد وتَربى في دمشق، وتزوج امرأة سنيّة يبدو منفصلاً عن طائفته[3]، في حين أنّ رجال "الحرس القديم" مثل **غازي كنعان** مازالوا يتمتعون باحترام كبير في القرى الجبلية لمناطق العَلَويين، وحُماةً لمصالح العَلَويين. ولذا فقد كان هناك احتمال أنْ يُنشِئ زعيم عَلَوي، مثل **كنعان**، قاعدةَ زعامةٍ منفصلةٍ في الطائفة العَلَوية. حسب الخبير في شؤون الشرق الأوسط **غاري غامبيل** Gary Gambill فقد اقتنَعت الولايات المتحدة الأمريكية، بجهود بعض السياسيين اللبنانيين المعارضين لسورية، أنّ **كنعان** هو الرجل الوحيد القادر على تولي قيادة سورية في فترة ما بعد **الأسد** دون أنْ يؤدي ذلك إلى حرب طائفية[4].

(1) فاينانشيال تايمز 6 مايو 2005

(2) مايكل سلاكمان Michael Slackman الخوف من عراق في سورية بعد الأسد. نيويورك تايمز 6 نوفمبر 2005، طرح دانييل بيمان Daniel Byman احتمال حدوث انقلاب من جهة أحد بارونات العَلَويين. انظر دانييل بيمان: نتائج تغير القيادة في العالم العربي. مجلة *Political Science Quarterly*, Vol. 120, No. 1, 2005

(3) بطاطو 1999 صفحة 223

(4) غاري غامبيل Gary C. Gambill لماذا مات كنعان؟ مجلة *The National Post*, Toronto, October 17, 2005 في *Mideast Monitor*

شخص آخر لم يتمتع بقاعدة قوية، وتمّ دفعه إلى هامش النظام، إلا أنه تمتَّع بقدرات كبيرة وخبرة سياسية واسعة في سورية والشرق الأوسط، هو نائب الرئيس **عبد الحليم خدام**. فبعد خروج العسكري المحترف **حكمت الشهابي** مِنْ سورية سنة 1998[1]، بقي **كنعان وخدام** آخر شخصيات النظام القديم الأقوياء الذين قد يتمكنوا مِنْ تحدي **بشار** ويُشكّلوا بدائل عملية.

ربما كان تحالف **كنعان–خدام** أفضل ضمان لمصالح العَلَويين في الأمن والاستقرار الاجتماعي والاقتصادي. فقد كان **كنعان** ذو كفاءة جيدة، وتمتّع باحترام العَلَويين لكي يتمكن مِنْ قيادة أجهزة المخابرات ويسيطر على الأغلبية السنيّة. وساعد **خدام** بمهارة على استقرار نظام قادهُ العَلَويون في سورية أكثر مِنْ ثلاثة عقود بينما كان يَمنح النظامَ وجهاً سنيّاً ضرورياً. قدَّمَ **عبد الحليم خدام** خدمات عظيمة لمصالح العَلَويين بطرق عديدة، وعلى مدى فترة طويلة. كان **لكنعان وخدام** (وكذلك **حكمت الشهابي**) علاقات جيدة مع **رفيق الحريري**، وكان **خدام** العنصر الوحيد مِنَ النظام السوري الذي حضر جنازة رئيس وزراء لبنان السابق في بيروت.

بعد عودة **عبد الحليم خدام** مِنْ جنازة **رفيق الحريري** أصبح وضعه في سورية أكثر صعوبة. وُضِعَ هو وأسرته تحت المراقبة المستمرة، ووَجَد نفسه منبوذاً. اختار **خدام** أنْ يُعلن استقالته في المؤتمر العاشر لحزب البعث في يونيو 2005، وأرفَقَها بنقدٍ لاذع لسياسة النظام الجديدة، وغادَر سورية بعدها مباشرة إلى باريس[2]. ظهَرتْ مغادرة **خدام** لسورية حركةً تكتيكية محسوبة أكثر منها هرباً وخوفاً. يزعم **خدام والشهابي** أنهما قد احتفظا باتصالهما مع **غازي كنعان** في سورية. في صباح 12 أكتوبر 2005 وُجدَ **غازي كنعان** ميتاً في مكتبه بوزارة الداخلية. ذَكَرتْ وسائل الإعلام الرسمية أنه قد انتحر[3]. اعتقد كثير مِنَ المراقبين أنّ **كنعان** في

(1) إيستر بان Esther Pan قادة سورية. مجلة *Council on Foreign Relations*, March 10, 2006. رغم أن الشهابي قد أعيد اعتباره فيما بعد، إلا أن مهمته قد انتهت عملياً بعد 1998

(2) غاري غامبيل Gary Gambill ملف: عبد الحليم خدام. مجلة *Mideast Monitor*, Vol. 1, No.1, February 2006

(3) غازي كنعان يطلق النار على نفسه قبل صدور تقرير الأمم المتحدة عن اغتيال رفيق الحريري. *Naharnet*, Beirut, October 12, 2005, available at:

الغالب قد قُتِل بأمر مِنَ النظام السوري[1]، رغم أنه مِنَ المستحيل معرفة كيف مات **كنعان**. وعلى كل حال فقد كانت أهم نتائج موت **غازي كنعان** هو أنّ أكبر منافس عَلَوي **لبشار الأسد** قد تمّتْ إزالته.

في نهاية 2005 كانت عائلة **الأسد** قد تجاوزت انقلاباً داخلياً، إلا أنها تَحَولتْ إلى زمرة صغيرة معزولة. كان **بشار الأسد** على قمة الحكم، ولكنه ظلّ خاضعاً لتأثير صهره **آصف شوكت**. كما كانَ لأخيه **ماهر الأسد** تأثيراً كبيراً لكونه القائد الفعلي للحرس الجمهوري، الوحدة الرئاسية الأساسية منذ حَلّ سرايا الدفاع في 1984. يصعب تقدير مدى نفوذ العناصر النسوية في عائلة **الأسد**، مثل **بشرى الأسد** (الأخت الكبرى **لبشار** وزوجة **شوكت**)، و**أنيسة مخلوف** (أم **بشار**). يبدو أنّ **بشرى الأسد** كانت ذكية وتتمتع بإرادة قوية، ويمكن أنْ تكون مرشحة للرئاسة لولا جنسها[2].

ظهَرَ عاملٌ جديد في توزيع السلطات لَمْ يكن موجوداً في المرحلة السابقة مِنْ حكم عائلة **الأسد**، وهو تأسيس جناح تجاري للنظام. أُسندَ هذا الدور لعائلة **مخلوف**، وهي عائلة والدة **بشار**، وأدارَهُ **رامي مخلوف**[3]. كان **رامي** قد جَمَعَ ثروة ضخمة في السنوات الأولى مِنْ حكم **بشار** مِنْ خلال احتكارات تجارية، مثل شبكة اتصالات الهاتف الخليوي التي ذُكِرَتْ سابقاً. وعلى هامش هذه الزمرة الداخلية كان أبناء عمومة **الأسد**، مثل عائلة **شاليش** التي أشرَفتْ على مصالح تجارية بمشاركة النظام في مجالات مثل تهريب الممنوعات مِنْ وإلى العراق[4].

(1) انظر مثلاً جوشوا لانديس Joshua Landis غازي كنعان–أكبر العلويين– ينتحر؟ أم أنه قتل؟ SyriaComment.com, available at: http://faculty-staff.ou.edu/L/Joshua.M.Landis-1/syriablog/2005/10/ghazi-kanaan-most-senior-alawi-suicide.htm .

(2) محمد داوود. ملف: بشرى الأسد. مجلة Mideast Monitor, Vol. 1, No. 3, September-October 2006

(3) غاري غامبيل Gary Gambill ملف: رامي مخلوف. مجلة Mideast Monitor, Vol. 3, No. 1, January-March 2008

(4) شموئيل بار Shmuel Bar 2006 صفحة 28، 44. انظر أيضاً US House of International Relations Committee, HIRC, 2004, 'Syria' Documents, 2 and 6

نتائج سياسات النظام المتشددة

رغم أنّ **بشار الأسد** والدائرة المحيطة به قد نجحوا في ترسيخ سيطرتهم والتخلص مِنْ جميع المعارضين والمنافسين مثل **رفيق الحريري وعبد الحليم خدام وغازي كنعان**، إلا أنّ طريقة وصولهم إلى ذلك تركتْهم معزولين وضعفاء دولياً وداخلياً. على الجبهة الدولية شَكّلتْ لجنة تحقيق الأمم المتحدة في اغتيال **رفيق الحريري** خطراً جلياً على النظام، فإذا ثبتَ تورّط الرئيس نفسه أو كبار رجاله، سيدمّر ذلك شرعية نظام البعث، وسيستدعي تطبيق عقوبات قاسية، وربما تَدخُّل الأمم المتحدة رسمياً في سورية. كان تقدّم القضاء الدولي بطيئاً وبالتالي فإنّ محاذير تحقيق الأمم المتحدة لَمْ تشكّل خطراً آنياً. إلا أنّ مخاطر لجنة التحقيق الدولية كانت حقيقية جداً في 2006/2005. وعلى الجبهة الداخلية، فإنّ وفاة زعيم عَلَوي قوي مثل **غازي كنعان** تعني أنّ النظام قد تَحدى ولاءَ شريحة كبيرة مِنَ الطائفة العَلَوية التي كانت تشعر أنها قد أُهمِلتْ، وتمّتْ خيانتها في الاتجاهات السياسية للنظام وتصرفاته.

نبَّهَ **عبد الحليم خدام** إلى أنه لا يمكن افتراض قَتل **كنعان** بشكل مباشر، إلا أنّ كثيراً مِنَ العَلَويين كانوا مقتنعين بأنه قد قُتِل بأمر **بشار الأسد**، مما أثّر سلباً على تأييدهم للنظام. أثناء جنازة **كنعان** في قريته **بُحَمْرَة** ناحتِ النساء: "*لماذا قتلتموه؟*"[1]. انتقد أحد أقارب **كنعان** فكرة الانتحار قائلاً: "*كان رَجُل المواجهة، والانتحار هروب. لَم يكن رجلاً يهرب مِنْ أي شيء*"[2]. بعد وفاة **غازي كنعان**، عبَّرَ أخوه **علي** عن سخط العَلَويين وهاجم النظام علناً باتهام **بشار الأسد** وأخيه **ماهر** مع **آصف شوكت** لمسؤوليتهم عن اغتيال **رفيق الحريري**. ولكنه وُجِدَ ميتاً في 6 نوفمبر 2006 على سكة القطار بين طرطوس واللاذقية (مع الادعاء الرسمي أنه انتحر أيضاً)[3]. هذه القسوة ضد عائلة **كنعان** وهي مِنْ عشائر الكلبية في قرية بُحَمْرَة لنْ تُنسى بسهولة[4].

(1) كيم غطاس. الأقلية العلوية السورية تخاف المستقبل. BBC لندن. 22 نوفمبر 2005

(2) أنتوني شديد: موت وزير سوري يترك طائفته هائمة في وقت الشدة. واشنطن بوست. 31 أكتوبر 2005

(3) نهارنت. بيروت 10 نوفمبر 2006

(4) أظهر أحد أفراد عائلة كنعان كراهيته لعائلة الأسد خلال محادثة مع المؤلف في اللاذقية سنة 2011

شكّل هذا النوع مِنْ تدهور العصبية العَلَوية أكبر خطر على مستقبل حكم عائلة **الأسد**.

ارتكبَ **حافظ الأسد** اغتيالات سياسية أيضاً لَمْ تكن أكثر أخلاقية مما فعله نظام **بشار**، ولكنْ مِنَ الناحية السياسية البحتة، يمكن التمييز بين الحالتين. حاولَ **حافظ الأسد** إخفاء أي دوافع طائفية عَلَوية كجزء مِنْ تغطية دور الطائفة العَلَوية كقاعدة أساسية لنظام حكمه. ربما شكّل ذلك دافعاً لاغتيال **كمال جنبلاط وصلاح الدين البيطار**، في حين أنّ **بشار الأسد** وكبار مستشاريه أثاروا الشكوك بالتخطيط لاغتيالات سياسية لحماية مصالحهم الشخصية فقط، حتى لو كانت ضد مصالح العَلَويين. وهكذا يبدو أنّ عائلة **الأسد** كانت على خلاف مع أغلبية العَلَويين، وتنطبق حالة **بشار الأسد** تلك مع مقالة **ابن خلدون** بأنّ: "*قومَهُ قد أصبحوا أعداءه*".

في سياق خلاف المصالح بين العَلَويين وعائلة **الأسد**، كان لدى الطائفة العَلَوية فرصة سنة 2006 للتخلص مِنْ "تحالفها الشيطاني" مع عائلة **الأسد**. عَرفَ **عبد الحليم خدام**، الذي كان يُقيم في باريس، النظامَ السوري أكثر مِنْ أي شخص آخر، بناءً على معرفته الوثيقة بتركيبته وأساليب عمله على مسار سيرته السياسية الطويلة. اعتقَد أنّ قاعدة قوة النظام العَلَوية قد بدأت تضعف في الفترة 2005–2006، وأنه إذا استطاع أنْ يُزيل حجر الزاوية هذا في بناء هيكل السلطة فستنهار. وسيَحتاج ذلك إلى تهدئة قلق العَلَويين وخوفهم مِنْ احتمال حدوث ردة فعل طائفية عنيفة ضدهم عند زوال نظام **الأسد**.

في 30 ديسمبر 2005، بدأ **عبد الحليم خدام** هجومه المعاكس ضد عائلة **الأسد** في مقابلة مع تليفزيون قناة العربية، ادعى فيها معرفته بمسؤولية النظام السوري عن اغتيال **الحريري** واغتيالات أخرى، وأنه يعتقد أنّ الطغمة الحاكمة الجديدة ستقود سورية إلى الدمار(1). تلك الشهادة، التي صدرَتْ عن شاهدٍ وثيق الصلة بالنظام مثل **خدام**، وجَّهَتْ ضربة قوية للنظام السوري، وزادتْ عزلته

(1) غاري غامبيل Gary Gambill ملف: عبد الحليم خدام. مجلة *Mideast Monitor*, Vol. 1, No.1, February 2006

وضعفه. إلا أنّ الخطوة الثانية التي قام بها **خدام** كانت أكثر خطورة على **بشار الأسد**، فقد تحالَف مع الإخوان المسلمين السوريين، الذين كانوا بقيادة **علي البيانوني**، وشكّلوا معاً في 16 مارس 2006 جبهة الإنقاذ الوطني، التي خلَقَتْ معارَضة ممكنة للنظام السوري. تحالُفُ **عبد الحليم خدام** مع **علي البيانوني** منَحَ جبهة الإنقاذ الوطني نفوذاً في حركتين فكريتين هامتين: البعثية والإسلامية، ولذا فقد كان لديها إمكانية الحصول على تأييد قوي في سورية. لايمكن إنكار أنّ البعثية كانت قد ضعفتْ مِنْ حيث شعبيتها الجماهيرية الحقيقية، إلا أنّ العَلَويين كانوا يتمسكون بمبادئها العلمانية والاشتراكية كطريقة لتجاوز مخاوفهم الطائفية.

كان **خدام** متأكداً مِنْ نجاح جبهة الإنقاذ الوطني، وفي المؤتمر الصحفي الذي أُعلِن فيه تأسيس الحركة، قال إنه يتوقع ثورة في سورية "*خلال أشهر قليلة*"، وأنّ: "*بشار الأسد يقوم بكثير مِنَ الأخطاء، ويحفر قبره بيديه*"(1). بعد أنْ ساعد **حافظ الأسد** في حفظ التوازن الدقيق للاحتفاظ بدعم وتأييد العَلَويين دون إثارة الأغلبية السورية، فَهِمَ **خدام** أنّ أهم العوامل اللازمة لتغيير النظام هو موقف العَلَويين. فأي حركة يعارضها العَلَويون في الجيش وأجهزة الأمن ستكون فرصة نجاحها ضئيلة، وهو درسٌ تَمَّتْ معرفتُهُ بقسوة في حماة سنة 1982.

وهكذا ففي بداية يونيو 2006، أَعلَنَ **عبد الحليم خدام** التزامه بحماية الأقلية العَلَوية ضد أي رد فعل محتمل ضد طائفتهم في سورية بعد **الأسد**(2). رغم أنّ **خدام** هو سنيّ إلا أنّ آراءه يمكن تعريفها بشكل أفضل وفق رؤية البعث العلمانية التي لا يحتاج العَلَويون معها إلى تأكيدات وتطمينات بشأن أمن مستقبلهم. يحتاج العَلَويون إلى تطميناتِ زعيمٍ مسلمٍ سنيٍّ مِنَ الجماعة التي يخشون عودتها إلى اضطهادهم وانتقامهم في سورية بعد **الأسد**. في 17 أغسطس 2006 أرسَلَ **علي البيانوني**، المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية هذه التطمينات في مقابلة له مع قناة الجزيرة قائلاً:

"العَلَويون في سورية هم جزء مِنَ الشعب السوري وينتمون إلى فصائل وطنية عديدة... حاول النظام الحالي الاختباء وراء هذه الطائفة، وأنْ يوظفها ضد

(1) رويترز 17 مارس 2006

(2) معارض سوري منفي يعد بحماية الأقلية العَلَوية. فاينانشيال تايمز 5 يونيو 2006

المجتمع السوري، ولكنني أعتقد أنّ كثيراً مِنَ العَلَويين يعارضون النظام، وهناك عَلَويون قَمَعَهم النظام، ولذا أعتقد أنّ كافة القوى الوطنية وكلّ مكونات الشعب السوري بمَنْ فيهم أبناء الطائفة العَلَوية يجب أنْ يشاركوا في أي تغيير محتمل في سورية"[1].

يوضح تحليل هذه الرسالة فهماً جيداً لوضع العَلَويين السياسي، وربما يدل على تأثير **خدام** في اختيار لغة الرسالة. رَفَضَ **البيانوني** فكرة الخصوصية الطائفية التي كانت موجودة في التصريحات السابقة للإخوان المسلمين عن العَلَويين، وبدلاً عن ذلك قال أنّ العَلَويين: "*ينتمون إلى فصائل وطنية عديدة*". كما أنه ميّز تماماً بين "النظام الحالي" ونظام **الأسد** السابق، في محاولة لفصل نظام **بشار** عن الولاء القوي الذي شعر به كثير مِنَ العَلَويين تجاه **حافظ الأسد** وسياساته. بينما آمن كثير مِنَ العَلَويين أنّ الرئيس السابق دافع بشدة عن مصالحهم، صَرَّحَ **البيانوني** أنّ النظام الحالي يَستغل الطائفة لمصلحته الشخصية في تثبيت حكمه. كما دعى **البيانوني** العَلَويين للانضمام كشركاء متساوين في ثورةٍ مدنية لتغيير سورية.

كانت نبرة وأسلوب رسالة **البيانوني** مختلفة تماماً عن تصريحات الإخوان المسلمين السابقة التي كانت تَصِفُ العَلَويين تلميحاً وتصريحاً بأنهم زنادقة ومغتصبين ومتواطئين جميعاً مع نظام **الأسد**. ميّز **البيانوني** بين العَلَويين المقرّبين مِنَ النظام وبقية أفراد الطائفة العَلَوية. يُذكّر هذا بفكرة انقسام العصبية العَلَوية إلى فرعين: أولئك المُقرَّبون مِنَ النظام الذين ظلّتْ عصبيتهم لعائلة **الأسد** متماسكة بسبب علاقات القربى والمال، والآخرون الذين ظلّتْ عصبيتهم لعائلة **الأسد** متماسكة فقط بسبب خوفهم مِنْ ظهور تسلّط سنيّ في الدولة. بالنظر إلى تناقص عدد الفئة الأولى بسبب ما قام به **بشار الأسد** مِنْ إجراءات خلال السنوات الست الأولى مِنْ حكمه، يمكن افتراض أنّ الفئة الثانية هي الأكبر.

كانت محاولة **البيانوني** للتواصل مع أكثرية العَلَويين تعبيراً عن تفهّم مماثل لتطلعات العَلَويين نحو العيش بأمان في المجتمع السوري، وتُشبه تلك الفتوى التي

(1) الجزيرة، 17 أغسطس 2006، في: تحالف البيانوني-خدام: هل المعارضة حقيقية الآن؟ موقع *Syria comment*

أصدرَها مفتي القدس **أمين الحسيني** في 1936[1]. في ذلك الوقت كان على العَلَويين الاختيار بين الانضمام إلى سورية المسلمة، أو الحكْم الذاتي تحت حماية الفرنسيين. أما الاختيار في 2006 فهو بين العيش مع الطوائف الأخرى في سورية جديدة بعد **الأسد**، أو الأمل باستمرار حمايتهم تحت الحكْم المترنح لعائلة **الأسد**.

عواملُ كثيرة كانت تضغط على الطائفة العَلَوية لاتخاذ قرار هام في اتجاههم السياسي. أولاً، ماهي فرصة عائلة **الأسد** في البقاء بمواجهة تحقيقات الأمم المتحدة في اغتيال **الحريري**؟ فإذا كان النظام محكوماً عليه بالفشل، فربما مِنَ الأفضل البحث عن بديل لتحقيق أمن الطائفة في تحالف قوي جديد، مثلما حدَثَ سنة 1936 عندما كان استمرار الحماية الفرنسية غير متوقع[2]. ثانياً، عَمِلَتْ عائلة **الأسد** جاهدةً على مدى أربعين سنة لضمان عدم وجود أي مصدر آخر للسلطة السياسية في الطائفة العَلَوية سواها. في سنة 1936 تحاور زعماء وشيوخ العشائر وأصحاب النفوذ وقرَّروا مسار العمل. أما في 2006 فلمْ يكن هنالك سوى قلة صغيرة مِنْ صُنَّاع القرار خارج عائلة **الأسد**. والعامل الأخير هو: هل تمكن الثقة بالأغلبية السنيّة في احترام "العفو" الذي قدَّمه **البيانوني وخدام**، وعدم اللجوء إلى الانتقام العنيف مِنَ الطائفة العَلَوية بسبب مذبحة حماة والقمع السياسي الذي تلاها؟

يمكن إثارة نقطة هي أنّ العَلَويين العاديين، خاصة الذين يعيشون في المناطق الريفية، قد لا يُدركون أو لا يَتفهمون تماماً التحديات المعقدة التي تواجه طائفتهم. إلا أنّ ذلك قد يكون سوء فهم، فكما أَخبرَ **عبد الحليم خدام** مؤلفَ هذا الكتاب أنّ السوري العادي ناضجٌ سياسياً، وأنّ السوريين "*يفهمون ما يحدث*". والعَلَويون العاديون ليسوا استثناءً مِنْ ذلك، وهي حقيقة تتفقُ مع ملاحظات المؤلف. فمثلاً كان أحد معارف المؤلف مِنْ شمال الجبال الساحلية عاملَ تنظيفات في اللاذقية،

(1) R. D.: فتوى المفتي العام للقدس بشأن العَلَويين. *Syria*, T. 22, Fasc. 3/4 (1941) صفحة 299. Institut Francais du Proche-Orient إيفيت تلحمي Yvette Talhamy: الفتاوى والنُصيريون-العَلَويون في سورية. مجلة *Middle Eastern Studies*, 46: 2, 2010 صفحة 185-186.

(2) هذا النوع من التغير السياسي بسبب الوقائع السياسية يمكن أن يفسر تغير ولاء وليد جنبلاط والدروز في لبنان.

وكان يَعرف أسماء وخلفية ودور كل سياسي يُذْكَر في الصحيفة المحلية، كما عَرف مَنْ يملك أحدث سيارة مرسيدس رياضية مرَّتْ بنا في المنطقة التجارية في اللاذقية قائلاً: "*هذه سيارة ابن عم الرئيس، وهو مِنْ عائلة* ***الأسد****، ومكتبه هنا*". رغم أنّ العَلَويين لا يجهلون القضايا السياسية ونتائجها، إلا أنّ غياب زعامات الطائفة يُضعِفُ قدرتَها على التعبئة بكفاءة، ويحرمُها القدرةَ على اتخاذ الخطوات السياسية لتحقيق مصالح الطائفة بعيداً عن عائلة **الأسد**.

كان النهج الأكثر احتمالاً للعَلَويين هو الانسحاب إلى أمان عشائرهم وعائلاتهم وانتظار ما سيحدث، والرجوع إلى أسلوبهم المعتاد في اللجوء إلى معاقلهم الجبلية. قال بقّال عَلَوي قروي في قمة أزمة النظام في أكتوبر 2005 أنه إذا ثارت اضطرابات في البلد: "*سيعود الناس مِنْ دمشق إلى القرية، وسيجدوا الحماية مع أهلهم... سيختبئون خلف الصخور والحجارة، ففي المدينة لا يوجد صخور ولا حجارة*"[1].

أصدَرَ مجلس الأمن الدولي في يونيو 2006 القرار رقم 1686 الذي تَبنى تقرير لجنة التحقيق الدولية عن اغتيال **الحريري**، ومدَّد فترة التحقيق، وعبَّر عن إصراره على "محاكمة جميع المتورطين بهذا العمل الإرهابي"[2]. بعد ذلك بشهر واحد، في 12 يوليو، قام حزب الله، حليف سورية الاستراتيجي المُتبقي في لبنان، باستفزاز إسرائيل إلى معركة في جنوب لبنان[3]. أَجبَرَ حزبُ الله الجيشَ الإسرائيلي على البقاء في المعركة 34 يوماً[4]، ومَنَح حكْم عائلة **الأسد** دعماً قوياً بطرق عديدة. كان توقيته مناسباً لتذكير السوريين بالخطر الخارجي "**الخلدوني**" الذي تُمثله إسرائيل وتأثيره في حشد التعاطف، مثلما كان تأثير النجاح النسبي لحرب أكتوبر 1973 في حشد التأييد **لحافظ الأسد**.

(1) أنتوني شديد. واشنطن بوست 31 أكتوبر 2005
(2) قرار مجلس الأمن الدولي رقم S/RES/1686 (2006), 06-39006 (E) 15 يونيو 2006
(3) قرار مجلس الأمن الدولي رقم S/RES/1701 (2006), 06-46503 (E) 11 أغسطس 2006
(4) تحليل مسار هذا الصراع في بيدل S. Biddle وفريدمان J. A. Friedman الحملة في لبنان 2006. Strategic Studies Institute, United States Army War College, September 2008

حاول **بشار** استغلال الفوائد الدعائية لحرب 2006 إلى أقصى درجة بإعلان تأييده المطلق "للمقاومة الشجاعة". تمتَّعَ مقاتلو حزب الله بدعم وتأييد سورية (وإيران)[1]. وهي حجة استخدمها **بشار** لتوجيه ضربة لأعدائه في العالَم العربي، خاصة المملكة العربية السعودية، بأنْ وَصَفَهم "أنصاف الرجال" بسبب عدم دعمهم لحزب الله[2]. بالنظر إلى التأثيرات المفيدة لحرب 2006 في لبنان على النظام السوري فمِنَ المُمكن أنّ نظام **بشار الأسد**، بموافقة النظام الإيراني، ربما حرَّضوا حزبَ الله لإستثارة المعركة مع إسرائيل، وفي حديثٍ مع المؤلف، كان **عبد الحليم خدام** متأكداً مِنْ هذا التحليل قائلاً: "*كان* ***بشار*** *يستخدم حزب الله في لبنان لإبعاد خطر المحكمة الدولية بشأن اغتيال* ***الحريري***". بعد 2006 اتَّخذَتْ إيديولوجية "المقاومة" أهمية كبيرة في حشد الدعم والتأييد لحكم **بشار الأسد**. وعمِلَ جاهداً لوضع نفسه في صورة إلى جانب رموز "المقاومة" مثل الأمين العام لحزب الله **حسن نصر الله** ورئيس إيران **محمود أحمدي نجاد** (الشكل 10).

كان في ذلك اختلافٌ كبير عن استراتيجية الدعاية **لحافظ الأسد** الذي لم يُشرِكْ أحداً في عبادة شخصيته ما عدا أفراد أسرته وبعض الرموز الإسلامية أحياناً[3]. يُظهِر هذا التغير في السياسة ويوضح أيضاً تحول ميزان القوى في التحالف السوري-الإيراني-حزب الله لصالح إيران وحزب الله. فبينما اعتمد **حافظ الأسد** فقط على دعم العَلَويين في ترسيخ الاستقرار الداخلي لحكمه، مما منحه استقلالية أكثر في السياسة الخارجية، بدأ **بشار** منذ 2006 في الاعتماد أكثر على حلفائه الخارجيين مِنَ المسلمين الشيعة. تتماشى هذه التطورات مع نظرية **ابن خلدون** أنّ حكْم العائلة حين يبدأ بالانهيار يبتعدُ عن جماعته الأصلية، وبدلاً عن ذلك "*يسعى للحصول على دعم الموالي والرعية... ولا يهتم إلا بخلفائه الجدد*". [فإذا جاء الطور

(1) هاآرتس. إسرائيل 7 يونيو 2007
(2) إيستر بان Esther Pan سورية، إيران، والصراع في الشرق الأوسط. مجلة *Council on Foreign Relations*, July 18, 2006, http://www.cfr.org/iran/syria-iran-mideast-conflict/p11122 (accessed September 1, 2011)
(3) للبحث في عبادة شخص حافظ الأسد، انظر كتاب ليزا ويدين Lisa Wedeen غموض السيطرة. (Chicago & London: University of Chicago Press, 1999)

الثاني وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد... صاروا في حقيقة الأمر مِنْ بعض أعدائه واحتاج في مدافعتهم عن الأمر وصدهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم... فيستخلصهم صاحب الدولة ويخصهم بمزيد التكرمة والإيثار ويقسم لهم ما للكثير من قومه... وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التي كان بناء الغَلَب عليها.]

إلا أنّ حلفاء **بشار** المُقَرَّبين، حزب الله والنظام الإيراني، لديهم برنامجهم السياسي الخاص، بما فيها نَشر الحُكْم الإسلامي في الدول الإسلامية، وذلك لا يتفق تماماً مع مصالح العَلَويين.

الشكل 10: ملصقات جدارية في دمشق تُصَوِّر قادة "المقاومة"



المصدر: المؤلف، أغسطس 2009.

في نهاية 2006، وبعد شهور مِنْ تَنبؤ **عبد الحليم خدام** بقيام ثورة في سورية، لَمْ يَحدث شيء مِنْ ذلك. لَمْ يَظهر أي دليل على انضمام العَلَويين إلى المعارَضة، ولا أي انشقاقات في الجيش أو أجهزة الأمن. لا شك بأنّ نتائج حرب 2006 في لبنان قد لعِبتْ دوراً في ذلك. كما أنّ قروناً مِنَ العنف وعدم الثقة بين العَلَويين والسنّة لنْ تَزول في يوم وليلة. وظلّ شبح الانتقام لأحداث حماة مقيماً في أذهان العَلَويين رغم جهود قادة المعارضة مثل **خدام والبيانوني** في إزالته. لَمْ تَخرج سورية مِنْ عزلتها الدولية إلا بعد حوالي سنتين، ولكنْ في أول اختبار حقيقي ظَهَرَ بوضوح ولاءُ العَلَويين وصمودُ عصبيتهم الطائفية.

كانت الفترة 2003–2007 صعبة جداً على حكم عائلة **الأسد** والطائفة العَلَوية. ظَهَرَ نقصُ خبرة **بشار الأسد** بوضوح في ميله لاتخاذ قرارات متهورة. وبغض النظر فيما إذا كان ذلك بسبب غروره، أو أنه نتيجة كونه شخصية سريعة التأثر، والنصائح الخاطئة للمحيطين به، فقد أَوصَل حكْم عائلة **الأسد** إلى حافة النهاية، وكاد أنْ يَقلب التوازن الدقيق المتين الذي أسسه والده بين مصالح العَلَويين ورضى الأغلبية السنيّة. وبالتوافق مع التنبؤات **الخلدونية** فقد غامَرَ **بشار** بكثير مِنَ العناصر الأساسية في دعم العَلَويين لحكمه حتى سنة 2007. إلا أنه عندما حانَت الفرصة لَمْ يتخلَ العَلَويون عن عائلة **الأسد**. لماذا حدث ذلك؟ الإجابة السريعة هي: الخوف. الخوف الطائفي هو عامل رئيسي الذي لَمْ ينتبه إليه **ابن خلدون** في نظريته عن انهيار عصبية الجماعة، وكان العنصر الحاسم الذي حافَظَ على حكْم عائلة **الأسد**. فبالنسبة للعَلَويين يعني بقاء واستمرار حكْم عائلة **الأسد** نوعاً مِنَ الحماية ضد الأصولية السنيّة، رغم الحقيقة المتناقضة أنّ النظام كان بشكل مباشر أو غير مباشر يُشجِّع على تصاعد المشاعر الإسلامية. وبشكل عام فإنّ سياسة الخوف وعدم الاطمئنان أدّتْ إلى المحافظة على العصبية العَلَوية.

أحوال العَلَويين الاجتماعية والاقتصادية تحت حكْم بشار الأسد

حقيقةٌ مؤسفة واجَهها العَلَويون عبر تاريخهم هي أنهم لَمْ يتركوا أثراً هاماً في سجل التاريخ إلا في فترات المصاعب والصراعات. فعلى مر القرون منذ لجوئهم إلى الجبال الساحلية كانت الدراسات العلمية عن أحوال العَلَويين الاجتماعية

والاقتصادية مقتصرةً على تجميع لقطات منفصلة للطائفة، وغالباً ما تكون في فترات المآسي القاسية، مثلما حدَثَ في ثورة جبلة والإضطهاد المغولي، والسيرة القصيرة **لاسماعيل خير بك** والاضطهاد العثماني في القرن التاسع عشر، ومشكلة الانضمام أو الانفصال سنة 1936، والصراع الطائفي العنيف في فترة 1976–1982، وأخيراً في أزمة حكْم عائلة **الأسد** أثناء 2005–2006.

يلفّ العَلَويين خارج تلك الأحداث غموضٌ داكن بالنسبة للباحثين. بعد 2007 بدأ حكْم عائلة **الأسد** بالاستقرار مِنْ جَديد، وعاد العَلَويون للاختفاء عن الدراسات العلمية. بسبب هذا السجل المتقطع للطائفة العَلَوية هناك مَيلٌ للنظر إلى هذه الطائفة على أنها فئة دينية ضالة متطرفة، ذات ميول عدوانية (ثورة جبلة)، غير منظّمة وعنيفة وقَبَلية (**اسماعيل خير بك**)، أو غامضة ذات سلوك أمني طائفي (مخابرات طائفية). إلا أنّ حقيقة هذه الطائفة تختلف عن كل ذلك.

سيحاولُ هذا المقطع أنْ يُصَوِّر الصفات اليومية والمعضلات التي تواجهها هذه الطائفة في القرن الحادي والعشرين. لتصوير الجوانب العادية للطائفة العَلَوية، فإنّ النتائج المأساوية لعدم الاطمئنان السياسي والخوف الطائفي سيتم إبرازها بشكل حاد. وبشكل عام فإنّ النظام السياسي الذي نَشأ عن عصبية العَلَويين **للأسد** يحدّ مِنْ إمكانات جميع أفراد الشعب السوري، بِمَنْ فيهم الأكثرية العظمى مِنَ العَلَويين.

عند دراسة الظروف الاجتماعية والاقتصادية العامة للعَلَويين تحت حكم **بشار الأسد** يَبرز توجه رئيسي واضح، وهو وجود تباين كبير في الدخل بين العَلَويين المقربين مِنْ عائلة **الأسد** والعَلَويين الآخرين البعيدين عنهم. وكما تَبين في الفصل الخامس كان هذا الفرق موجوداً منذ بداية حكْم عائلة **الأسد**، ولكنّ هذا التباين في الثروة أصبح واضحاً جداً بعد سنة 2000. كما أنّ عدد أفراد النخبة العَلَوية المُميزة أصبح أقل منذ أنْ بدأ **بشار** يعتمد أكثر على زمرته المقربة الموثوقة مِنَ العائلة والأصدقاء. وفي سنة 2007، حسب مصادر المعارَضَة، بلغتْ ثروة الدائرة المُقربة مِنَ النظام مِنْ آل **مخلوف وشاليش والأسد** حوالي 40 بليون دولار أمريكي[1]. وفي السنة ذاتها بلغ الدخل العام المُقدر في الميزانية المالية السورية حوالي 442.5 بليون ليرة

(1) موقع جبهة الإنقاذ الوطني available at: http://www.free-syria.com/en/ (accessed October 2, 2009)

سورية (حوالي 8 بليون دولار أمريكي)[1]، بينما كان الدَّين الحكومي 725.7 بليون ليرة سورية (حوالي 13 بليون دولار أمريكي)[2]. "خصخصة الفساد" في الدائرة المقربة مِنَ النظام التي تَحدَّثَ عنها **عبد الحليم خدام** تؤثر على صلب الاقتصاد السوري. فمثلاً البنك التجاري السوري الذي يدير 90% تقريباً مِنَ المُدَّخَرات، وأكثر الاحتياطي السوري مِنَ النقد الأجنبي، كان على التصنيف الدولي في الفترة 2004–2006 "كمؤسسة مالية ذات نشاط هام في غسيل الأموال"[3].

قَدَّرَ **عبد الحليم خدام** سنة 2009 أنّ أغلب ثروة سورية كانت تحت سيطرة حوالي 500 شخص. ربما كان في ذلك مبالغة، إلا أنه في دولة يبلغ عدد سكانها أكثر مِنْ 23 مليون نَسَمَة، حتى لو كان العدد الحقيقي ثلاثة أضعاف ما ذَكَره **خدام** فهو يمثل تركيزاً هائلاً في الثروة ضمن عائلات قليلة. حتى بالنسبة إلى عدد العَلَويين السوريين فقط، والذي يبلغ حوالي 3 ملايين نَسَمَة، فإنّ توزيع الثروة يَظهَر غير متوازن داخل الطائفة. الأرقام الرسمية عن توزيع الدخل في سورية غير متوفرة، ولذلك لا يمكن تقدير هذه الناحية إلا مِنْ خلال الملاحظات النوعية الأولية والثانوية. الملاحظات المكثفة التي قام بها المؤلف أثناء زيارته لسورية في 2009 و2011 أظهرتْ أنّ الغالبية العظمى مِنَ السوريين، بِمَنْ فيهم العَلَويين، يعانون مِنْ ظروف اقتصادية صعبة. ويَظهَر ذلك واضحاً بالمقارنة مع آثار الغِنى الفاحش الذي يبدو في القصور والسيارات الفارهة.

تبخَّر الأمن الاجتماعي والاقتصادي النسبي الذي تمتَّعَ به أغلب العَلَويين الريفيين أيام **حافظ الأسد** عندما انتقل **بشار الأسد** باتجاه تركيز التنمية نحو المدن. فمثلاً قادَتْ إصلاحاتُ النظام لتحرير الاقتصاد إلى تخفيض أو حَذْفِ دعم الزراعة

(1) المعاملات المالية هي التعاملات التي تقوم بها الحكومة لتنفيذ السياسات النقدية، مثل الدخل والمصاريف، وأدوات الدين العام وإدارته. عن قاموس الاصطلاحات الإحصائية.

(2) تقرير صندوق النقد الدولي No.07/288, August 2007 والأرقام وفق أسعار الصرف في 2007

(3) ماثيو ليفيت Mathew Levitt المجموعة العالمية ضد تمويل الإرهاب تتحداها الإجراءات السورية. مجلة *Washington Institute for Near East Policy*, Policy Watch, No.1238 31 مايو 2007

ودعم المحروقات. قَفز سعر ليتر الديزل سنة 2008 مِنْ 7.3 إلى 25 ليرة سورية[1] وحُذِفَ الدعم الزراعي مقابل تعويضات نقدية عشوائية.

مقارنةً بالتطوير السريع للأرياف العَلَوية في زمن **حافظ الأسد** تباطأ وصول الخدمات الأساسية مثل الماء والكهرباء أيام **بشار**. حسب تقارير البنك الدولي ففي الفترة 2000–2005 ارتفع الحصول على مصادر المياه النظيفة في أرياف سورية بنسبة 3% فقط[2]. في زيارة قام بها المؤلف في 2009 إلى القرية العَلَوية المُرشِدية **كْدين**، لاحَظَ أنّ كثيراً مِنَ البيوت لَمْ تصل إليها الكهرباء، وكانت تُخزّن الماء في براميل كبيرة. وفي قرية **جوبة برغال** قرب قمة الجبال الساحلية، كانت المدرسة والنادي الرياضي والمركز الاجتماعي التي بُنيَتْ في السبعينيات والثمانينيات بحالة بائسة أو مغلقة منذ 2005، ومازالت القرية تنتظر وصول خدمات الماء[3]. زار المؤلف تلك القرية في 2011 ولاحَظَ علامات مماثلة على انحدار البنية التحتية. ظَهَرَ لكثير مِنَ العَلَويين كأن النظام قد تخلى عنهم، فمثلاً اشتكى موظف حكومي مِنْ قرية **قرير** قائلاً: "*يبدو كأن الناس لا يعلمون أننا نعيش في هذه الدولة... كلُّ مَنْ يجلس على كرسي السلطة يهتم بالمال وليس بالناس*".

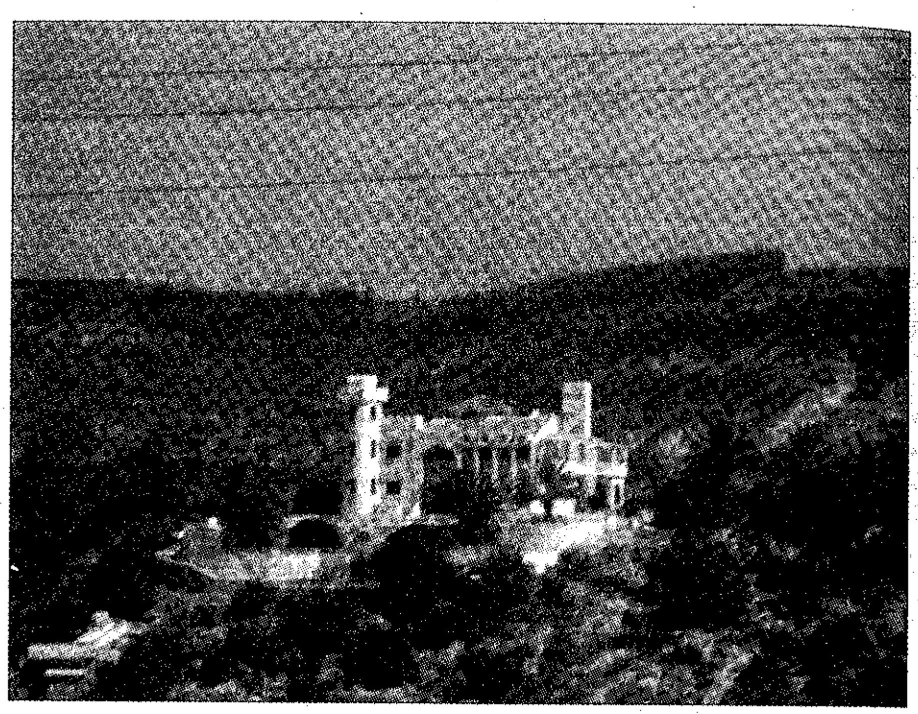
حتى في بلدة **الأسد** القرداحة ظَهَرَتْ علامات تَغيُّر في طبيعة العلاقة بين العَلَويين **والأسد**. ففي 1986 ظَهَرَتْ أمارات تَدفّق الازدهار في القرداحة في عمليات البناء ومشاريع التطوير القائمة. إلا أنّ انطباع المؤلف في 2009 وفي 2011 هو أنّ البلدة لَمْ تتطور بشكل واضح في تلك الفترة، بل بَدَتْ متهدمة إلى حد ما. لَمْ يلاحِظْ سوء توزيع في الثروة بين غالبية سكان البلدة، وفي الواقع كان سائق التاكسي الذي نَقَلَ المؤلف في 2009 مِنْ أهل القرداحة ومِنَ الأقرباء البعيدين لعائلة **الأسد**. في سنة 1986 كان منزل **الأسد** موجوداً داخل القرداحة، بينما انتصب قصر **الأسد** على قمة تلٍ شمال القرداحة، يقع على بعد منها، ويشرفُ عليها (الشكل 11).

(1) تقرير صندوق النقد الدولي No. 10/86, 'Syrian Arab Republic: 2009 Article IV Consultation—Staff Report; and Public information Notice، مارس 2010 صفحة 10

(2) بيانات البنك الدولي، الجمهورية العربية السورية. /http://data.worldbank.org/country syrian-arab-republic accessed. 12 أبريل 2012

(3) واشنطن بوست 31 أكتوبر 2005

الشكل 11: قصر الأسد قرب القرداحة.



المصدر: المؤلف، أغسطس 2009

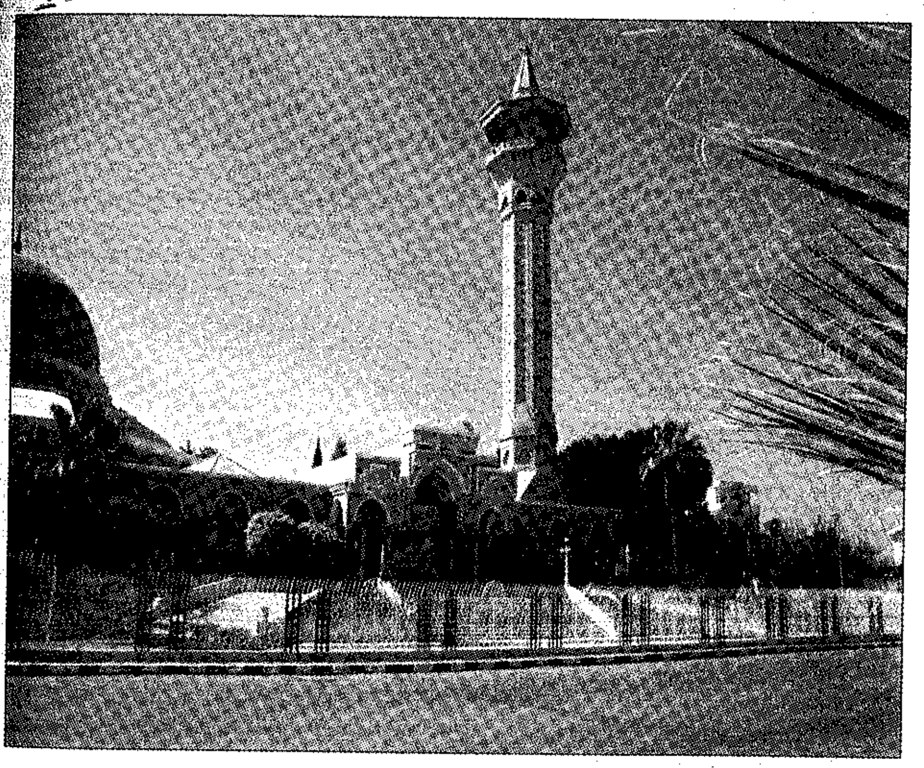
كما أنّ مراسل جريدة النيويورك تايمز الذي زار القرداحة في 1986 لَمْ يَذكر الجامع الفخم الكبير الذي انتصَب في 2009 قرب مدخل البلدة. بين القرى والبلدات التي زارها المؤلف، كانت القرداحة هي البلدة العَلَوية الوحيدة التي وُجِدَ فيها جامع، في إشارة واضحة إلى دوره السياسي الرمزي. ومِنَ المُفارقة أنّ أفضل وأرخص محلات بيع الخمور في محافظة اللاذقية تقع بالقرب منه[1]. يمكن مشاهدة التغير في طبيعة العلاقة بين عائلة **الأسد** والعَلَويين بمقارنة حالة القرداحة في 1986 و2009. أولاً، يبدو الرمزُ واضحاً في ابتعاد عائلة **الأسد** بنفسها عن العَلَويين العاديين، حتى عن الذين ينتسبون لعشيرة الكلبية، في انتقال "قصر" **الأسد** بعيداً عن بلدته (الشكل 11).

(1) افترَضَ سائق التاكسي الذي نقل المؤلف إلى القرداحة أن سبب الزيارة هو شراء مشروبات كحولية.

كذلك يدل التوقف في تطوير بلدة القرداحة على أنّ المَردود المالي العام للسلطة قد انخفض، وأصبح محصوراً في عائلة **الأسد** وزمرتها. بناء جامع فخم في القرداحة يدل أيضاً على أنّ أولويات النظام السياسية أهم بالنسبة له مِنْ تطوير البنية التحتية للطائفة العَلَوية (الشكل 12).

عند الدخول إلى الجامع في الزيارة الثانية التي قام بها المؤلفُ للقرداحة في 2011 كان الجامع فارغاً تماماً، ولَمْ تظهر على سجاجيده علامات الاستخدام المتكرر. لا شك بأنّ التحالف المتين بين نظام **الأسد** ونظام الإسلاميين الإيرانيين وحزب الله جعل مِنَ الملائم سياسياً توفير الخدمات الدينية المناسبة لزياراتهم المتكررة.

الشكل 12: جامع في القرداحة



المصدر: المؤلف. أغسطس 2009

وفي دمشق تبدو الأحياء التي يسكنها العَلَويون، مثل عش الورور، غير متطورة، وتَظهر على سكانها علامات الفقر مثلما هي في سكان قرى الجبال بمنطقة اللاذقية. بينما تعيش نُخبة النظام في رفاهية، ونمط حياة مترفة أكثر مما كانت عليه الحال في أي فترة أخرى مِنْ حكم عائلة **الأسد**. رغم هذه الفجوة الاجتماعية-الاقتصادية المتسعة بين الطائفة العَلَوية بشكل عام وعائلة **الأسد**، إلا أنّ كثيراً مِنْ سنّة دمشق يعتقدون أنّ العَلَويين بمجملهم يسيطرون على مدينتهم.

توضح دراسة قامتْ بها **كريستا سالامندرا** Christa Salamandra عن الهوية الاجتماعية المعاصرة في دمشق مدى استياء السنّة لما يرونه مِنْ انحدارٍ في التراث الثقافي والاقتصادي لدمشق بسبب العَلَويين "الغزاة"[1]. قال مترجم سنيّ مِنْ دمشق عن ذلك:

"لاحظتُ في السنوات الخمس الماضية أنني قد أصبحتُ فخوراً بكوني دمشقياً. لاحظتُ ذلك أيضاً على والدي، الذي كان مِنْ مؤسسي حزب البعث. كان البعثيون يظنون أنّ السوريين كلهم ببساطة سوريون. إلا أنّ أكثرهم ندم على ذلك الآن. فهم يشعرون الآن أنهم يختلفون عن الآخرين مِنَ القرويين، خاصة العَلَويين. يعتقدون أنه ربما يمتلك العَلَويون المال، ويمسكون السلطة، إلا أننا نملك التراث".

الشعور بأنّ العَلَويين يمتلكون كل الثروة والسلطة قد أتى مِنَ الثروات الباهظة ونمط الحياة المرفّهة الذي ظَهَر على العَلَويين المقربين مِنْ عائلة **الأسد** مثل **رامي مخلوف**. يشبه ذلك الاستياءُ الذي شعر به السوريون تجاه الثروة الباهظة **لرفعت الأسد** في السبعينيات والثمانينيات. إلا أنه في تلك الحالة أضاف **حافظ الأسد** إلى شعبيته وإلى استقرار حكم عائلة **الأسد** بظهوره كمن يسعى للقضاء على فساد أخيه، والذي انتهى بالنفي خارج الدولة، في حين أنّ **بشار** لَمْ يفعل شيئاً مِنْ ذلك ضد أفراد عائلته.

رغم خطأ افتراض بعض السنة أنّ العَلَويين بشكل عام مسيطِرون سياسياً ومالياً، فإنّ تصور تخلفهم في المجتمع السوري قد ظَهَرَ في التصريح الذي ذُكِرَ سابقاً

---

(1) كريستا سالاماندرا Christa Salamandra: استهلاك دمشق: الثقافة العامة وتشكل الهوية الاجتماعية. في أرمبراست W. Armbrust إصلاح الجماهير: أساليب جديدة في الثقافة العامة في الشرق الأوسط وما بعده. (,Berkeley: University of California Press 2000) صفحة 182-202

حيث وصفوا "بالقرويين" الذين لا يتمتعون "بالتراث". تُذَكِّرُ هذه العقلية بالتصور التاريخي للعَلَويين، وتدل على أنّ الطائفة لَمْ تتقدم كثيراً في تحسين وضعها في المجتمع السوري خلال حكْم عائلة **الأسد**. لخّص كاتب عَلَوي مِنَ اللاذقية، لَمْ يَذكر اسمه، حالة العَلَويين المعاصرة قائلاً:

"*يقولون أنّ هذا النظام عَلَوي ولكنني لا أعتقد ذلك. أو يمكنك أنْ تقول هناك شلّة متحالفة مِنَ العَلَويين مستفيدة ولكنْ ليس كلهم... لو سألتَ دمشقياً سيجيب بطريقة تدل على تحيزه. سيقول أنّ العَلَويين جاؤوا وسيطروا على كل شيء وسرقوا كل شيء وهكذا. إلا أنّ الذين جاؤوا مِنْ مناطق أخرى يسكنون في الضواحي وفي المناطق العشوائية غير القانونية، بينما يسكنُ في المركز الدمشقيون السنّة والمسيحيون*".

عندما سُئل موظف حكومة متقاعد مِنْ قرية جوبة برغال سنة 2005 فيما إذا أفاد حكْمُ عائلة **الأسد** الطائفةَ العَلَوية بشكل زائد، أجاب غاضباً: "*بالعكس! بالعكس! نحن كلنا عَلَويون هنا، وعندما تأتي إلى هنا لا يمكنك أنْ تجد أي شيء*"[1]. في تلك المنطقة الريفية اشتكى ذلك الرجل في مقتبل العمر مِنْ الفساد في الدولة الذي يَحمي القلّة المتنفذة، بينما يجب عليه هو أنْ يضخ الماء إلى منزله بيديه. قدَّم تمييزاً واضحاً بين المرحلة الأولى لحكم العائلة والحاكم الحالي بتصريحه: "*قال الرئيس **حافظ الأسد** مِنْ حق كل مواطن أنْ يرفع صوته إذا شاهد ظلماً... والآن يقولون ليس مِنْ حقكَ أنْ تتكلم*". هذه التصريحات التي نادراً ما تصدر عن العَلَويين تدل على انخفاض قوة العصبية في الجذور الشعبية للطائفة.

يمكن تقدير حالة العلاقة الحالية بين السنّة والعَلَويين مِنْ عدم وجود تزاوج بين الطائفتين[2]. في مثال دمشقي واحد عن ذلك، حاولتْ فتاة سنّية الزواج مِنْ عَلَوي، إلا أنّ عائلة الفتاة رَفضتْ، وعندما هَرَبت الفتاة معه، لحقوا بها "لمحو العار"[3]. يمكن اعتبار العداء المستمر والاستياء وسوء التفاهم بين الطائفتين العَلَوية والسنّية جزءاً مِنْ تصاعد المشاعر الطائفية على امتداد الشرق الأوسط. وربما كانت

(1) واشنطن بوست 31 أكتوبر 2005

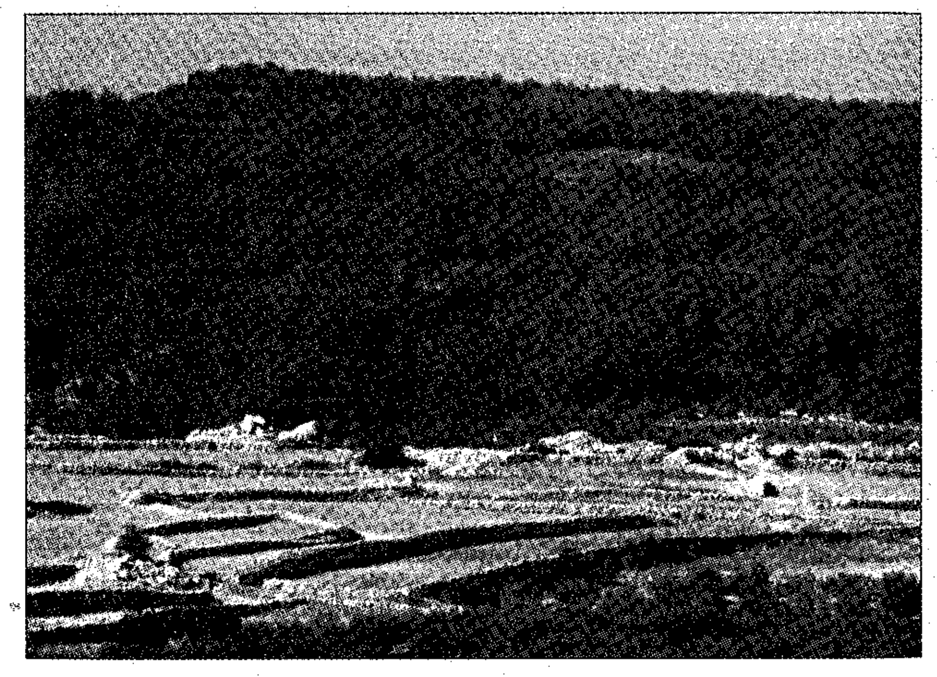
(2) يُعتبر بشار الأسد بالطبع استثناء لهذه القاعدة.

(3) الخوف من جرائم الشرف في نساء سورية. BBC لندن. 12 أكتوبر 2007

تلك نتيجة لعدم الاستقرار السياسي في العراق ولبنان، وبسبب تزايد الصعوبات الاقتصادية والتصورات المتعلقة بسوء توزيع الثروة[1].

أدى الجفاف الشديد الذي أصاب سورية صيف 2007 إلى حدوث تأثير كبير على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للعَلَويين[2]. كان واضحاً للمؤلف أثناء عمله الميداني في الجبال الساحلية سنة 2009 أنّ العَلَويين قد عملوا جاهدين للمحافظة على دخلهم المحدود مِنْ محصول الزراعة والتبغ القليل، وكانت علامات الجفاف واضحة على مصاطب الجبال الساحلية ومزارع الحمضيات (الشكل 13). سيتم التوسع في هذا العامل أكثر في الفصل السابع مِنَ البحث.

الشكل 13: الحقول الجافة في شمال الجبال الساحلية



المصدر: المؤلف. أغسطس 2009

(1) مروان قبلان، زرع بذور الشقاق. جريدة أخبار الخليج. دبي 6 يوليو 2007

(2) تقرير برنامج الأمم المتحدة للتنمية، تأثير أزمة الاقتصاد العالمي على الاقتصاد السوري، عدم المساواة والفقر. 2 نوفمبر 2009 صفحة 27. رويترز، سورية: إصابة الحصاد بسوء الطقس، أساليب الزراعة المتخلفة. دمشق. 5 يونيو 2007

في مواجهة تحديات اجتماعية واقتصادية صعبة تعرّضتْ عصبيةُ عامةِ العَلَويين إلى الإجهاد ولكنها ظلّتْ صامدة. وقد ظَهر للمؤلف أنّ تقييم العَلَويين الذين التقى بهم في الجبال الساحلية **لبشار الأسد** كان إيجابياً بشكل عام[1]. ومِنَ المُفارقة أنّ المحادَثة كانت تعود دائماً إلى مصاعبهم الاقتصادية. فمثلاً، في سنة 2009 طلَبَ مني شابٌ عَلَوي في الرابعة والعشرين مِنْ عمره شراءَ حذاء له لأنّ حذاءه قد اهترأ، ولكنْ عندما أَظهرتُ له قبعة اشتريتُها مِنْ قلعة الحصنْ كُتِبَ عليها "أُحبُّ **بشار الأسد**" قال لي أنّ الرئيس "كويس"، وطلب أنْ أعطيه القبعة. ومِنْ ناحية أخرى، فإنّ سائق التاكسي السنيّ الذي أقلّني مِنْ حمص، وكان أحسن حالاً مِنَ الصديق العَلَوي، حاوَلَ غاضباً أنْ يُلقي بالقبعة مِنْ شباك السيارة عندما أريته إياها قبل يوم واحد. لماذا كان صديقي العَلَوي مُعجَباً **ببشار الأسد** الذي يعيش في ثراء بينما لم يستطع هو أنْ يوفِرَ ثمنَ حذاء؟ حسب **ابن خلدون** تضعف عصبية الجماعة عندما "*تتوزع الغنائم بين... القلة المتنفذة*"[2]. رغم تزايد الاستياء بين العَلَويين بشكل عام إلا أنّ تأييدهم لعائلة **الأسد** لمْ يضعف بشكل جدي. يبدو أنّ الخوف الطائفي قد أقنع العَلَويين بتجاوز عدم المساواة والعدل في سورية وفي طائفتهم ذاتها. لتفَهُّم هذه الظاهرة بشكل أوضح مِنَ المفيد دراسة حال فئة مِنَ العَلَويين خارج سورية.

أمْن العَلَويين غير المستقر في لبنان

يوجد في طرابلس بشمال لبنان مجموعة صغيرة مِنَ العَلَويين يبلغ عددهم حوالي 60,000 إلى 70,000 نَسَمَة[3]. ومِثل نظرائهم العَلَويين السوريين سكن العَلَويون اللبنانيون في المناطق الريفية النائية. بعد 1976 بدؤوا بالانتقال إلى طرابلس مِنْ منطقة عكار في شمالها، وتحت حماية وجود شركائهم في الطائفة العَلَوية

(1) بالنظر إلى الظروف السياسية في سورية في 2009 و2011 كنت أحاول دائماً اللجوء إلى أساليب غير مباشرة في السؤال عن الرئيس والسياسة بشكل عام.

(2) لاكوست 1984 صفحة 113-114

(3) لا يوجد تعداد رسمي للعَلَويين في لبنان، وأخذ هذا التقدير من متوسط التعداد التقديري الذي قام به رياض يزبك في 2008 ومعهد الدراسات الإسلامية في نيويورك.

المتمركزين مع الجيش السوري في لبنان[1]. زار المؤلفُ سنة 2011 منطقةَ جبل محسن في ضواحي طرابلس حيث يقطن أغلب العلويين اللبنانيين. كان واضحاً أنّ هؤلاء السكان همْ مِنْ أفقر الطبقات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع اللبناني. رغم صغر وفقر هذا الفرع اللبناني مِنَ الطائفة العَلَوية، إلا أنه يلعبُ دوراً هاماً في المعادلة السياسية السورية. فبالنسبة للعَلَويين السوريين تُصَوِّرُ أوضاعُ العَلَويين اللبنانيين الأحوالَ البائسة التي يمكن أنْ يعيشها العَلَويون بدون الحماية المباشرة لحكْم عائلة **الأسد**. ينبع هذا الإحساس مِنَ العنف المتكرر بين السنّة والعَلَويين في طرابلس.

بعد انتهاء الصراع السنيّ العَلَوي في سورية سنة 1982 في حماة، هَرَبَ كثير مِنَ الإخوان المسلمين ومؤيديهم عبر الحدود، ولجؤوا إلى الطائفة السنيّة في طرابلس وقواعد منظمة التحرير الفلسطينية[2]، واصطدموا مباشرة مع الحزب العربي الديموقراطي العَلَوي المسلح تحت قيادة **علي عيد**[3]. بدأت المعارك في يونيو 1983 بعد هَجَماتٍ على العَلَويين اللبنانيين والجنود السوريين أدَّتْ إلى انتقام عَلَوي عنيف ضد السنّة. واشتعلَتْ حرب طائفية شعواء بين ضاحية جبل محسن وجيرانها السنّة في باب التبانة. أصبَحَ الصراع السنيّ العَلَوي المتكرر سمةً ظاهرة في طرابلس على مر ثلاثة عقود.

حدَثَ آخر قتال عنيف بين العَلَويين والسنّة في طرابلس في 21 يونيو وفي 8 سبتمبر 2008[4]. في محاولة لوقف القتال وسَحْب العَلَويين اللبنانيين بعيداً عن اعتمادهم على نظام **الأسد** حاوَلَ زعيم السنّة في لبنان **سعد الحريري**[5] تخفيفَ قلق العَلَويين بقوله: "*نحن كلنا لبنانيون ولن نترك أحداً يعبث بنا*"[6]. إلا أنّ الخوف

(1) نيويورك تايمز 21 يونيو 1982. كما أنهم قد احتفظوا بعلاقاتهم في قراهم الريفية مثل نظرائهم العَلَويين السوريين.

(2) مقتل 3 سوريين في كمين بلبنان. نيويورك تايمز 21 يونيو 1982

(3) الحزب العربي الديموقراطي يعرف أيضاً باسم الفهود القرمزية بسبب ألوان ثياب عُصبتهم.

(4) رياض يزبك، عودة الفهود القرمزية. مجلة *Mideast Monitor*, Vol. 3 No.2, August 2008

(5) ابن المقتول رفيق الحريري رحمه الله.

(6) أخبر سعد الحريري قادة العلويين في طرابلس: "نحن كلنا لبنانيون ولن نترك أحداً يعبث بنا". نهارنت، بيروت، 7 سبتمبر 2008

الطائفي الدفين لدى العَلَويين في طرابلس ظَهَرَ واضحاً في كلمات القائد **رفعت عيد**: *"نحن أقلية، ونحتاج إلى السلاح قبل الطعام"*[1].

باستغلاله انعدام أمن العَلَويين في طرابلس صَنَعَ نظام **الأسد** وسيلةً مفيدة للتلاعب بمصالحه السياسية اللبنانية، حدثَ مثالٌ يوضح ذلك في أغسطس 1983 عندما كانت الولايات المتحدة تضغط بقوة على دمشق لكي تسحب قواتها من لبنان "انسحبت القوات السورية فجأة مِنْ طرابلس إلى ضواحيها"، وحدَثَ انفجار ضخم في جامع سنّي، واشتعلتْ معارك شديدة بين السنة والعَلَويين[2]. كانت الرسالة المقصودة هي أنّ القوات السورية ضرورية لاستقرار لبنان. يمكن رسم مسار مشابه لذلك في القتال الذي اندلع سنة 2008 عندما حاول **بشار الأسد** أنْ يُثبتَ أيضاً أهمية سورية في استقرار لبنان. يمكن القول أنّ مصالح حكْم عائلة **الأسد** قد استفادتْ مِن تحريض العنف في طرابلس. فأولاً وَحَّدَتْ عصبية العَلَويين بإثارة الخوف الطائفي. كما منَحَتهم الحجة بأنّ أمن واستقرار لبنان لا يمكن تحقيقهما إلا بتدخل سورية.

هناك قلق أمني حقيقي لدى العَلَويين في طرابلس مِنْ تصاعد الآراء الأصولية بين السنة[3]. نقصُ فرص العمل أمام الشباب في طرابلس يمنح شيوخ السلفية أرضاً خصبة لتجنيدهم. علّقَ الصحفي الطرابلسي **فخر الأيوبي** في 2008 قائلاً: *"ينضّم كثير مِنَ الشباب إلى السلفيين منذ شهر مايو، وبعضهم لا يعرف حتى كيف يصلي، ولكنهم يحبذون فكرة قتال العَلَويين"*[4].

في 8 سبتمبر 2008 وقّعَ الزعماء الحكماء للطائفتين العَلَوية والسنّية في طرابلس اتفاقية وقف إطلاق النار[5]. تمّ التوصل إلى هذه الاتفاقية على خلفية نشر

(1) نيكولاوس بلاندفورد Nicholas Blandford طوائف لبنان تسعى لوقف القتال. مجلة *Christian Science Monitor*, 12 September, 2008
(2) انفجار قنبلة في سيارة بلبنان يقتل 19 قرب جامع. نيويورك تايمز 6 أغسطس 1983
(3) رامي خوري، طرابلس تعكس تعقيدات الشرق الأوسط. مجلة Daily Star بيروت، 18 أغسطس 2008
(4) روبرت وورث Robert Worth في الشمال، بيت الصراع الحار في لبنان. نيويورك تايمز 15 أكتوبر 2008
(5) توقيع اتفاقية لإنهاء نزف الدماء في لبنان. AFP فرنسا، 8 سبتمبر 2008 http://afp.google.com/article/ALeqM5jnKXdReKZOXG75K7qn84NYVLp7UA

قوات سورية على الحدود الشمالية بين لبنان وسورية، بل وَرَدَتْ تقارير عن توغّل قوات سورية خاصة داخل لبنان[1]. وهكذا رغم ادعاء **رفعت عيد** أنّ النظام السوري لَمْ يتدخل في اقتتال طرابلس[2]، فإنّ الامتيازات التي حَصَلَ عليها العَلَويون في اتفاق طرابلس، بالإضافة إلى التواجد المكثف للقوات السورية قُرب طرابلس، يدل على دعم السوريين القوي للعَلَويين الطرابلسيين[3]. يبدو أنّ العَلَويين في لبنان قد نظروا إلى حكْم عائلة **الأسد** لضمان أمنهم، ومِنَ الممكن أنّ **رفعت عيد** كان يقصد النظام السوري عندما صرَّح: *"لا تستطيع حمايةَ العَلَويين والأقليات إلا دولة قوية ذات جيش قوي ومؤسسات فاعلة"*[4].

كان ذلك رغم "ثورة الأرز" في لبنان سنة 2005 التي تَجاوزَت الانقسامات الطائفية بطريقة تبدو مفيدة لمصالح العَلَويين السياسية على المدى البعيد. إلا أنّ غياب مؤسسات الاستقرار في لبنان (جزئياً بسبب ما فعله النظام السوري)، وتَصَوُّر وجود تهديد سنّي عنيف، يَدفع العَلَويين في لبنان للتوجه نحو حلفائهم العَلَويين في سورية. وبشكل عام فإنّ الصراع السنّيّ العَلَوي في لبنان يذكّر باحتمال عودة صراع مماثل في سورية، ويحافِظُ على دعم العَلَويين السوريين والتفافهم بقوة حول حصن نظام **الأسد**[5].

في الغجر، القرية العَلَوية الصغيرة في مرتفعات الجولان التي تحتلُّها إسرائيل، يتضح تباينٌ مثير للاهتمام عن العَلَويين اللبنانيين واعتمادهم على حكْم عائلة

(1) لبنان تخشى الغزو بسبب الحشود السورية. جريدة The Australian سيدني. 25 سبتمبر 2008
(2) نهارنت، بيروت 9 سبتمبر 2008
(3) مايكل يونغ Michael Young سورية تدفع المغلف في الشمال. Daily Star 25 سبتمبر 2008
(4) مقابلة مع الصحيفة الكويتية الرأي كما وردت في نهارنت. بيروت. 9 سبتمبر 2008
(5) كانت طرابلس أيضاً ساحة صراع داخلي بين العلويين، ففي السبعينيات والثمانينيات لعب رفعت الأسد دوراً رئيسياً في رعاية الحزب العربي الديموقراطي وميليشياته الفهود القرمزية. بعد سقوطه من السلطة في دمشق ونفيه في 1984 احتفظ رفعت بتواجد في جبل محسن. وإنّ خَطف أحد حلفاء رفعت الأسد، وهو أنور عبود، في طرابلس وربما نقله إلى سورية في 25 ديسمبر 2008، يوضح متابعة رفعت الأسد لنفوذه في طرابلس. انظر: لبنان تحقق في مصير معارض سوري. *Human Rights Watch*, March 25, 2009

الأسد. حسب السكان المحليين فإنّ قرية الغجر، التي بلغ عدد سكانها في 2010 حوالي 2200 نَسَمَة، قد تأسستْ خلال غزو العثمانيين لشرق المتوسط في 1516[1]، وانفصلتْ عن سورية بعد الاحتلال الإسرائيلي لمرتفعات الجولان في 1967. ولأنّ هذه الفئة كانت بعيدة عن نفوذ دمشق في بداية حكم **حافظ الأسد**، فهي تشكّل حالةً جيدة لدراسة العَلَويين غير الخاضعين لعصبية العَلَويين-**الأسد**، والذين يسعون لتحقيق مصالحهم بشكل مستقل. قَبِل العَلَويون في قرية الغجر الجنسيةَ الإسرائيلية في 1981، وحسب بعض المصادر فقد طالبوا بضَمِّ قريتهم إلى إسرائيل[2]. وعلى العكس مِنْ ذلك فقد رفض أغلب عناصر الطائفة الدرزية في مرتفعات الجولان الجنسيةَ الإسرائيلية[3]. يتنقل كثير مِنْ سكان قرية الغجر للعمل في المناطق الصناعية في شمال إسرائيل، وفي بيارات الحمضيات في الجولان، أو في الخدمات الفندقية في حيفا وتل أبيب والقدس[4].

اصطدمتْ جهود ضَمّ قرية الغجر إلى لبنان في 2009 بردّ فعلٍ قوي مِنْ زعماء القرية الذين ضغطوا بشدة على الحكومة الإسرائيلية لإعادة النظر في ذلك[5]. كان العَلَويون في قرية الغجر متخوفين مِنْ قوى حزب الله الإسلامي التي تُسيطر على جنوب لبنان. يبدو أنهم لَمْ يثقوا بأنّ نظام **الأسد** يستطيع حمايتهم مِنْ سلطةٍ مسلحة مسلمة قد تدينهم بالتعاون مع إسرائيل. ولذا فإنّ العَلَويين في قرية الغجر يفضلون حالياً الأمنَ والفرصَ التي تمنحها لهم الجنسية الإسرائيلية. حجّتهم الرسمية للرغبة بالبقاء في الجولان تحت السيطرة الإسرائيلية هي الأمل بالعودة إلى سورية مع بقية الجولان. ولكنْ إذا لَمْ يتخذ العَلَويون في الغجر هذا الموقف فيجب أنْ يتوقعوا

(1) آشر كاوفمان Asher Kaufman دع الكلاب النائمة تكذب. مجلة *Middle East Journal*, Vol. 63. No. 4, (Autumn 2009) صفحة 541

(2) المصدر نفسه صفحة 556. جيروزالم بوست 19 يوليو 2009

(3) أندرو تابلر Andrew Tabler ابن سليمان في الشرق الأوسط. مجلة *Foreign Policy*, September 6, 2010
http://www.foreignpolicy.com/articles/2010/02/02/solomons_baby_in_the_middle_east

(4) قضية هوية إشكالية، الغجر: ثلاثة دول تتنازع قرية واحدة. مجلة *Monday Morning Magazine*, Beirut, Issue No.1968, September 13, 2010

(5) سكان قرية غجر يرفضون الانضمام إلى لبنان. نهارنت، بيروت 22 يوليو 2009

انتقامَ النظام السوري إذا عادت الجولان إلى سورية[1]. هذا النوع مِنَ التحرك العملي بين القوى المتصارعة بحثاً عن أفضل النتائج لضمان أمن العَلَويين، يذكّر بأساليب العَلَويين قبل حكْم عائلة **الأسد**. إلا أنه في سورية حَدَثَ إهمالٌ متزايد لغالبية الطائفة العَلَوية مِنْ جهة الجيل الجديد مِنْ عائلة **الأسد**، وعانوا مِنْ الآثار السلبية للجفاف، فلمْ يتوفر لهم المجال للتحرك العملي. يبدو أنّ مصيرهم قد ارتبط بحكم عائلة **الأسد** التي ستصل في الفترة 2007–2010 إلى نقطة انعطاف حادة في انهيارها السريع.

الخلاصة

باختصار، يبدو أنّ قبول العَلَويين للجيل الثاني مِنْ عائلة **الأسد** قد تناقص عن التأييد العام الذي تمتع به **حافظ الأسد**. عواملُ عديدة أدّتْ إلى ذلك، فأولاً، الإصلاحات السياسية التي قام بها **بشار** في بداية حكمه هددّتْ العَلَويين لأنها فَتَحت المجال أمام الأغلبية السنّية لاستعادة موقعها السياسي في الدولة. عاملٌ آخر أدى إلى تناقص قبول العَلَويين لحكم عائلة **الأسد** هو أنّ الإصلاحات الاقتصادية ابتعدتْ عن السياسة الاشتراكية، وأدّتْ إلى تضخم ثروة المقربين مِنَ النظام، وأهمَلَتْ مصالح العَلَويين العاديين. كما ظَهَر انطباع عام أنّ **بشار** قد تخلى عن جذوره العَلَوية، والذي ثَبّتَ بزواجه مِنْ امرأة سنيّة. أدّت الانقسامات التي ظَهَرتْ في العصبية العَلَوية إلى غياب شخصيات عَلَوية مهمة مثل **غازي كنعان**، مما أدى إلى انخفاض شعبية **بشار الأسد** بين العشائر العَلَوية التي كانت تحظى برعاية وحماية هذه الشخصيات. العامل المؤثر الأخير على تأييد العَلَويين **لبشار الأسد** هو أخطاء سياسته الخارجية التي أثارتْ غيظ المجتمع الدولي وغضبه مِنَ النظام. هددّتْ جميع هذه العوامل بتشقق دعم العَلَويين وتضامنهم. ولكنْ على الرغم مِنْ تزايد خيبة أمل العَلَويين في حكم **الأسد**، لا توجد دلائل تشير إلى استعداد العَلَويين العاديين للتخلي عن حكم عائلة **الأسد**.

(1) أندرو تابلر Andrew Tabler مجلة السياسة الخارجية 6 سبتمبر 2010

الفصل السابع

طبول الثورة
وصمود العصبية الطائفية

شَهدت السنوات السبع الأولى لرئاسة **بشار الأسد** تصاعداً في استياء العَلَويين بشأن طبيعة واتجاه حكمه. حصل معظم العلويين على فوائد مادية محدودة في فترة حكم الجيل الجديد مِنْ عائلة **الأسد**، كما سَمَحَ النظام بتصاعد الأصولية الإسلامية الذي قد تصبح خطيرة، وفَضّلَ الاستعانة بحلفاء خارجيين على العَلَـويين، وأثـارَ غضب المجتمع الدولي. رغم كل ذلك الإجهاد الضاغط على العصبية العَلَويـة، إلا أنّ الخوف الطائفي وعدم الاطمئنان مَنَعَ حدوث أي ضـعف حقيقـي في دعـم العَلَويين لعائلة **الأسد**. يُمَثل ذلك انحرافاً عن النظرية **الخلدونية**، ويُظهِـر صـمودَ العصبية الطائفية.

ما هي نتيجة استمرار دعم العَلَويين لحكم عائلة **الأسد**؟ ربما تعـني الطبيعـة الصلبة للعصبية الطائفية أنه إذا سقط **الأسد**، سقطت الطائفة. ولذا فإنّ اسـتمرار عائلة **الأسد** في المحافظة على حكمها في سورية هو عامل هام في سياسة العَلَـويين. ومثلما وَرَدَ في تقدير **ابن خلدون** عن ضَعف الحكام الذين يُولَـدون في السـلطة والرفاهية، فإنّ العوامل الرئيسية التي يمكن اعتبارها هي ابتعاد **بشار الأسـد** عـن متاعب السوريين العاديين، وثقته الزائدة بشعبيته، وقدرته على المحافظة على وحدة النظام، وانشغاله بالتهديدات الخارجية، بينما ارتفعـت الضـغوط الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية إلى مستويات حرجة في سورية. ذَكَر **عبد الحليم خدام** في مقابلة مع المؤلف أنّ: *"التهديد الحقيقي على **بشار الأسد** هو **بشار الأسد** نفسـه. بما هو عليه. ذلك هو الخطر الذي يجب على كل مستبد مواجهتـه في النهايـة...*

خطر نفسه". أي تهديد للرئيس السوري سواء كان بسبب تصرفاته أو غيرها سيمتد تأثيره إلى العَلَويين الذين قادَهم خوفُهم الطائفي إلى الإيمان بأنّ مصيرهم مرتبط بمصير عائلة **الأسد**.

انشغال النظام بالتهديدات الخارجية

في بداية 2007 ظلّ وضع النظام السوري على المستوى الدولي محفوفاً بالخطر. فقد تابعَت الولايات المتحدة الأمريكية والحكومات الأوروبية والأمم المتحدة ممارسة الضغوط الاقتصادية والسياسية والقانونية على النظام السوري بسبب دوره في زعزعة استقرار لبنان والعراق. كان **بشار الأسد** معزولاً تماماً بين الدول العربية، ولَمْ يبق إلى جانبه سوى حزب الله، وتمّ إنشاء المحكمة الدولية الخاصة بلبنان في هولندا. وفي سبتمبر 2007 تكبَّدَ النظام ضربةً مُهينة عندما اخترَق سلاح الجو الإسرائيلي بسهولة الدفاعات السورية، ودمَّرَ موقعاً يُشتبه بكونه مُنشأة نووية في شمال شرق سورية.

الأهم مِنْ ذلك كله هو انشغال حكم عائلة **الأسد** تماماً منذ اغتيال **رفيق الحريري** بالهرب مِنْ تهديد تحقيقات الأمم المتحدة والقضاء الدولي. ظهَرَ ذلك واضحاً في تصريحات ملك الأردن **عبد الله الثاني** بعد مباحثاته مع **بشار الأسد** في أبريل 2008 حين قال إنّ أكثر قضية تُقلق الرئيس السوري هي تطور تحقيقات الأمم المتحدة، وفيما إذا ستتوفر الحصانة لرؤساء الدول أم لا[1]. انحصر رد فعل النظام السوري على تحقيقات الأمم المتحدة في ناحيتين رئيستين: الأولى في التهديد بجَرِّ المنطقة إلى الفوضى، والثانية في التلاعب بالدبلوماسية الغربية لإخراج النظام مِنْ عزلته الدولية.

هَدَّدَ **بشار الأسد** بعدم التعاون مع تحقيقات الأمم المتحدة، التي يقودها الآن المدعي العام البلجيكي **سيرجي براميرتز** Serge Brammertz إذا تَعَدَّتْ على السيادة السورية[2]. وشجَّعَ نظامُ **الأسد** على خلق الفوضى في لبنان كوسيلة لعرقلة التحقيق.

(1) لا حصانة للأسد في اغتيال الحريري. يالبنان. بيروت 10 أبريل 2008

(2) إيان بلاك Ian Black أمريكا تُطمئن لبنان بينما تَسخر من سورية. الجارديان. لندن. 16 مايو 2007

في 20 مايو 2007 اندلع قتالٌ في مخيم نهر البارد للاّجئين الفلسطينيين قرب طرابلس بين فئة مِنَ المسلحين التابعين للقاعدة تحت اسم **فتح الإسلام**، والجيش اللبناني[1]. وهناك دلائل تشير إلى أنّ المخابرات السورية بقيادة **آصف شوكت** خطّطتْ لذلك الاقتتال. شَهِدَ مواطن لبناني هو **أحمد مرعي** أنه كان وسيطاً بين **شوكت وشاكر العبسي** زعيم مقاتلي فتح الإسلام في نهر البارد[2]. وذَكَرَ تقرير آخر أنّ **آصف شوكت** قد سافر بنفسه إلى ليبيا في يوليو 2007 لطلب أموال مِنَ العقيد **القذافي** لأن تكاليف استمرار القتال في نهر البارد قد ضَغطتْ على الإمكانيات المالية السورية[3].

قد لا يكونُ مِنَ الممكن إثبات أنّ نظام **الأسد** كان مسؤولاً عن القتال في نهر البارد، إلا أنّ خلْق عدم الاستقرار في شمال لبنان كان أحد الأساليب التي استخدَمها النظام مِنْ قبل. ربما كان الهدف في هذه الحالة الأخيرة هو توضيح النتائج التي يمكن أنْ تَحدث إذا استمرَّت المحكمة الدولية الخاصة بلبنان. يؤكد هذا الاستنتاج تقريرُ اجتماع بين **بشار الأسد** والأمين العام للأمم المتحدة **بان كي مون** عُقِدَ بدمشق في 24 أبريل 2007 قبل شهر واحد مِنْ أحداث لبنان. ففي إجابته على ملاحظة الأمين العام عن دور سورية في لبنان، قال الرئيس **الأسد**: *"المجتمع اللبناني هشّ للغاية، وكان في أفضل حالاته السلمية عندما كانت القوات السورية موجودة فيه... والآن هناك عدم استقرار كبير في الدولة. كما أنّ عدم الاستقرار سيشتد إذا أُنشِئت المحكمة الدولية الخاصة، وبشكل أهم إذا أُنشِئت*

(1) رويترز 20 مايو 2007 http://www.alertnet.org/thenews سوريا سورية تنأى بنفسها عن الإسلاميين في لبنان. *Khaleej Times*, May 22, 2007. حركة تقول إن المحكمة الدولية قد تزعزع استقرار لبنان. *Xinhua*, May 31, 2007. سورية تقِر شيعية حرة تتهم سورية بالعنف في شمال لبنان. *Ya Libnan*, May 20, 2007, بأن اضطرابات لبنان تتعلق بتصويت الأمم المتحدة على المحكمة الدولية. *Ya Libnan*, May 22, 2007. جنبلاط: فتح الإسلام في لبنان صُنعتْ في سورية. *Ya Libnan*, May 28, 2007. رئيس وزراء لبنان: سورية تهدد بلدي. التايم 31 مايو 2007. عيد اكتشف العلاقة بين فتح الإسلام وسورية. *Ya Libnan*, Beirut, 26 January, 2008. التخطيط لغزو لبنان. *Middle East Times*, Cairo, November 11, 2008

(2) فتح الإسلام مرتبطة بصهر بشار الأسد. نهارنت. بيروت. 18 يوليو 2007

(3) أبو قيس، هل أفلست الممانعة؟ *Agravox*, France, July 11, 2007

المحكمة تحت البند السابع مِنْ ميثاق الأمم المتحدة[1]. فمِنَ السهولة أنْ يُثير ذلك صراعاً قد يتطور إلى حرب أهلية، وأنْ يُثير انقسامات بين السنّة والشيعة مِنَ البحر المتوسط إلى بحر قزوين"[2].

كان **بشار الأسد** يساوي بذلك بين استمرار الاستقرار الطائفي واستمرار نظامه. أقنع **بشار** كثيراً مِنَ العَلَويين بهذا المنطق، وظَهَر ذلك في تعليقات الشيخ **علي بيرال** للمؤلف في 2011 عندما تنبأ بصراع سنيّ شيعي واسع إذا سقط نظام **الأسد**. رغم تهديد **بشار الأسد** عن احتمال حدوث اضطرابات في استقرار المنطقة، إلا أنّ المحكمة الدولية الخاصة بلبنان قد أُنشِئت تحت البند السابع في 30 مايو 2007[3] بعد عشرة أيام مِنْ اندلاع القتال في مخيم نهر البارد على الساحل اللبناني للبحر الأبيض المتوسط. القتالُ في نهر البارد، الذي جاء تحقيقاً لنبوءة **بشار الأسد** للأمين العام **بان كي مون**، استمر ثلاثة أشهر ولَمْ يتوقف إلا بعد هجوم ساحق قام به الجيش اللبناني في 2 سبتمبر 2007[4].

كان سبب اهتمام عائلة **الأسد** بشأن تطبيق البند السابع مِنْ ميثاق الأمم المتحدة هو شعورهم أنّ الخطر الحقيقي الوحيد على وضعهم في سورية هو التدخل الخارجي. كان النظام واثقاً مِنْ سيطرته على الوضع الداخلي بفضل جهود العَلَويين في الجيش وأجهزة الأمن. ولكنّ الخطوة الأولى التي اتخذها **بشار الأسد** بعد قرار الأمم المتحدة في 30 مايو لَمْ تكن باتجاه طائفته العَلَوية، بل نحو حلفائه الإيرانيين. وصَلَ وزير خارجية إيران **منوشهر متقي** إلى دمشق في 1 يونيو 2007 ليتباحث في الاختيارات المتاحة، ووافق على "التعاون على تحقيق الوحدة والاستقرار في

(1) ينص البند السابع، المادة 42 من ميثاق الأمم المتحدة على أن: "إذا قرر مجلس الأمن أن الوسائل السلمية المذكورة في المادة 41 لن تكون كافية، أو ثبت عدم جدواها، يستطيع القيام باستخدام القوى الجوية أو البحرية أو البرية حسبما يراه مناسباً لضمان الأمن والسلم الدولي".

(2) الأمم المتحدة. تقرير عن اجتماع السكرتير العام مع سيادة الرئيس السوري بشار الأسد، عقد في القصر الجمهوري بدمشق في 24 أبريل 2007

(3) قرار مجلس الأمن S/RES/1757 (2007), 07-36357 (E), adopted, May 30, 2007

(4) سورية تسرع للتصفيق لاحتلال الجيش مخيم نهر البارد. نهارنت. بيروت. 2 سبتمبر 2007

لبنان"[1]، مما يعني بكلمة أخرى العمل معاً للقضاء على أعدائهم في لبنان. تضمّنتْ أساليب إيران وسورية في تحقيق ذلك الهدف شللَ النظام السياسي اللبناني.

تمّ تأجيل الانتخابات الرئاسية اللبنانية التي كانت مقررة في سبتمبر 2007 بسبب الاغتيالات السياسية المتكررة، ومقاطعة الوزراء اللبنانيين المؤيدين لسورية[2]. تأجّلت الانتخابات عشرين مرة قبل التوصل أخيراً إلى اتفاق الدوحة في 21 مايو 2008[3]. منَحَ اتفاق الدوحة امتيازات هامة لحلفاء سورية في لبنان، بما فيها الحق في نقض قرارات الحكومة[4]. وهكذا استعاد حكم عائلة **الأسد** والنظام الإيراني خلال أقل مِنْ سنة بعد اجتماع الأزمة الذي عقدوه في 1 يونيو 2007 فرضَ سيطرتهم السياسية على لبنان.

الاستراتيجية الرئيسية الأخرى التي اتّبعها النظام السوري في التعامل مع التهديدات الخارجية هي التلاعب بالدبلوماسية الغربية. رغم توثيق العلاقات الإيرانية السورية في 2007، أعطتْ سورية إشارات أنها مستعدة للانتقال الاستراتيجي بعيداً عن إيران مقابل تنازلاتٍ مِنَ القوى الغربية والعربية. لَمْ تقتنع الإدارات الأمريكية والفرنسية بالنوايا السورية[5]، إلا أنّ احتمال تغيير استراتيجية سورية وَجَد قبولاً بين أصحاب القرار في إسرائيل الذين شعروا بالقلق بعد أدائهم غير المُقْنِع في حرب لبنان سنة 2006[6]. وبالنسبة إلى سورية فإنّ تجديد محادثات السلام مع إسرائيل قد يفتح المجال

(1) محكمة لبنان على رأس اهتمامات وزير خارجية إيران وسورية الأسد. Ya Libnan, Beirut, 1 June, 2007

(2) تأجيل انتخابات الرئاسة اللبنانية. راديو هولندا 25 سبتمبر 2007. آخر الضحايا هو أنطوان غانم عضو البرلمان المعارض لسورية في 19 سبتمبر 2007 قبل أيام قليلة من الانتخابات المقررة. Daily Star, Beirut, September 20, 2007

(3) مقابلة ميشيل سليمان رئيس لبنان القادم. Ya Libnan, Beirut, May 21

(4) روجر شاناهان Rodger Shanahan حزب الله، السير على حبل مشدود في لبنان. (Sydney: Lowy Institute For International Policy, July 2008)

(5) غلين كيسلر Glenn Kessler رايس تحذر إسرائيل من سورية. واشنطن بوست 30 مايو 2007 رئيس وزراء فرنسا الجديد يقول إن باريس ستواصل تجاهل سورية. Ha'aretz, Israel, May 25, 2007

(6) آدام أنتوس Adam Entous المسؤولون الإسرائيليون: سورية جادة بشأن المحادثات. رويترز 26 مايو 2007. ستيفن إيرلانغر Steven Erlanger بالنسبة لإسرائيل تتزايد أسباب الحوار مع سورية. نيويورك تايمز 27 مايو 2007. مسؤول إسرائيلي رفيع يحض أولميرت للحديث مع الأسد. Ynet, June 3, 2007

أمام **الأسد** لشق صف الإجماع الغربي الذي يحاول إثبات مسؤولية النظام السوري عن الاغتيالات السياسية في لبنان. وبسبب تردد الولايات المتحدة في دخول المباحثات، بدأتْ سورية وإسرائيل محادثات غير مباشرة بوساطة تركية في يونيو 2007[1].

أتاح انتخابُ رئيس جديد لفرنسا في مايو 2007 فرصةً أخرى للنظام السوري للخروج مِنَ الأزمة تحت حماية حلفائه الإيرانيين[2]. نَشرتْ جريدة **الحياة** أنّ الرئيس **ساركوزي** قد تلقّى بعد انتخابه رسالة مِنْ طهران تعرض على فرنسا فرصة استعادة بعض نفوذها الذي فقَدَته في شرق المتوسط، وأنْ تلعب دوراً هاماً في مبادرات السلام الإقليمية[3]. أدركتْ إيران طموح الرئيس الفرنسي اليميني الجديد ورغبة فرنسا المستمرة بلعب دور في شرق المتوسط، وسَعَتْ إلى تفكيك التحالف الدولي ضد حلفائهم السوريين.

ولَمْ تكنْ فرنسا أولَ مَنْ كَسَرَ الحصار الدبلوماسي الغربي على سورية، ففي أوائل يونيو 2007 سافر وزير خارجية إيطاليا **ماسيمو ديلما** Massimo D'Alema إلى دمشق لبحث أحداث لبنان واحتمال أنْ تحاول المحكمة الدولية استجواب مشتبه بهم وَجّهتْ لجنة تحقيق الأمم المتحدة إليهم اتهاماتها[4]. رغم أنّ المحادثات لَمْ تتقدم جيداً، وتوقفتْ بسبب طلبات إيطاليا مِنْ سورية التوقف عن التدخل في شؤون لبنان[5]، إلا أنّ أهمّ ما نتجَ عن تلك المحادثات هو دعمٌ لا يُقدَّر بثمن لحكْم عائلة **الأسد** وإعادة الاتصالات الدبلوماسية.

(1) تقارير: أولميرت أرسل رسائل سلام إلى سورية عبر تركيا. Today's Zaman, Istanbul, June 9, 2007. مسؤولون أتراك ينفون الوساطة في محادثات إسرائيلية سورية. Today's Zaman, Istanbul, June 14, 2007. الأسد: إسرائيل وسورية تتحادثان عبر دولة ثالثة. Ha'aretz, Israel, July 19, 2007

(2) البيت الأبيض يرحب بانتخاب ساركوزي في فرنسا. MSNBC, May 7, 2007

(3) ورد في محادثات أمريكا وإيران: هل تحاول إيران وراثة سورية في لبنان؟ Ya Libnan, May 28, 2007

(4) وزير الخارجية الإيطالي يزور سورية الاثنين لبحث قضية لبنان. Xinhua, China, June 04, 2007. سورية تفرق بين لجنة تحقيق الحريري والمحكمة. Xinhua, June 6, 2007

(5) سورية تأمر خلاياها في لبنان بقتل أربعة لبنانيين مرموقين. Ya Libnan, Beirut, 11 June, 2007

في بداية يوليو 2007 ظهرتْ دلائل تغير في أسلوب الحكومة الفرنسية والطريقة المتشددة ضد سورية وحلفائها[1]. ومع نهاية يوليو أرسَلتْ فرنسا وفداً إلى دمشق وطهران يحمل رسالة: "*لن تتكرر مثل هذه الزيارات في المستقبل إلا إذا شاهدتْ فرنسا تغييراً حقيقياً بسلوك سورية في لبنان والمنطقة*"[2]، إلا أنّ المسيرة الدبلوماسية تتابعت بوصول وفدٍ اسباني إلى دمشق في أغسطس 2007[3]. وبهذه الطريقة خرج حكْم عائلة **الأسد** تدريجياً مِنْ عزلته في 2005-2006.

تكبَّدَ النظام السوري في 6 سبتمبر 2007 خسارة أخرى. فقد قامَتْ 8 طائرات إسرائيلية بقصف موقع عسكري في شمال شرق سورية، اعتقد الإسرائيليون أنه يحتوي على مُنشأة نووية[4]. وضّحَت الصور ضعف النظام في وجه العدوان الإسرائيلي. اعتمَدتْ شرعية **بشار الأسد** بقوة في الداخل على "المقاومة والصمود" ضد العدو الإسرائيلي، ولذلك استغلّ زعماء المعارَضَة الفرصة للتأكيد على ضعف النظام. صرَّحَ **عبد الحليم خدام** بعد الهجمة بقليل: "*النظام السوري لا يستطيع الرد على ما فعلته إسرائيل ولا يستطيع الدفاع عن سورية. **بشار الأسد** لا يستطيع فعل أي شيء ما عدا قمع الشعب السوري*"[5].

فاجأ العدوانُ الإسرائيلي النظامَ السوري لأنّ رئيس الوزراء الإسرائيلي **إيهود أولميرت** كان يبدو مستجيباً بشكل إيجابي للمقدمات السورية في مباحثات السلام عبر القنوات التركية[6]. حرَّكَ النظام بعض قواته الاحتياطية خلال أيام بعد الضربة

(1) نهاية سياسة شيراك الداعمة للمسيحيين؟ Ha'aretz, Tel Aviv, July 15, 2007

(2) فرنسا تخبر سورية وإيران: أوقفوا الرهان على اتفاقية في لبنان. Ya Libnan, Beirut, July 21, 2007

(3) وزير الخارجية الاسباني يحمل رسالة إيجابية من سورية إلى أولميرت. Ha'aretz, Israel, August 06, 2007

(4) واشنطن ترفض التعليق بعد أن أطلقت سورية النار على طائرات إسرائيلية. AFP, Washington, Sep 6, 2007

(5) نائب الرئيس السوري السابق: الأسد نكتة. Jerusalem Post, 'September 20, 2007

(6) وزير الخارجية الاسباني يحمل رسالة إيجابية من سورية إلى أولميرت. Ha'aretz, Israel, August 06, 2007

استعداداً للدفاع ضد هجمات إسرائيلية أخرى[1]. في الواقع كانت سورية لا تستطيع الدفاع ضد الهجمات الإسرائيلية التقليدية. أبرزَت الضربة حقيقة أنّ حكم عائلة **الأسد** قد اهتم بدعم مصالح حزب الله وإيران على حساب القدرات العسكرية السورية، وقد توافقتْ ملاحظات المؤلف في 2009–2011 مع هذا التقييم، فقد كانت الآليات العسكرية المرئية في سورية متهالكة بشكل عام، ويبدو عمرها عشرون أو ثلاثون سنة على الأقل، على العكس مِنَ التسليح الجيد لحزب الله في جنوب لبنان[2].

كان إهمالُ القوات المسلحة السورية مصدرَ استياء للعَلَويين مِنْ حكم **بشار الأسد**. رغم أنّ **حافظ الأسد** كاد أنْ يُفلس الاقتصاد السوري في محاولاته لتحديث الجيش السوري في الثمانينيات[3]. إلا أنّ ذلك كان متوافقاً مع اعتقاد العَلَويين بأهمية دورهم في حماية طائفتهم وحماية سورية، ولكن في أواخر 2007 يبدو أنّ عائلة **الأسد** وزّعَت المصادر والمخصصات على جهتين: زيادة ثروة المقربين مِنَ العائلة، وتموين حليفها حزب الله في لبنان. بإعطاء الأولوية للحلفاء الخارجيين على طائفته خاطَرَ النظام باستعداء كبار العَلَويين في أجهزة الأمن. وبشكل عام فقد كان ضَعف نظام **الأسد** في وجه العدوان الإسرائيلي اختباراً مؤلماً لثقة العَلَويين **ببشار الأسد** وقدرته على حماية لمصالحهم.

في هذا السياق نفسه فإنّ ادعاء المعارضة السورية أنه في أواخر أكتوبر 2007 تظاهَرَ عَلَويون في اللاذقية ضد أداء **بشار الأسد** يبدو معقولاً. ووفق بعض التقارير رَفَع بعضُ المتظاهرين صور **رفعت الأسد**[4]. رغم السمعة السيئة والأساليب

(1) تقرير: سورية تستدعي قوات الاحتياط بعد الضربة الإسرائيلية. *Al-Bawaba*, Amman, September 9, 2007

(2) الأمم المتحدة تقول إن تسليح حزب الله قد تضاعف ثلاث مرات. *UPI*, Washington, October 31, 2007

(3) حازم قنديل، تحدي إعادة التشكيل: السياسة الخارجية السورية. *UPI*, Washington, October 31, 2007 تحرير كوراني ودسوقي (القاهرة، مطبعة الجامعة الأمريكية، 2009) صفحة 428

(4) عمار عبد الحميد 3 نوفمبر 2007 http://tharwacommunity.typepad.com/amarji/2007/11/index.html
انظر أيضاً: صور رفعت الأسد في سورية. أكتوبر 2007. *You Tube*, http://www.youtube.com/watch?v=X_yyPooueMg&feature=player_embedded

المتطرفة **لرفعت الأسد** إلا أنه ربما ذُكِرَ كمدافع عن مصالح العَلَويين أقوى مِنْ **بشار الأسد**، فقد هَزَمَ الإخوان المسلمين مِنْ قبل. ومِنَ المفارقة أنه عندما عبَّر العَلَويون عن سخطهم مِنْ نظام **الأسد** في اللاذقية سنة 1979، كان **رفعت الأسد** هو الذي أُرْسِل لقمع تذمرهم. وفي 2007 كان **آصف شوكت** هو الذي تمّ تكليفه بقمع المتظاهرين، وألقى القبض على كثير منهم.

رغم مظاهر الانزعاج في الطائفة العَلَوية، ظلّ تركيز **بشار الأسد** الرئيسي على المحكمة الدولية[1]. تمّ التشكيل الرسمي للمحكمة الدولية في مارس 2008 وتَحدَّد مكانها في هولندا، وتمّ تعيين القضاة والمسجلين والمدعي العام[2]. وفي أبريل 2008 اختفى مِنْ باريس **محمد زهير الصديق**، أحد أهم شهود التحقيق، وتمّ نَهبُ منزل القاضي **رالف رياشي** الذي انتدب إلى المحكمة الدولية في بيروت مرتين[3]. مُخبِرٌ آخر في التحقيقات المبكرة للجنة التحقيق هو **زياد واصف رمضان** سُجِنَ في سورية ولَمْ يُسمع منه خبر منذ سبتمبر 2007[4]. ليس مِنَ المؤكد تورطُ النظام السوري في هذه الحوادث، إلا أنّ هذا الاحتمال لا يمكن إغفاله.

زادتْ تطوراتُ القضايا القانونية ضد الرئيس السوداني **عمر البشير** مع محكمة الجنايات الدولية في 2008 قلقَ الرئيس السوري بشأن المحكمة الدولية. فقد كان الاتهام الرسمي **للبشير** في مارس 2009 سابقةً بأنّ الرؤساء ليس لديهم في الواقع أية حصانة في القضايا الدولية[5]. أصدرَت الخارجية السورية فوراً تصريحاً وضّح قلقَ **بشار الأسد** من هذه التطورات:

(1) مسؤول في الأمم المتحدة: مازالت سورية متهمة باغتيال الحريري. *Ha'aretz*, Israel, March 31, 2008

(2) المحكمة الدولية الخاصة باغتيالات لبنان تصل مرحلة الانطلاق–تقرير الأمم المتحدة. *UN News Centre*, March 18, 2008

(3) لصوص يدخلون مرة أخرى منزل قاضي يعمل في قضية الحريري. *Daily Star*, Beirut, April 23, 2008

(4) سورية تفصح عن مصير سجين في قضية الحريري. *Human Rights Watch*, June 23, 2009. شاهد في قضية الحريري يُسجن أربع سنوات في سورية دون اتهام. *Amnesty International*, July 20, 2009

(5) طريقة وسطى للعدالة في السودان. الايكونوميست. 11 ديسمبر 2008

"*نظر سورية بقلق... بشأن مذكرة إلقاء القبض على الرئيس السوداني* ***عمر البشير****، وأنّ قرار إصدارها هو سابقة خطيرة تتجاهل حصانة رؤساء الدول وقرارات مؤتمر فيينا... وتضر بسيادة السودان، وتُعتَبر تدخلاً سافراً في شؤونها الداخلية*"[1].

لتجنب تهديد المحكمة الدولية حرَّكَتْ عائلة **الأسد** أصولها الاستراتيجية الرئيسية: دورها في محادثات السلام العربية مع إسرائيل، وسياسة لبنان الداخلية. أُعلِنَ رسمياً عن محادثات السلام غير المباشرة بين سورية وإسرائيل بوساطة تركية في 21 مايو 2008[2]. وبالتوازي مع ذلك الإعلان، بل وفي اليوم نفسه، تمّ توقيع اتفاقيات الدوحة تحت رعاية سورية. وأخيراً حَرَّكتْ تلك الاتفاقية الشلل السياسي في لبنان، ولكنها منَحَتْ حزب الله امتيازات كبيرة في السياسة اللبنانية[3].

على المستوى الدولي ثَبتَ أنّ هذه التحركات السورية كانت عملاً دبلوماسياً بارعاً، فقد كانت لها نتائج مباشرة على السياسيين الليبراليين في أمريكا الذين تَصوروا أنها تُثبتُ القدرة البناءة والنوايا الحَسنة للنظام السوري[4]، وكان ذلك مشجعاً جداً للنظام السوري بالنظر إلى الانتخابات الرئاسية القادمة في الولايات المتحدة واحتمال فوز الحزب الديموقراطي. وفجأة أصبح المرشح الرئاسي **باراك أوباما** شخصيةً محبوبة في دمشق[5].

بَدَتْ علامات الهدوء تظهر في حيويةِ ونشاط الجهود الدولية لتحقيق العدل، ففي يناير 2008 انتقدَ رئيس المحققين السابق في لجنة تحقيق الأمم المتحدة القاضي **ديتليف ميليس** عَدَمَ التقدم في التحقيقات تحت إشراف **سيرجي براميرتز**

(1) جريدة الثورة. دمشق. 6 مارس 2009. ترجمة Memri, available at http://www.thememriblog.org/blog_personal/en/14406.htm
(2) إسرائيل وسورية تعترفان بمحادثات غير مباشرة في تركيا. CNN 21 مايو 2008
(3) اتفاق بين الفرقاء اللبنانيين يجعل حزب الله أكثر قوة. نيويورك تايمز 22 مايو 2008
(4) جون كيري John Kerry وتشك هاغل Chuck Hagel حان الوقت للحديث مع سورية. *Wall St, Journal*, New York, June 5, 2008
(5) جوديث ميلر Judith Miller جنون أوباما في دمشق، *City Journal*, New York, vol. 19, no.14, June 3, 2008

Serge Brammertz. وفي مايو 2009 أخبَرَ **ميليس** المؤلف أنه: "*لا يتوقع صدور أي اتهام بالقتل ضد النظام السوري في المستقبل القريب*"[1]. وفي نوفمبر 2010 بدا أنّ النظام السوري قد تَجنَّبَ كل اتهام مباشر مِنَ المحكمة الدولية التي يبدو أنها قد ركَّزَتْ شكوكها على حزب الله[2].

اتضَح تطورٌ إيجابي آخر على الصعيد الدولي بالنسبة لحكْم عائلة **الأسد** في دعوة **بشار الأسد** إلى قمة اتحاد دول البحر الأبيض المتوسط التي استضافها الرئيس الفرنسي **نيقولا ساركوزي** في باريس بتاريخ 13 يوليو 2008[3]. تلك كانت أول زيارة يقوم بها الرئيس السوري لدولة غربية منذ اغتيال **رفيق الحريري** سنة 2005. ويبدو أنّ **بشار الأسد** قد أعجَبَ **نيقولا ساركوزي** لأنه دُعِيَ للبقاء في باريس كضيفٍ خاص في احتفالات يوم الباستيل في 14 يوليو[4]. اعتَبَر كثيرٌ مِنَ المراقبين ذلك الحَدَث كرمز هام على إعادة تأهيل **بشار الأسد** في المجتمع الدولي وانتهاء عزلة سورية[5]. هذه الانتصارات على الصعيد الدولي كانت هامة في إنقاذ حكم عائلة **الأسد** مِنْ أزمته، إلا أنها شَحَنَت التحديات الداخلية المتزايدة بين أفراد النخبة في النظام السوري، وبشكل أعمق في المجتمع السوري.

تَصَدُّع العصبية بين أفراد النُخبة في عائلة الأسد

تَعرَّضَتْ قدرة **بشار الأسد** على الاحتفاظ بتماسك العصبية العَلَوية لامتحانات قاسية في النصف الأول مِنْ سنة 2008، فبعد مظاهرات العَلَويين باللاذقية في أكتوبر 2007 ظَهَرَ شقاق قرب القمة في عائلة **الأسد** سنة 2008 بشكل سلسلة مِنَ الاغتيالات والأحداث غير العادية في سورية. استَنَدتْ عصبية

(1) ديتليف ميليس في مقابلة مع المؤلف 12 مايو 2009
(2) نيل ماكدونالد Neil MacDonald تحقيقات CBC: من قتل اللبناني رفيق الحريري؟ *CBC News*, Canada, November 21, 2010. نشر الاتهامات وأدلتها. المحكمة الدولية الخاصة بلبنان Leidschendam, August 17, 2011
(3) اتحاد البحر الأبيض المتوسط يعقد قمته في باريس. رويترز 13 يوليو 2008
(4) رُفعت المقاطعة باستضافة فرنسا للرئيس السوري. الغارديان 12 يوليو 2008
(5) انظر مثلاً: الأعمال الدبلوماسية البارعة. *Oxford Analytica*, UK, July 31, 2008

العَلَويين العاديين إلى قدرة النظام على ضمان أمْن الطائفة. وحسب **عبد الحليم خدام** نشأ الصِّدام داخل النظام بسبب: "*مصالح شخصية وحصص توزيع الأموال*"(1).

أدى التوتر أثناء محاولة النظام تجنب التهديدات الخارجية إلى إجهادٍ كبير على وحدته وتماسكه. في العقد الأول مِنَ القرن الحادي والعشرين أصبح **آصف شوكت**، صهر **بشار الأسد** أقوى وأكثر نفوذاً، بصورة تُذَكِّر بالدور الذي قام به **رفعت الأسد** في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات. يعكس ذلك رأي **ابن خلدون** بأنّ: "*سيطرة آخرين على الحاكم يمكن أنْ تحدث في السلالات الحاكمة*". يمكن كشف تأثير **شوكت** في كثير مِنْ قرارات **بشار** الهامة، مثل رد فعل النظام على غزو الولايات المتحدة للعراق، واحتمال التورط في اغتيال **رفيق الحريري**، والاستراتيجيات التي استُخدِمتْ لإخراج النظام مِنْ عزلته. وحسب وصف **عبد الحليم خدام** فإنّ **آصف شوكت** شخصٌ طَموح جداً، كما أنّ سلوكياته تدل على أنه عنيف ومستعد للقيام بخطوات جذرية لتحقيق أهدافه، بما فيها استغلال "المزاج غير المستقر" **لبشار الأسد**(2). ادعى مسؤول لبناني مثلاً أنّ **شوكت** أراد جرَّ إسرائيل إلى حرب مع سورية وحزب الله في سبتمبر 2007(3).

ينتمي **آصف شوكت** إلى عائلة صغيرة وليس له قاعدة قوية حقيقية في الطائفة العَلَوية(4)، ويَنبع نفوذه بشكل أساسي مِنْ قرابته بعائلة **الأسد**. ومِنْ ناحية أخرى يَدين **بشار الأسد** لصهره بسبب الدعم الحاسم الذي قَدَّمه **آصف شوكت** في بداية حكمه، وضرورة تكريمه مِنْ باب الولاء لأخته **بشرى**. ولكنْ في 2008

(1) عبد الحليم خدام في مقابلة مع لي سميث Lee Smith صفقة دمشق القاتلة. New Republic, November 14, 2008

(2) أيد القاضي ميليس هذا التقييم في تحقيقاته سنة 2005 في مقابلة مع المؤلف. كما أن مسؤولاً سوريا كبيرا انتقل إلى الإمارات العربية المتحدة أيد وجهة النظر هذه. انظر مسؤول عربي: جنرال سوري يفكر بالحرب مع إسرائيل. Ynet, Israel, August 14, 2007

(3) مسؤول عربي: جنرال سوري يفكر بالحرب مع إسرائيل Ynet, Israel, August 14, 2007

(4) مايكل سلاكمان Michael Slackman الخوف من عراق في سورية بعد الأسد. نيويورك تايمز 6 نوفمبر 2008

اتَّخذ التأثير القوي **لآصف شوكت** على السياسة السورية اتجاها آخر.

في يناير 2008 استمرتْ سلسلة الاغتيالات السياسية وعدم الاستقرار في لبنان ففي 16 يناير استُهدِفتْ سيارةٌ للسفارة الأمريكية بقنبلة(1)، وفي 26 يناير اغتيل **وسام عيد** رجل المخابرات اللبنانية الذي قام باختراق هام في تحقيقات **الحريري**(2).

في تلك الفترة انتَقَل العنف إلى سورية، ففي 12 فبراير 2008 انفجَرتْ سيارة بدمشق وقَتلتْ **عماد مُغْنِيّة**، قائد عمليات رئيسي في حزب الله(3). كان رد الفعل الأول مِنْ حزب الله هو غَضبٌ شديد ضد إسرائيل، وصرَّحَ **حسن نصر الله**: "*لقد قتلتموه خارج أرض معركتنا الطبيعية، فأرض معركتنا هي لبنان، وقد قتلتموه عبر الحدود*"(4). لو كانت إسرائيل هي المسؤولة فعلاً فسيشكّل الاغتيال اختراقاً هاماً لأمن سورية الداخلي. ولكنّ إسرائيل نَفَتْ مسؤوليتها عن العملية، ويجب البحث عن نظريات أخرى(5).

تفاصيل اغتيال **مُغْنِيّة** مازالت مجهولة، ولكنْ مِنَ المحتمل أنّ أحد أفراد النخبة العَلَوية المستائين الذين تم استبعادهم لصالح الإيرانيين وحزب الله قد حاول تغيير الوضع الراهن في دمشق. في هذا السياق ربما يكون **آصف شوكت** قد خطّط الاغتيال. وهناك بعض الأدلة التي تشير إلى أنّ **آصف شوكت** قد قرّر، مثلما فعل **رفعت الأسد** في انقلاب 1983، أنْ يتخلص مِنْ **بشار الأسد**، إلا أنّ **عماد مُغْنِيّة** اكتَشَفَ مخططاته(6). وتدَّعي تقارير أخرى أنّ **آصف شوكت** قد تَعَدّى حدوده

(1) مقتل ثلاثة بقنبلة كانت موجهة إلى سيارة للسفارة الأمريكية. Daily Star, Beirut, January 16, 2008

(2) نيل ماكدونالد Neil MacDonald من قتل رفيق الحريري بلبنان؟ CBC News, November 21, 2010. اكتشف عيد العلاقة بين فتح الإسلام وسورية. Ya Libnan, Beirut, January 26, 2008

(3) اغتيال عماد مغنية في دمشق. Daily Star, Beirut, February 14, 2008

(4) حزب الله يعلن حرباً مفتوحة على إسرائيل. Sydney Morning Herald, February 15, 2008

(5) نهارنت. بيروت. 6 ديسمبر 2008

(6) Die Welt, Germany, June 7, 2008 ورد في غاري غامبل Gary C. Gambill السقوط الغريب لآصف شوكت. Mideast Monitor, Vol.3, No.2, August 2008. انظر أيضاً: تقارير ألمانية: صهر الأسد يحاول الانقلاب. Ynet, Israel, July 6, 2008

بالاجتماع وحده مع ممثلٍ للولايات المتحدة الأمريكية في أنقرة لبحث اتفاق يتم فيه وقف دعم سورية لحزب الله مقابل تجميد المحكمة الدولية[1]. وربما أدى ذلك إلى ظهور مشكلة كبيرة بين **شوكت ومُغْنِيَّة**.

وعلى كل حال فإن اغتيال **مُغْنِيَّة** كان محرجاً **لبشار الأسد**[2]، وزاد في ذلك الحرج أنّ وزير خارجية إيران **منوشهر متقي** كان قادماً إلى دمشق في اليوم التالي[3]، كما أنّ وفداً أمريكياً يضم **زبيغنيو برزينسكي** Zbigniew Brzezinski مستشار السياسة الخارجية لمرشّح الرئاسة الأمريكية **باراك أوباما** كان في دمشق آنذاك[4]. إلا أنّ **بشار الأسد** كان مصمماً على إنقاذ العلاقات الجيدة مع حلفائه في حزب الله وإيران على حساب مستشاره الخاص وقريبه **آصف شوكت**.

قام **حافظ مخلوف** ابن خال **بشار الأسد** بإجراء التحقيق في اغتيال **مُغْنِيَّة**، بينما وُضِعَ **شوكت** جانباً، وحسب بعض التقارير أنه وُضِعَ قيد الإقامة الجبرية بمنزله في أبريل 2008[5]. وعندما أُفرج عنه أُعطي دوراً شكلياً كرئيسٍ لمجلس مُختلَق هو مجلس الأمن القومي[6]. ومِنَ المهم ملاحظة أنّ سلسلة الاغتيالات في لبنان التي كانت مستمرة منذ 2005 قد توقفتْ في الفترة التي يُفترض فيها تنحية **شوكت**[7]. لمْ تكن تلك نهاية سيرة **شوكت** أو نهاية الصراع الداخلي في النخبة العَلَوية لحكم عائلة **الأسد**.

في مساء 1 أغسطس 2008 اغتيل العميد العَلَوي **محمد سليمان** على يد قناص في المدينة الساحلية طرطوس. كان **سليمان** أكبر المساعدين الأمنيين **لبشار الأسد**

(1) شيء ما يحدث في دمشق. *Middle East Times*, Cairo, April 14, 2008

(2) تحدث دبلوماسي أوروبي في دمشق آنذاك عن الحرج الشديد لأجهزة الأمن السورية. انظر: الحرب السرية مستمرة. *Ynet*, Israel, October 19, 2009

(3) وزير خارجية إيران يبحث مستقبل لبنان مع سورية الأسد. *Iran Focus*, Tehran, February 11, 2008

(4) مستشار كلينتون يقابل رئيس سورية. *New York Sun*, February 15, 2008

(5) غازي غامبل Gary C. Gambill السقوط الغريب لآصف شوكت. *Mideast Monitor*, Vol.3, No.2, August 2008.

(6) المصدر نفسه. أكد عبد الحليم خدام للمؤلف في 2009 أن آصف شوكت قد عزل عن مناصبه في 2008

(7) يستثنى من ذلك اغتيال السياسي الدرزي صالح عريضي في سبتمبر 2008

والمسؤول عن البرامج الخاصة الحساسة[1]. أخبَرَ **عبد الحليم خدام** المؤلفَ أنّ **محمد سليمان** كان مسؤولاً عن المشروع النووي المشكوك به والذي دمّرته إسرائيل في 2007. وحسب **خدام** فقد قُتِلَ **سليمان** على يد النظام السوري بسبب معلوماته عن ذلك المشروع، أي أنه *"كان الرجل الذي يعرف كثيراً"*. وقد أعاق الاغتيال فعلاً سَيْرَ تحقيقات المنظمة الدولية للطاقة النووية بشأن المشروع النووي السوري المُفترَض[2]. ولكنْ هل كان ذلك سبباً كافياً لقتل أقرب مساعدي **بشار الأسد؟**

يجب الأخذ بعين الاعتبار أنّ **محمد سليمان** ربما كان ضحيةَ صراعٍ على السلطة حَدَثَ بين الكبار في حكْم عائلة **الأسد**. أحداثٌ أخرى هامة في هذا السياق ترجّحُ هذا الاحتمال، ففي سبتمبر 2008 سُحِبَ **هشام اللبابيدي** مِنْ سيارته وقُتِل، وكان أكبَرَ مُساعِدِي **خالد مشعل** الزعيم السياسي لحركة حماس بدمشق[3]. بعدها بأسبوعين في 27 سبتمبر 2008 انفجرتْ سيارة ملغّمة في دمشق قرب فرع فلسطين للأمن العسكري في حي السيدة زينب. قُدِّرَتْ قوة التفجير بحوالي 200 كغ مِنَ المتفجرات، وقتلتْ 17 شخصاً بمَنْ فيهم ضابط كبير هو العميد **عبد الكريم عباس** وابنه[4]. ومِنَ المهم أنّ رئيس فرع فلسطين للأمن العسكري **سليمان ديوب** هو حليف مقرَّب مِنْ **آصف شوكت**[5].

كان انفجار 27 سبتمبر بدمشق الحدثَ الأخير في سلسلة الاغتيالات داخل سورية التي بدأتْ **بعماد مُغْنِيّة** في فبراير 2008. ومنذ ذلك الوقت يبدو أنّ

(1) برقية سفارة الولايات المتحدة بدمشق. 3 أغسطس 2008 (ويكي ليكس)

(2) رئيس المنظمة الدولية للطاقة النووية محمد البرادعي يصرح أن التحقيق في النشاط النووي قد تأخر بسبب اغتيال رجل اتصاله في سورية. *AFP*, France, September 26, 2008. انظر أيضاً جريدة *Wall St. Journal*, November 29, 2008

(3) اغتيال كبير مساعدي حماس في سورية. *The Australian*, Sydney, September 17, 2008

(4) سورية تبحث عن مفجرين بدمشق. *AFP*, France, September 27, 2008. قنبلة سيارة بدمشق تقتل 17 شخصاً. *BBC*, London, September 27, 2008. هل استهدف تفجير دمشق ضابط مخابرات سوري مرتبط بجريمة الحريري؟ *Naharnet*, Beirut, September 29, 2008 قنبلة سيارة قاتلة تصيب دمشق. *The Times*, London, September 27, 2008

(5) ضابط سوري كبير بين ضحايا الانفجار. *Jerusalem Post*, September 28, 2008

الاضطرابات الداخلية ومصاعب النظام قد هدأتْ. أصبح دور **آصف شــوكت** في النظام أقل بروزاً بعد تفجيرات دمشق، مما يدل على أنه قد قبِلَ بسيادة نسيبه **بشار الأسد**. وربما لَمْ يَتلقَ **آصف شوكت** مصيراً أسوأ مِنْ مجرد تخفيض مرتبته بسـبب تأثير **بشرى** على أخيها **بشار**.

استغلّ **بشار الأسد** تفجيرات 27 سبتمبر، التي حَدَثتْ في دمشق لأول مـرة منذ 27 سنة، مثلما استغل تمرد الأكراد سنة 2004، في التأكيد على ضرورة تجنب أي اضطرابات سياسية في سورية. وَجَّهَ **الأسد** اللومَ في تلك الأحداث على أعدائه مِنْ فريق 14 مارس في لبنان، وأنهم خططوا الأحداث بالتآمر مع الجماعة السـنيّة المتطرفة فتح الإسلام[1]. مَنَحَ ذلك النظامَ السوري الحجةَ للتـدخل في الشـؤون الداخلية للبنان لحماية الأمن السوري الداخلي[2]. وباتهـام جماعـة الإسـلاميين المتطرفين الناشئة في شمال لبنان تمّ تذكير العَلَويين بالتهديد المسـتمر "للإرهـابيين الإسلاميين" على أمنهم وسلامتهم في الوقت المناسب[3]، مما ساعَدَ على تماسـك عصبية العَلَويين الطائفية.

هذا النوع مِنَ التنافس على غنائم السلطة في نُخبة النظام يَتوافَقُ مع مفـاهيم **ابن خلدون** عن الفئة الحاكمة في مرحلة الفساد والانحلال وضعف العصبية. مِـنَ المهم التأكيد على الفصل بين نُخبة العَلَويين وبقية العَلَويين العاديين، لأنّ ضَـعف تماسك النُخبة في حكْم عائلة **الأسد** يتناقض مع ثبات العصبية العَلَوية العامة. يَتّفِقُ سلوك الفئة الأولى مع الإطار **الخلدوني** لتناقص العصبية في الـدول والممالـك، في حين أنّ استمرار الخوف الطائفي وعدم الاطمئنان بين العَلَويين العاديين، وهو عامِلٌ لَمْ يَعتَبِره **ابن خلدون**، أدى إلى ثبات تأييدهم لعائلة **الأسد**. يمكن رَسْـم مَشـهد مماثل فيما فَعَله **رفعت الأسد** ضد أخيه الأكبر في 1984 عنـدما ظلّـتْ أغلبيـة

(1) التليفزيون السوري يعـرض رجـالاً يعترفـون بمجمـات السـيارات المفخخـة. *AFP*, Damascus, November 6, 2008

(2) وكالة الأنباء السورية. دمشق 29 سبتمبر 2008. ديلي ستار. بيروت. 30 سبتمبر 2008. أخبار الخليج. الإمارات العربية المتحدة. 1 أكتوبر 2008

(3) طـوني بـدران Tony Badran منقسـمون يقفـون: المعارضـة السـورية. مجلـة *Mideast Monitor*, Vol. 1, No.3, September-October 2006

العَلَويين موالية **لحافظ الأسد**. وبشكلٍ عام إنّ شعور الطائفة العَلَوية بالخوف وعدم الاطمئنان استمرَّ بكونه رصيداً سياسياً هاماً لعائلة **الأسد**.

الثقة المُفرِطة لدى بشار الأسد

اقترَحَ **ابن خلدون** أنّ: *"المرحلة الثانية يكون فيها الحاكم... مهتمـاً بتجميـع الخلصاء والرعايا والأتباع بأعداد كبيرة"*. [ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيـاً باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع والاستكثار مِنْ ذلك]، وبكلمة أخرى فـإنّ الحاكِم الذي وَرِثَ السلطة يسعى للحصول على إعجاب الجماهير، ويكون مُعرَّضـاً لأوهام العظمة. عندما واجَهَ **بشار الأسد** التحديات المتعددة ازدادتْ ثقته بنفسـه، إلا أنّ هذه الثقة المفرطة تَطوّرتْ إلى انفصاله بشكل خطير عن السوريين العـاديين، بمَـنْ فيهم العَلَويين، وإلى عدم انتباهه إلى الضغوط الاجتماعية والسياسية التي أخَذَتْ تتراكم في المجتمع السوري. وكان مِنَ الأسباب الرئيسية لغطرسة **بشار الأسد** هو موقفـه في حرب غزة سنة 2009، وانتصاراته الظاهرية ضد أعدائه في الداخل والخارج.

في 27 مايو 2007 أُعيد انتخاب **بشار الأسد** كرئيس لمدة 7 سنوات بنسـبة 97.29% مِنَ الأصوات. كان المرشّحَ الوحيد، مثلما كان حالـه في الانتخابـات السابقة[1]. اقترَحَ **دافيد ليش** David Lesch، الباحثُ في شؤون الشرق الأوسـط الذي تواصل شخصياً مع **بشار الأسد**، أنّ ثقة الرئيس بنفسه بدأتْ تتزايـد بعـد الانتخابات الرئاسية في 2007. لاحَظَ **ليش** في **بشار الأسد** *"تعابير السرور بـأنّ الشعب يحبه فعلاً"*[2]. يجب ملاحظة أنّ أغلب الذين صَـوّتوا بـالرفض كـانوا يَسكنون خارج سورية، أو أنّ المخابرات قبضَتْ عليهم فوراً. فمثلاً قيل أنّ شخصاً اسمه **مصباح علاء الدين** مِنْ منطقة اللاذقية قد تمّ القبض عليه بعد أنْ صَوَّتَ بـلا على تجديد رئاسة **بشار الأسد**، ولَمْ يُسمَع عنه شيء بعد ذلك[3]. انخفاض التـوتر

(1) مشاركة غير مسبوقة في التصويت للأسد في سورية. خليج تايمز. الإمـارات العربيـة المتحدة. 28 مايو 2007

(2) الأسد لم يعد واقفاً وراء ظل أبيه. *Ha'aretz*, Israel, June 21, 2009

(3) لا أثر لمواطن سوري صَوَّتَ ضد الأسد. *MEMRI*, August 16, 2007

الدولي في النصف الأول مِنْ 2007، و"التأييد المدوي" في الانتخابات، منَحَ **بشار الأسد** الثقةَ لكي يبدأ القمع العنيف للمعارضة الداخلية.

بعد نهاية نظام **صدام حسين** في 2003 شَعَرَ المعارضون السياسيون السوريون أنهم يستطيعون تحدي النظام. وحسب محامي حقوق الإنسان **أنور البني** فقد رجع ذلك إلى: "*الخوف الذي شعر به الحكام بسبب غزو أمريكا للعراق*"[1]. إلا أنه مع حلول يونيو 2007 تمّ سَجْنُ عشرة نشطاء إصلاحيين، وهم **ميشيل كيلو، وكمال اللبواني، ومحمود عيسى، وسليمان شمر، وخليل حسين**، وعضو جماعة الإخوان المسلمين **عبد الجبار علاوي، وأحمد شيخو، وفيصل بلاني**، والناشط الكردي **زياد اسماعيل، وأنور البني** نفسه، بتُهَم سياسية[2].

بعد الضربة الأخيرة التي قام بها **جورج بوش** الابن عندما دَخَلَتْ قوات أمريكية خاصة إلى الأراضي السورية في أكتوبر 2008[3]، تلاشى الخطر الأمريكي بانتخاب **باراك أوباما** رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، وأعطى إشارة البدء لسياسة إعادة الارتباط مع سورية. تراجَعَ خطر المحكمة الدولية، كما أُعيد تأسيس مصالح سورية في لبنان رغم أنّ قدراتها أصبحتْ أقلّ بالمقارنة مع نفوذ حزب الله وإيران المتزايد في الشؤون اللبنانية، ويبدو أنّ **بشار الأسد** قد استعاد توكيد سيطرته على نظام حكمه.

خلال مواجهة تلك التهديدات الجانبية تمّ إهمال الأحوال السياسية في سورية بشكل كبير. وأصبحتْ وعود الإصلاحات والتحديث التي خاض بها **بشار الأسد** الانتخابات الرئاسية ذكرى بعيدة، واستُبدلتْ تماماً بشعارات "المقاومة". آمَنَ **بشار الأسد** أنّ الصمود الثابت في مقاومة العدو الخارجي **الخلدوني**، إسرائيل في هذه الحالة، سيكون كافياً للمحافظة على شعبيته لدى الجماهير السورية. في مارس

(1) باري روبين Barry Rubin لا ينفع اللطف مع سورية. IMRA, May 23, 2007.

(2) محكمة سورية تحكم على معارضين لنشرهم أخبار كاذبة. مجلة Jurist, Legal News & Research, May 14, 2007. الحكم على 4 نشطاء آخرين بالسجن، لجنة حقوق الإنسان. رويترز 16 مايو 2007. سورية تسجن 4 معارضين آخرين. Middle East Online, Damascus, June 5, 2007

(3) ما الذي يكمن خلف الهجوم على سورية؟ BBC, UK, October 26, 2008

2009 مثلاً صَرّح **رياض نعسان آغا** وزير الثقافة السوري لجريدة الاتحاد الإماراتية قائلاً: "*أعتقد أنّ المقاومة هي الخيار الوحيد، رغم الخسائر الكبيرة، لأنّ المقاومة تتطلب فعلاً مِنَ الجماهير التي تختار طريقها تضحيات وخسائر كبيرة*"[1].

استخدم **حافظ الأسد** خطاب المقاومة أيضاً لتدعيم حكمه، إلا أنه كان حذراً في المحافظة على توازن دقيق بين خطاب المقاومة والإصلاح، وتأمين الحاجات الأساسية للمواطنين السوريين، وتأييد طائفته العَلَوية. صاغ **حافظ الأسد** استراتيجيته الإقليمية وعَيْنُهُ على ترسيخ حكْم عائلة **الأسد**، الذي يَشمل الاهتمامَ بمصالح العَلَويين. فمثلاً لَمْ يسمح **حافظ الأسد** أبداً بأي نشاط في التطرف الإسلامي حتى مِنْ جهة حلفائه في حزب الله. وعلى العكس فقد عمل **بشار الأسد** في الساحة الإقليمية وأهدافه الرئيسية هي النجاة مِنْ تهديد المحكمة الدولية، وزيادة شعبيته الشخصية باستخدام خطاب ديني عن "مقاومة" إسرائيل والغرب.

اتضَح طموح **بشار الأسد** لزيادة شعبيته في العالَم العربي المسلم فيما وراء طائفته العَلَوية خاصةً في مواقفه تجاه حرب غزة التي بدأت في ديسمبر 2008[2]. في حديثه إلى مؤتمر القمة الذي عُقِدَ في الدوحة بتاريخ 16 يناير 2008 قال: "*سنحرص على تذكير أبنائنا بمجزرة غزة. سنحتفظُ بصور الأطفال في غزة بجراحهم ودمائهم، وسنُعَلِّمُ أبناءنا أنّ المؤمن القوي أفضل مِنَ المؤمن الضعيف*"[3].

هذا النوع مِنَ الخطاب الديني جرى معاكساً لمصالح العَلَويين في الأساليب العلمانية في السياسة. فقد كانت المشاعر الدينية القوية بين الأغلبية المسلمة السنّية دائماً مصدرَ خطر على العَلَويين. إلا أنّ الرصيد الشخصي **لبشار الأسد** ارتفع بشكل هائل في العالَم الإسلامي وكاد أنْ يصبح شخصية "المقاومة" المعبودة في

(1) وزير الثقافة السوري يمجد المقاومة. الاتحاد. الإمارات العربية المتحدة. 27 مارس 2009. ترجمة Memri, July 26, 2009

(2) القوات الإسرائيلية تتحرك مع توسيع الهجوم على غزة. الأسوشييتد برس 29 ديسمبر 2008. انظر أيضاً 18 يناير 2009

(3) الرئيس السوري يثير الحماس الديني. أخبار الخليج. الإمارات 18 يناير 2008. مثال آخر لخطاب بشار الأسد عن غزة انظر: الرئيس السوري يقول إن العدوان على غزة هو أسوأ من النازية. Adnkronos, Italy, January 16, 2008

أجزاء كبيرة مِنَ الشارع العربـي. بل وكُتِبتْ أغنية شعبية تتحدث عنه بعنوان "**بشار الأسد**"[1]. ومِنَ المُفارقة أنّ مركز **ابن خلدون** لدراسات التنمية في القاهرة مَنَحه لقب "أكثر الزعماء شعبية" في الشرق الأوسط[2]. جاءتْ تلك الزيادة الجديدة في شعبيته على حساب حلفاء الغرب في مصر والأردن والمملكة العربية السعودية، الذين أدّتْ أصواتهم الخافتة ضد حرب غزة إلى ضغوطٍ شديدة على حكوماتهم مِنَ الجماهير التي طالَبتْ بردود أقوى[3].

استَخدم **بشار الأسد** حربَ غزة أيضاً كمبرر لتعليق محادثات السلام السورية الإسرائيلية غير المباشرة بوساطة تركية[4]. ومِنَ المحتمل أنّ نظام **الأسد** قد شارك في هذه المحادثات أصلاً كوسيلة للخروج مِنْ عزلته الدولية وتحسين موقفه مع الدول الغربية. لا شك بأنّ محادثات السلام كانت خدعة لأنّ التحالف القوي بين **بشار الأسد** وإيران وحزب الله يمنعه مِنَ القيام بأي خطوة أحادية منفردة للاتفاق مع الإسرائيليين[5]. مَنَحتْ حرب غزة **بشار الأسد** الفرصة المناسبة للخروج مِنَ المحادثات دون أنْ يَفقد ماء وجهه أمام الحكومة التركية، وفرنسا وبريطانيا والإدارة الأمريكية القادمة، الذين قدّموا جميعاً تنازلات لسورية مقابل دورها البناء في المنطقة[6].

جاء المكسب الثاني للرئيس السوري مِنْ حرب غزة هدنة مؤقتة مع الإخوان المسلمين السوريين. دَعَمَ **بشار الأسد** الفلسطينيين الإسلاميين بقوة رغم أنّ العضوية في جماعة الإخوان المسلمين ظلّ حكمها الإعدام في سورية. طَرَحَ مسؤول

(1) سورية تستفيد من النشاط السياسي الإقليمي بعد حرب غـزة. *VOA*, United States, February 2, 2008

(2) الأسد لم يعد واقفاً في ظل أبيه. *Ha'aretz*, Israel, June 21, 2009

(3) جوناثان سباير Jonathan Spyer تحليل: حلفاء إسرائيل المترددون. *Jerusalem Post*, December 30, 2008

(4) المصدر نفسه. إسرائيل تقصف غزة في حرب مفتوحة ضد حماس. *AFP*, December 30, 2008

(5) أكد عبد الحليم خدام على هذه النقطة في مقابلته مع المؤلف. 16 سبتمبر 2009. باريس.

(6) شريك جديد في سورية؟ واشنطن بوست 24 ديسمبر 2008. كيف تمكن الأسد من ربح الاحترام الدولي؟ *Ha'aretz*, Israel, December 26, 2008

مصري رسميّ هذا التناقض بقوله: "الفرق بين حماس وحماة هو حرف واحد!"[1]. ورغم ذلك فإنّ الشعبية الكبيرة التي تَمتّع بها **بشار الأسد** بسبب دعمه لحماس في قطاع غزة جعلتْ مِنَ الصعب على الإخوان المسلمين السوريين (ومقرهم الآن في لندن) الاستمرار بالمعارضة النشيطة للنظام السوري. وفي يناير 2009 أعلنوا هدنة مع حكْم عائلة **الأسد**[2].

هدنة الإخوان المسلمين السوريين المؤقتة مع حكم عائلة **الأسد** كانت لها نتيجة أخرى هامة، فقد أدّتْ إلى إنهاء تحالفهم مع **عبد الحليم خدام**، وإنهاء أقوى حركات المعارضة السورية عبر عدة عقود: جبهة الإنقاذ الوطنية[3]. نهاية المعارَضة الفعالة، وتراخي الضغط الدولي، والشعبية الجديدة التي وَجَدَها مِنْ جديد في العالَم الإسلامي، مَنَحَت الرئيس السوري السبب لكي يشعر بالثقة في مستقبله[4]. إلا أنّ حسابات **بشار الأسد** الخاطئة بشأن الظروف الداخلية السورية، وثقته المفرطة بشعبيته لدى الأغلبية المسلمة السنيّة مَنَعَتْهُ مِنْ ملاحظة الخطر على نظامه وعلى وضع العَلَويين في سورية.

تصاعد التهديدات الداخلية على حكم عائلة الأسد

تَضمَّنت نظرية **ابن خلدون** في صعود وانهيار الدول اعتباراً كبيراً للعوامل الاقتصادية والبيئية ونتائجها الاجتماعية والسياسية. وكَتَبَ عن نهاية الممالك قائلاً: "*في نهاية حكْم الدولة تنتشر المجاعات والطاعون... ويمتنع الناس عن زراعة الأرض... بسبب الهجوم على الممتلكات، وزيادة الضرائب... وتحدث*

(1) حماس ترفض نداء الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار في غزة. الغارديان. 9 يناير 2008

(2) *Ynet*, Israel, January 8th, 2008 في الغالب كانت تلك خطوة استراتيجية من الإخوان المسلمين السوريين وليست تغيراً مبدئياً حقيقياً. انظر لياد بورات Liad Porat الإخوان المسلمون السوريون ونظـام الأسـد. *Middle East Brief*, No.4, December 2010, Crown Center for Middle East Studies Brandeis University.

(3) الإخوان المسلمون السوريون ينسحبون من جبهة الإنقاذ الوطنية *Ex Oriente Lux*, April 5, 2009. انهيار تحالف معارضة سوري. *The National*, Abu Dhabi, April 22, 2009

(4) رولا خلف وآنا فيفيلد Anna Fifield الأسد الواثق. فاينانشيال تايمز 10 مايو 2009. الرأي العام العربي 2009. *Foreign Policy*, May 19, 2009

الاضطرابات نتيجة ثورة الرعايا والأعداد المتزايدة التي يشجعها على الثورة شيخوخة الدولة وضعفها". [ثم إنّ المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه: أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة مِنَ العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة].

كما وَرَد في دولة **ابن خلدون** النظرية فقد طَرَحَت الظروف الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية تحديات جادة لحكْم عائلة **الأسد** في أواخر العقد الأول مِنَ القرن الحادي والعشرين. ازداد التباين في الدخل بشكل واضح، وأصبحت الضائقة الاقتصادية بَيِّنَةً بسبب زيادة السكان والتضخم المالي[1]. كما أنّ ما وصَفه **ابن خلدون** عن "الهجوم على الممتلكات والضرائب" ظَهَرَ في نمط السلوك "المفترس في إثراء الذات" لشخصيات النظام مثل **رامي مخلوف** في الاقتصاد السوري[2]. لو استمر الانهيار الاقتصادي السوري فستُهدِّد الاضطرابات الداخلية أو الثورة موقفَ النظام. كما أنّ الظروف الاقتصادية الصعبة ستُهدد العَلَويين بتصاعد التيار الديني المحافِظ بين الأغلبية السنيّة. فمثلاً أدى "العصر الجليدي الصغير" وما نتج عنه مِنْ مصاعب اجتماعية واقتصادية في القرن الثالث عشر إلى تصاعد الأصولية عند أناس[3]. وهكذا فإنّ تعامل **بشار الأسد** مع التحديات الاقتصادية الصعبة كان له نتائج مباشرة على أمن العَلَويين.

في سبتمبر 2009، وبعد خمسة أشهر مِنْ تفكك جبهة الإنقاذ الوطنية، عبَّرَ **عبد الحليم خدام** للمؤلف عن قلقه العميق بسبب التوتر الزائد في سورية:

(1) في الفترة 1995–2005 ارتفع عدد سكان سورية بنسبة 29%، ونسبة الذين في سن العمل إلى 48%. انظر بول ريفلين Paul Rivlin سورية: الامكانيات الضائعة. الاقتصاديات العربية في القرن الحادي والعشرين. (Cambridge: Leiden University Press, 2009) صفحة 240–265

(2) سورين شميدت Soren Schmidt الدور التنموي للدولة في الشرق الأوسط: دروس من سورية. تحرير هينبوش Hinnebusch الدولة والاقتصاد السياسي للإصلاح في سورية. St Andrews Papers on Contemporary Syria صفحة 33

(3) فيليب جينكينز Philip Jenkins التاريخ المفقود للمسيحية. (New York: Harper-Collins, 2008) صفحة 135–136

"ثلاثون بالمئة مِنَ القوة العاملة في سورية عاطلة عن العمل حاليًا، وقد أصبح التضخم خارج السيطرة. وارتفعتْ أسعار المواد والحاجات الأساسية للناس حوالي خمسة أضعاف منذ سنة 2000. كل الفساد الذي يمكن أنْ تراه يحدث في سورية يعني أنّ الحكومة لا تستطيع السيطرة على ما يجري، لقد خرج عن السيطرة. كان هناك طبقة متوسطة في سورية، وكانت تشارك في كافة جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. هذه الطبقة المتوسطة اختفتْ تماماً. هناك طبقتان مِنَ الناس الآن. هناك الطبقة الدنيا، التي تُشكّل أغلبية السكان، وهم فقراء جداً. ومِنْ ناحية أخرى تشاهد الطبقة الثانية التي تتألف مِنْ حوالي 500 شخص يسيطرون على كل الثروة والأعمال وكل شيء"[1].

تقييم **خدام** للاقتصاد السوري وتوزيع الثروة يرسم صورةً لدولةٍ على حافة الاضطرابات والثورة. ربما كان ذلك نوعاً مِنَ التمَني لمُعارضٍ متحمس، إلا أنّ أحداثَ 2011–2012 أظهرتْ أنّ تقديره للنتائج المحتَمَلة لتزايد الضغوط الاجتماعية والاقتصادية كان صحيحاً.

إدارةُ **بشار الأسد** للاقتصاد السوري أصبحتْ أكثر صعوبة بسبب التحديات المتعددة التي واجهتها الدولة في النصف الثاني مِنَ العقد الأول للقرن الحادي والعشرين، وشملتْ انخفاض صادرات النفط، والعقوبات الاقتصادية الأمريكية، والأزمة الاقتصادية العالمية في 2008، والجفاف الشديد في الفترة 2007–2010[2]. ولكنْ بعد 2007، فشِلَ حكْم عائلة **الأسد** في مواجهة الضغوط المتزايدة في المجتمع السوري بدرجة كافية. يمكن تجميع هذه الضغوط في أربع فئات: اقتصادية، وسياسية، وبيئية، ودينية.

الضغوط الاقتصادية

في نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين ظل النمو السكاني في سورية

(1) عبد الحليم خدام في مقابلة مع المؤلف في باريس 16 سبتمبر 2009

(2) انظر تقرير برنامج الأمم المتحدة للتنمية: نتائج انحدار الاقتصاد العالمي على سورية، عدم المساواة والفقر. 3 نوفمبر 2009. انظر أيضاً تقرير صندوق النقد الدولي رقم 86/10 مارس. 2010 أخبار الخليج 30 أبريل 2009

مرتفعاً بنسبة 2.5%، وكان حوالي 4.6 مليون سوري من الشباب في عمر بين خمس عشرة وأربع وعشرين سنة. واحتاج هؤلاء حوالي 400.000 فرصة عمل جديدة كل سنة. وارتفع التضخم سنة 2009 17%[1]. منذ بداية حكم **الأسد** في 1971 كان احتياطي النفط السوري المتواضع مَصدراً استراتيجياً رئيسياً، فقد لعِبَ دخل البترول دوراً هاماً كشبكة أمان في دعم الاقتصاد السوري، وتمويل عمليات النظام، بما فيها أجهزة الأمن الكبيرة والمتعددة[2]. وأصبح انخفاض دخل البترول مشكلة كبيرة، خاصة بعد أنْ فَقَدتْ سورية أكثر مصادرها الاقتصادية في لبنان[3]. انخفَض انتاج البترول مِنْ 548000 برميل يومياً سنة 2000، إلى 380000 في 2009، ومِنَ المتوقع انخفاضه أكثر مِنْ ذلك في غياب اكتشافات جديدة[4]. حاوَلَ نظام **الأسد** التعويض عن ذلك بتقديم نفسه كنقطة إقليمية في نقل النفط والغاز[5]. مثالٌ على ذلك هو إعادة افتتاح خطِّ أنابيب النفط مِنْ كركوك في العراق إلى بانياس على الساحل السوري[6]. والمشكلة أنّ الضرورات السياسية تعارضتْ مع هذه الفرصة الاقتصادية المغرية.

(1) بول ريفلين Paul Rivlin "الأزمة الاجتماعية-الاقتصادية في سورية". الاقتصادي. 1، 3، (يونيو 2011) صفحة 3-4.

(2) فولكر برثيس Volker Perthes الاقتصاد السياسي السوري تحت حكم الأسد. (London: I.B. Taurus, 1995) صفحة 136

(3) في الفترة 2003–2007 انخفض دخل البترول من 14.7% إلى 3.8% من الدخل القومي. انظر تقرير صندوق النقد الدولي رقم 288/07 صفحة 32

(4) إدارة معلومات الطاقة الأمريكية. تحليل سورية. http://205.254.135.7/countries/cab.cfm?fips=SY; BP دراسة إحصائية للطاقة العالمية. يونيو 2011 bp.com/statisticalreview. سورية اليوم. دمشق. العدد 55. نوفمبر 2009

(5) رحلات بشار الأسد إلى أرمينيا وأذربيجان في 2009 كان تركيزها الرئيسي هو تحقيق هذا الهدف. انظر: رئيس سورية: أذربيجان توافق على بيع بليون متر مكعب من الغاز سنوياً إلى سورية بالسعر الحالي. *APA*, July 11, 2009. الأسد يبدأ زيارة رسمية إلى أذربيجان. وكالة الأنباء السورية. دمشق. 9 يوليو 2009. الرئيس السوري يصل أرمينيا في 17 يونيو. *Turkish Weekly*, Istanbul, June 16, 2009

(6) العراق وسورية تتفقان على خطة إصلاح خط أنابيب النفط بين كركوك وبانياس. مجلة *Oil & Gas Journal*, Los Angeles, April 24, 2009.

الضرورة السياسية كانت حاجةُ عائلة **الأسد** لمواجهة التهديدات المحتملة مِنْ نهوض عراقٍ ديموقراطي، ويبدو أنها كانت أكثر أهمية مِنْ فوائد تطوير علاقات اقتصادية جيدة مع جارته إلى الشرق. ورغم وعود رئيس الوزراء السوري **محمد ناجي عطري** أنّ سورية ستوقِفُ تدفقَ المقاتلين السنيّين إلى العراق، إلا أنّ نظام **الأسد** سرعان ما أعاد فَتْحَ حدوده لمقاتلي القاعدة وغيرهم[1]. بعد ذلك بقليل ألغى العراقيون الاتفاق. وفي الواقع لَمْ تستطع عائلة **الأسد** تَحمّل استقرار العراق في دولة ديموقراطية متعددة علمانية[2]، فقد يرسِلُ ذلك رسالة خطيرة إلى قاعدةِ دَعْمها وقوّتها العَلَوية بأنّ حكْمَ **الأسد** ليس ضرورياً لأمنهم وسلامتهم على المدى البعيد. كما أنّ المقاتلين الإسلاميين المقيّدين قد يحوّلون أنظارهم إلى "النظام العَلَوي" في سورية. نتائجُ وضع أهمية الأمن السياسي فوق أهمية التنمية الاقتصادية في سورية كانت خطيرة، وأضافتْ إلى الضغوط الاجتماعية المتزايدة داخل سورية. تَراجُعٌ اقتصادي آخر يتعلق بسياسة النظام السوري تجاه العراق كان تمديد العقوبات الأمريكية على سورية بقرار **باراك أوباما** في 8 مايو 2009[3].

ضاعتْ فرصةٌ اقتصاديةٌ أخرى على سورية عند تجديد محادثات التعاون الاقتصادي بين الاتحاد الأوروبي وسورية سنة 2009، والتي كانت قد توقفتْ منذ 2005 بعد اغتيال **الحريري**. رغم الإشارات الواضحة أنّ **بشار الأسد** غير مهتم بالإصلاح ولا بالتوجه نحو الغرب، إلا أنّ الاتحاد الأوروبي عَرَضَ استكمال المباحثات مع سورية. ربما فَتَحتْ هذه الاتفاقية فرصاً مغرية أمام التجارة والاستثمارات للاقتصاد السوري المتعثر[4]. ولكنْ مثلما فَعَلَ في حالة اتفاق أنابيب

(1) نمرود رافائيلي Nimrod Raphaeli الفرصة المفقودة لأنبوب النفط العراقي السوري: سورية تختار الإرهاب على المصالح الاقتصادية بعيدة المدى. *Memri*, May 18, 2009, Inquiry and Analysis - *No. 515*

(2) فولكر برثيس Volker Perthes سورية تحت بشار الأسد: التحديث وحدود التغيير. Adelphi paper, No. 366 (New York: Oxford University Press, 2004) صفحة 66

(3) واشنطن بوست 9 مايو 2009

(4) انظر: أنجا زوروب Anja Zorob تحرير التجارة والتعديلات من خلال التكامل الإقليمي: اتفاقية سورية مع الاتحاد الأوروبي. في: سورية والعلاقات الأوروبية المتوسطية. تحرير هينبوش R. Hinnebusch University of St Andrews Centre for Syrian Studies, 2009

النفط العراقي، فضّلَ **بشار الأسد** الأولويات السياسية على الفرص الاقتصادية، ولَمْ توقّعْ الحكومة السورية تلك الاتفاقية أيضاً. كان أحد أسباب تردد النظام السوري في اعتماد الاتفاقية هو ملحق أضافته حكومة هولندا إلى الاتفاقية يتعلق بطلب تحسين حقوق الإنسان[1]. إلا أنّ أسباباً أخرى، مثل الولاء لإيران، والعلاقات الجديدة المتحسنة مع تركيا، أقنعتْ **بشار الأسد** أنه ليس بحاجة إلى اتفاقية التعاون مع الاتحاد الأوروبي.

الأزمة المالية الدولية التي بدأتْ سنة 2008 كانت لها نتائج سيئة أيضاً على الاقتصاد السوري. رغم أنّ الحالة البدائية للقطاع المالي في سورية قد حَمَى الدولة مِنَ النتائج القاسية للركود الاقتصادي، فقد كانت هناك نتائج غير مباشرة، لأن حوالي 50,000 سوري كانوا يعملون في الخارج في دول الخليج، قد تمّ الاستغناء عنهم وعادوا إلى البلاد[2]. وأدى ذلك إلى نتيجتين سلبيتين: خسارة عائدات التحويل، وزيادة الضغط على معدّل البطالة في سورية، الذي بَلَغَ رسمياً 12% في 2008[3]. يفسِّر ارتفاع معدل البطالة في سورية عدمَ سماح النظام للمهاجرين العراقيين بالعمل في سورية[4].

حاول حكْم عائلة **الأسد** تسريع إصلاحات تحرير الاقتصاد لمواجهة الركود، إلا أنّ هذه الإجراءات لَمْ تكن كافية، بل وأدّتْ في كثير مِنَ الأحيان إلى تفاقم المشاكل الاقتصادية. مثال واضح على ذلك هو تأسيس سوق دمشق للتعاملات المالية (البورصة) في 10 مارس 2009، والذي شمل ست شركات في بدايته[5].

(1) سورية تطرح الشكوك حول توقيع اتفاق الشراكة مع الاتحاد الأوروبي. AFP, France, October 14, 2009. قال بشار الأسد في نوفمبر 2009 عن اتفاقية الشراكة مع الاتحاد الأوروبي: "الشريك يجب أن يكون صديقاً و لم نشاهد ذلك أبداً خلال السنوات الماضية". Cham Press, Damascus, November 13, 2009.

(2) أوقات صعبة أمام السوريين العائدين. The National, UAE, June, 12, 2009.

(3) الدول العربية يجب أن تنسق الردود على الأزمة لتجنب المشاكل الاجتماعية. Business Intelligence Middle East, May 17, 2009

(4) حساب التكاليف. سورية اليوم. دمشق 7 يوليو 2009

(5) سورية تطلق سوق تبادل الأسهم الذي طال انتظاره كجزء من التوجه نحو تحرير الاقتصاد. Daily Star, Beirut, March 11, 2009.

حاول النظامُ جذب السوريين للاستثمار في البورصة ووَضْع أموالهم في البنوك. قال مدير مصرف سورية المركزي **أديب ميالة**: *"نريد تشجيع الشعب السوري على المشاركة بهذه العروض العامة، وتغيير عقلية الاحتفاظ بمدخراتهم تحت الفراش"*[1]. ولكن في غياب مؤسسات مالية شفافة تَرَدَّد السوريون بمنح الثقة لحكومتهم في التصرف بأموالهم[2]. وبشكل عام فإنّ التحرير الجزئي للاقتصاد السوري لَمْ يؤدِّ إلا لزيادة ثروة المقرَّبين مِنَ النظام مثل **رامي مخلوف**[3].

بدأ الاستياء والغضب مِنْ سياسة نظام **الأسد** الاقتصادية يتزايد بين الفلاحين والعمال وطبقة الموظفين الذين يشكّلون قاعدة الدعم التقليدية لحزب البعث، وأغلبهم مِنَ العَلَويين. نَشَر الاتحاد العام لنقابات العمال في سورية تصريحاً في 2009 وَرَدَ فيه: *"أينَ نتائج الإصلاحات الاقتصادية؟... الأغنياء أصبحوا أكثر غنى، والفقراء أكثر فقراً... أصحاب الدخل المحدود يشكّلون حوالي 80% مِنْ سكان سورية ويبحثون عن عمل إضافي لإعالة أنفسهم"*[4].

مصدرٌ آخر للدخل فَضَّلَته عائلة **الأسد** هو دخل السياحة[5]، فهذا القطاع يحتوي على مصادر كامنة هائلة بالفعل في سورية. في 2008–2009 أضافت السياحة 3.9 بليون دولار أمريكي إلى الاقتصاد السوري[6]. وحسب وزارة السياحة السورية شكّل هذا 11% مِنَ الدخل القومي في 2009 بمتوسط 5.4 مليون

(1) سورية تجذب السيولة المالية لتحسين قواعد رأس المال. Trade Arabia, July 7, 2009. سورية تدفع الشراكة مع القطاع الخاص. Global Arab Network, November 11, 2009

(2) فوربس 26 أكتوبر 2009.

(3) سورين شميدت Soren Schmidt الدور التنموي للدولة في الشرق الأوسط: دروس من سورية. تحرير هينبوش Hinnebusch الدولة والاقتصاد السياسي للإصلاح في سورية. St Andrews Papers on Contemporary Syria صفحة 33

(4) الدردري يدافع عن إصلاحات سورية الاقتصادية. سورية اليوم. النشرة 56. ديسمبر 2009

(5) انظر مثلاً، الانفتاح للسياحة، سورية تُزيّن كنوزها المخبأة. رويترز. 16 يوليو 2009

(6) دخول 3.9 بليون دولار من السياحة الدولية إلى سورية. أخبار سورية. دمشق 15 يونيو 2009

سائح سنوياً (أغلبهم عرب مِنْ دول الخليج)[1]. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ اتفاقية التعاون مع تركيا فتَحَتْ فرصاً جيدة للسياحة التجارية السورية[2]. وبدأ عدد السياح الأوروبيين إلى سورية بالارتفاع اعتباراً مِنْ 2009[3].

يقع كثير مِنَ المواقع الأثرية الرئيسية ضمن منطقة العَلَويين في الشمال الغربي مِنْ سورية. ومثلما كان عليه الحال في العشرينيات، أصبح لدى العَلَويين إمكانية تحقيق فوائد اقتصادية مِنْ بيئتهم الطبيعية عن طريق السياحة العالمية. إلا أنّ انفتاح النظام على الاستثمارات الأجنبية الخاصة جعَل المنافسة صعبة على السكان المحليين. فمثلاً أفاميا روتانا، منتجع الشاطئ السوري الفخم، الذي يزوره نخبة رجال النظام وكبار الشخصيات الأجنبية، تمتلكه شركة سعودية[4]. اتضح أنّ الاعتماد الشديد على السياحة كان ينطوي على مجازفة في المدى المتوسط والبعيد، لأنّها صناعة تعتمد على وضع داخلي مستقر وآمن. وكما سنرى فإنّ حكْم عائلة **الأسد** لَمْ يستطع المحافظة على الاستقرار اللازم.

كانت لبنان مَخرجاً للسوريين تحت الضغوط الاقتصادية، ففي 2009 قُدِّرَ عدد العاملين السوريين في لبنان بحوالي 300,000، وأغلبهم عَمِلَ في مجال البناء. إلا أنّ دَخل وظروف عَمَل هؤلاء العمال كانت سيئة جداً، وعانوا كثيراً مِنَ التمييز وسوء المعاملة[5]. مرَّتْ لحظة مؤثرة بالمؤلف عندما كان يتحدثُ إلى صبّاغ أحذية سوري أحدب الظهر في حَيٍّ فخم مِنْ أحياء شاطئ بيروت، وحين سأله ما الذي أتى به إلى لبنان، أجاب أنّ لديه ثمانية أطفال ولا يوجد أي عمل في سورية. ولكنْ

(1) السياحة السورية تنمو بسرعة في غمرة الأزمة المالية. *Xinhua*, China, August 10, 2009

(2) تركيا وسورية يوسعان التعاون إلى السياحة *Today's Zaman*, Istanbul, November 5, 2009

(3) سورية تظهر كهدف جذاب للسياحة. *Global Arab Network*, London, September 1, 2009

(4) روتانا تفتتح أول منتجع شاطئي في سورية. *Travel Daily News*, Athens, June 22, 2009.

(5) لبنان وسورية، الأحوال السيئة للعاملين السوريين. *IRIN*, April 14, 2009. الأحوال المعيشية وظروف العمل السيئة للسوريين في لبنان قد لاحظها المؤلف خلال زيارته إلى لبنان في 2011. انظر أيضاً: جون شالكروفت John Chalcroft القفص الخفي، العمال المهاجرون السوريون في لبنان. (Stanford: Stanford University Press, 2009)

رغم فقره الواضح عندما سُئل عن رأيه بالرئيس السوري قال بلهجة حذرة "كويس". ربما نَبَعتْ هذه الإجابة مِنْ إعجاب حقيقي، إلا أنّها امتزجتْ بخوف كامن مِنْ انتقاد الرئاسة السورية كان واضحاً حتى خارج سورية.

الضغوط السياسية

القمعُ السياسي الشديد كان سِمَةً للحياة السورية منذ اضطرابات السبعينيات والثمانينيات، إلا أنّ مايشبه "العقد الاجتماعي" غير المكتوب كان سائداً بضمان الأمن الاقتصادي، مِنْ خلال الإعانات والوظائف الحكومية ومجانية التعليم والرعاية الصحية، مقابل التخلي عن الحريات السياسية. اختلّ هذا "التعاقد" تحت حكم **بشار الأسد**. وبدأ كثير مِنَ الناس يتساءل بجدية عن فقدان حرياتهم السياسية. في أواخر أغسطس 2007 ظهرتْ في دمشق وحلب وإدلب صور **فريد الغادري** رئيس حزب الإصلاح ومقرّه الولايات المتحدة[1]. وحسب مصادر حزب الإصلاح ظلّت الصور مرفوعة عدة ساعات مِنْ قِبَل جماعة مِنَ الشباب السوري. رَدَّ **بشار الأسد** باتخاذ إجراء صارم، يُعتَبَرُ غير قانوني في نظر القانون الدولي، ونَزَعَ الجنسية السورية عن **الغادري**[2]. كان **الغادري** قد أثار غضب النظام السوري بكلمته في الكنيست الإسرائيلي حيث طرح احتمال حل الصراع السوري الإسرائيلي[3]، وهو برنامج صراعٍ رئيسي تستند عليه شرعية نظام **الأسد**. يوضح ظهور الصور أنّ **الغادري** يتمتع بالتأييد في سورية، مما أثار غضب وحفيظة **الأسد**.

انحصَرَ رد فعل الرئيس السوري على مشكلة الاستياء السياسي بالقمع العنيف. وكان دبلوماسيون هولنديون شاركوا في اتفاقية الاتحاد الأوروبي على حق في شَكِّهم بسلامة سجل حقوق الإنسان في سورية. ومِنَ المؤكد أنه لَمْ يتحسن بعد مرور عشر سنوات على حكم **بشار الأسد**[4]. فقد ظلَّت السجونُ

(1) المعارضة في سورية ترفع رأسها. *Ynet*, Israel, September 3, 2007

(2) الأسد ينزع الجنسية عن سياسي زار الكنيست. *Ha'aretz*, Israel, Sept 15, 2007

(3) إصلاحي سوري منفي يحض على عودة الجولان، إنما ليس إلى الأسد. *Ha'aretz*, Israel, June 11, 2007

(4) وزير الخارجية الهولندي يطالب في سورية باتخاذ خطوات جريئة. *Earth Times*, June 23, 2009

السورية ممتلئة بالمعتقلين السياسيين، الذين يتعرضون للترهيب والتمييز حتى بعد الإفراج عنهم[1]. أحوال السجون السورية رهيبة، والتعذيب إجراء عادي فيها. تمّ قمع تَمَرّدَين في سجن صيدنايا شمال دمشق بوحشية وعنف في يوليو[2] وديسمبر 2008[3]. ذُكِرَ أنّ عشرات مِنْ جثث المتمردين تمّ دفنها ليلاً كي تبقى المجزرة بعيدة عن أعين الناس، كما أُلقيَ القبض على كثير مِنْ نشطاء حقوق الإنسان، وظلّتْ محاكم أمن الدولة عشوائية في أحكامها وعقوباتها[4]. أدى غياب الأمن الاقتصادي واستمرار القمع في الدولة السورية بالناس إلى زيادة سخطهم ويأسهم واستيائهم مِنَ النظام.

الضغوط البيئية

ربما كان أصعب التحديات التي تعَرَّضَ لها حكم عائلة **الأسد** هو الجفاف الذي اجتاح البلد منذ صيف 2007. قَضَى الجفاف على القطاع الزراعي في سورية الذي يشكل 23% مِنَ الدخل القومي العام[5]. وبعد أنْ كانت سورية تُصدِّر القمح والذرة أصبحتْ تستوردهما، وقد استوردتْ سورية مثلاً 1.8 مليون طن مِنَ الذرة سنة 2009[6]. كما تفاقمتْ مشكلة نقص انتاج الكهرباء المزمنة في سورية بسبب الجفاف، بعجز بلَغَ 1000 ميغاوات في 2009، مما أدى إلى انقطاع الكهرباء مرتين يومياً في بعض المناطق مِنْ البلاد[7]. صرَّحَ مسؤول سوري في التنمية والاستثمار أنّ الجفاف ربما يكون مشكلة في سورية أكبر مِنَ الأزمة المالية العالمية،

(1) المسجونون السياسيون يظلون منبوذين. *IWPR*, Damascus, January 9, 2009

(2) تعتيم على تمرد يوليو في صيدنايا وسط تقارير عن عنف متزايد. لجنة مراقبة حقوق الإنسان. 27 يناير 2009

(3) سورية متهمة بالتغطية على مقتل 25 سجين. *Telegraph*, UK, April 30, 2009

(4) للبحث عن فحص كامل لسجل حقوق الإنسان في سورية تحت بشار الأسد انظر: عشر سنوات ضائعة/ حقوق الإنسان في سورية خلال حكم بشار الأسد. لجنة مراقبة حقوق الإنسان. نيويورك. 2010

(5) سورية، الجفاف يزيد شدة المصاعب الاقتصادية. *IRIN*, Damascus, March 4, 2009

(6) *Cattle Network*, May 13, 2009

(7) جريدة الثورة. دمشق 9 أغسطس 2009. ترجمة *AFP*, France August 9, 2009

وقال: "*زاد الجفاف بؤس انخفاض الدخل وضعف الانفاق مما يؤثر على النمو الاقتصادي*"[1]. استخدم المسؤول كلمة "بؤس" في وصف تأثيرات عامة على الاقتصاد السوري، وربما كان ذلك اصطلاحاً مناسباً لوصف الحالة المادية التي يعيشها المواطن السوري العادي، خاصة في الأرياف.

تأثّر العَلَويون العاديون بشكل خاص بمصاعب الركود الاقتصادي والجفاف. فقد تأثّر انتاج التبغ في منطقة اللاذقية سلبياً، واضطر كثيرٌ مِنَ العَلَويين إلى قطع أشجار البلوط لصنع الفحم وبيعه لكي يُستخدَم في إشعال النرجيلة الشعبية في المقاهي. هدَّدَ ذلك بإزالة كثير مِنْ غابات الجبال الساحلية[2]. خلال خبرتهم الطويلة في الفقر الشديد عَبْرَ تاريخهم في الجبال الساحلية نَجَحَ العَلَويون دائماً في المحافظة على غاباتها، وقد أضفى العَلَويون قيمة رَوحانية كبيرة على سماتها الطبيعية، ولذا فإنّ اضطرارهم إلى تدميرها يدل على قسوة ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية. في زياراتٍ قام بها المؤلف للقرى العَلَوية دارت الأحاديث دائماً حول مصاعبهم المالية، وعدم توفر فرص العمل، والآثار السيئة للجفاف على محاصيلهم.

واجَه القرويون في سورية مِنْ كافة الطوائف مصاعبَ جمة في ضمان معيشتهم. أَجبَرَ الجفاف عشرات الآلاف مِنَ القرويين السوريين للهجرة إلى المدن، وقد فرغتْ 160 قرية في شمال سورية مِنْ سكانها تماماً[3]. شرَحَ طالبٌ مِنْ منطقة الحسكة في شمال شرق سورية للمؤلف سنة 2011 كيف أنّ أهل قريته قد غادَرَوها جميعهم بحثاً عن العمل بدمشق. منطقة أخرى تأثرتْ بشدة هي جنوب سورية حول درعا والسويداء[4]. لمْ تتعاطف عائلة **الأسد** جيداً مع معاناة الريفيين السوريين، ولمْ تُدركْ احتمال حدوث اضطرابات مدنية نتيجة تراكم الضغوط الاجتماعية والاقتصادية. في أحد المواقف تمّتْ إزالة منطقة بناء عشوائية تنفيذاً لقرار

(1) *IRIN*, Damascus, March 4, 2009

(2) أخبار البيئة. اللاذقية 13 يوليو 2009

(3) هُجرت 160 قرية سورية بسبب تغيرات المناخ. *AFP*, Paris, June 6, 2009. سورية، الجفاف يدفع المزارعين نحو المدن. IRIN, Damascus, September 2, 2009

(4) الجفاف الشديد يؤثر على 1.3 ملايين في سورية. *Christian Science Monitor*, September 18, 2009

الحكومة بتشديد قوانين البناء، مما أدى إلى صِدامٍ مع السلطات التي قَتَلتْ أربعة مِنَ المهاجرين الريفيين[1].

الضغوط الدينية وانفصال بشار الأسد

سأل المؤلف سنة 2009 فيما إذا كان **عبد الحليم خدام** يعتقد أنّ الفساد المتزايد وعدم المساواة وارتفاع معدل الفقر يمكن أنْ يُترجَمَ إلى تجديد التوتر الطائفي في سورية. أتى الرد الأولي **لخدام** انطلاقاً مِنْ غريزته البعثية القوية للتقليل مِنْ أهمية الدوافع الطائفية: "*يوجد في سورية مسيحيون ومسلمون، وهم متدينون، ولكنهم غير متطرفين*". إلا أنه أقرّ بقلقه مِنْ تزايد الاستياء بين الأكثرية السورية ضد ما يعتقدونه مِنْ وجود انحياز طائفي في سورية بناءً على المصاعب الاجتماعية والاقتصادية:

"*بدأ الناس يرون أنه كلما وُجدتْ فرصة عمل جيدة في أي مجال، لا يستطيع الرجل العادي أنْ يحصل على العمل، لأنّ هناك خلفية عنصرية ما وراء ذلك... ويمكنك الإحساس بضغوط عنصرية في سورية. وهذه الضغوط تزداد هذه الأيام، ويمكن أنْ تؤدي بالطبع إلى تهديد وحدة سورية... إذا استمر النظام بالطريقة التي يسير عليها الآن فسينمو التطرف في سورية. وفي مرحلة ما سيحدث شيء، وسيحدث انفجار*".

تنبأ **عبد الحليم خدام** بحدوث انفجار اجتماعي في سورية على خطوط تماس عنصرية (طائفية) يتضمن نتائج خطيرة بالنسبة للعَلَويين السوريين ومستقبل أمنهم. إذا كان **خدام** مصيباً فسيثبت أنه بينما كانت عائلة **الأسد** مشغولة بالتركيز على تعزيز موقفها بمواجهة التهديدات الخارجية، تجمَّعَ ضدها خطرٌ أكبر داخل سورية نفسها.

مِنَ المفيد في فهم التوترات الطائفية الكامنة في سورية مقارنتها بالتوترات القائمة في طرابلس بين العَلَويين والسنة[2]. كانت المصاعب الاجتماعية

(1) مقتلُ أربعة في صِدام حول إزالة منازل قرب دمشق. Daily Star, Beirut, June 4, 2009.

(2) مثلاً حدث انفجار قرب منزل زعيم عَلَوي طرابلسي هو رفعت عيد في أغسطس 2009. لبنان، جرح ثلاثة في انفجار قنبلة في ميناء شمال لبنان. *Adnkronos*, Italy, August 13, 2009. http://www.adnkronos.com/AKI/English/Security/?id=3.0.3653410406.
فيض من الحوادث الأمنية يهز لبنان. *Daily Star*, Beirut, September 24, 2009.

والاقتصادية عوامل رئيسية في تصاعد التوتر في طرابلس بسبب نقص فرص العمل[1]. وهكذا يمكن القول أنّ مشاكل اجتماعية واقتصادية مماثلة في سورية قد تؤدي إلى اندلاع صراعات طائفية في سورية. خلال حكم **حافظ الأسد** قدَّمَ النظام الاقتصادي المركزي في سورية خدمات أمان أساسية، ومَنَعَ حدوث تفاوت كبير في توزيع الثروة، رغم أنه فشل في تحسين ثروة الدولة بشكل عام[2]. إلا أنّ التوتر الطائفي الناتج عن تَصَوّر وجود عدم المساواة وغياب العدل كان أكثر وضوحاً خلال زيارة المؤلف إلى سورية سنة 2011.

في إحدى المناسبات ذهبتُ مع رفيقين سنيّين مِنْ منطقةٍ ضَرَبَها الجفاف في شمال شرق سورية برحلة إلى البحر شمال اللاذقية. كانا متحمسين لقضاء يوم على الشاطئ. كانت المنطقة المتاحة للجمهور مِنَ الشاطئ لايزيد طولها عن 200 متر، وكان تخديمها سيئاً، وامتلأتْ بالفضلات في كل مكان.

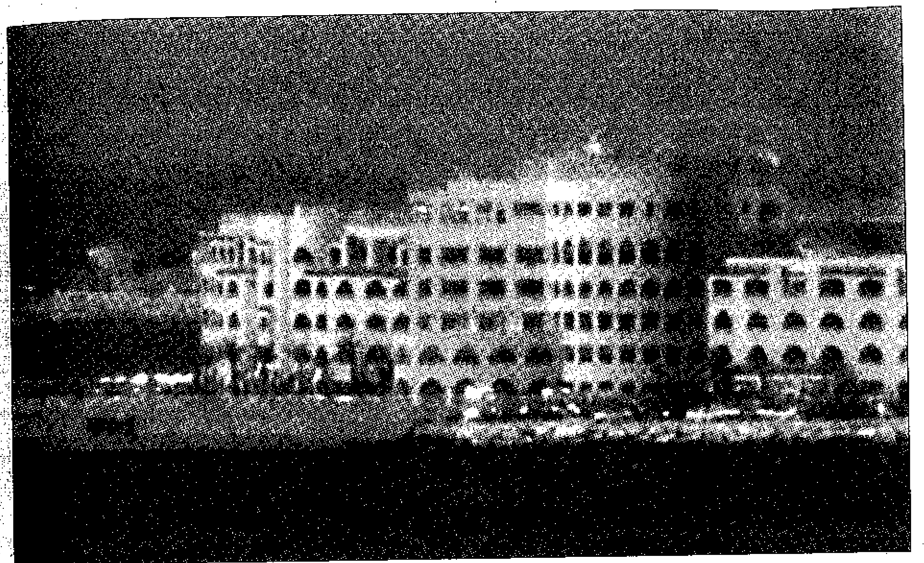
خلف سياجٍ امتد شاطئ طويل جميل. وعندما تجاوز فريقنا الصغير ذلك السياج، سرعان ما جاءنا رجل بثياب مدنية ومعه كلب، وقال لنا أنّ هذه منطقة ممتلكات حكومية وعلينا المغادرة فوراً. أمامنا مباشرة انتَصَبَ منتجع أفاميا روتانا بشاطئه الخاص (الشكل 14). وبينما سرنا عائدين إلى الشاطئ العام علّقَ أحد أصدقائي السوريين قائلاً بصوت خافت مستخدماً إنكليزية عامية جيدة ومدهشة بما معناه: "*لعن الله الحكومة، إنهم يأخذون منا كل شيء*". وقد أُخبرتُ بعد ذلك دون سؤال أنّ الرجل الذي طَرَدَنا مِنَ المنتجع كان عَلَوياً. دلالةُ ربطِ العَلَويين بتسلط الحكومة كانت محسوسةً في نبرة صوت صديقي.

في طريق العودة مِنَ الشاطئ كان سائق التاكسي عَلَوياً. كان يشرب البيرة، وعَرَضَ مازحاً على أحد أصدقائي السنيّين أنْ يُشاركه الشراب، ولكنه أجاب غاضباً: "*لا. أنا مسلم*". ردَّ سائق التاكسي أنه مسلمٌ أيضاً (مسلم عَلَوي)، وكادت المحادثة أنْ تتحول إلى شجار. أدرك الصديق الآخر خطورةَ الموضوع، وغيَّرَ

(1) سيباستيان مالو Sebastian Malo من الطلقات إلى ريشة الرسم في باب التبانة. *Daily Star*, Beirut, May 22, 2009

(2) كان ذلك أكثر وضوحاً بعد التخلص من رفعت الأسد وفساده الواضح في سورية.

الشكل 14: منتجع أفاميا – روتانا قرب اللاذقية



المصدر: المؤلف أغسطس 2009

مَسَار الحديث بلطف لكي ينقذ الموقف. تعطي هذه الأحداث لمحةً عن الغضب الدفين الذي يكمن تحت السطح في المجتمع السوري، وآثاره الخطرة على أمن العَلَويين. فمِنْ ناحية رُبِطَ العَلَويون مباشرة بنظام **الأسد** وقمعه الحريات الأساسية لأغلبية السوريين. ومِنْ ناحية أخرى لمْ يَعتبر المسلمون السنّة في سورية العَلَويين مسلمين حقيقيين[1].

عندما وَصلتُ سورية لأول مرة في أغسطس 2009 كانت الدولة في قمة فترة الجفاف 2007–2010. ولدى مغادرتي المطار كان أول سؤال وجّهته لسائق التاكسي هو: "*لماذا يُدخِّنُ الجميع؟*" فأجاب بطريقة مسرحية: "*الحياة صعبة*". يبدو أنّ التدخين راحة صغيرة للسوريين في غمرة ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية الصعبة. ويمكن توضيح انفصال **بشار الأسد** عن ذلك بقراره الصادر في ديسمبر 2009 الذي مَنَعَ التدخين في المقاهي والمطاعم والأماكن العامة[2]. كما فرضَتْ

(1) بحثتُ هذ النقطة مع عديد من معارفي السنة في سورية وكان رأي أغلبهم أن العَلَويين ليسوا مسلمين حقيقيين. كما أن بعض الشيعة يشاركونهم هذا الرأي ويعتبرون العَلَويين من الغلاة المتطرفين.

(2) سورية تصدر قانوناً جديداً صارماً ضد التبغ القاتل. *IRIN*, Damascus, December 3, 2009.

عقوبات شديدة في الجبال الساحلية على قطع الأشجار، وصَرَفَ النظام أموالاً طائلة لتسجيل كل شجرة. وفي منتجع صلنفة، في قمة الجبال الساحلية، لاحظَ المؤلف أنّ كل شجرة حملتْ رقماً على لوحة معدنية. بينما أظهرتْ هذه الإجراءات تفكيراً حضارياً متقدماً متسقاً مع سياسات كثير مِنَ الدول الغربية، إلا أنها كانت بالنسبة للسوري العادي سبباً لمزيد مِنَ الاستياء واليأس.

عدم تقدير النظام السوري للضغوط الاجتماعية المتزايدة كان واضحاً في تصريح رئيس الوزراء **ناجي عطري**، الذي قال في ديسمبر 2009:

"*رغم تغيرات المناخ والجفاف الذي عانتْ منه سورية خلال السنوات الثلاث الماضية والتي انعكستْ سلباً على القطاع الزراعي، بالإضافة إلى الأزمة المالية العالمية ونتائجها، إلا أنّ سورية نجحتْ في تخفيف آثارها بفضل الإجراءات الوقائية الاستباقية*"[1].

في الواقع كانت حالة السوريين الاجتماعية-الاقتصادية البائسة في نهاية 2009 تتضمن كثيراً مِنْ عناصر الثورة الاجتماعية التي تنبأ بها **عبد الحليم خدام**. وإنّ مشاركة أغلب العَلَويين العاديين هذه المصاعب الاقتصادية مع بقية سكان الدولة ربما شكّلتْ نقطة تواصل عامة يمكن أنْ تُقللَ غربتهم، وبالتالي تُضعِفَ عصبيتهم الطائفية لحكْم عائلة **الأسد**. ومِنْ ناحية أخرى فإنّ مرونة وصمود العصبية الطائفية ربما تعني أنه إذا ظلّ العَلَويون متمسكين بالنظام، وإذا أطاحَت الثورة القادمة بنظام **الأسد**، فربما تؤدي أيضاً إلى نتائج سلبية ليست في صالح العَلَويين بشكل عام.

الملاحظاتُ التي دوّنها المؤلفُ خلال زياراته وعمله الميداني في 2009 و2011 أعطتْ انطباعاً قوياً أنّ الضغوط المتراكمة اقتصادياً وسياسياً وبيئياً ودينياً قد شكّلتْ خطورةً جسيمة على حكْم عائلة **الأسد**. عدم توفر فرص العمل في سورية كان واضحاً في الأعداد الكبيرة للرجال المتسكعين والجالسين في المقاهي يدخنون ويضيعون أوقاتهم، أو يصبغون الأحذية، أو حتى يتَسَوّلون. التحديات الصعبة التي

(1) رئيس الوزراء عطري يقدم دراسة اقتصادية في اجتماع فروع الجبهة الوطنية التقدمية، زيادة الناتج القومي العام إلى 1343.2 بليون ليرة سورية في 2008. *ChamPress*, Damascus, December 9, 2009

كان يواجهها أغلب السوريين في حياتهم اليومية لَمْ يمكن تخفيفها بشعارات الرئيس عن "المقاومة والممانعة" ضد إسرائيل أو أمريكا.

صعود المد الإسلامي؟

نُشِرتْ افتتاحية في جريدة الثورة الرسمية في أوائل 2007 تقول: "*لدى سورية الآن ثقة كبيرة... تؤمن الدولة أنّ الضغوط الكبيرة التي واجهتنا ذات يوم قد زالت. نريد توفير الأمن، هذا ما نقدمه. الأمريكان يُقدّمون العراق، إنما الفوضى*"[1]. وَضَعَت الفوضى الطائفية في العراق نموذجاً حياً أمام العَلَويين لنتائج التمرد السياسي، ولكنها كانت جزئياً مِنْ نتائج عمل النظام السوري في زعزعة استقرار العراق منذ سنة 2003. شعارات النظام عن توفير الأمن بدلاً مِنَ الفوضى التي تعصف بالمنطقة، كانت وسيلة مُقْنِعَة في يد عائلة **الأسد**، وساعدتْ كثيراً في المحافظة على عصبية العَلَويين.

بالإضافة إلى الخطر المباشر مِنَ التطرف السنّي، ازداد خوف العَلَويين وعدم اطمئنانهم بسبب تصاعد القيم الإسلامية المحافِظة في سورية. وبينما قدَّمَتْ عائلة **الأسد** نفسها كحامية للعَلَويين ضد هذه المخاطر المتزايدة، إلا أنها في الواقع قد لعِبتْ دوراً كبيراً في تطوير هذه المخاطر ذاتها. ومِنَ المفارقة أنّ أفضل فرصة لضمان أمن العَلَويين في سورية هي في التخلي عن حكم عائلة **الأسد**، ومحاولة التوصل إلى اندماج حقيقي في المجتمع السوري، مثلما كان ذلك هو الهدف الأساسي للقيادات الدينية والسياسية للعَلَويين في 1936.

خلال حكم **بشار الأسد** تآكلَ الالتزام بالعلمانية التي كانت جانباً هاماً مِنْ إيديولوجية البعث بالنسبة للعَلَويين سياسياً وأمنياً. ويبدو ذلك واضحاً في القطاع الاقتصادي. في 2007 مَنَحَت الحكومة أول بنك إسلامي رخصةً للعمل في سورية[2]. كان ذلك جزئياً نتيجةً لتحالفات سورية الجديدة (بدون الاتحاد

(1) وردتْ في مقالة حسان فتاح، الأسد يتطور إلى دور حاكم سورية القوي. نيويورك تايمز. 24 مايو 2007

(2) منح الترخيص لمشروع سوري. *Gulf Times*, UAE, May 16, 2007. أول بنك تحت الشريعة الإسلامية يفتتح في سورية. *Jerusalem Post*, August 27, 2007. سورية تنظر إلى 30 بليون من الاستثمارات الأجنبية. رويترز. لندن. 25 يونيو 2009

السوفييتي)، التي اعتَمدتْ بشكل أساسي على دول إسلامية. تناقصُ احتياطيات النفط والغاز في سورية حَرَمَها إمكانية تطبيق اقتصاد ريعي، وحَتَّمَ ضرورة اللجوء إلى تشجيع الاستثمارات الأجنبية، خاصة مِنْ دول الخليج الغنية التي يسيطِر عليها السنّة[1]. أحد الفرص الاقتصادية الممكنة التي لا تتطلب التنازل عن الأسس العلمانية في الدولة، أو تطبيق إصلاحات سياسية، هي تطوير العلاقات مع الصين[2]. إلا أنّ سورية لَمْ تكن بالنسبة للصين سوى شريك واحد مِنْ شركاء سياسيين واستراتيجيين واقتصاديين كثيرين، وربما كانت في الواقع في آخر لائحة أولويات سياسة الصين الخارجية[3]. وعلى العكس مِنْ ذلك بالنسبة لإيران ودول الخليج فإنّ سورية، رغم ضعفها الاقتصادي، تمثل حلقة هامة في سياستها الإقليمية. ولذلك اضطرتْ عائلة **الأسد** إلى التركيز على العالَم الإسلامي في الحصول على معظم استثماراتها الأجنبية ودعمها الاقتصادي، مما أدى إلى زيادة الضغوط على علمانية الدولة السورية.

يفضّل العَلَويون العلمانيةَ الصارمة. إلا أنّ توفّر نظام اقتصادي إقليمي جيد، حتى لو كان ذلك النظام السياسي-الاقتصادي ذا طابع إسلامي، يمنح العَلَويين الأملَ بالتمتع بالأمن والسلامة. كان ذلك هو الحال في فترات عديدة مِنْ تاريخهم أثناء الفترة العثمانية مثلاً، في القرنين السابع عشر والثامن عشر استطاع العَلَويون اقتطاعَ مكان لهم في صناعة التبغ، وتمّ تقبلهم بشكل معقول نسبياً مِنْ جهة السلطات العثمانية. أما في فترات الاضطرابات، مثلما حدَثَ أثناء حكم المماليك وأزمتهم الاستراتيجية والاقتصادية في القرن الرابع عشر، تزداد الأصولية الإسلامية، وتُشكّل خطراً شديداً على سلامة العَلَويين. التوازنات الاقليمية في 2007-2008 تشبه الحالة الأخيرة. الحالة الاقتصادية السيئة في أغلب المناطق، بالإضافة إلى

(1) البنوك العربية تحاول الدخول إلى سورية بينما ينمو الاقتصاد. *Gulf Times*, UAE, June 6, 2007

(2) سورية ترحب بزيادة الاستثمارات الصينية في قطاع الاتصالات. *Xinhua*, China, August 28, 2007

(3) في العلاقات الاقتصادية الصينية السورية، انظر: بن سيمفيندورفر Ben Simpfendorfer طريق الحرير الجديد. (London: Palgrave Macmillan, 2009) صفحة 76-96

الصراعات في العراق وأفغانستان، والمشكلة الفلسطينية القائمة، أدَّتْ إلى تضخم أهمية الدين في مجتمعات الشرق الأوسط.

أثار ربيع دمشق وانهيار البعث العراقي الأملَ والتوقعات لدى كثير مِنَ السوريين بحدوث تغيير سياسي، إلا أنّ ذلك انتهى بالخيبة. وبعد عدة سنوات مِنْ خيبة الأمل والاستياء، زادتْ خلالها البطالة والتضخم الاقتصادي والغلاء ونتائج الجفاف المستمر، ترَسَّخ ذلك في أذهان قطاعات متزايدة في المجتمع السوري. عبَّرَ شيوعي محنّك منشقّ عن الحزب الشيوعي السوري، هو **رياض الترك**، عن قلقه في مايو 2007 قائلاً:

"*ربما أمكن تجنب هزة أرضية إذا اختار **بشار** طريق الإصلاح الديموقراطي والقضاء على الفساد... قد يحدث ذلك، ولكنني لا أتوقعه... إلى أين يتجه المواطن العادي؟ إنه يتجه إلى الله لكي ينقذه مِنْ هذا البؤس، فيحتضنه رجال الدين. عندما لا يوجد أمام المواطن أي خيارات يصبح فريسة سهلة في يد الأصوليين*"[(1)].

في سياق تصاعد المشاعر الدينية أصبح تحقيق التوازن الدقيق في لعبة عائلة **الأسد** بين ضبط الإصولية في المجتمع السوري، وتشجيعها في الوقت نفسه في أماكن أخرى كأداة في السياسة الخارجية، أكثر صعوبة وخطورة. وظهرتْ علامات تدل على أنّ النظام قد بدأ يفقد السيطرة، ففي 28 سبتمبر 2007 اغتيل الداعية الجهادي **أبو القعقاع** أمام مسجده في حلب. ادعى مُساعدٌ **للقعقاع** أنّ: "*القتلة لا يريدون أنْ يتحد المسلمون*"[(2)]. ربما يبدو في ذلك اتهام للنظام السوري الذي شعَرَ أنّ **القعقاع** قد أصبح قائداً مسلماً ذا نفوذ كبير. إلا أنّ تفسيراً آخر لما حدث هو أنّ الإسلاميين الأصوليين الآخَرين فقدوا الثقة به بسبب تواطئه مع الطائفة العَلَوية الضالّة الحاكمة[(3)].

كلا التفسيرين مقبولين، وأي منهما يمكن أنْ يدل على تطورات سلبية بالنسبة لحكم عائلة **الأسد** وتعاملاتها مع القوى الإسلامية. فلو أصبح نفوذ **القعقاع**

(1) تبني الديموقراطية: أكبر المنشقين السوريين ينصح الأسد. Khaleej Times, May 16, 2007.
(2) سورية، شيخ مهم مؤيد للمقاومة العراقية يتم اغتياله. البوابة. عمان. 28 سبتمبر 2007.
(3) اغتيال إمام في مسجد سوري. AFP, September 28, 2007. حلب: عملاق سورية النائم. الجزيرة. 23 يونيو 2011

قوياً إلى الدرجة التي يجب فيها تصفيته، فتلك إشارة تدل على أنّ النظام قد بدأ يفقد سيطرته. وعلى العكس مِنْ ذلك، إذا كان اغتيال **القعقاع** بسبب تعاونه مع عائلة **الأسد** فذلك يدل على أنّ **بشار الأسد** لَمْ يستطع السيطرة على الإسلاميين الذين توجَّهتْ أنظارهم نحو نظامه داخل حدود دولته. يوضح التفسير الأخير تأثير المقاتلين السوريين العائدين مِنَ العراق مشبعين بأفكار القاعدة لاستعادة حكم الإسلام في بلاد الشام[(1)].

بدأت القاعدة وجماعات مماثلة بتوجيه أنظارها نحو النظام السوري منذ أواخر سنة 2005، وبشكل أكثر منذ 2007 بعد زيادة القوات الأمريكية في العراق[(2)]. وفي 27 مايو 2007 ظهرتْ جماعة إسلامية مسلَّحة اسمها: جماعة التوحيد والجهاد، بقيادة رجل اسمه: **أبو جندل الدمشقي** (يبدو أنه كان مِنْ دمشق) وحَضَّتْ على قتل **بشار الأسد** في شريط صوتي مسجل وضِعَ على الانترنت. كما نَصَح **أبو جندل**، استناداً إلى فتوى **ابن تيمية** في القرن الرابع عشر، بالإبادة الجسدية لجميع العَلَويين[(3)]. وبدأ الحديث عن الكفار الشيعة والنُصَيريين بالظهور بين العناصر السنيّة المتطرفة في لبنان[(4)]، وبدأت علامات عدم الاستقرار الداخلي بالظهور مع تزايد التطرف الإسلامي، فمثلاً حدَثَ انفجار كبير في موقع عسكري بحلب في 26 يوليو 2007 قَتَل 15 جندياً. ألْقَت المصادر الرسمية باللوم في الحادث على ارتفاع حرارة الصيف الذي أشعَلَ ذخائر مخزَّنة[(5)]. ذَكَرتْ مصادر أخرى أنّ الانفجار حدَثَ في الساعة 4:30 صباحاً عندما كانت الحرارة منخفضة[(6)]، مما يطرح احتمال أنّ الانفجار كان هجوماً قامَتْ به جماعة معادية للنظام. الجماعات

(1) إيمانويل سيفان Emmanuel Sivan العرب يتكلمون العربية. Ha'aretz, Israel, October 5, 2007
(2) مراد بطل الشيشاني: الجهاديون يوجهون أنظارهم نحو سورية كمسرح عمليات بعد العراق. Terrorism Monitor, Vol.VII, Issue.26, August 20, 2009. صفحة 3-4
(3) نبراس كاظمي، العدو الكامل. نيويورك سن. 1 يونيو 2007. تفجير في سورية يقتل 15 جندي. CTV News, Canada, July 26, 2007.
(4) انظر مثلاً The National, UAE, September 26, 2008
(5) CTV News, Canada, July 26, 2007
(6) انفجار في سورية يتعلق بالأسلحة الكيماوية. تقرير. AFP, London, September 19, 2007.

الإسلامية الإصولية، مثل القاعدة، كانت تُمثّل عناصر متطرفة جداً مِنَ الأغلبية السنيّة التي ظلّتْ معتدلة في آرائها الدينية. إلا أنّ عودة ظهور آراء **ابن تيمية** المتشددة، وعدم التسامح مع العَلَويين، كانت سبباً لإثارة قلق الطائفة وترسيخ خوفهم في انعدام الأمن.

في أواخر 2007 بدا أنّ **بشار الأسد** كان يحاول تغيير المسار وتخفيف نفوذ التطرف الديني الذي ساعد حكْمُهُ على إطلاق عنانه. حاول النظام تعزيز موقف سورية "قلب العروبة النابض" بالتأكيد على استخدام اللغة العربية وجعلها المرجع الأساسي لهوية للسوريين[1]. وذهب **بشار الأسد** إلى حد إعلان التوجيهات اللازمة لحماية نقاء اللغة العربية مِنَ الفساد الأجنبي[2]. كانت تلك خطوة متأخرة للعودة نحو مصالح العَلَويين التي يمكن أنْ تتحقق بالاستمرار على طريق إيديولوجية البعث العربي العلماني، الذي يؤكد على الهوية العربية، ويرفعها فوق الهوية الطائفية. فمثلاً كان نظام التعليم الذي شَجّع عليه **حافظ الأسد** يحاول إنكار أي اعتراف بوجود اختلاف بين فروع الإسلام الرئيسية.

كان **بشار الأسد** مخطئاً في ثقته بشعبيته وبقبوله مِنْ جهة الأغلبية السنّية، وسَمَحَ للإسلام السنيّ التقليدي بأنْ يكون المَنهج الديني الرئيسي في التعليم وأمور الدولة[3]. بينما أصبح العَلَويون والأقليات الدينية المبتدِعة الأخرى أكثر هامشية وخفاء في دياناتهم وهوياتهم. ولذلك كانت النخبة العَلَوية في نظام **الأسد** أكثر ابتعاداً عن طائفتهم، بينما كان السخط والاستياء مِنَ النظام يتزايد لدى الأغلبية السنّية السورية. ومِنَ المفارقة أنّ الخوف الطائفي وعدم اطمئنان العَلَويين بشأن انتقام السنة دفَع الطائفة في الواقع إلى التماسك في دعم وتأييد نظام **الأسد**.

(1) إيمانويل سيفان Emmanuel Sivan العرب يتكلمون العربية. *Ha'aretz*, Israel, October 5, 2007

(2) *Ha'aretz*, Israel, October 5, 2007. انظر أيضاً: الرئيس الأسد يلتقي بوفد اتحاد الكتاب العرب. سانا. دمشق. 5 نوفمبر 2008.

(3) تحدث الشيخ علي يبرال مع المؤلف عن تقارب بشار الأسد من السنّة أكثر من والده.

فرصة أخيرة لاندماج العَلَويين؟

هل كان الخوف الطائفي جزءاً لا يمكن تجنبه مِنَ الحسابات السياسية للعَلَويين بعد مرور عشر سنوات مِنَ القرن الحادي والعشرين؟ إعادة بحث حالة العَلَويين في لبنان تقدّم مقارنة مفيدة، فعلى العكس مما هو الحال في سورية، يُعتَبَر النقاش المفتوح حول الانتماءات الطائفية أمراً مقبولاً سياسياً واجتماعياً في لبنان. يبدو استمرار التوتر في طرابلس دليل على أنّ الأسلوب اللبناني المنفتح قد فشل في حل الصراعات الطائفية. تساعد هذه القراءة للوضع اللبناني على تقييم أولئك الذين امتدحوا نظام **الأسد** وإدارته الناجحة للمجتمع السوري المتنوع[1].

ولكنْ إذا عُقِدت المقارنة مع منطقة لواء اسكندرون في جنوب تركيا تَرتسم صورة مغايرة. تَضمُّ هذه المنطقة تركيبة سكانية متنوعة تشمل نصف مليون عَلَوي عربي[2]، وعدداً أقل مِنَ السنّة العرب، ضمن أكثرية سنيّة تركية. إلا أنه لا توجد دلائل واضحة على وجود صراعٍ طائفي بين الفئات الاجتماعية، رغم وجود مجتمع منفتح سياسياً ودينياً. كما أنّ فترات المصاعب الاقتصادية في لواء اسكندرون لمْ تتطور إلى عنف طائفي. هذا التعايش السنيّ العَلَوي يُناقِضُ التأكيدات التي يروّج لها حكْم عائلة **الأسد** أنّ الاستبداد الصارم ضروري للمحافظة على التعايش والانسجام بين الطوائف[3].

هناك فرق أساسي بين حالة العَلَويين في شمال لبنان وفي لواء اسكندرون، وهو عدم وجود تدخّل للنظام السوري في اللواء[4]. وتركيا بالطبع دولة أقوى وأكثر

(1) انظر مثلاً تعليقات لورينز جولز Laurens Jolles من الأمم المتحدة في: سورية لا ترى صراعاً طائفياً في العراق. *Baltimore Sun*, December 30, 2008.

(2) هذا الرقم يستند إلى تقديرات قدمتها مصادر عَلَوية في أنطاكية، تركيا.

(3) للبحث في مزيد من المعلومات عن العَلَويين العرب في تركيا انظر: ج. بروزخازكا-إيزيل G. Prozchazka-Eisel وس. بروزخازكا S. Prozchazka: سهول القديسين والأنبياء، الطائفة النُصيرية العَلَوية في كيليكيا (جنوب تركيا) وأماكنها المقدسة. (Wiesbaden, Harrassowitz Verlag 2010).

(4) دليل تدخل سورية ودورها السياسي في طرابلس انظر: الصراع الطائفي يشتعل تحت الرماد في طرابلس. *Daily Star*, Beirut, August 25, 2009. جماعات فلسطينية تنفي تدخلها في هجمات طرابلس. *Daily Star*, Beirut, October 12, 2009.

استقراراً مِنْ سورية، ولا يستطيع النظام السوري التدخل في شؤونها الداخلية، بينما يمكنه اختراق شمال لبنان بسهولة لتحقيق مصالح سورية السياسية والاستراتيجية. وهكذا يبدو أنّ تدخل عائلة **الأسد** في لبنان هو سببٌ رئيسي في تأجيج القتال السنيّ العَلَوي في طرابلس.

في ظروفٍ سياسية منفتحة هناك إمكانية بعيدة المدى للمصالحة بين الطائفتين السنيّة والعَلَوية. فمثلاً عُقِدتْ جلساتُ تَصالحٍ بين الشباب السنيّ والعَلَوي في طرابلس في يناير 2009[1]. ويمكن متابعة فعاليات مماثلة في العراق، فبالرغم مِنَ العنف الطائفي الشديد في السنين الأخيرة، إلا أنّ العراقيين حاولوا المصالحة بين الطوائف والتحرك نحو ترتيبات سياسية ديموقراطية تعددية[2]. وعلى العكس مِنْ ذلك بالنسبة للعَلَويين السوريين، فإنّ مَنعَ الحوار الطائفي يَحُول دون أي جهد مماثل. ولكنْ ربما تكون الحاجة إلى المصالحة الطائفية أكبر في سورية، حيث تَختَمر أحقادٌ خطيرة، مثالها الرئيسي الصريح هو أحداث حماة سنة 1982.

لكي تتاح الفرصة للعَلَويين في الاندماج الحقيقي ضمن المجتمع السوري يجب أنْ يُدركوا خطورة مسار عائلة **الأسد** في قيادة الدولة، وأنْ يُحرّروا أنفسهم مِنْ حكْم عائلة **الأسد** قبل أنْ يفوت الوقت. وإنّ تخفيف الخوف الطائفي يمكن أنْ يُضعِفَ عصبية العَلَويين لعائلة **الأسد**، ويَفتحُ الطريق أمام اندماج حقيقي في سورية. هناك عامِلان حاسِمان لازمان للوصول إلى هذه النتيجة: الأول هو أنّ الأجيال الشابة السورية لمْ تتأثر كثيراً بالآراء والتفكير الطائفي الموجود عند آبائهم[3]. والثاني هو ثورةُ الاتصالات التي حَدَثَتْ في سورية، والتي وَصَلتْ جيل

(1) قصص أخرى من المدينة المنسية في لبنان–طرابلس. *Menassat*, January 30th, 2009

(2) العلمانية تنتصر في انتخابات عراقية هامة. *National Post*, Toronto, February 3, 2009

(3) في 2005 كان 23% من السوريين في الفئة العمرية 15–24 سنة. ولذلك فإن نسبة عالية من سكان سورية في 2011 ربما تبلغ حوالي 20–34%. انظر: نافتيج ديلون Navtej Dhillon وطارق يوسف، أجيال تنتظر: الوعود التي لم تتحقق للأجيال الشابة في الشرق الأوسط. (Washington: Brookings Institution, 2009) صفحة 189. انظر أيضاً: نادر قباني ونورا كامل، إقصاء الشباب في سورية: الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والمؤسساتية. Working Paper - The Middle East Youth Initiative, No.4, September 2007, Wolfensohn Center for Development, Dubai

الشباب بطرقٍ لا يستطيع النظام السيطرة عليها.

هناك أدلةٌ تشير إلى وجود تعاون وتصالح عبر الطوائف، تشمل العَلَويين، وتَحْدُثُ بين الجذور والقواعد في أجيال الشباب السوري. تدفعهم إلى هذا الحراك رغبةٌ مشتركةٌ في التحرر السياسي، وفي فتح فرص اقتصادية، وتُسَهِّلُ حدوثَها تقنياتُ الاتصالات الحديثة، مثل الانترنت والقنوات التليفزيونية الفضائية والهواتف الجوالة[1]. في سنة 1996 لمْ تكن الانترنت متاحة للسوريين العاديين، وفي 2001 كان أقل مِنْ 1% مِنَ السكان متّصلين بها، ولكنْ مع حلول 2010 كان 21% مِنَ السكان على الأقل يَستخدمون الانترنت بشكل منتظم[2]. مَنَحَتْ أدوات التواصل منابرَ جديدة للحوار المفتوح راوغَتْ حول المحظورات الحكومية التي تَمنع الحديث في السياسة والدِين.

لمْ يتنبه النظام السوري إلى خطر الانترنت إلا في السنوات الأخيرة[3]. ففي يونيو 2007 حُكِمَ على سبعة طلاب سوريين بالسَجن بسبب محادثاتهم في الانترنت عن الإصلاحات السياسية. خمسة منهم حُكِموا بالسَجن خمس سنوات، واثنين بالسَجن سبع سنوات[4]. كانت الأحكام شديدة بشكل غير عادي، إلا أنّ تعليقاً نُسبَ إلى ضابط المخابرات الذي قَبَضَ عليهم يوضح الأمر. يبدو أنه قد فَسَّرَ ذلك لوالد أحد المقبوض عليهم بقوله: "*هؤلاء الشباب أخطر مِنَ القاعدة، لأنهم يَنتمون إلى كافة الطوائف*"[5]. يكشف هذا التعليق أمرين: قلقُ أجهزة الأمن بشأن القاعدة والأصوليين السنة، والأهم مِنْ ذلك أنه يكشِفُ نظرة النظام إلى الخطورة القصوى للمعارَضة المتنوعة الطوائف التي تضمّ العَلَويين. يُبين ذلك انخفاض الشقاق بين

(1) توصل المؤلف إلى هذه الملاحظات أثناء محادثاته مع الشباب السوري من طافة الطوائف، وجميعهم فضل عدم ذكر اسمه.

(2) سجلات الأمم المتحدة. نسبة مستخدمي الانترنت–سورية.
http://data.un.org/Data.aspx?q=Syria&d=ITU&f=ind1Code%3aI99H%3bcountryCode%3aSYR

(3) سورية تزيد مراقبة الانترنت: كلب الحراسة. *Sydney Morning Herald*, July 8, 2007

(4) الولايات المتحدة تهاجم أحكاماً سورية. *UPI*, Washington, June 22, 2007

(5) وينتر O. Winter *Memri*, July 31, 2007. بحث وتحليلي–رقم 378. معارضون سوريون ينتقدون قمع شباب في سورية.

السنّة والعَلَويين، وربما ضعف عصبية العَلَويين الطائفية. ويمكن الحدس أنّ الطالبَين اللذين حُكِمَ عليهما بالسَّجن سبع سنين كانا عَلَويين. ويؤيد هذا الاستنتاجَ الحُكْمُ المماثل الذي فُرِضَ على الاقتصادي العَلَوي **عارف دليلة** في 2001[1] **ولؤي حسين** في 1984[2].

أنفَقَ حكم عائلة **الأسد** مبالغ طائلة في مراقبة الانترنت لمواجهة خطر النشاط العابر للطوائف فيها. في سبتمبر 2007 تمّ إرسال 350 عنصر مخابرات مِنْ طرف **آصف شوكت** إلى بون وبرلين ولندن وكوريا الشمالية لدراسة أساليب مراقبة الاتصالات الحديثة. ليس مِنَ المعلوم فيما إذا كانت السلطات الألمانية والبريطانية قد عرفتْ بهذا النشاط، أو أنّ التعامل قد تمّ سراً مع مستشارين مِنَ القطاع الخاص، إلا أنّ الاحتمال الأخير هو الأرجح. كما خَضَعَ هؤلاء العاملون العَلَويون أنفسَهم لمراقبةٍ دقيقة، وتمّ تحديد تنقلاتهم واتصالاتهم بالسوريين المغتربين[3]. رغم هذه الإجراءات استمرتْ مصاعب عائلة **الأسد** في السيطرة على الحوار والمعارضة السياسية في الانترنت.

في يونيو 2009 قال وزير الدفاع السوري اللواء **حسن تركماني** لخريجي الكلية الحربية: "*ثورة الاتصالات التي نشهدها هذه الأيام تتطلب منا اكتساب المؤهلات والقدرات في جميع نواحي النشاط العسكري للدفاع عن الوطن*"[4]. ربما يقصد بذلك مواقع التواصل الاجتماعي المنتشرة مثل "فيسبوك" التي تسرّع التواصل بين السوريين مِنْ خلفيات مختلفة داخل سورية، وتُعرّفهم على التيارات السياسية في العالَم العربي وما وراءه. أدركَ حكْم عائلة **الأسد** خطر وسائل الإعلام الاجتماعية، وتوصَّلَ إلى حجة لمنع برنامج "فيسبوك" في سبتمبر 2009 بالقول أنّ

(1) طوني بدران Tony Badran منقسمون يقفون: المعارضة السورية. مجلة *Mideast Monitor*,, Vol. 1, No.3, September-October 2006

(2) رولا أمين. الجزيرة. 11 يوليو 2011. معارض سوري يُثير التساؤل.

(3) المخابرات السورية تدرب عناصر جدداً في بريطانيا وألمانيا. *AINA*, Washington, September 30, 2007

(4) سورية: وزير الدفاع يقول إن العالم يعيش حالة غامضة بعد إدارة بوش. *ISRIA*, France, June 1, 2009

مَنْعَ برنامج "فيسبوك" هو احتجاجٌ ضد مستخدِميه مِنَ الإسرائيليين في مرتفعات الجولان، الذين يسجّلون فيه أنّ عنوان إقامتهم هو "إسرائيل"[1].

لاحَظَ المؤلفُ خلال زياراته إلى سورية شعبيةَ مقاهي الانترنت في جميع مدن سورية، والتي كانت ممتلئة تماماً بالشباب في العشرينيات أو الثلاثينيات مِنَ العمر. ولمراقبة الموقف كان على الزبائن تسليم هوياتهم الشخصية في هذه المنشآت أثناء استخدام الانترنت. حَرِصَ مستخدمو الانترنت على تَجنّب اللغة السياسية الحساسة التي يمكن أنْ تنبّه مراقبي الانترنت في أجهزة المخابرات. في أحد مقاهي الانترنت بحماة سنة 2009، وهي المدينة التي تخضع لأشد مستويات المراقبة في أجهزة الأمن، طَلَبَ شابٌ مِنْ كاتب هذا البحث "أنْ يكون حذراً". لمْ تنجح قيود الحكومة، فقد استطاع كثير مِنَ السوريين الدخول إلى مواقع التواصل الاجتماعي الممنوعة باستخدام عناوين "وكيلة Proxy". تُقدِّم الانترنت وسيلةً هامة للالتفاف حول قيود الحكومة على الحوار السياسي. وهكذا رغم أنّ مستخدِمي الانترنت السوريين يعملون تحت أحد أقسى ظروف القمع في العالَم[2]، إلا أنهم، مِنْ جميع الطوائف، تمكنوا مِنْ تحدي محاولات عائلة **الأسد** لقمع نشاطهم، وبدؤوا بتأليف جمعيات مدنية افتراضية في مواقع التواصل ومجموعات الحوار[3].

وسيلةُ اتصالٍ جديدة أخرى لمْ يتمكن حكْم عائلة **الأسد** مِنَ السيطرة عليها هي الهواتف الجوّالة، وكثير منها يحتوي على كاميرا رقمية ويستطيع الاتصال بالانترنت. حسب الاحصائيات الرسمية للحكومة السورية فإنّ 48% مِنَ السوريين كان لديهم خطوط اتصالات هاتفية جوّالة في نهاية 2008[4]. وارتفع ذلك إلى حوالي 60% في

(1) سورية تمنع فيسبوك لاستعادة مرتفعات الجولان. *Ha'aretz*, Israel, September 15, 2009

(2) سورية في المواقع الثلاثة الأولى للدول التي تقيد استخدام المدونات على الانترنت. *CNN*, May 2009 ميانمار في قمة أسوأ الأماكن للمدونين.
http://edition.cnn.com/2009/TECH/05/04/world.bloggers/

(3) آنا سكيبينسكي Anna Skibinsky نشطاء الديموقراطية السوريون يتقدمون نحو ثورة سلمية. *The Epoch Times*, August 4, 2009

(4) سورية تعلن عن مزاد علني لشبكة اتصالات هواتف جوالة في 2010. التيليغراف 17 أبريل 2009

2011[1]. خلال أبحاثي الميدانية في 2009 و2011 توصلتُ إلى الانطباع أنّ السوريين مِنْ كافة الأجيال والطوائف والطبقات الاجتماعية-الاقتصادية كان لديهم هواتف جوالة، ومِنَ الصعب أنْ تجد شخصاً بدونه، سواء كان زارعَ تبغ عَلَوي مُسِنٌّ في الجبال الساحلية، أو شاباً يصبغ الأحذية جالساً في شارعٍ فرعيّ بدمشق. مِنَ المدهش أنّ كثيراً مِنْ هؤلاء الناس يستطيعون دفع تكاليف شراء وتشغيل هذه الأجهزة، رغم أنّ ذلك يمكن تفسيره بوجود أجهزة صينية رخيصة[2].

مِنَ المفارقة أنّ أكبر شخصيات النظام مثل **رامي مخلوف** قد حققوا أرباحاً هائلة مِنَ الانتشار السريع للهواتف الجوالة بين السوريين، لأنّ **مخلوف** احتكر قطاع الاتصالات الهاتفية اللاسلكية في سورية مِنْ خلال سيطرته على شركة سيرياتيلSyriatel[3]. يبدو أنّ أحد أهم وسائل الحصول على الثروة لأحد أفراد عائلة **الأسد** قد ساعَدَ أيضاً على وضع البنية التحتية للثورة التي انفجرتْ ضدهم في 2011. يمثّل ذلك تبايناً مثيراً للاهتمام مع نظرية **ابن خلدون** بأنّ: "*اشتراك الحاكم في النشاط التجاري*" يؤدي إلى ضعف الدولة. [وإذا رافَقَهم السلطان في ذلك، ومالُه أعظم كثيراً منهم، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء مِنْ حاجاته، ويدخل على النفوس مِنْ ذلك غم ونكد.]

ربما كان أكبر تهديد لحكم عائلة **الأسد** مِنْ ثورة الاتصالات هو أنّ شباب العَلَويين قد اشتركوا فيها بنشاط. فقد وصَلتْ تقنيات الانترنت والهواتف الجوالة بين شباب العَلَويين في اللاذقية والشباب السنيّ في حماة ودمشق وحلب. وبدأتْ قرونٌ مِنْ سوء الفهم والشك بين الطوائف بالذوبان تدريجياً. قد يَثبتُ أنّ العامل

(1) سجلات الأمم المتحدة. اشتراكات الهواتف الجوالة لكل 100 شخص.

(2) في 2007 حصلت شركة الاتصالات اللاسلكية الصينية هواوي Huawei على شريحة كبيرة من السوق السورية بأجهزتها المحمولة الرخيصة. Ben Simpfendorfer, 2009 صفحة 86

(3) رامي مخلوف يمتلك 75% من سيرياتيل في سنة 2000. كان ذلك ما عارضه رياض سيف والذي سجن من أجله في 2001. التفاصيل في سورين شميدت Soren Schmidt سياسة تحرير الاقتصاد في سورية. *International Development Studies*, Occasional paper, No.25, 2006 صفحة 239

التكنولوجي هو عنصر أساسي في الهيار العصبية الطائفية العَلَوية، وهذا أمرٌ لَمْ يستطع **ابن خلدون** حتى مجرد تخيله في 1377.

الربيع العربي

في أواخر سنة 2010 بدا كأن نظرية **ابن خلدون** التي تتنبأ بحدوث ضَعفٍ متسارع في العصبية لن تنجح في فهم وتفسير الحالة في سورية، وأنّ خوف طائفة العَلَويين قد أدى إلى دعمهم لصمود عائلة **الأسد** واستمرار حكْمها في المستقبل المنظور على الأقل. ولكن في 17 ديسمبر 2010 قام بائع تونسي متجول اسمه **محمد بوعزيزي** بإحراق نفسه اعتراضاً على الذل والفساد والظلم في بلده[1]! أشعل فعله شرارة الغضب بين العرب، وانتَشرتْ نار شعلته بسرعة في أرجاء الوطن العربي بفضلِ وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة. أُطلق فعل **البوعزيزي** من تونس أولاً موجةً عارمة من ثورات الربيع العربي، وعلى الرغم من تأكيد **بشار الأسد** وثقته بشعبيته[2] إلا أنّ شرارة الثورة وصَلَتْ جنوب سورية في 15 مارس 2011.

هناك تفسيرات عديدة للظروف التي أدتْ إلى الثورة في سورية. هل كانت حقاً حركةً ثورية ديموقراطية؟ أم رد فعل اقتصادي-اجتماعي على الإصلاحات الاقتصادية الليبرالية الجديدة التي حدَثتْ خلال العقد الفائت[3]؟ أو نتيجةً للقحط الشديد في فترة 2006–2009؟ اقترح بعضهم وجود تدخل خارجي وتأثير هام للأوضاع الجغرافية والسياسية في المنطقة[4]، بينما أَرجَع آخرون الثورة في سورية لأسباب دينية وطائفية، وأنها حركة إسلامية سنيّة تحاول إنهاء حكْم الأقلية العَلَوية ونظام البعث العلماني[5]. تأَثّرتْ هذه الثورة السورية في الغالب بكثيرٍ من هذه

(1) "موت بائع متجول يشعل ثورة شعبية". The Financial Times, 17 Jan. 2011

(2) مقابلة مع الرئيس السوري بشار الأسد. Wall Street Journal, 31 Jan. 2011

(3) ليزا ويدين Lisa Wedeen "الإيديولوجية والفكاهة في الأوقات السوداء: ملاحظات من سورية". Critical Inquiry, 39, 4 (Summer 2013), pp. 841-73

(4) خلدون خشانه، "الأزمة السورية: حالة عامة". Contemporary Arab Affairs, 7, 1 (2014), pp. 1-21

(5) تيد غالن كاربنتر Ted Galen Carpenter "شبكة معقدة: الحرب الأهلية السورية وآثارها". Mediterranean Quarterly, 24, 1 (Winter 2013), pp. 1-11

العناصر، وعلى كل حال فقد كانت حركةً اجتماعية عفوية دون قيادة واضحة أو أهداف محددة فيما عدا الرغبة في التغيير ورفض الخوف. لعل أفضَل تفسير لطبيعة هذه الانتفاضة الشعبية جاء من المتظاهرين أنفسهم، ففي مظاهرة قامتْ في المدينة الساحلية بانياس، وضمَّتْ سنّة وعَلَويين ومسيحيين، حاول أحد المتظاهرين تقديم الأحداث إلى المجتمع الدولي قائلاً: *"في تلك الأيام كنا نتظاهر لاستعادة حقوقنا وعدالتنا وحريتنا. [ولكنهم] يقولون إننا سَلَفيّون، وأننا ننتمي إلى القاعدة، وأننا إرهابيون نريد أنْ نؤسس دولة إسلامية هنا. وأقول إنّ كلّ ذلك كذبة كبرى... يقولون إننا نريد إشعال الطائفية. كلا! ففي بانياس وفي كل سورية... المسيحيون والمسلمون إخوة. يمكنك أنْ تشاهد المساجد والكنائس في الشوارع. سنّيّ وعَلَويّ وكرديّ ودرزيّ كلنا إخوة وأصدقاء وجيران... لماذا يقتلوننا؟ لماذا يقتلون الناس في درعا؟... المظاهرة في بانياس... مئات من الناس يطلبون بالحرية ويريدون حقوقهم ويطالبون بالعدالة في سورية. نريد أنْ نَصنَع سورية الصحيحة، سورية الحقيقية"*[1].

كان ذلك هو الطرح المعتاد في المظاهرات الأولى التي رَفَضَت الرؤية الطائفية والدينية ونظريات التآمر عن طبيعة الثورة في سورية. كما أنّ الرؤية التي تُصَوِّر سورية "الصحيحة" وسورية "الحقيقية" التي تضمّ جميع مكوناها العرقية والدينية المختلفة تَعكس الواقع الاجتماعي للتنوع في المجتمع السوري، وتَستدعي وطنية سورية متنوعة تتجاوز الهويات الدينية والعرقية[2]. إذا كانت هذه هي الطبيعة الحقيقية للتغيّر السياسي في سورية فإنها تُشكّل فرصة تاريخية للعَلَويين لكي يتوصلوا إلى اندماجٍ اجتماعي حقيقي وأمنٍ مضمون في سورية يستند إلى مواطنة متنوعة بدلاً من الهوية المحصورة في العرق أو الدين أو الإيديولوجية.

منذ بداية الثورة حاول المتظاهرون تطمين العَلَويين على سلامتهم، وحاولوا ضمَّهم إلى صفوف الثورة. صرَّح مصَوِر أول مظاهرة كبيرة معارِضة للنظام قامتْ بدمشق قائلاً: "اليوم هو 15 مارس... وهذه هي أول مظاهرة علنية ضد النظام

(1) شبكة شام. http://www.youtube.com/watch?v=CDuc76Lk9XY (uploaded 13 Sep. 2011).

(2) كريستا سالاماندرا Christa Salamandra "الطائفية في سورية: انطباعات إنسانية". Middle East Critique, 22, 3 (2013), p. 303

السوري... عَلَويون وسنة وجميع فئات السوريين: نحن نريد إسقاط النظام"[1]. بعد عشرة أيام قامتْ مظاهرات ضد النظام في مدينة اللاذقية، "المدينة العَلَوية" التي تُعتَبر معقل النظام.

سرعان ما غيَّرتْ هذه الأحداث حالةَ العَلَويين السياسية وأجبرتْهم على مواجهة حقيقة علاقتهم بنظام الأسد. أصبح التحدي الذي تواجهه الطائفة العَلَوية هو هل سيستطيعون التغلّب على خوفهم ويَتَخلّون عن دعم حكْم عائلة **الأسد**؟ في أواخر يونيو سنة 2011 سَرَتْ شائعة تُذَكِّر بالأسلوب العَلَوي العملي الواقعي الذي ظَهَرَ لديهم سنة 1936. وَرَدَ في الشائعة أنّ شيوخاً مِنَ الطائفة العَلَوية قد تواصلوا مع بعض أئمة السنّة للحصول على ضمانات لسلامة العَلَويين "مقابل تخلّيهم عن عائلة **الأسد**"[2]. وفي سبتمبر 2011 اعترَضَ ثلاثة مشايخ بارزين من العَلَويين هم: **محب نصافي وياسين حسين وموسى منصور** على قتْل المتظاهرين المدنيين وحاولوا النأي بالطائفة العَلَوية عن النظام بقولهم: *"نُعْلِنُ براءتنا من الفظائع التي ارتكبها* **بشار الأسد** *وأعوانه الذين ينتمون إلى كافة الطوائف الدينية"*[3]. كما عاد إلى الظهور بعض العَلَويين الأحرار الذين طال صَمْتهم، مثل **عارف دليلة ولؤي حسين**، وحاولوا التوفيق بين العَلَويين والسنّة في سورية[4].

شارَكَ كثير من العَلَويين في المظاهرات السلمية الأولى التي جَرَتْ في ساحة الساعة بمدينة حمص وفي مظاهرات دمشق[5]. وظَهَرَتْ معارَضة عَلَوية منظَّمة في

(1) الانترنت. Youtube, uploaded 15 March, 2011 by 'xgotfiveonitx,' http://www.youtube.com/watch?v=2nPpjdv0GiM

(2) "الضغط على الأسد". Economist, anonymous correspondent, 30 June 2011

(3) "مشايخ عَلَوية بارزة تشجب فظائع نظام الأسد". قناة العربية. 12 Sep. 2011, http://english.alarabiya.net/articles/2011/09/12/166498.html

(4) "معارض سوري يثير النقاش". رولا أمين. قناة الجزيرة. 11 يوليو 2011. برنامج Profiles: Syrian Opposition Figures', Al-Jazeera, 27 June 2011

(5) سوندا سليمان (ممثلة عن جمعية العَلَويين السوررين العرب) في مقابلة مع ف. عيان وأ. أورهان، أنطاليا، تركيا. ' An Interview with Sunda Suleiman', ORSAM, 1 June 2011, 14 Mar. 2014، http://www.orsam.org.tr/en/showOrsamGuest.aspx?ID=182; 'Q&A: Nir Rosen on Syrian Sectarianism', Al Jazeera, 18 Feb. 2012

حزب الحداثة والديموقراطية الذي ضَمَّ عَلَويين من منطقة حماة. شارك الحزب في مؤتمر للمعارضة عُقِدَ بمدينة أنطاليا في تركيا في الأول من يونيو 2011. صرَّح الحزبُ أنّ النظام يتلاعب بمخاوف العَلَويين، وأنّ أفضَل مستقبل للطائفة يتحقق بتبنّي سياسة تسعى لإنشاء سورية حرة ديموقراطية[1]. في أواخر مارس 2013 عَقَدَ 150 من قيادات العَلَويين اجتماعاً في القاهرة لكي يُعَبِّروا عن معارضتهم للنظام ويُظهِروا دَعمَهم لفكرة أنّ تأسيس دولة ديموقراطية متنوعة هي أفضل ضمانة لأمن الأقليات. وعبَّر المحامي العَلَوي **عيسى إبراهيم**، أحد المشاركين في الاجتماع، عن قَلَقِه بأنه إذا لمْ يمكن الانتقال إلى نظام ديموقراطي حقيقي فإنّ الاندفاع نحو التغيير سيتحوَّل إلى أُصولية دينية[2].

كان قرار التخلي عن النظام بالنسبة لكثير من العَلَويين مسألة عملية وواقعية. ففي السنة الأولى من الثورة بدا أنّ الاستمرار في دعم **بشار الأسد** هو الاختيار العملي والواقعي، فقد كانت المعارَضة الداخلية والخارجية منقسمة على نفسها، ولْم يتدخل المجتمع الدولي في الأزمة، كما ظلَّتْ مدينتا دمشق وحلب هادئتين، وظَهَر أنّ الانتفاضة ستخضَع للسيطرة في النهاية. تغيَّر الوضع بالنسبة للعَلَويين في منتصف سنة 2012 عندما تَعرَّضَ النظام لخسارات مهمة مع تصاعد هجوم المعارَضة على دمشق وحلب، ونجاح عملية اغتيال أربعة من قيادات النظام بدمشق في 18 يوليو[3]. تزايد انشقاق العَلَويين عن الجيش العربي السوري قليلاً بينما كان النظام يحاول جاهداً السيطرة على حدوده ويخسر أجزاء كبيرة من الريف ومن المدينتين الرئيستين[4]. شَعَرَ بعض العَلَويين أنّ دعم النظام مسألة خاسرة، كما شَرَحَ

(1) المصدر نفسه.
(2) خالد يعقوب عويس "الخوف من مستقبل مجهول: العَلَويون السوريون يجتمعون في القاهرة". رويترز. 23 مارس 2013.
(3) ليون غولدسميث Leon Goldsmith "الأزمة والتنازلات: نقطة تحول للعَلَويين السوريين؟". Global Politics, Aug. 2012, http://global-politics.co.uk/blog/2012/07/31/crisis_compromise_ Syria/.
(4) أورن كيسلر Oren Kessler "زيادة انشقاق العَلَويين من الجيش السوري". Jerusalem Post, 8 Mar. 2012.

أحد العَلَويين: "*يبدو أنّ الوضع ليس من مصلحتنا، فالنظام يخسر*"[1].

إلا أنّ غالبية العَلَويين ظلَّتْ مؤيدةً للنظام خلال الأزمة. فقد كانت هناك عوامل عديدة مهمة أثَّرَتْ سلباً على تَصَوّر العَلَويين للثورة فظلَّ أكثرهم بعيداً عن الانضمام إلى حركة المعارَضة. فأولاً، كانت الذكريات الجماعية عن الاضطهاد التاريخي الطويل تحت سيطرة المسلمين السنّة تثير القلق والخوف لدى العَلَويين من احتمال عودتهم إلى حالة مواطنين من الدرجة الثانية. كما وضَّحَتْ عالِمة الإنسانيات **كريستا سالاماندرا** فإن اصطلاح "العَلَوي" يتضمن دلالات طبقية ودينية في سورية[2]. ولذلك يحمل العَلَويون حساسية خاصة من الإشارة إلى أصولهم الريفية. وقد وَرَدَ أنّ كثيراً من العَلَويين عَبَّروا عن استيائهم عند سماع هتافات المتظاهرين المعارِضين في اللاذقية التي لَمَّحَتْ إلى أنّ الرئيس السوري **بشار الأسد** يجب أنْ "يعود إلى القرية"[3]. وثانياً، ما زال كثير من العَلَويين يعملون في القطاع العام والوظائف الحكومية، خاصة في الجيش وقوى الأمن[4]، ولذلك اعتمد كثير منهم على الدولة للحصول على رزقهم مما شكل لديهم دافعاً قوياً لعدم الانضمام إلى المعارَضة.

ثالثاً، خيَّم على العَلَويين خوفٌ عام متزايد من الطائفية مع تطوّر الثورة. واتَّضحتْ هذه المخاوف عندما تدهور الوضع الأمني في مناطق النزاع، فتزايدتْ حالات القتل والخطف الطائفي في حمص في منتصف سنة 2012، واتَّهم المؤيدون للنظام والمعارضون له بعضهم بعضاً بمحاولة إثارة النعرات الطائفية[5]. اقتنع كثير من العَلَويين أنّ الهدف من الثورة هو تأسيس دولة إسلامية في سورية، وشَكُّوا بأنّ الإخوان المسلمين يحاولون الانتقام من المذابح التي ارتكبتها الحكومة السورية في

(1) "فوضى دمشق تثير الخوف لدى العَلَويين الداعمين للأسد". رويترز. 22 يوليو 2012.
(2) سالاماندرا، "الطائفية في سورية..."
(3) نير روزن Nir Rosen "علويو الأسد: حراس العرش". قناة الجزيرة 10 أكتوبر 2011.
(4) حنا بطاطو "ملاحظات حول الجذور الاجتماعية للفئة العسكرية الحاكمة وأسباب سيطرتها". Middle East Journal, 35, 3 (1981), p. 332. NOTES 279.
(5) مايكل وايز Michael Weiss "الطائفية أم فخ الأسد؟". The Weekly Standard, 22 July 2012.

حماة سنة 1982[1]. كما تزايدت المشاعر المعادية للعَلَويين بين السنّة عندما رَفَعَ النظام شدة قمعه للمعارَضة.

خوف العَلَويين من تغيّر وضعهم الاجتماعي وقلقهم على أرزاقهم ومصدر دخلهم جعلهم لقمة سائغة وهدفاً سهلاً للتلاعب بهم سياسياً. منذ الأيام الأولى للثورة اتُّهم النظام باستغلال مخاوف العَلَويين. ذَكَرَ المعارض السياسي المخضرم **عارف دليلة** أنّ النظام قد لعِب "بأوراق الطائفية" في ردِّه على المظاهرات المعارِضة للنظام التي جرَتْ في اللاذقية أواخر مارس 2011[2]. يدعم هذا الرأي أنّ ضباط الأمن وجَّهوا مجموعات من شباب العَلَويين نحو المظاهرات في وسط اللاذقية لإثارة العنف الطائفي، بينما قام قناصون مجهولون بإطلاق النار عشوائياً نحو المتظاهرين من أسطح البنايات المجاورة[3].

أثار النظام مخاوف العَلَويين في القرى الساحلية منذ بداية الثورة. أُرسِل عناصر مخابرات مسلحون وأفراد الميليشيا إلى مفارق الطرق بين القرى بحجة حمايتها من هجماتٍ إرهابية مفترضة ضد العَلَويين. كما لعِبتْ وسائل الإعلام دوراً مهماً في ذلك، فمثلاً في حالة طالب عَلَوي، ذَكَرَتْ قناة الدنيا التي يموّلها **رامي مخلوف** أنّ شهود عيان وَصَفوا قَتْل عَلَويين في قرى إدلب. ولكي يؤكدوا هذه الأخبار اتّصل الطالبُ بصديق له في تلك المنطقة، إلا أنّ صديقه ذَكَرَ على الهواء مباشرة أنه لم يشاهِد ولمْ يَسمَع عن ذلك شيئاً. وقد كان لبعض عناصر المعارضة دور في إثارة مخاوف العَلَويين أيضاً، واستَخدمتْ بعض المحطات الفضائية الدينية لغةً طائفية في وصف الثورة، مما جعل بعض العَلَويين الذين أيدوا الثورة في بدايتها يشكّون فيما إذا كانت الثورة لجميع السوريين فعلاً أم أنها للسنّة دون غيرهم[4].

أصبح وضع المعارِضين العَلَويين صعباً. وواجهتْ محاولات إقناع زملائهم في الطائفة بأنّ أفضل خيار للطائفة هو انضمامها للثورة معارَضةً قوية في أغلب

(1) المصدر نفسه.
(2) خالد يعقوب عويس "الزعماء يهدئون التوتر الطائفي في مدينة سورية". رويترز. 28 مارس 2011.
(3) ملاحظات المؤلف في اللاذقية. 25 مارس 2011.
(4) حيدر الحسن. مراسلات مع المؤلف يوليو 2014.

الحالات. فقد كان من الصعب تهدئة مخاوف أغلبية العَلَويين لأنها استندتْ إلى قواعد ثلاث: المخاوف التاريخية من الأكثرية السنيّة، و"الإثباتات" التي كان يبثها النظام عن الإرهاب والتطرف، والطَّرح الطائفي الذي كانت تُقدِّمه بعض فئات المعارَضة. وَجد أغلب الثوريين العَلَويين أنفسهم معزولين عن طائفتهم وعائلاتهم، وتمّ تهديدهم بالسجن والتعذيب. وبالمقابل تزايد شك فئات المعارَضة بالعَلَويين لاعتبارهم غير جديرين بالثقة، وربما جواسيس[1].

حَشَدَ النظامُ الميليشيات العَلَوية التي يُطلَق عليها اسم "الشبيّحة" بمواجهة المعارَضة مما زاد في التوتر الطائفي. نَشأتْ هذه الفئات أصلاً كعصابات إجرامية منظَّمة عَمِلَتْ تحت حماية بعض قيادات النظام في الثمانينيات في منطقة اللاذقية وما حولَها[2]. استُخدِمتْ مجموعات الشبيّحة للاصطدام مع المتظاهرين وتفريقهم بالقوة المميتة ونَشر الخوف لمنع انتشار المعارَضة العلنية في أرجاء البلاد. وكان أحد أهم واجبات الشبيّحة هو إثارة ردود فِعل عنيفة من المتظاهرين الذين ظلّوا سلميين خلال أشهر عدة من سنة 2011. فقد هَدَّد انتشارُ المظاهرات السِّلْمية استقرارَ النظام أكثر مما فَعَلَتْه المعارَضة المسلّحة.

ارتَكَبَ الشبيّحة أعمالاً وحشية ضد المدنيين، مثلما فعلوا في المذبحة الدموية التي جرَتْ في قرية الحولة في مايو 2012، وفي البيضا وبانياس في مايو 2013. وقد اتُّهمت الطائفة العَلَوية بشكل عام بارتكاب هذه الجرائم، وزاد ذلك من زخم المطالبة بإسقاط النظام[3]. في الفترة من نوفمبر 2012 إلى يناير 2013 رَفَعَ النظام من شدة الحَشْدِ الطائفي الصريح للعَلَويين بتنظيم الميليشيات العَلَوية المختلفة ضمن وحدات عسكرية موالية سمِّيت: "قوات الدفاع الوطني"[4]، بما يشبه دعم إيران

(1) جمانة قدور "حل لغز العَلَويين في سورية". The Washington Quarterly, Vol. 36, No. 4 (December 2013), pp. 67-78.
(2) ياسين الحج صالح "شبيحة سورية ودولتهم". Heinrich Boll Stuftung, Apr. 2012.
(3) آرون ريز Aaron Reese "الصراع الطائفي والمحلي في الشرق الأوسط". Middle East Security Report, 13, Institute for the Study of War (July 2013), p. 14.
(4) إيزابيل ناصيف "حملة لحمص وحلب". Middle East Security Report, Institute for the Study of War, No. 17 (2014), p. 13، جوناثان سباير Jonathan Spyer "سورية الممزقة". Middle East Review of International Affairs, 17, 3 (Fall 2013), p. 11.

للميليشيات الشيعية في جنوب لبنان خلال الثمانينيات. قام حزب الله وفصائل القدس الإيرانية بالتدريب والإشراف على قوات الدفاع الوطني مما رسَّخ اعتماد العَلَويين على حلفاء النظام من الشيعة[1].

بدأتْ مرحلة التحول من المظاهرات السلمية إلى المعارَضة المسلحة بمدينة جسر الشغور في شمال سورية أوائل يونيو 2011 عندما انخرط بعض المُنشَقين من قوى الأمن في أول معركة قتال مباشر ضد النظام[2]. كانت رواية النظام الرسمية لما جرى هي أن: *"الإرهابيين هاجموا مراكز الشرطة وقوى الأمن... وأنهم استخدَموا قناصة على أسطحة البنايات وأطلقوا النار على المواطنين وقوى الأمن"*[3]. بينما ذَكَرَ سكان جسر الشغور الذين فرَّ أغلبهم إلى تركيا أنهم كانوا يشاركون بمظاهرة سِلْمية عندما أَطلقتْ قوى الأمن النار عليهم، وأنّ بعض الجنود الذين رفضوا إطلاق النار على المتظاهرين قد تمَّ إعدامهم بيد قياداتهم[4].

بعد مرحلة التحول الحرجة في منتصف 2012 التي تمّ ذِكرها، والتي مَرَّتْ دون أنْ تُحدِث أية زيادة مهمة في انشقاق العَلَويين، اتجَهت الأوضاع في خط مسارها العام نحو صراع دموي طويل وصِف رسمياً في يونيو 2012 بأنه حرب أهلية (أو صراع مسلح غير دولي)[5]. قلّل إعلان الحرب الأهلية من احتمالات التدخل الدولي على أساس الحماية الإنسانية، وجَعَل أطراف الصراع متساويين في المسؤولية أمام المجتمع الدولي.

(1) تشارلز ليستر Charles Lister "جمود متحرك: دراسة الساحة العسكرية". Brookings Doha Center, May 2014, p. 3.

(2) جوزيف هاليداي Joseph Halliday "النضال من أجل سورية في 2011". Institute for the Study of War, December 2011, http://www.understandingwar.org/sites/default/files/Struggle_For_Syria.pdf

(3) وكالة الأنباء السورية. 9 يوليو 2011. /http://www.sana.sy/en.

(4) رولا حجار وبرزو دارجاحي Borzou Daragahi "تقارير من سورية تشير إلى انقسامات في قوى الأمن". Los Angeles Times, 9 June 2011، http://articles.latimes.com/2011/jun/09/world/ la-fg-syria-jisr-shughur-20110609

(5) لويس شاربونو Louis Charbonneau "الأزمة السورية حرب أهلية الآن، تصريح لرئيس قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام". رويترز. 12 يونيو 2012.

أصبح صريحاً وواضحاً أنّ الولايات المتحدة وحلف الناتو لن يتدخلا عسكرياً. تمّ التأكيد على ذلك عندما اختُرِق الخط الأحمر الذي وَضَعَه الرئيس الأمريكي **باراك أوباما** عن التدخل في سورية بشأن استخدام الأسلحة الكيميائية ولم يقم بأي رد فعل على الرغم من استخدام أسلحة كيميائية في منطقة الغوطة قرب دمشق في 21 أغسطس 2013. أنكَر النظام السوري إقدامه على ذلك الهجوم الذي قُتل فيه حوالي 1400 شخص بينهم نساء وأطفال، إلا أنه سرعان ما وافق على التخلص من مخزون أسلحته الكيميائية في اتفاق اللحظة الأخيرة الذي تَوَسط فيه الروس لإجهاض التهديد بهجوم عسكري أمريكي[1].

كان تَرَاجع أمريكا عن توجيه ضربة في سورية لحظةً مهمة بالنسبة للعَلَويين بسبب انعكاساتها على نفسية المعارَضة. فقد أدى ذلك الموقف بالمعارَضة العَلمانية المعتدلة المدعومة من الغرب (مثل الجيش السوري الحر) إلى خسارة المصداقية والدعم بين فئات المعارَضة الأخرى. ولذلك فمنذ منتصف 2013 استَلَمت المجموعات الإسلامية السنّيّة أدواراً قيادية في قتال النظام. وتَشَكّل فصيل معارِض جديد هو الجبهة الإسلامية باتفاق عدد من المجموعات الصغيرة في حركة المعارَضة، وشَملتْ بعض المجموعات التي كانت تنتمي للجيش الحر، فضَمَّ هذا الفصيل الجديد 50.000 إلى 60.000 مقاتل[2]. اتخذ الصراع اتجاهاً أكثر طائفية، وأصبح الحوار بين العَلَويين والمعارَضة أكثر صعوبة. وبغضّ النظر عن الاتجاهات الفكرية والعقائدية بين فئات المعارَضة المختلفة فقد كان المَطلَب المشترك الذي يصرون عليه هو استقالة **بشار الأسد** من منصب الرئاسة. ولذلك فإن استمرار دعم عصبية العَلَويين لعائلة **الأسد** حَرَمَهم من القدرة على التأقلم العملي والواقعي مع التغير السياسي في سورية مثلما فعلوا في الماضي.

في منتصف 2014 دَلّتْ مناسبتان على المسار الذي يتجه إليه مستقبل العَلَويين السوريين: فأولاً، في غمرة الحرب الأهلية الجارية ربح **بشار الأسد** انتخابات

(1) مارك فيتزباتريك Mark Fitzpatrick "نزع الأسلحة الكيميائية السورية". Survival: Global Politics and Strategy, 55, 6 (2013), pp. 107-14.

(2) تشارلز ليستر Charles Lister "جمود متحرك...".

رئاسية أثارت انتقادات واسعة، وحَصَلَ فيها على 88.7 بالمئة مـن الأصوات في المناطق الخاضعة للنظام[1]. أطلَق كثير من السوريين عليها اسم: "انتخابات الدم" بسبب القمع الوحشي الذي حَدَثَ خلال السنوات الثلاث التي سبقتْها. في 10 يونيو 2014 تمكّنت الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) المنبثقة عن القاعدة من السيطرة على مدينة الموصل، المدينة الرئيسية في شمال العراق، بعدما جمّعتْ قوتَها في منطقة الجزيرة بين سورية والعراق. ومِن هناك أعلن **أبو بكر البغدادي** نفسه الخليفة الجديد للمسلمين السنّة. شكّلتْ سيطرة داعش في العراق وسورية تحدياً رمزياً للترتيبات الجيولوجية-السياسية في كافة أنحاء العالَم العربي الإسلامي.

النمو الإيديولوجي المتصاعد والقوة الاستراتيجية المتزايدة للقوى الإسلامية المتطرفة أعاد للعَلَويين ذكريات الاضطهاد التاريخي الذي تَعرضّتْ له الطائفة على يد القوى الإسلامية السنّية السابقة[2]. من وجهة نظر العَلَويين، فإن رؤية مقاتلي داعش لطائفتهم كانت واضحة ومباشرة: "العَلَوي كافر". ومثلما كان الوضع في الدولة المملوكية والسلطنة العثمانية فإنّ عقائد هؤلاء المقاتلين الجدد تَعتَبر الطوائف المسلمة المختلفة من أمثال العَلَويين والاسماعيليين والدروز واليزيديين، وحتى الشيعة الإثني عشرية نقاط ضعف في جسم التضامن الإسلامي[3].

مع حلول سنة 2014 خيّم خوف عميق اختلط باليأس والقنوط على السكان العَلَويين في قرى شمال غرب سورية. أدرك بعضهم عدم جدوى الاستمرار في القتال من أجل استمرار النظام. اشتكى رجل بلغ الستين من عمره قائلاً: "انتَشر *نصف شباب القرية على الأقل على جبهات القتال، وقُتل منهم عشرات*". وقال رجل آخر: "*لقد فشل **الأسد** كقائد فهو يضحي بحياتنا ليبقى في السلطة*". ولكن تتفق الآراء بينهم ألّا خيار لديهم سوى الاستمرار بدعم النظام في مواجهة التطرف

(1) "الرئيس السوري بشار الأسد يفوز بفترة رئاسية ثالثة". BBC Middle East, 5 June 2011.

(2) أيمن جواد التميمي "فجر الدولة الإسلامية في العراق والشام". Current Trends in Islamist Ideology, 16 (2014)

(3) علي معموري "لماذا لا تتعاطف الدولة الإسلامية مع حماس". Al-Monitor, 29 July 2014, http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2014/07/islamic-state-fighting-hamaspriority-before-israel.html.

الديني عند أغلب مقاتلي المعارَضة. قالت إحدى النساء: "*لو توقفنا عن القتال الآن فهذا يعني الموت المحتم لنا جميعاً*"[1].

توافَقَ استمرار دعم العَلَويين لنظام **الأسد** مع تصاعدِ أكثر ما كانت تخاف منه الطائفة دائماً: الإيديولوجية السنّية الإسلامية الأصولية. أمام هذا الخطر المحدق يُتوقع أنْ يستمر العَلَويون بدعم نظام **بشار الأسد**. ففي طريقهم الطويل نحو الاندماج والأمن في سورية قد لا يكون ذلك حلا يمكن تحقيقه، وربما لن يؤدي إلا للدخول في دائرة الكراهية والحرب والخوف. ربما أدرك العلويون في الفترة القادمة أهمية الفوائد العملية للتخلي عن عائلة **الأسد**، ويحاولون تأسيس تحالفات تتجاوز الاختلافات الطائفية مع فئات المعارَضة المعتدلة. فكرة الديموقراطية المتعدّدة التي طَرَحَتْها الثورة السورية في سنة 2011 ربما تكون الفكرة المؤثرة الوحيدة التي يمكن أنْ تقف في وجه انتشار التطرف الإسلامي.

الخلاصة

يبدو ظاهرياً أنّ **بشار الأسد** قد وصل إلى نهاية العقد الأول مِنْ حكمه منتصراً، فقد تَغَلّب على كافة الضغوط والتحديات الخارجية والداخلية[2]. الشعب السوري الخائف مِنَ الكلام، أو مِنَ التصرف العلني خشية السجن الاعتباطي أو التعذيب، لَمْ يُقدِّم أية إشارة بأنه سيتحدى سلطة **بشار الأسد** حتى انطلق الربيع العربي. وكان العَلَويون أهم عنصر في استمرار حكم **الأسد**. رغم أنّ ديانتهم وهويتهم قد تمّ كبتها وإهمالها مِنْ جهة النُخبة في النظام، إلا أنّ الطائفة ظلّتْ بشكل عام مخلصةً لحكْم عائلة **الأسد**، فيما عدا لمحاتٍ مِنَ المعارَضة المتحررة بين شباب العَلَويين وبعض المثقفين منهم.

بينما تمسَّكَ العَلَويون بحُكْم **الأسد**، تزايدت الاضطرابات المدنية في سورية تحت السطح تدريجياً بسبب السخط الاجتماعي-الاقتصادي والبيئي والديني

(1) "العَلَويون السوريون يخشون زيادة الوفيات". Al-Monitor, 5 Aug. 2014

(2) انظر مثلاً: سورية، هل انتصرت؟ الإيكونوميست 26 نوفمبر 2009. أيمن عبد النور، موسم القوة في سورية *Gulf News*, UAE, October 9, 2009

والسياسي. وساعَدَ على إمكانية الثورة في سورية تطور تقنية الاتصالات التي قَدَّمَتْ وسائل جديدة للحوار السياسي. طَرَحتْ هذه التطورات تهديدات وفرصاً للطائفة العَلَوية في الوقت نفسه، وإنّ صمود ومرونة العصبية الطائفية ربما تقود العَلَويين إلى التكاتف والاستمرار في دعم عائلة **الأسد** بقوة، رغم أن حكْمها يتجه نحو الضعف والانهيار. وقد يؤدي ذلك إلى معاناة الطائفة العَلَوية من النتائج السلبية لانهيار حكم عائلة **الأسد**. مِنْ ناحية أخرى فإنّ أكثرية شباب سورية، الذي يريد ويستطيع الانخراط في حوار سياسي عابر للطوائف، ربما يُقدّم فرصة أخيرة للعَلَويين في التغلب على خوفهم الطائفي، والاندماج في المجتمع السوري. لاحَظَ **ابن خلدون** محقاً أنّ: "*كل دولة لها عمر محدود*"[1]. سيحل انهيار حكْم عائلة **الأسد** عاجلاً أو آجلاً، إلا أنه لا بد أنْ يأتي. أما الذي قد يحدث للطائفة العَلَوية عندما تأتي تلك اللحظة، فهو متروكٌ لتوازنات المستقبل.

(1) كتب ابن خلدون: كقاعدة عامة، لا تستمر الدولة أكثر من ثلاثة أجيال. المقدمة. صفحة 136

الخاتمة

تحدي التغلب على الخوف الطائفي: نهاية العصبية؟

قاد الشيخ **الطَبَراني** العَلَويين إلى الجبال الساحلية الوعرة سنة 1008 بسبب الاضطهاد وعدم التسامح الديني. وبعد ألف سنة، في 12 ديسمبر 2009 تَجمَّعت النواة الأساسية لأفراد عائلة **الأسد بشار وماهر وبشرى** في القرداحة في جنازة أخيهم **مجد**[1]. بعدها بأيام أُقيمَتْ جنازة أخرى للرئيس السابق **أمين الحافظ**، وهو آخر شخص حَكَمَ سورية قَبل عائلة **الأسد**، بعد أنْ توفي بدمشق عن عمر بلغ 89 سنة[2]. كان **حافظ الأسد** قد أسَّس حكْم عائلته في سورية قبل ذلك بحوالي 40 سنة.

سَمَحَتْ عصبية العَلَويين بتأسيس وترسيخ واستمرار حكْم عائلة **الأسد**. وحسب نظرية **ابن خلدون** فإنّ عصبية العَلَويين كان يجب أنْ تبدأ بالضعف في المرحلة الثانية مِنْ حكمها، إلا أنّ ذلك لَمْ يحدث. ولذا تَبرز الحاجة إلى تعديل نظرية **ابن خلدون** لأخذ الهوية الطائفية، وبشكل خاص الخوف الطائفي، بعين الاعتبار كعاملٍ هام في المحافظة على عصبية الجماعة، كما ظَهَر بوضوح في هذه الدراسة.

الآثار المترتبة على صمود ومرونة العصبية الطائفية لها أهمية كبيرة في أحداث الثورة السورية الجارية، وكذلك في استمرار الحكْم الاستبدادي في الشرق الأوسَط وفي كل مكان. وبالمثل، يمكن مقارنة مستويات العصبية والخوف لدى فئات

(1) وفاة الأخ الأصغر للرئيس السوري. *Press TV*, Tehran, December 12, 2009

(2) الرئيس السوري السابق أمين الحافظ يتوفى عن عمر 89 سنة. الأسوشييتدبرس. دمشق. 17 ديسمبر 2009. فيما عدا الدور القصير الذي قام به عبد الحليم خدام في تسيير أمور الدولة في سنة 2000.

عرقية، مثل التوتسي Tutsi والهوتو Hutu في رواندا. حتى في الديموقراطيات الغربية هناك مجال لتحليل النتائج السياسية بعيدة المدى "للشعور الجماعي" مِنْ وجهة نظر **خلدونية**، كما هو الحال في دراسة الماوري Maori والباكيها Pakeha في نيوزيلاندا.

مِنَ المدهش أنْ يتوصَّل فرد مِنْ أحد أكثر الأقليات مَهَانة في الشرق الأوسط إلى تأسيس سلالة حاكمة في قَلْب الأغلبية السنيّة في الشرق الأوسط. إلا أنّ مُفكِّر القرن الرابع عشر **ابن خلدون** قدَّم تفسيراً لإمكانية حدوث ذلك. ويبيّن ذلك أنّ **ابن خلدون** هو مفكر ذو أهمية في فهم العالَم المعاصر هذه الأيام. وتؤكد دراسة حالة العَلَويين، مع إضافة نتائج خوف الأقليات الطائفية، فرضيةَ **غسان سلامة** أنّ الدول المستبدة الضعيفة في الشرق الأوسط تعاني، وفق المنطق **الخلدوني**، مِنْ صعوبة انتقال *"الولاء مِنَ الجماعات التقليدية إلى الدولة الحديثة"*[1]. لابد مِنَ الإقرار بوجود حدودٍ لإمكانية تطبيق أفكار **ابن خلدون** في تفسير مسارات استراتيجية واقتصادية وجغرافية-سياسية واسعة، كما بيَّنَ **ويليام هاريس** William Harris[2]. إلا أنه بتعديل النظرية السياسية **لابن خلدون** بحيث تشمل الخوف الطائفي، تُصبِح وسيلةً ثمينة لتفسير التغيرات السياسية في الشرق الأوسط المعاصر.

لا يُقصد هنا القولُ بأنّ الطائفية هي جزء لا يتجزأ مِنْ سياسة الشرق الأوسط، فمثلاً رغم أنّ حكْم عائلة **الأسد** قد تأسس بواسطة العَلَويين، إلا أنه ليس نظاماً عَلَوياً، بل هو نظامُ "نخبة قليلة قادرة على استنساخ نفسها"، استطاعتْ أنْ تستفيد مِنَ العَصَبية العَلَوية، التي اشتدّ صمودها بسبب الخوف الطائفي[3]. النظامُ العَلَوي بالتعريف يعني نظاماً يفيد العَلَويين، وكما وضَّحتْ هذه الدراسة لَمْ تكن تلك هي الحالة بالنسبة لأكثر العَلَويين، الذين لَمْ يحصلوا على أي فائدة تُذْكَر

(1) غسان سلامة. الدول القوية والضعيفة، عودة مناسبة إلى المقدمة. تحرير غسان سلامة، أسس الدولة العربية. الجزء الأول. (New York: Croom Helm, 1987) صفحة 223

(2) ويليام هاريس William Harris، الهلال الخصيب، فسيفساء محطمة، (Princeton: Markus Wiener, 2003). صفحة 58

(3) فولكر بيرثيس Volker Perthes النخبة العربية: التفاوض في سياسة التغيير. (Boulder: Lynne Riener, 2004) صفحة 110

مِنْ نظام **الأسد**، سوى إحساسهم الخاطئ بالأمن والسلامة. بُذِلَتْ جهودٌ كثيرة مِنْ عَلَويين وسنيّين وأقليات أخرى للوصول إلى تكامل واندماج سياسي حقيقي في سورية بعد الاستقلال، وربما كانت النتائج أفضل لولا تأثير الخوف الطائفي وخوف الأقليات وعدم الثقة والاطمئنان.

كيف ساعد **ابن خلدون** على تفسير تاريخ العَلَويين ونهضتهم مع حكم عائلة **الأسد؟** كان مِنَ الضروري دراسة كيف تطوَّرت السوية المرتفعة مِنْ عصبية العَلَويين أصلاً. مِنَ المؤكد أنّ السبب الرئيسي في ذلك كان اضطهادهم المستمر، والتمييز في معاملتهم على يد المسلمين السنّة. تلك كانت حالتهم في العراق، وفي سورية، وفي ملجئهم الوعر في الجبال الساحلية. عاملٌ آخر كان في انتقال الطائفة إلى مجتمع قَبَلي ريفي كنتيجة مباشرة لتهميشهم. وأثناء عزلتهم في ملجئهم الجبلي لمدة قرون، أصبح العَلَويون أكثر اعتماداً على أنفسهم، وأكثر بداوة و"توحشاً"، مما يؤدي وفق **ابن خلدون** إلى تطور مستويات مرتفعة مِنَ العصبية القوية. إلا أنّ تضاريس الجبال الساحلية الوعرة والاقتتال القَبَلي وتدخلات القوى الخارجية مَنَعَتْ تشكل عصبية طائفية واسعة على مر قرون عديدة. وبشكل أساسي، وليس باختيارهم، كان العَلَويون منبوذين في العالَم الإسلامي الذي كانوا جزءاً منه ذات يوم، ثم تطورَتْ هويتهم الخاصة تدريجياً، وأصبحتْ فيما بعد ذات أهمية سياسية عندما حاولوا العودة إلى المجتمع الإسلامي العام.

باختصار، يساعِد **ابن خلدون** على توضيح سِمات الطائفة العَلَوية، التي تؤدي إلى مستويات مرتفعة مِنَ العصبية، تجعل صعودهم السياسي محتّماً. إلا أنّ نظرياته لا تقدم تفسيراً جيداً عن الكيفية التي نشأتْ بواسطتها هذه السِمات. أدى إهماله لقضايا الطائفية إلى عدم أخذه مسائل الاضطهاد بعين الاعتبار في دراسة تطور الشعور الجماعي. وربما يرجع ذلك إلى تجانس الإسلام النسبي أثناء الفترة التي عاش فيها. وعلى كل حال فإنّ صمود حكم السلالة الفاطمية الشيعية الاسماعيلية في مصر مِنَ القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر كان ضمن مجال دراساته التاريخية.

بينما كانت الامبراطورية العثمانية تنهار، وسورية الحديثة تبدأ في التشكل، لَعِبَت العصبية العَلَوية دوراً هاماً في تطور الدولة. مَنَح جريان الأحداث السياسية

بعضَ أفراد العَلَويين وضعاً مناسباً لترسيخ زعامتهم وتحريك العصبية العَلَوية. وفي غياب السلطة العثمانية توصَّلَ **اسماعيل خير بك** إلى الأهمية السياسية، ولكنْ تمَّ القضاء على مسيرته القصيرة عندما عادت السلطة المركزية بعد حدوث تغييرات استراتيجية واسعة، ونتيجة عوامل جغرافية سياسية. يؤيد ذلك تساؤلات **ويليام هاريس** William Harris عن محدودية تطبيق نظرية **ابن خلدون**.

يمثل صعود **حافظ الأسد** نمطاً **خلدونياً** نموذجياً، إلا أنه حَدَثَ في سياق جغرافي-سياسي مختلف جداً. ففي داخل حدود سيادة الدولة السورية المقتَطَعة، أصبح للعَلَويين أهمية سياسية أكبر. وتزداد أهمية العَلَويين السياسية عندما يُنظَر إليها في سياق عصبيتهم المرتفعة. وهكذا عندما رسّخ **حافظ الأسد** زعامته بين العَلَويين، استطاع أنْ يسيطر على الدولة السورية.

ومرة أخرى يجب التأكيد على أنّ الطائفية لَمْ تكن الدافع الأصلي لدى تلك الفئات أو الأفراد الذين حاولوا تأسيس دولة مستقلة مختلفة. إلا أنّ نوعاً مِنْ مشكلة الأمن وخوف الأقليات وعدم الثقة العرقي-الطائفي قد حدث بين الطوائف أثناء سعيها في ظروف سياسية مائعة للتوصل إلى تصالح مع مخاوفها الطائفية التي امتدت عدة قرون. كان لدى العَلَويين أسباب أقوى للشعور بالخوف وعدم الاطمئنان مِنْ أغلب الآخرين، بسبب كونهم في جهةِ تَلَقّي تمييز السنّة ضدهم على مر تاريخهم الطويل، مما يفسر سبب تمسكهم بنظام **الأسد** ودَعمِهم لأفكار البعث العلمانية. ظلّ **حافظ الأسد** مرتبطاً بجذوره العَلَوية العميقة، وساعدتْ سياسته العملية الحَذِرة في تحسين صورته لدى العَلَويين. وقد قدَّمَ على الأقل بعض الفوائد والمزايا للطائفة العَلَوية كلها، وترأس نظامَ بطانةٍ خاصة مغلقة تشبه نموذج **ابن خلدون** في المرحلة الأولى مِنْ تشكّل الدول. تَغيّر الوضع تماماً بعد هجوم الإخوان المسلمين في الفترة 1976-1982 التي انتهت بمذبحة حماة. وأصبحتْ سياسة الخوف الطائفي وعدم الاطمئنان هي العامل الوحيد في السياسة السورية، وسقطتْ سورية في ظلام القَمع العنيف الذي يدعمه العَلَويون.

تتداعى نظريات **ابن خلدون** في تفسير استمرار قوة عصبية العَلَويين في المرحلة الثانية مِنَ الدولة. بعد سنة 2000، لا يمكن تفسير السلوك السياسي

للعَلَويين بشكل واضح إلا بسبب الخوف الطائفي. فبينما توقّع العَلَويون أنّ وراثة الحكْم ستؤدي إلى استمرار الأمن الاجتماعي السياسي، واستمرار المساواة التي عايشوها تحت حكم **حافظ الأسد**، أدت الضغوط المتزايدة إلى زيادة الضغط على عصبية العَلَويين، وحدثَ ذلك بسبب قلة تفهم **بشار الأسد** لمصالح العَلَويين، ولأهمية المحافظة على دعمهم وتأييدهم. والسياسات الاقتصادية التي طبَّقَها لَمْ تكن مُحبَّذَة لدى العَلَويين العاديين، خاصةً مع ظهور فروق كبيرة في توزيع الثروة بين الأفراد المقرَّبين مِنَ النظام وأغلب أفراد الطائفة العَلَوية. توقّفَ تطوير البنية التحتية الأساسية والتطور الاجتماعي الاقتصادي الذي حَصَل عليه العَلَويون تحت حكم **حافظ الأسد**، بل وتراجع في بعض الأحوال. كما أنّ "خصخصة الفساد" وإهمال الريف السوري في تلك الفترة تُذكِّر بما وصفه **ابن خلدون** في تصوير الحاكِم الذي يشترك في التجارة ويسيء إلى رعاياه كظاهرة في مرحلة تدهور الدولة. وربما كانت تلك العوامل من الأسباب الرئيسية للثورة ضد النظام التي بدأت سنة 2011.

مِنْ حيث الكفاءة في فن الحكم وإدارة الدولة، افتقد **بشار الأسد** السياسة العملية الواقعية الدقيقة التي تمتَّع بها والده. كان ذلك أوضح ما يكون في السياسة الخارجية، حيث أدتْ سلسلة مِنَ الحسابات الخاطئة وسوء التقدير تحت تأثير مستشارين مقرَّبين **ببشار الأسد** إلى استقطاب نقمة معظم المجتمع الدولي على نظام حكمه. وعندما وُضِعَ النظام تحت ضغوط دولية قوية، سَمَحَ **بشار الأسد** لحلفائه الخارجيين، إيران وحزب الله، لكي يصبحوا أكثر سيطرة ونفوذاً في علاقاتهم مع سورية. يعكس ذلك تنبؤات **ابن خلدون** أنّ الدولة في مرحلة الضعف والانهيار تصبح أكثر اعتماداً على دعم حلفائها ومؤيديها مِنْ خارج جماعتها وقومها.

أغلب العوامل التي وصَفَها **ابن خلدون** في مرحلة ضعف العصبية كانت موجودة في العقد الأول مِنْ حكم **بشار الأسد**، إلا أنّ خوف الطائفة مَنَعَ حدوث أي ضعف حقيقي في دعم وتأييد العَلَويين للنظام. وكان ذلك جزئياً بسبب إجراءات **بشار الأسد** في إثارة الريبة والخوف الطائفي لدى العَلَويين، والذي أضافتْ إليه الفوضى الطائفية في العراق ولبنان والثورة في سورية.

بشكل عام، يستطيع **ابن خلدون** أنْ يفسِّر كامل التاريخ السياسي للعَلَويين إذا أضفنا إلى نظريته دور العصبية الطائفية في تفسير صمود واستمرار دعم العَلَويين لنظام **الأسد**. ويَشمل عامل الخوف الطائفي أسباب ونتائج الخوف وعدم الثقة بين الطوائف الدينية. تنغرس أسباب الخوف وعدم الاطمئنان عميقاً في جذور تاريخ الطائفة العَلَوية. ساعد خوف العَلَويين وعدم اطمئنانهم على تأسيس وتثبيت حكم عائلة **الأسد** الاستبدادي، إلا أنّ النتيجة النهائية للخوف الطائفي ستكون الحرب الأهلية في سورية.

عندما انتهت الفترة المقررة لهذا البحث في أواخر سنة 2010، كان يبدو أنّ نظرية الباحث التونسي **ابن خلدون** في ضعف عصبية الجماعات ستفشل في تفسير حالة سورية وعدم حدوث الانهيار السريع لحكم عائلة **الأسد**. ولكن يبدو أنّ استمرار خوف طائفة العَلَويين سيضمن استمرار حكم **الأسد** في المستقبل المنظور على الأقل. وفي 17 ديسمبر 2010 قام تونسي آخر، هو البائع المتجول **محمد بوعزيزي**، بإحراق نفسه تعبيراً عن شعوره بالإحباط التام، واعتراضاً على الفساد والظلم في بلده[1]. أشعَلَ الحدثُ نار الغضب العربي التي انتشرت بسرعة في أرجاء الوطن العربي بفضل تقنيات الاتصال الحديثة ووسائل الإعلام الاجتماعية. انطلاقاً مِنْ تونس، أدى فِعل **بوعزيزي** إلى انتشار موجةٍ مِنَ الثورات العربية التي وصَلَتْ إلى جنوب سورية في 15 مارس 2011 على الرغم مِنْ تصريحات **بشار الأسد** وثقتِه بشعبيته[2]. حاول المتظاهرون منذ اليوم الأول طَمأنَة العَلَويين على أمنهم وسلامتهم. سُمِعَ صوتٌ خلفي في فيلم وُضِعَ على برنامج "يوتيوب YouTube" يقول: "*اليوم 15 مارس... هذا أول أيام الثورة ضد نظام **الأسد**... عَلَويون أو سنّيون، كلنا سوريون ونريد إسقاط النظام*"[3]. بعد عشرة أيام انطلقتْ مظاهرات معارِضة للنظام في اللاذقية، المدينة العَلَوية ومعقل النظام القوي.

(1) موت بائع متجول يشعل ثورة شعبية. فاينانشيال تايمز. 17 يناير 2011

(2) انظر مقابلة مع الرئيس السوري بشار الأسد. *Wall Street Journal*, January 31, 2011

(3) معارضة نادرة تقوم في سورية. الجزيرة. 16 مارس 2011

غيَّرَتْ هذه الأحداث فوراً الموقفَ السياسي للعَلَويين الموالين، وأجبَرَتهم على مواجهة حقيقة علاقتهم بحكم عائلة **الأسد**. كان التحدي الذي واجهته الطائفة العَلَوية السورية هو فيما إذا كانوا يستطيعون التغلب على خوفهم الطائفي، ويتَخلَون عن عائلة **الأسد**. كان هذا الصراع مستمراً داخل الطائفة العَلَوية عند كتابة هذا البحث، وكانت هناك علامات تشير إلى احتمال حدوث ابتعادٍ عن النظام، بطريقة تُذَكِّرُ بما فَعَله العَلَويون سنة 1936 في تطبيق أسلوبهم العملي الواقعي. سَرَتْ شائعاتٌ في أواخر يونيو 2011 أنّ زعماء عَلَويين دينيين اجتمعوا مع أئمة مِنَ السنّة بحثاً عن ضماناتٍ لأمن العَلَويين مقابل تَخَليهم عن عائلة **الأسد**[1]. كما عاد إلى مشهد الأحداث العَلَويون المتحررون مثل **عارف دليلة** و**لؤي حسين**، وخَرَجوا مِنْ صَمتهم الطويل، وحاوَلوا خَلْقَ جسور تواصل بين العَلَويين والطائفة السنيّة في سورية[2]. وربما قام مزيد مِنَ العَلَويين باتخاذ خطوات عملية لفصل أنفسهم عن تلقي اللوم بشأن فظائع نظام **الأسد**.

بغَضّ النظر عن نتائج الثورة السورية، سيكون هناك واقع سياسي جديد في سورية عاجلاً أو آجلاً. ومِنَ الممكن أنْ يؤدي استمرار مسألة الخوف وعدم الأمن والثقة بين الطوائف في ظروفٍ سياسية مائعة إلى بدء دورة **خلدونية** جديدة. وقد تَصعَد جماعةٌ تتمتع بمستوى أقوى مِنَ العصبية، وتؤسس دولة استبدادية جديدة. وهذه هي المعضلة التي تواجه جميع الدول العربية المتغيرة. فمثلاً إنّ ظهور عصبية قَبَلية في ليبيا، أو كردية في العراق، أو عصبية قَبَلية-طائفية في اليمن، تقع كلها في نطاق هذا الاحتمال.

ماهي الاستجابات الممكنة لمشاكل الاندماج والتعايش الاجتماعي في الشرق الأوسط؟ يقول **أرنت ليفارت** Arendt Lijphart أنّ: "*التوافقية هي... الاحتمال الواقعي الوحيد في المجتمعات المنقسمة عرقياً ودينياً*"[3]. ويناقش **دونالد هوروفيتز**

(1) شيوخ عَلَويون بارزون يشجبون فظائع نظام الأسد. العربية. دبي. 12 سبتمبر 2011

(2) شخصية سورية معارضة تبدأ الحوار. رولا أمين. الجزيرة. 11 يونيو 2011. تقارير: شخصيات المعارضة السورية. الجزيرة. 27 يونيو 2011

(3) أرنت ليفارت Arendt Lijphart التفكير بالديموقراطية. (Oxon: Routledge, 2008) صفحة 279

Donald Horowitz ذلك قائلاً: "*هناك دورة أسباب ونتائج في نظرية التوافقية، وإنّ تطبيقها على المجتمعات المنقسمة بشدة في آسيا وأفريقيا يظل صعباً*"[1]. بكلمة أخرى، تنظيمُ السياسة على الخطوط العرقية-الدينية لا يؤدي إلا إلى تجسيد الهويات المتباعدة، والعودة إلى الصراع في نهاية المطاف. والحالة اللبنانية هي الحالة النموذجية التي توضح المخاطر الكامنة في أنظمة المشاركة في السلطة بالاستناد إلى الطائفية المؤسساتية. وبينما يتمتع سكانها بحرّيةٍ أكبر بكثير مِنْ دول البحر الأبيض المتوسط بشكل عام، فإنّ التنافس وانعدام الثقة بين الطوائف المُعبأة سياسياً أدى إلى عنف كارثي وشَللٍ متكرر في عمل الدولة. كما أنّ القمع التام للهوية الدينية ليس ممكناً إلا بالمعاناة مِنَ القمع السياسي، مثلما وضّحَتْ حالة سورية.

ربما يجب أنْ يتوصل العَلَويون أنفسهم إلى الإجابة على هذه المعضلة، وتقديم نموذج جديد مِنَ التكامل والتعايش السياسي. وإنّ تجربة العَلَويين في التعايش في حالةِ أمنٍ غير مُستتبّ عبر تاريخهم، وديانتهم التوفيقية التي تضمّ عناصر مِنْ تقاليد دينية عديدة، ومَيلهم التاريخي إلى العملية الواقعية، يؤهِّل العَلَويين كمصدرٍ للمعرفة والخبرة في التكامل والاندماج السياسي. خيارات العَلَويين السياسية فَرَضَتها عليهم في أغلب الأحيان الأهدافُ العملية والواقعية مِنْ أجل تحقيق أمنٍ وسلامة الطائفة، وليس بسبب إيديولوجيةٍ أو فلسفةٍ سياسية محددة. ولذلك غالباً ما تبدو سياستهم متناقضة، مثلما تبدو مركزية "الولاءات البدائية" متناقضة مع تبنّي نظام البعث العلماني المتشدد[2]، أو رغبة العَلَويين بالانضمام إلى الديموقراطية اللبنانية الطائفية المتعددة سنة 1936 التي تتناقض مع تبنّيهم إيديولوجية قومية عربية متجانسة.

كانت الدولة العَلَوية في الفترة 1922–1936 توافقية في تصميمها الأساسي، فقد خُصِّصَتْ فيها مقاعد في مجلس النواب للطوائف المختلفة. إلا أنّ تصميم وطريقة عمل الدولة العَلَوية كان اختراعاً مصطنعاً، قَصَدَتْ منه فرنسا التأكيد على الانقسامات الطائفية. هل كان العَلَويون يفضّلون فعلاً الانعزال في حُكْمٍ ذاتي

(1) دونالد هوروفيتز Donald Horowitz الجماعات العرقية المتصارعة. (Berkeley: University of California Press, 1985) صفحة 570–576

(2) فان دام Van Dam صفحة 144

بمناطقهم في شمال غرب سورية؟ هذه نقطة حوار خلافية، لأنّ عدم وجود خيارات حقيقية أخرى أمامهم لَمْ يترك لهم الفرصة سوى القيام بتنازل عملي، والانضمام إلى الأغلبية السنّيّة في الدولة السورية.

عندما انهار الحزب القومي السوري الاجتماعي الذي كان يركّز على الوطنية السورية، أصبَحَت القومية العربية العلمانية المتشددة لحزب البعث أفضل الخيارات المتبقية أمام العَلَويين. وبناءً على ذلك أصبَحَت الطائفة مغمورةً كطائفة محددة، مما طَمْأَنَ مخاوفهم مِنْ تعصب السنّة. ولكن هل فَضَّلَ العَلَويون بالفعل ألا يتمكنوا مِنْ إظهار هويتهم الدينية بشكل علني واضح؟ يبدو أنّ أفضليات العَلَويين السياسية تستند إلى مبادئ رئيسية ثلاثة: الأمن والمساواة والتنوع. كان ذلك واضحاً في حديث زعماء الطائفة العَلَوية مع المؤلف. فمثلاً في مارس 2011 قال الشيخ العَلَوي **محمد بوز** للمؤلف:

"*ليس لدينا أية أحقاد أو كراهية. نحن نؤمن بالله الرحيم الذي خَلَق جميع البشر. ولو أراد لَخَلق كل الناس مسيحيين أو يهود أو عَلَويين.. غير أنّ الله أراد التنوع. فهذا عَلَوي وهذا يهودي وذلك مسيحي. نحن نقبل كل ذلك ولا نمّيز بين الأديان*".

التنوع بالنسبة للعَلَويين هو الحالة المثالية، وهو "إرادة الله". ويتناقض ذلك مع المبادئ البعثية التي تسعى إلى توحيد المواطنين في أمة عربية واحدة، واستبعاد كل هوية أخرى. إضافةً أخرى تشرح وجهة نظر العَلَويين ظهرَتْ في توضيح الشيخ **علي ييرال** في أنطاكية لِمَا يَعتبرها الظروف السياسية المثالية:

"*تفيد الديموقراطية كل الناس، وهذا يعني أنها تفيد العَلَويين والسنة والمسيحيين واليهود... إذ يستطيعون التعبير عن أنفسهم، فيقولون مثلاً: أنا لا أؤيد سياسة* ***بشار الأسد***، *إلا أنني لن أخون أمتي، ولن أهاجم ولن أقتل. عندما تكون لدي وجهة نظر مختلفة، وتستطيع أنت أيضاً أنْ تحمل وجهة نظر أخرى*".

صَوَّرَ الشيخ **علي ييرال** حالةً سياسية ديموقراطية تحررية مع حرية في التعبير والانتماء الديني. تختلف وجهة النظر هذه مع النموذج البعثي الذي يَتطلّب الامتثال لآمال الجماهير ووحدة الأمة. كما أنّ النموذج السياسي العَلَوي المثالي لا يبدو

توافقياً، بل يُكرّس المساواة في المواطَنة، وهي أولوية مفهومة بالنسبة لطائفةٍ عانت طويلاً مِنَ الاضطهاد والتمييز.

لا يريد العَلَويون بالضرورة دولةً عرقية-دينية أيضاً. في تعليقِ الشيخ **علي بيرال** على احتمال دولة على نمط الدولة العَلَوية في فترة 1922-1936 قال:

"*لا نريد ولا نفكر بتقسيم سورية... دعوها دولة واحدة متحدة... لا أعتقد أنّ سورية ستُقسَّمْ، بأنْ تكون مثلاً اللاذقية وضواحيها للعَلَويين، وشرق سورية للسنّة*".

أيد ذلك الموقف الناشطُ العَلَوي المعارِض وعضو مجلس الشعب السوري **منذر محفوظ** قائلاً:

"*لا أستطيع إنكار أنّ بعض المجانين يريدون دولة عَلَوية مستقلة، ولكنهم قلة قليلة ولا يدركون أنّ خطة كهذه لن تدمّر سورية فقط بل ستدمّر العَلَويين أنفسهم*"[1].

في يوليو 2014 قام المعارض العَلَوي البارز وحفيد الشيخ **صالح العلي** المحامي **عيسى إبراهيم** بالاتفاق مع **حيدر الحسن**، وهو شاب عَلَوي كان يدرس العلوم السياسية في جامعة دمشق، واقترحا معاً برنامجاً للحالة السياسية التي يمكن أنْ تكون عليها سورية بعد الثورة[2]. تتوافق السّمات العامة لبرنامجهما مع الشكل السياسي لجمهوريةٍ ديموقراطية. تضمَّن اقتراحهما أنّ أكثر ما يهتم به العَلَويون هو أنّ النظام السياسي الجديد يجب أنْ يُمثّل التنوع الموجود في الشعب السوري دون اللجوء إلى نموذج تقسيمات طائفية في مشاركة السلطة، كما يجب أنْ يَمنَع التمييز العرقي أو الطائفي في الحقوق المدنية والقانونية. وقد كانت تلك بالطبع مشكلة تاريخية بالنسبة للعلويين على مدى قرون عديدة تحت الحكم السنّي. كما اقترحا ضرورة أنْ تَفصِل الدولة في مجال السياسة والدين بين الحياة الشخصية والحالة المدنية (انظر البرنامج المقترح في الملحق). ربما يكون هذا الاقتراح الأخير مِن أصعب القضايا التي يجب الاتفاق عليها في المستقبل.

(1) العلويون السوريون يكرهون الأسد، شخصية معارضة. العربية. 20 ديسمبر 2011

(2) عيسى إبراهيم وحيدر الحسن. مراسلات مع المؤلف في يوليو 2014. انظر الملحق لقراءة الوثيقة.

لطالما كان الدِّين جانباً أساسياً في ثقافة الشرق الأوسط، وسيظل كذلك دائماً. ولذلك يجب الانتباه إلى كيفية أخذه بعين الاعتبار في أي نظام سياسي. عند البحث عن حلٍ لإنهاء دائرة الخوف في شرق المتوسط، يبدو أنّ الإجابة لن تكون في ترتيب توافقي لتقاسم السلطة يُجسِّد الهويات السياسية-الطائفية المختلفة، ولا بتأسيس نظام علماني صارم يَقمَع كل إشارة إلى الهوية الطائفية أو "بلقنة" الدولة بانقسامات سياسية عرقية-طائفية، إنما الأفضل هو تأسيس دولة تعددية حقيقية تَعترف صراحة بالهويات الموجودة المختلفة تحت ظِلّ المساواة في المواطنة. وبدلاً من إخفاء وقمع الهويات، مثلما حَدَثَ في ظلّ التقية أو البعثية، يجب إظهار الاختلافات في حالة مواطنةٍ فسيفسائية متنوعة ومختلطة ومتكاملة[1]. أو حالة انفتاح انتقائي تعكس بشكل تام التنوع والتعدد الموجود في شرق المتوسط، كما وصَفَها الشاعر العَلَوي **أدونيس**: "بوتقة منصهرة مِن الهويات المتعددة الطبقات"[2]. لا يمكن توقع ما سينتج عن الصراع في سورية، ويصعب التنبؤ بشكل النظام السياسي والاجتماعي الذي سيَنشأ على أنقاض الدولة السورية. ولكن لعل أهمّ نتائج الحرب هي ضرورة التوصل إلى حل مشترك صادق وصريح للخلافات الطائفية، وكسر دائرة الخوف بين فئات المجتمع بطريقة لَمْ تكن ممكنة ولَمْ تتمّ محاولتها من قبل[3].

ضمان الأمن والاطمئنان لجميع الطوائف والفئات في الدولة هو المفتاح لمنع تكرار السياسات **الخلدونية** الدَورية. توضّح دراسة حالة العَلَويين السوريين أنّ نظرية **ابن خلدون** في دورةِ صعود وانهيار الدول ليست حالةً لا يمكن تجنبها في سياسات الشرق الأوسط. إذ تنشأ السياسات **الخلدونية** عن جوانب سلبية في سلوك البشر، تشمل مِنْ ناحية: التعصب والتمييز، ومِنْ ناحية أخرى: الخوف وغياب الثقة والاطمئنان. في الظروف السياسية الملائمة يمكن منع ذلك السلوك، أو

(1) ديفيد هيلد David Held "العالمية: الأمثلة والواقع". Cambridge: Polity Press, 2010.

(2) فرانك سلامة "أدونيس، الأزمة السورية ومشكلة التعدد في شرق المتوسط". Bustan. The Middle East Book Review, 3 (2012) p. 36

(3) كريستا سالاماندرا Christa Salamandra "الطائفية في سورية: انطباعات إنسانية". Middle East Critique, 22, 3 (2013), p. 305-6

تلطيفه، بغض النظر عن السياق الثقافي. وتحتاج الإجابة عن أفضل السبل لتحقيق هذه الظروف في الشرق الأوسط إلى بحثٍ واسع النطاق.

وفي هذه الأثناء، في عصر يوم 25 مارس بمدينة اللاذقية، أسرَعَ صديقي العَلَوي عائداً إلى وحدته العسكرية في دمشق، حاملاً مصير طائفته ومصير سورية بين يديه. هل سيَقبَلُ العَلَويون أمثاله انهيار حكْم عائلة **الأسد** بشكل واقعي وعملي، ويقومون بخطوة إيمانية للانضمام إلى الأكثرية السورية؟ هل ستدفع عوامل الخوف الطائفي في عصبية العَلَويين إلى تَمَسّكهم بحكْم عائلة **الأسد** بينما تكافح بعنفٍ لاسترجاع سيطَرتها؟ بعد مرور سنين على الثورة، هناك طريق مسدود بين تصريح **الأسد** عن استعداده لجرّ العَلَويين وسورية والشرق الأوسط إلى حرب أهلية إذا استمر تحدي سلطته[1]، وبين إصرار المعارَضة على عدم العودة إلى الوراء[2]. وعَلِقَ العَلَويون العاديون وسط هذا الصراع المميت. المَخرج الوحيد للطائفة هو في إيجاد طريقة لتجاوز خوفهم الطائفي، والتَخلّي عن حكْم عائلة **الأسد**، والسعي إلى التَصالح مع الطائفة السنيّة. ستَظلُّ هناك فرصةٌ لظهور دولةٍ سوريةٍ ديموقراطيةٍ تعدديةٍ متنوعةٍ حقيقيةٍ إذا أمكن حدوث تغيير مِن سياسة الخوف التي أنشأتْ حكْم عائلة **الأسد** ودَعمتْ استمراره، إلى سياسةِ المُصالَحة والاندماج.

(1) أنتوني شديد، حليف للأسد يقول إن سورية ستقاتل المعارضة حتى النهاية. نيويورك تايمز. 10 مايو 2011

(2) رانيا أبو زيد، وقف إطلاق النار يصمد في سورية، وتبدأ المظاهرات من جديد. *Time World*, April 13, 2012

الملحق

رؤية مشتركة لما نعتبره حلاً في سوريا

1- المجتمع السوري متنوع وغني من النواحي الإثنية والطائفية والثقافية، وغني بتعدد الرؤى السياسية. ويَتوزع إجمالاً إلى فئتين: الأولى تقليدية محافظة، والثانية حيوية متطلّعة نحو أفق وطني وإنساني. ولا بد من ملاحظة هذه الحقائق لفهم طبيعة النظام السياسي المطلوب للتعبير عن هذه البُنية. وهنا نعتقد أنّ نظاماً سياسياً جمهورياً يجب أن يقوم على دستورٍ يُعَبِّر شرعياً عن هذه المكونات وعن هذا التنوع السوري، دستورٍ يقوم على مبدأ الفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية، ويكون الفيصل فيه للقضاء.

2- من المهم لمجتمع متنوع فيه خليط بين التقليدي والمتطلّع أن يكون نظامه السياسي نظاماً يراعي ذلك. وهنا نقترح تشكيل مجلس للشيوخ يُمَثِّل التنوع السوري بعضو واحد عن كل مُكوِّن اجتماعي بغضِّ النظر عن عدد أفراد كلِّ مُكوِّن. ويكون هؤلاء الأعضاء ممن لهم ثقل اجتماعي واقتصادي وديني، نساءً ورجالاً. وتكون مهمة هذا المجلس أنْ يأخذ الخيارات السورية العامة داخل المجتمع السوري، وعلى صعيد السياسات الخارجية وعلاقات الدولة السورية مع الدول الأخرى. وكذلك مجلس نيابي يُنتَخَب أعضاؤه انتخاباً مباشراً من السوريين، ويقوم بالإجراءات التفصيلية واقتراح القوانين وتصديقها. وتكون الغَلَبة من حيث الصلاحية بنسبة معقولة للبرلمان في النظام السياسي.

3- بعد السمعة السيئة لمقام الرئاسة وصيتها الدكتاتوري في سورية، يُفَضَّل أن يكون منصب رئيس الجمهورية منصباً قليل الصلاحيات، ويُعنَى بالإشراف والتوجيه والرعاية للمؤسسات. ويُعطَى منصب رئيس الوزراء تَسمية: وزير

أول أو مستشار، بحيث تكون صلاحياته أوسع، ويَخضَع لرقابة البرلمان ومجلس الشيوخ فيما يخصّ القرارات التي يمكن أن تؤثر على سيادة الدولة وسياستها العامة الداخلية أو الخارجية.

4- يتم انتخاب مجلس القضاء الأعلى بحيث يَضمُّ عضواً من كل محافظة بالانتخاب المباشر من الشعب، ويجب أن يكون ممن يَملِكون الشروط الواجبة والمؤهلات اللازمة لتَبوّء موقع في مجلس القضاء الأعلى.

5- تحييد الدولة ومؤسساتها، بما فيها الجيش، عن الدِين والسياسة، مع احترام حرية الاعتقاد والعبادات وحرية العمل السياسي وِفق قانون أحزاب عصري. هذا فيما يخص الرؤية العامة للمستقبل. غير أنه يجب البدء باعتماد دستور عام 1950 في المرحلة الانتقالية التي يجب ألا تتجاوز سنة أو سنتين للبدء في بناء الدولة الديمقراطية الوطنية الحديثة.

6- انتهاج سياسة تعليمية تَحترم هذا التنوع الديني والإثني والسياسي دون تفاضل فيما بينها، وعلى أن تكون بعض مواده التدريسية، مثل مادة التاريخ، في المدارس الابتدائية والمتوسطة خاضعة لقراءة مشتركة يقوم بها باحثون يمثّلون مكونات المجتمع السوري.

7- تُلغَى وزراة الإعلام بعد المرحلة الانتقالية، ويتمّ احترام حرية التعبير دون أن تَخضَع إلا لرقابة القانون العام.

8- يتم السماح والترخيص لمؤسسات المجتمع الأهلي والمجتمع المدني حسب القانون والجهة الإدارية المدنية.

9- إجراء محاكمات من أجل العدالة الانتقالية لمحاسبة المجرمين أياً كانوا وفي أي موقع على الأفعال الإجرامية التي ارتكبوها بحق المجتمع السوري. ويُترك ذلك للصيغة الملائمة التي يقترحها ممثلو القوى السياسية السورية.

10- اعتماد سياسة اقتصادية تراعي تنوع المجتمع السوري التقليدي والمتطلّع بحيث تكون الدولة راعية وموازنة بما يحقق العدالة الإجتماعية.

11- أما الجيش فيكون بإمرة وزارة الدفاع الممَثّلة بمجلس الوزراء عبر وزير مدني يقوم بتنفيذ القرارات السياسية للوزارة عبر قائدٍ عام للجيش خاضعٍ للتراتبية

القانونية دون تمييز طائفي أو إثني. ولا يُستخدَم الجيش في الداخل أو في الخارج إلا في حالة إعلان حالة الطوارئ، وبتوافق بين وزير الدفاع والوزير الأول، وعلى أن تتم المصادقة على ذلك من قِبَل مجلسي النواب والشيوخ خلال فترة شهر من تاريخ إصدار القرار.

لا نعتقد أنّ حلّ المسألة السورية يتم عن طريق التقسيم أو المحاصصة الطائفية، بل يجب أنْ يستند الحلُّ في سوريا، كما نراه ويراه آخرون مشتركون معنا هذه الرؤية، إلى السعي لإقامة دولة ديمقراطية وطنية حديثة.

أما فيما يَتعلّق بالخطاب المعارِض الحالي، فلكي يكون خطاباً وطنياً بمعنى الشراكة في الوطن والجنسية، وليس بالمعنى التفاضلي، فإننا نعتقد بضرورة اتخاذ إجراءات عدة منها:

1- إدراك المعارضة للتنوع الإثني والطائفي السوري، والتعامل معه على هذا الأساس عبر كلمةٍ سواء دون تفاضل إلا بين المجرم والمواطن دون النظر إلى خلفيته الإثنية والطائفية، بل النظر إلى فعله الإجرامي وخطورته.

2- أن تمد المعارضة جسور الثقة مع العلويين الشركاء في المواطنة، وأنهم ليسوا كتلة واحدة وراء نظام الأسد، وأنّ هناك تبايناً حقيقياً وموضوعياً في المصالح والرؤى بين الطائفة والأسد وحكْمه، وهي مصالح ورؤى مشتركة مع بقية السوريين.

3- عدم استخدام الدِّين في العمل السياسي تحت أي ذريعة كانت، لأنّ من شأن ذلك تفتيت المفتتْ داخل كل طائفة ودِين في سوريا، وإفساد السياسة كعِلم وفَنّ، والدِّين كإيمان ومعتقد.

4- يتوجَّب على المعارضة أن توازن بين مصالح الشعب السوري الداخلية وبين ضرورات صراع المصالح في الإقليم وفي العالم، وإدراك أنّ سوريا هي قلب العالم القديم، وما يحمله هذا الإدراك من ضرورة تبنّي سياسة متوازنة تقوم على المصالح المشتركة ومدِّ اليد باتجاه القوى الإقليمية والدولية المتنافِرة.

5- توحيد الجِهة التي تتلقى الدعم من كل الدول، وتكون هذه الجِهة التابعة للمعارضة خاضعة للرقابة، ويكون قبول المساعدات والدَّعم على أساس تبادل المصالح وليس على أساس الولاء.

حيدر الحسن وعيسى إبراهيم

بيروت وأنطاكيا - يوليو 2014

قائمة المراجع

المصادر الأولية باللغة العربية Primary sources - Arabic

Al-'Awra, Ibrahim, Tarikh Waliyat Suleiman Pasha al-'Adil, 1804-1819, pp. 205-206,
ابراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل 1804–1819
translated by the author and Jean-Luc Payan, 2010.
ترجمة المؤلف وجان-لوك بايان، 2010

Al-Ibrahim, 'Ali 'Aziz, Al-Alawiyyun wa al-Shi'a, Beirut: 1992.
علي عزيز الإبراهيم، العلويون والشيعة

Al-Qila'i, Ibn Jibrail, Zajaliyyat, Beirut: Dar Lahad Khatar, 1982.
ابن جبرائيل القلعي، زجليات

Haqqi, Ismail, Lubnan: Mabahith Ilmiya wa Ijtima'iya, ed. Fuad Bustani from the 1918 original, 2 vols. Beirut: Manshurat al-Jami'at al-Lubnaniyya, Qism al-Dirasat al-Tarikhiyya, 1970.
اسماعيل حقي، لبنان: مباحث علمية واجتماعية. تحرير فؤاد بستاني، من الأصل 1918 الجزء الثاني، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، 1970

المصادر الأولية باللغة الإنكليزية Primary sources - English

BP Statistical Review of World Energy, June 2011.

Decree of the High Commissioner of the French Republic,' *League of Nations Official Journal*, September 1930, No.3113, p. 1124.

IMF Country Report No. 07/288, August 2007.

IMF Country Report, No. 10/86, March, 2010.

King, Henry C. and Crane, Charles R., 'Wishes of the people,' *The King-Crane Commission Report* — Confidential Appendix— August 28, 1919. V. 55; No. 27, 2nd Section, December 2, 1922, I. II. 2.

League of Nations Official Journal, 93rd and 94th Sessions of the Council, Annex 1622, November 1936, p. 1354.

League of Nations Official Journal, 104th Session of the Council, Annex 1742, February 1939, p. 162.

'Letter from the French Government to the Secretary General of the League of Nations,' Paris, June 11th, 1930, *League of Nations Official Journal*, September 1930, Article 18, p. 1100.

'Observations of the Administration of Certain Territories under Mandate,' *League of Nations Official Journal*, 104th Session of the Council, Annex 1742, February 1939, A. pp. 161-162. 342

'The Mandate' July 24th 1922,' *League of Nations Official Journal*, 95th Session of the Council, Annex 1629 January 1937, Article 8, p. 47.

UNDP, 'The Impact of the World Economic Downturn on Syrian Economy, Inequality and Poverty,' November 3, 2009, available at: http://www.undp.org/content/dam/aplaws/publication/en/publications/poverty-reduction/poverty-website/psia/syria-full-report/The_Impact_of_the_World_Crisis_Revised_Version%20SYRIA.pdf

UNIIIC, 'Report of the International Independent Investigation Commission,' Detlev Mehlis, Beirut, October 19, 2005, document available at: http://www.un.org/news/dh/docs/mehlisreport.pdf (accessed July 28, 2009).

United Nations, Official U.N. transcript of the meeting of U.N. Secretary-General Ban Ki-moon with Bashar al-Asad. Damascus, 24 April 2007.

UN Security Council, S/RES/1559 (2004) 04-49892 (E), adopted, September 2, 2004,

UN Security Council, S/RES/1595 (2005), 05-29998(E), adopted April 7, 2005.

UN Security Council, S/RES/1686 (2006), 06-39006 (E), adopted June 15, 2006.

UN Security Council, S/RES/1701 (2006), 06-46503 (E), adopted August 11, 2006.

UN Security Council, S/RES/1757 (2007), 07-36357 (E), adopted, May 30, 2007.

(All UN Security Council Resolutions, available at: http://www.un.org/Docs/sc/)

US Embassy Cable, SECRET SECTION 01 of 02 DAMASCUS 000541, August 3, 2008, (Wiki leaks) available at, http://www.guardian.co.uk/world/us-embassy-cables-documents/164634 (accessed August 12, 2009).

US Energy Information Administration, 'Syria Analysis,' http://205.254.135.7/countries/cab.cfm?fips=SY

World Bank http://data.worldbank.org/country/syrian-arab-republic

Personal Interviews المقابلات الخاصة

Abd al-Halim Khaddam, September 16, 2009, Paris.

Judge Detlev Mehlis, May 12, 2009, Dunedin.

Professor Elie Salam, March 16, 2011, Balamand.

Shaykh 'Ali Yeral, March 28, 2011, Antakya (in Arabic).

Shaykh Muhammad Boz, March 28, 2011, Antakya (in Arabic). 343

Shaykh Nasir Eskiocak, March 29, 2011, Antakya (in Arabic).

الجرائد والمجلات ومواقع الأخبار على الانترنت
Newspapers, magazines and news websites

Agence France-Presse, daily, Paris.

Al-Hayat, daily, London.

Ash-Sharq al-Awsat, daily, London.

BBC News, UK, news website, http://www.bbc.co.uk/news/

Financial Times, daily, London.

Ha'aretz, daily, Tel Aviv.

Institute of War and Peace Reporting, UK, news website, http://iwpr.net/

Jerusalem Post, daily, Jerusalem.

Los Angeles Times, daily, Los Angeles

Naharnet, Beirut, news website, http://www.naharnet.com

New York Times, daily, New York.

Press TV, Tehran, news website, http://www.presstv.ir/

Syrian Arab News Agency, Damascus, news website, http://www.sana.sy/index_eng.html

Syria Today, monthly, Damascus.

The Daily Star, daily, Beirut.

The Economist, weekly, London.

The Times, daily, London.

Washington Post, daily, Washington DC.

Xinhua, China, news website, http://www.xinhuanet.com/english2010/ 344

Secondary Sources المصادر الثانوية

Abir, M. 'Modernisation, reaction and Muhammad Ali's Empire,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 13, No. 3 (Oct. 1977).

Abboud, Samer, 'The Transition Paradigm and the Case of Syria,' in Hinnebusch R. (ed.) *Syria's Economy and the Transition Paradigm*, University of St Andrews Centre for Syrian Studies, 2009.

Abdallah, Umar F. *The Islamic Struggle in Syria*, Berkeley: Mizan Press, 1983.

Abdulghanim, Jasim, *Iraq and Iran, the Crisis Years*, Sydney: Croom Helm, 1984.

Agoston G. and Masters, B. *Encyclopaedia of the Ottoman Empire*, New York: Infobase, 2009.

Ahmad, Z. *The Epistemology of Ibn Khaldun*, London: Routledge-Curzon, 2003.

Amitai, R. 'Ayn Jālūt revisited,' Tarih 2. Philadelphia, IX, *The Mongols in Islamic Lands*, Aldershot: Ashgate/Valorium, 2007.

Andrew, C. and Kanya-Forstner, A. S. *The Climax of French Imperial Expansion 1914-1924*, London: Thames & Hudson, 1981.

Al-Azmeh, A. *Ibn Khaldun in Modern Scholarship, A Study in Orientalism*, London: Third World Research Centre, 1981. *Ibn Khaldun: An Essay in Reinterpretation*, Budapest: Central European Press, 2003.

Al-Bitar, Salah al-Din, Interview with M. Aulas, translated by M. Hooglund, E. & Paul, J. 'The Major Deviation of the Ba'th Is Having Renounced Democracy,' *MERIP Reports*, No. 110, Syria's Troubles (Nov. - Dec., 1982).

Al-Tawīl, Muhammad Amīn Ghālib, *Ta'rīkh al-'Alawiyyīn*, Latakia: 1966.

Arslanian, Ferdinand, 'Growth in Transition and Syria's Economic Performance,' in Andrews Centre for Syrian Studies, 2009.

Ashworth, L.M. "Ibn Khaldun and the Origins of State Politics," in Persram, N. (ed.) *Postcolonialism and Political Theory*, Plymouth: Lexington Books, 2007.

Avi-Ran, Reuben, *The Syrian Involvement in Lebanon Since 1975*, Boulder: Westview Press, 1991. 345

Badran, Tony, 'Divided They Stand: The Syrian Opposition,' *Mideast Monitor*, Vol. 1, No. 3 (September-October, 2006).

Bar, Shmuel, 'Bashar's Syria: The Regime and its Strategic Worldview,' *Comparative Strategy*, Vol. 25 (2006), pp.353-445.

Bar-Asher, Meir M. 'The Iranian Component of the Nusayrī Religion,' *Iran*, Vol. 4 (2003), pp. 217-227.

Bar-Asher, Meir M. and Kofksy, Aryeh, *The Nusayri-'Alawī Religion: An Enquiry into its Theology and Liturgy*, Leiden: Brill, 2002.

Barbour, Nevill, 'Impressions of the United Arab Republic,' *International Affairs*, Vol. 36, No. 1 (Jan., 1960), pp. 21-34.

Batatu, Hanna, 'Some Observations on the Social Roots of Syria's Ruling, Military Group and the Causes for Its Dominance,' *Middle East Journal*, Vol. 35, No. 3 (Summer, 1981), pp. 331-344.

'Syria's Muslim Brethren,' *MERIP Reports*, No. 110, Syria's Troubles (Nov. - Dec. 1982), pp. 12-20+34+36.

Syria's Peasantry, the Descendants of its Lesser Rural Notables and Their Politics, New Jersey: Princeton University Press, 1999.

Be'eri, Eliezer, *Army Officers in Arab Politics and Society*, New York: Praeger Publishers, 1969.

Bengio, Ofra, & Ben-Dor, Gabriel, eds. *Minorities and the State in the Arab World*, Boulder: Lynne Riener, 1999.

Berkey, J.P. *The Formation Of Islam, Religion and Society in the Near East, 600-1800*, United Kingdom: Cambridge University Press, 2003.

Biddle, S. & Friedman, J.A. '*The 2006 Lebanon Campaign and The Future Of Warfare: Implications for Army and Defense Policy*, September 2008, Strategic Studies Institute.

Bou-Nacklie, N.E. 'Les Troupes Speciales: Religious and Ethnic Recruitment, 1916-46,' *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 25, No. 4 (1993), pp. 545-660.

'The 1941 Invasion of Syria and Lebanon: The Role of the Local Paramilitary,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 30, No. 3 (July 1994). 346

Bosworth, Clifford E. *Encyclopaedia of Islam*: Supplement, Vol. 12, Leiden: Brill, 1980.

Dadlder, Ivo H. & Stavridis, James G., 'NATO's Victory in Libya,' *Foreign Affairs* (March/April 2012), Vol. 91, Issue 2.

Cardinal, Monique, C. 'Religious education in Syria: unity and difference,' *British Journal of Religious Education* Vol. 31, No. 2, March 2009, 91-101.

Chalcroft, John, The *Invisible Cage, Syrian Migrant Workers in Lebanon*, Stanford: Stanford University Press, 2009.

Cohen, S.B. *Geopolitics: the Geography of International Relations*, 2nd edition, Lanham: Rowman & Littlefield Publishers, 2009.

Cox, K.R.; Low, M. & Robinson, J. (eds.) *The Sage Handbook of Political Geography*, London: Sage Publications, 2008.

Davis, Eric, 'Pensée 3: A Sectarian Middle East?' *International Journal of Middle East Studies,* vol.40, no.4 (November 2008), pp. 555-558,

De Planhol, Xavier, *The World of Islam*, New York: Cornell University Press, 1959. *Minorités En Islam, Géographie Politique et Sociale*, Paris: Flammarion, 2007.

Dib, Kamal, *Warlords and Merchants: The Lebanese Business and Political Establishment*, Reading: Ithaca, 2004.

Dhillon, Navtej & Yousef, Tarik, (eds.) *Generation in Waiting: The Unfulfilled Promise of Young People in the Middle East*, Washington: Brookings Institution, 2009.

Doğruel, Fulya & Leman, Johan, 'Conduct' and Counter-conduct on the Southern Border of Turkey: Multicultural Antakya,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 45, No. 4 (July 2009), pp. 593-610.

Dostal, Jörg, Michael, 'The European Union and Economic Reform in Syria,' in Hinnebusch, R. (ed.) *Syria and the Euro-Mediterranean Relationship*, University of St Andrews Centre for Syrian Studies, 2009.

Douwes, Dick, *The Ottomans in Syria, A History of Justice and Oppression*, London: I.B. Taurus, 2000.

Drysdale, Alasdair, 'The Asad Regime and Its Troubles,' *MERIP Reports*, No. 110, Syria's Troubles (Nov. - Dec., 1982), pp. 3-11+36. 347

'The Syrian Political Elite, 1966-76: A Spatial and Social Analysis,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 17, No. 1, (1981b), pp. 3-31.

Dueck, Jennifer, M. '*Educational Conquest: Schools as a Sphere of Politics in French Mandate Syria, 1936 - 1946*,' Oxford University Press, 2006.

Dussaud, Rene, *Histoire et Religion des Nosairies*, Paris: Bouillon, 1900.

Eid, Abdulrazak, 'The Syrian Regime: the Impossibility of Reformation,' paper presented at the Hudson Institute, Washington, March 26, 2009.

Eisner, Elliot W., *The Enlightened Eye, Qualitative Inquiry and the Enhancement of Educational Practice*, New Jersey: Prentice Hall, 1998.

Emadi, H. *Politics of the Dispossessed, Superpowers and Developments in the Middle East*, Westport: Praeger, 2001.

Faksh, Mahmud, A. 'The Alawi Community of Syria: A New Dominant Political Force,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 20, No. 2 (April 1984), pp. 133-153.

Fearon, James, Kasara, Kimuli. & Laitin, David, 'Ethnic Minority Rule and Civil War Onset,' *American Political Science Review*, Vol. 101, No. 1 (February 2007).

Firro, Kais, M. 'The 'Alawīs in Modern Syria: From Nusayrīya to Islam via 'Alawīya,' *Der Islam*, Vol. 82, no. 1 (2005), pp 1-31.

Fetcher, Rev. J.P., *Notes from Nineveh, and Travels in Mesopotamia, Assyria, and Syria,* Philadelphia: Lea & Blanchard, 1850.

Fox, J. "Is Islam More Conflict Prone than Other Religions? A Cross-Sectional Study of Ethnoreligious Conflict," *Nationalism & Ethnic Politics*, Vol. 6, No. 2 (summer 2000), pp. 1-24.

Frank, R.H. & Bernanke, B. S. (eds.) *Principles of Economics,* 3rd ed. New York: McGraw-Hill Irwin, 2007.

Friedman, Yaron, 'Ibn Taymiyya's Fatwa against the Nusayri-Alawi Sect,' *Der Islam,* Vol. 82, No. 2 (2005).

The Nusayrī -'Alawīs: An Introduction to the Religion, History and Identity of the Leading Minority in Syria, Leiden: Brill, 2010.

Freitag, Ulrike, 'Historical Correctness: The Ba'th Party in Syria,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 35, No. 1 (Jan. 1999), pp. 1-16. 348

Fromherz, Allen, *Ibn Khaldun, Life and Times*, Edinburgh University Press, 2010.

Gambill, Gary C., 'The Mysterious Downfall of Assef Shawkat,' *Mideast Monitor*, Vol.3, No.2 (August 2008).

Gauthier, Julie, 'The 2004 Events in al-Qamishli: Has the Kurdish question erupted in Syria,' in Fred Lawson (ed.) *Demystifying Syria*, London: Saqi, 2009.

George, Alan, *Syria, Neither Bread Nor Freedom*, London & New York: Zed Books, 2003.

Ghadban, Najib, Book Review, *Journal of Arab Affairs*, Vol. 10, No. 2 (Oct 31, 1991).

Ghadry, Farid, 'Syrian Reform: What Lies Beneath,' *Middle East Quarterly* (Winter, 2005), pp. 61-70.

Gellner, E. *Nations and Nationalism*, Oxford: Basil Blackwell, 1983.

Goodarzi, Jubin, M. *Syria and Iran, Diplomatic Alliance and Power Politics in the Middle East*, London & New York: Taurus, 2006.

Gotlieb, Y. *Self-Determination in the Middle East*, New York: Praeger, 1982.

Hall, J.A. & Trentmann, F. (eds.) *Civil Society: A Reader in History, Theory and Global Politics*, Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2005.

Halliday, F. *Nation and Religion in the Middle East*, Colorado: Lynne Rienner Publishers, 2000

Halm, Heinz, *The Arabs, A Short History*, Translated by Brown, A.,& Lampert, T., Princeton: Markus Wiener, 2007.

Harik, Iliya F. 'The Ethnic Revolution and Political Integration in the Middle East,' *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 3, No. 3 (July, 1972), pp. 303-323,

Harris, William, *The Levant, A Fractured Mosaic*, Princeton: Markus Wiener, 2003.

'Crisis in the Levant: Lebanon at Risk,' *Mediterranean Quarterly* Vol. 18, No. 2 (August 16, 2007), pp. 37-60.

Lebanon: A History, 600-2011, Chapter 5 in draft manuscript, New York: Oxford University Press (forthcoming in 2012).

Haugbolle, S. "Imprisonment, Truth Telling and Historical Memory in Syria," *Mediterranean Politics*, Vol. 13, No. 2 (July 2008), pp. 261-276. 349

Helfont, Samuel, 'The Muslim Brotherhood and the Emerging 'Shia Crescent' *Orbis*, Vol.53, Issue.2 (Spring 2009), pp. 284-299.

Hinnebusch, Raymond and Quilliam, Neil, 'Contrary Siblings: Syria, Jordan and the Iraq War', *Cambridge Review of International Affairs*, Vol. 19, No. 3 (September 2006), pp. 513-528.

Horowitz, Donald L., *Ethnic Groups in Conflict* Berkeley: University of California Press, 1985.

Hourani, Albert, 'Middle Eastern Studies Today,' *Bulletin (British Society for Middle Eastern Studies)* Vol. 11, No. 2 (1984), pp. 111-120.

Islam and the Philosophers of History,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 3, No. 3 (April, 1967), pp. 206-268.

The Emergence of the Modern Middle East, London: Macmillan, 1981.

Syria and Lebanon: A Political Essay, London: Oxford University Press, 1946.

Ilsley, Omar, 'Syria: Hama Massacre,' in Heribert, A. (ed.) *Hushed Voices, Unacknowledged Atrocities of the 20th Century*, Berkshire Academic Press, 2011.

Imber, Colin, *The Ottoman Empire 1300-1650: The Structure of Power*, Basingstoke: Palgrave MacMillan, 2002.

Irwin, Robert, 'Toynbee and Ibn Khaldun,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 33, No. 3 (July 1997), pp. 461-479.

Iskandar, Marwan, *Rafiq Hariri and the Fate of Lebanon*, London: Saqi, 2006.

Jabar, F. A. & Dawood, H. (eds.) *Tribes and Power, Nationalism and Ethnicity in the Middle East*, London: Saqi, 2003.

Jenkins, Philip, *The Lost History of Christianity*, New York: Harper Collins, 2008.

Jessup, Reverend Henry H., *Fifty Three Years in Syria*, London: Fleming H. Revell, 1910

Kaplan, Robert, 'The Revenge of Geography,' *Foreign Policy* (May/June 2009)

Kanovsky, Eliyahu, 'Will Arab-Israel Peace Bring Prosperity?' *The Middle East Quarterly*, Vol. 1, No. 2 (June 1994). 350

Kaylani, Nabil, M. 'The Rise of the Syrian Ba'th, 1940-1958: Political Success, Party Failure,' *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 3, Issue. 1 (January 1972), pp. 3-23.

Kedar, Mordechai, *Asad in Search of Legitimacy: Message and Rhetoric in the Syrian Press under Hafiz and Bashar*, United Kingdom: Sussex University Press, 2005.

Kerr, Malcolm, 'Hafiz Asad and the Changing Patterns of Syrian Politics,' *International Journal*, Vol. 28, No. 3 (Summer 1973), pp. 689-706.

Khaldun, Ibn. *The Muqaddimah, an Introduction to History*, trans. Rosenthal, F. abr., Dawood, N.J. London: Routledge & Kegan Paul, 1967.

Khandil, Hazem 'The Challenge of Restructuring: Syrian Foreign Policy,' in Korany B. & Dessoukip, A.E.H. (eds.) *The Foreign Policies of Arab States*, Cairo: AUC Press, 2009.

Al-Khazen, Farid, 'Kamal Jumblatt, the Uncrowned Druze Prince of the Left,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 24, No. 2 (Apr. 1988), pp. 178-205.

Khoury, Philip, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945*, London: I.B. Taurus Books, 1987.

Khuri, Fuad, *Imams and Emirs, State, Religion and Sects in Islam*, London: Saqi Books, 1990.

Lawson, Fred (ed.) *Demystifying Syria*, London: Saqi, 2009.

Lacoste, Yves, *Ibn Khaldun: The Birth of History and the Past of Third World*, London: Verso, 1984.

Lesch, David, *The New Lion of Damascus: Bashar al-Asad and Modern Syria*, New Haven: Yale University Press, 2005.

"Syrian Arab Republic," in Long, D.E., Reich, B. & Gasiorowski, M. (eds.) *The Government and Politics of the Middle East and North Africa*, 5th ed. Boulder: Westview Press, 2007, pp. 259-291.

Leverett, Flynt, *Inheriting Syria: Bashar's Trial by Fire*, Washington: Brookings Institute Press, 2005.

Lijphart, Arend, *Thinking about Democracy*, Oxon: Routledge, 2008.

Longrigg, Stephen H., *Syria and Lebanon under French Mandate*, London: Oxford University Press, 1958. 351

Lyde, Rev. Samuel, *The Asian Mystery Illustrated in the History, Religion, and Present State of The Ansaireeh or Nusairis of Syria*, London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1860.

Mahdi, Muhsin, *Ibn Khaldun's Philosophy of History*, London: Allen & Unwin, 1957.

Mahfouda, Robert F., Beck, James N., 'Petrographic/geochemical studies of primary and alteration-weathering minerals in garnetiferous ultramafic xenoliths-basanite, Tartous Province, NW Syria,' *Microchemical Journal*, Vol. 78 (2004), pp. 115-126.

Maoz, Moshe, *Syria and Israel, From War to Peace-making*, New York: Oxford University Press, 1995.

Pappe, Ilan (eds.) *Middle Eastern Politics and Ideas: A History from Within*, London: Taurus, 1997.

Mardem-Bey, S., *Syria's Quest for Independence 1939-1945*, Beirut: Ithaca, 1994.

Martin, Kevin, W. 'Peasants into Syrians,' *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 41, 2009.

Martines, Lauro, *April Blood: Florence and the Plot against the Medici*, London: Pimlico, 2004.

Masters, B. *Christians and Jews in the Ottoman Arab World, The Roots of Sectarianism*, Cambridge: Cambridge University Press, 2001.

Maundrell, Henry, *A Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697*, Beirut: Kyats, 1963.

Mclaurin, R. D. (ed.) *The Political Role of Minority Groups in The Middle East*, New York: Praeger, 1979.

Melander, Erik, 'The Geography of Fear: Regional Ethnic Diversity, the Security Dilemma and Ethnic War,' *European Journal of International Relations*, Vol. 15, No. 95 (2009).

Melki, James, A. 'Syria and State Department 1937-47,'*Middle Eastern Studies*, Vol. 33, No. 1 (Jan. 1997), pp. 92-106.

Messier, Ronald A., 'The worlds of Ibn Khaldun: introduction,' *The Journal of North African Studies*, Vol. 13, No. 3 (September 2009).

Michaud, G & Paul, J. 'The Importance of Bodyguards,' *MERIP Reports*, No. 110, Syria's Troubles (Nov. - Dec., 1982), pp. 29-3. 352

Migdal, Joel, S. (ed.) *Boundaries and Belonging: States and Societies in the Struggle to Shape Identities and Local Practices*, Cambridge University Press, 2004.

Moosa, Matti, *Extremist Shiites, The Ghulat Sects*, New York: Syracuse University Press, 1988.

Murphy, Rhoads, *Studies on Ottoman Society and Culture, 16th-18th Centuries*, Aldershot: Ashgate, 2007.

Nordbruch, Götz, *Nazism in Syria and Lebanon*, Oxon: Routledge, 2009.

Olsson Tord, 'The Gnosis of Mountaineers and Townspeople. The Religion of the Syrian Alawites, or the Nusairis.' In Olsson, T., Ozdalga E. & Raudvere, C. (eds.) *Alevi Identity: Cultural, Religious and Social Perspectives*, Papers read at a conference Held at the Swedish Institute in Istanbul, November, 1996, Swedish Research Institute in Istanbul Transactions, Vol. 8, 1998.

Pain, R. & Smith, S.J. (eds.) *Fear: Geopolitics and Everyday Life*, Hampshire: Ashgate Publishing, 2008.

Perlmutter, Amos, 'From Obscurity to Rule: The Syrian Army and the Ba'th Party,' *The Western Political Quarterly*, Vol.22, No.4, (Dec. 1969) pp.827-845.

Perthes, Volker, *The Political Economy of Syria under Asad*, London: I.B. Taurus, 1995.

Syria under Bashar al-Asad: Modernisation and the Limits of Change,' Adelphi Papers, Vol. 44, No. 366 (2004). (ed.) *Arab Elites: Negotiating the Politics of Change*, Boulder: Lynne Riener, 2004.

Philip, T. & Schumann, C. (eds.) *From the Syrian Land to the States of Syria and Lebanon*, Beirut: Orient -Institute, 2004.

Pipes, Daniel, 'The Alawi Capture of Power in Syria,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 25, No. 4 (Oct. 1989), pp. 429-450.

Greater Syria: The History of an Ambition, New York: Oxford University Press, 1990.

Porat, Liad, 'The Syrian Muslim Brotherhood and the Asad Regime,' *Middle East Brief*, No.47 (December 2010).

Posen, Barry, 'The Security Dilemma and Ethnic Conflict,' in Brown, M. ed., *Ethnic Conflict and International Security*, New Jersey: Princeton University Press. ,353

Prochazka-Eisl, G. and Prozchazka, S. *The Plain of Saints and Prophets, The Nusayri-Alawi Community of Cilicia (Southern Turkey) and its Sacred Places*, Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2010.

Quinlivan, James T. 'Coup-Proofing: Its Practice and Consequences in the Middle East,' *International Security*, Vol. 24, No. 2 (Autumn, 1999), pp. 131-165.

R. D. 'Une fatwa du Grand Mufti de Jérusalem sur les Alawîtes,' *Syria*, T. 22, Fasc. 3/4 (1941), p. 299.

Rabinovich, Itamar, *Syria Under the Ba'th, 1963-66: The Army-Party Symbiosis*, Israel Universities Press, 1972.

The View from Damascus, Edgware & Portland: Valentine Mitchell, 2008.

Rain, David, 'Damascus: A Geographical Field Note,' *Geographical Review;* January, Vol. 99, No.1 (2009).

Reed, Stanley F. III, 'Syria: Fin de Régime?' *Foreign Policy*, No. 39 (Summer, 1980), pp. 176-190.

Reeva, Simon, et.al. *The Jews of the Middle East and North Africa in Modern Times*, New York: Columbia University Press, 2003.

Rivlin, Paul, *Arab Economies in the Twenty-First Century*, Cambridge University Press, 2009.

Rubin, Barry, (ed.) *Conflict and Insurgency in the Contemporary Middle East*, New York: Routledge, 2009.

Russell, B. *History of Western Philosophy*, London: Unwin University Books, 1946.

Russell, J.C., 'Late Medieval Balkan and Asia Minor Population,' *Journal of the Economic and Social History of the Orient,* Vol. 3, No. 3 (1960).

Salisbury, Edward E., 'First Ripe Fruit, Disclosing the Mysteries of the Nusairian Religion,' *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 8 (1866), pp. 227-308.

Salamandra, Christa, 'Consuming Damascus: Public Culture and the Construction of Social Identity,' in Armbrust, W. (ed.) *Mass Mediations, New Approaches to Popular Culture in the Middle East and Beyond*, Berkeley: University of California Press, 2000, pp. 182-202.

Salame, Ghassan, 'Strong' and 'Weak' States, a Qualified Return to the Muqaddimah,' in Ghassan Salame (ed.) *The Foundations of the Arab State*, Vol. 1, New York; Croom Helm, 1987. 354

Salih, Shakeeb, 'The British-Druze Connection and the Druze Rising of 1896 in the Hawran,' *Middle East Studies*, Vol. 13, No. 2 (May 1977), pp. 251-257.

Salzman, Philip, C. *Culture and Conflict in the Middle East*, New York: Humanity Books, 2008.

Satloff, Robert, *'U.S.-Syria Relations and the Peace Process*,' Prepared remarks for delivery at debate with Syrian ambassador Imad Mustapha, American University, November 11, 2009, Washington Institute for Near East Policy.

Seale, Patrick, *Asad of Syria*: *The Struggle for the Middle East*, London: IB Taurus, 1988.

Selvik, Kjetil, 'It's the Mentality Stupid: Syria's Turn to the Private Sector,' in Hinnebusch, R. (ed.) *Changing Regime Discourse and Reform in Syria*, University of St Andrews Centre for Syrian Studies, 2009.

Seymour, Martin, 'The Dynamics of Power in Syria since the Break with Egypt,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 6, No. 1 (Jan. 1970), pp. 35-47.

Shambrook, Peter, *French Imperialism in Syria, 1927-1936*, Reading: Ithaca, 1998.

Sharp, Jeremy, M. '*Syria: Background and U.S. Relations*,' Congressional Research Service, March 11, 2009.

Shaw, S. & Shaw E. *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, Vol. II, Cambridge University Press, 1977.

Sheehan, Edward R.F. 'How Kissinger Did It: Step by Step in the Middle East,' *Foreign Policy*, No. 22 (Spring, 1976), pp. 3-70.

Simpfendorfer, Ben, *The New Silk Road*, 2nd ed. Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2011.

Sindawi, Khalid, 'The Shiite Turn in Syria,' *Current Trends in Islamist Ideology*, Vol.8 (June 23, 2009).

Slater, David, 'Editorial,' *Political Geography*, Vol. 23 (2004), pp. 645-646.

Schmidt, Søren, 'The Developmental Role of the State in the Middle East: Lessons from Syria,' in Hinnebusch, R. (ed.),*The State and the Political Economy of Reform in Syria*, University of St Andrews Centre for Syrian Studies, 2009.

'The Politics of Economic Liberalization in Syria,' *International Development Studies*, Occasional paper, No. 25 (2006). 355

Shaw, S. J. & Shaw, E.K., *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, London: Cambridge University Press, 1977.

Smith-Williams, H. (ed.) *Historians History of the World*, 25 vols. London: The Times, 1909.

Smith, L.V. "Wilsonian Sovereignty in the Middle East: The King-Crane Commission Report of 1919," in Howland, D. & White, L. *The State of Sovereignty*, Bloomington: Indiana University Press, 2009.

Sottimano, Aurora, 'Ideology and Discourse in the Era of Ba'thist Reforms: Towards an Analysis of Authoritarian Governmentality,' in Hinnebusch, R. (ed.) *Changing Regime Discourse and Reform in Syria*, University of St Andrews Centre for Syrian Studies, 2009.

Staniland, Paul, 'Explaining Civil-Military Relations in Complex Political Environments: India and Pakistan in Comparative Perspective,' *Security Studies*, Vol. 17 (2008), pp. 322-362.

Stewart, Devin, J. 'The *Maqāmāt* of Ahmad b. Abī Bakr b. Ahmad al-Rāzī al-Hanafī and the Ideology of the Counter-Crusade in Twelfth-century Syria,' *Middle Eastern Literatures*, Vol. 11, No. 2 (August 2008).

Talhamy, Yvette, 'The Nusayri Leader Isma'il Khayr Bey and the Ottomans (1854-58),' *Middle Eastern Studies*, Vol. 44, No. 6 (November 2008), pp. 895-908.

'The Syrian Muslim Brothers and the Syrian-Iranian Relationship,' *Middle East Journal*, Vol. 63, No. 4 (Autumn 2009).

'American Protestant Missionary Activity among the Nusayris (Alawis) in Syria in the Nineteenth Century,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 47, No. 2 (2011), pp. 215-236.

Tang, Shiping, 'The security dilemma and ethnic conflict: toward a dynamic and integrative theory of ethnic conflict,' *Review of International Studies*, Vol. 37 (2011).

Tejel, Jordi, *Syria's Kurds: History Politics and Society*, Oxon: Routledge, 2009.

Telhami, S. and Barnett, M. (eds.) *Identity and Foreign Policy in The Middle East*, London: Cornell University Press, 2002.

Thomas, David R., 'A General Inductive Approach for Analyzing Qualitative Evaluation Data,' *American Journal of Evaluation*, Vol. 27, No.1 (March 2006). 356

Thomas, Martin 'Crisis management in colonial states: Intelligence and counter-insurgency in Morocco and Syria after the First World War,' *Intelligence and National Security*, Vol. 21, No. 5 (2006), pp. 697-716.

Empires of Intelligence: Security Services and Colonial Disorder after 1914,

Berkeley: University of California Press, 2008.

Torrey, Gordon, H. 'The Ba'th: Ideology and Practice,' *Middle East Journal*, Vol. 23, No. 4 (Autumn, 1969), pp. 445-470.

Trentin, Massimiliano, 'Modernization as State Building: The Two Germanies in Syria, 1963-1972,' *Diplomatic History*, Vol. 33, No. 3 (June 2009).

Tsugitaka, Sato, *State & Rural Society in Medieval Islam*, Leiden: Brill, 1997.

U.S. State Department - Bureau of Democracy, Human Rights, and Labor, *International Religious Freedom Report 2009* (October 26, 2009).

Van Dam, Nikolaos, *The Struggle for Power in Syria*, New York: St Martin's Press, 1979.

The Struggle for Power in Syria: Politics and Society under Asad and the Ba'th Party, 4th ed., New York: I.B. Taurus, 2011.

The Struggle for Power in Syria, 2nd ed. London: I.B Taurus, 1996.

Van Dusen, Michael, H., 'Political Integration and Regionalism in Syria,' *Middle East Journal*, Vol. 26, No. 2, (Spring 1972), pp.123-136.

Waines, David, 'The Third Century Internal Crisis of the Abbasids, *Journal of the Economic and Social History of the Orient,* Vol. 20, No. 3 (October 1977), pp. 282-306.

Walpole, Lieutenant F. *The Ansayrii (or Assassins) with Travels in the Further East in 1850-51*, London: Richard Bentley, 1851.

Watenpaugh, Keith, *Being Modern in the Middle East: Revolution, Nationalism, Colonialism and the Arab Middle Class*, New Jersey: Princeton University Press, 2006.

'Creating Phantoms:' Zaki al-Arzuzi, the Alexandretta Crisis, and the Formation of Modern Arab Nationalism in Syria,' *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 28 (1996). 357

Weulersse, Jacque, *Le pays des Alaouites*, (Tours: Arrault & Cie, Maitres imprimeurs, 1940), Thesis, University of Paris.

Wiederhold, Lutz, 'Blasphemy against the Prophet Muhammad and His Companions (Sabb al-Rasūl, Sabb al-Sahābah): The Introduction of the topic into Shāfi 'ī Legal Literature and its Relevance for Legal Practice under Mamluk Rule*,' *Journal of Semitic Studies* XLII/1 (spring 1997).

Wieland, C. *Syria at Bay, Secularism, Islamism, and Pax Americana,* London: C. Hurst & Co., 2006.

Winter, Stefan, *The Shiites of Lebanon under Ottoman Rule*, 1516-1788, Cambridge University Press, 2010.

'The Nusayris before the Tanzimat in the eyes of Ottoman Provincial Administrators 1804 - 1834,' in T. Philip, & C. Schumann (eds.) *From the Syrian Land to the States of Syria and Lebanon*, Beirut: Orient -Institute, 2004.

Wedeen, Lisa, *Ambiguities of Domination: Politics, Rhetoric and Symbols in Contemporary Syria*, Chicago University Press, 1999.

Weinberger, Naomi, *Syrian Intervention in Lebanon*, New York: Oxford University Press, 1986.

Weismann, Itzchak, 'Sa'id Hawwa: The Making of a Radical Muslim Thinker in Modern Syria,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 29, No. 4 (Oct. 1993), pp. 601-623.

Wimmer, A; Cederman, L.E; Min, B, 'Ethnic Politics and Armed Conflict: A Configurational Analysis of a New Global Data Set,' *American Sociological Review*, Vol. 74 (April 2009), pp. 316-337.

Winckler, Onn, *Demographic Developments and Population Policies in Ba'thist Syria*, Brighton & Portland: Sussex Academic Press, 1999.

Arab Political Demography: Population Growth, Labor Migration and Natalist Policies, 2nd ed., Eastbourne: Sussex Academic Press, 2009.

Worren, Torstein Schiøtz, 'Fear and Resistance: The Construction of Alawi Identity in Syria,' Master Thesis, Department of Sociology and Human Geography, University of Oslo, February 2007.

Yaffe-Schatzmann, Gitta, 'Alawi Separatists and Unionists: The Events of 25 February 1936,' *Middle Eastern Studies*, Vol. 31, No. 1 (Jan. 1995), pp. 28-38. 358

Yaffe, Gitta & Dann, Uriel, 'Suleiman al-Murshid: Beginnings of an Alawi Leader,' *C Eastern Studies*, Vol. 29, No. 4 (Oct. 1993), pp. 624-640.

Ziadeh, Radwan, *Power and Policy in Syria: The Intelligence Services, Foreign Relations and Democracy in the Modern Middle East*, London: I.B. Taurus, 2011.

Zisser, Eyal, *Asad's Legacy: Syria in Transition*, London: C. Hurst & Co., 2001.

'The Syrian Army: Between the Domestic and the External Fronts,' *MERIA Journal*, Vol. 5, No. 1 (March 2001).

'Who's afraid of Syrian nationalism?: National and state identity in Syria', *Middle Eastern Studies*, Vol. 42, No. 2 (March 2006), pp. 179-198.

Zorob, Anja, 'Trade Liberalization and Adjustment via Regional Integration: The Syrian-European Association Agreement,' in Hinnebusch, R. (ed.) *Syria and the Euro-Mediterranean Relationship*, University of St Andrews Centre for Syrian Studies, 2009.